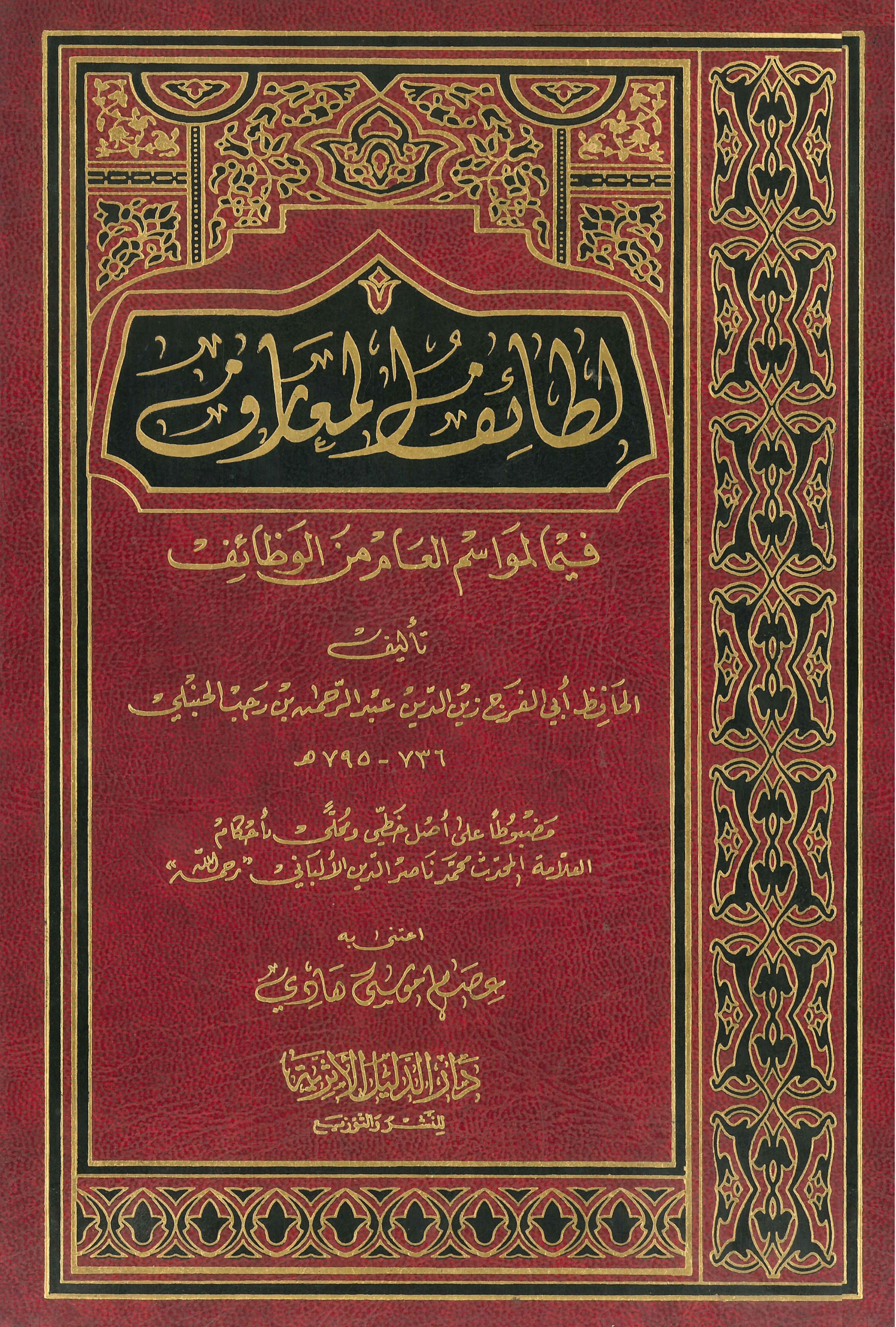

لطائف المعارف
فيما لمواسم العام من الوظائف
تأليف
الحافظ أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي
٧٣٦ - ٧٩٥ هـ
مضبوطاً على أصل خطي ومحلّى بأحكام
العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني "رحمه الله"
اعتنى به
عصام موسى هادي
دار الدليل الأثرية
للنشر والتوزيع


لطائف المعارف
فيما لمواسم العام من الوظائف

الطبعة الثانية

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م




المملكة العربية السعودية - الجبيل - ص ب : ١٠٢٣٩ - هاتف : ٣٦١٠٠٦٠ - فاكس : ٣٤٦٥٨٩٢




## فيما لمواسم العام من الوظائف

تأليف

الحافظ أبي الفرج زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

٧٣٦ - ٧٩٥ هـ

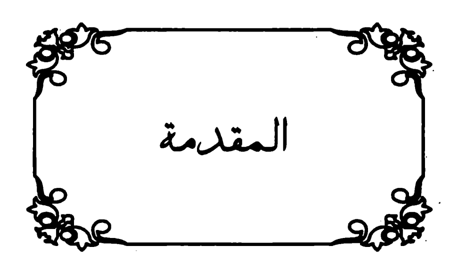
مضبوطاً على أصل خطي ومحلًّى بأحكام
العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني "رحمه الله"

اعتنى به

عصام موسى هادي

دار الدليل الأثرية
للنشر والتوزيع





# المقدمة

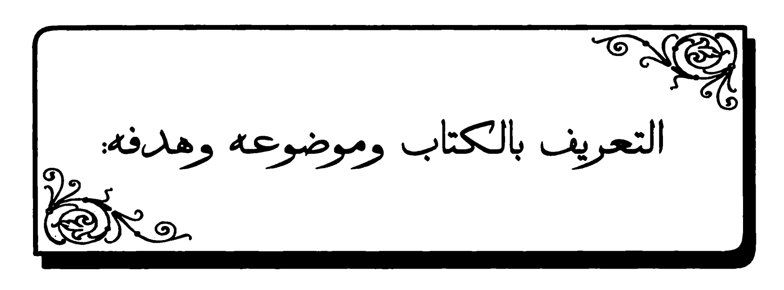
الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد؛ وعلى آله وأصحابه أجمعين، **وبعد**:

فقد رغب إليَّ الأخ الفاضل الحريص على العلم ونشره عبدالله بن ناصر الدوسري ـ وفقه الله لكل خير ـ أن أحقق كتاب «**اللطائف**» للحافظ ابن رجب، وتحلية الكتاب وتوشيحه بأحكام محدث هذا الزمان وشامة بلاد الشام شيخنا العلامة محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ، فاستجبت لذلك لعلمي بحاجة القراء الماسة لبيان درجة أحاديث الكتاب، كيف لا؟ وهو قبلة الواعظين والمذكرين في هذا الزمان، وما قبله من أزمان؛ لما حواه من مواعظ نافعة، وفوائد ماتعة، رحم الله مؤلفه وأجزل مثوبته.

ولما عزمت على ذلك أخذت أبحث عن نسخة خطية للكتاب؛ فوقفت بتوفيق الله وحده على نسخة في غاية الإتقان، نسخة لإمام عالم وهو المرداوي ـ رحمه الله ـ صاحب الإنصاف، وقوبلت على نسختين صحيحتين؛ فزادها ذلك حسناً إلى حسنها.

والله أسأل أن ينفع به طلبة العلم، وأن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم.





## التعريف بالكتاب وموضوعه وهدفه:

أما الكتاب فاسمه: «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» كما هو مثبت على غلاف المخطوطة، وكما هو ثابت في مقدمة المؤلف نفسه ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ حيث قال: «وسميته لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف».

وقد نسبه إليه جمع من العلماء وخصوصاً مترجموه، بل قال الحافظ ابن حجر كما في الدرر (٢/١٩٥): «واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد».

وأما موضوعه: فقد بين المؤلف موضوع كتابه فقال في مقدمة كتابه: «وقد استخرت الله تعالى في أن أجمع في هذا الكتاب وظائف شهور العام وما يختص بالشهور ومواسمها من الطاعات؛ كالصلاة والصيام والذكر والشكر وبذل الطعام وإفشاء السلام، وغير ذلك من خصال البررة الكرام؛ ليكون ذلك عوناً لنفسي ولإخواني على التزود للمعاد، والتأهب للموت قبل قدومه والاستعداد».

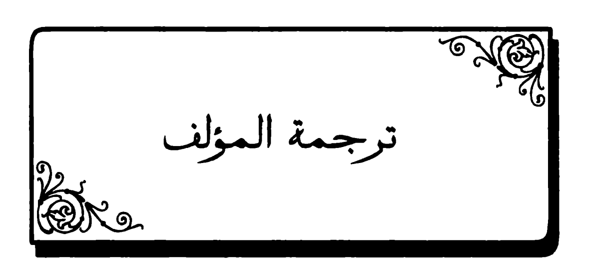
وأما هدفه: فقد أعرب عنه المؤلف نفسه أيضاً فقال ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ كما في مقدمة الكتاب: «ويكون أيضاً صالحاً لمن يريد الانتصاب للمواعظ من المذكِّرين؛ فإن من أفضل الأعمال عند الله لمن أراد به وجه الله إيقاظ الراقدين وتنبيه الغافلين، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الذاريات: ٥٥]».

فإذا عرفت ـ أخي القارئ ـ موضوع الكتاب وهدفه بان لك وجه

تساهل المؤلف ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في ذكره بعض الأحاديث الضعيفة[1] والآثار التي لا تثبت عن أصحابها، وبان لك أيضاً تصرفه في بعض الأشعار المعروفة (بالتضمين) بما يناسب المقصود، ولربما أورد شعراً نبطياً، أو شعراً فيه عامية لا تخفى، أو عدم مراعاة لوزن؛ وسبب ذلك واضح وهو الوعظ والتذكير وهو المقصود من الكتاب.



(١) مع أنه ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ غالباً يبين ضعفها ويشير إلى عللها إلا نادراً.



# ترجمة المؤلف

هو الحافظ الإمام أبو الفرج عبدالرحمٰن بن أحمد بن عبدالرحمٰن الدمشقي المعروف بابن رجب[(١)] الحنبلي.

ولد في بغداد سنة (٧٣٦هـ) في بيت علم؛ فأبوه وجده من العلماء.

اعتنى به والده مبكراً في طلب العلم؛ فأحضره على شيوخ الوقت، وأحضره مجالس الإملاء، فانتفع بذلك غاية الانتفاع.

ثم رحل إلى عدد من الأمصار للأخذ عن أئمتها الأعلام؛ فرحل إلى دمشق وبيت المقدس ومكة ومصر وغيرها، فحصّل من تلك الرحلات فوائد جمة، كان لها الأثر الأبْعَدُ في صقل شخصيته وعلو منزلته في العلم ـ رحمه الله ـ.

ثم ألقى ـ رحمه الله ـ عصا الترحال في دمشق الشام، فأقبل على علمائها، وخاصة حافظها وإمامها الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ تلميذ شيخ الإسلام، فقرأ عليه ولازم درسه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ، وبعد وفاة ابن القيم بقي المؤلف في دمشق يعلم ويعظ حتى فاق الأقران وذاع صيته في الوعظ وأقبل الناس عليه، فقد وصف الأئمة والمؤرخون مجالس وعظه فقالوا: «وكانت مجالس تذكيره للقلوب صارعة، وللناس عامة مباركة نافعة، اجتمعت الفرق عليه، ومالت القلوب بالمحبة إليه»[(٢)].

---

(١) ورجب لقب لجده كما قاله ابن العماد.

(٢) شذرات الذهب (٣٣٩/٦).

## ثناء العلماء عليه:

قال عنه الحافظ ابن حجر: «أخذ عن مشاهير عصره واستفاد منهم ودرس الحديث والفقه حتى برع وقد مهر في فنون الحديث: أسماءً ورجالًا وعللًا وطرقاً وإطلاعاً على معانيه».

وعبارة صاحب الشذرات: «قال ابن حجر: أتقن الفن ـ أي: فن الحديث ـ وصار أعرف أهل عصره بالعلل وتتبع الطرق».

وقد وصفه ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ جمعٌ من مترجميه بالإمام الحافظ المقرئ المحدث الفقيه الحجة الزاهد إلى غير ذلك من أوصاف.

وكان ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يميل إلى العزلة ومنعزلًا عن أبواب السلاطين والأمراء قال ابن العماد في شذرات الذهب (٦/٣٣٩): «وكان لا يعرف شيئاً من أمور الناس ولا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات».

## شيوخه:

أخذ عن جمع من العلماء الأجلاء منهم:

ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام، وإسماعيل بن إبراهيم الخباز، وإبراهيم بن داود العطار، والميدومي، والقلانسي، وغيرهم ـ رحمهم الله ـ.

## مؤلفاته:

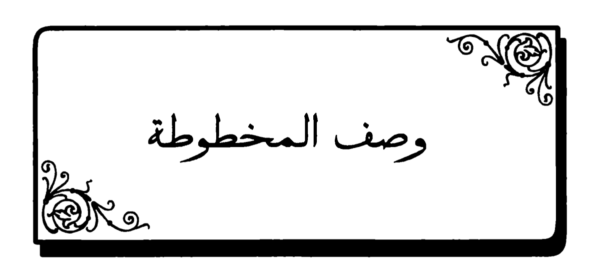
ترك الحافظ ابن رجب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مؤلفات مفيدة في سائر الفنون حديثاً وفقهاً ونحو ذلك من فنون العلم، منها المطبوع، وما زال بعض منها مخطوطاً؛ فمن مؤلفاته النافعة: شرحه لصحيح البخاري المسمى فتح الباري، وصل فيه إلى كتاب الجنائز، ولو أتمه لكان في غاية العجب، ومن كتبه أيضاً القواعد الفقهية، وأحوال القبور، والتخويف من النار، وشرح الترمذي، والذيل على طبقات الحنابلة، وغير ذلك.

## وفاته:

توفي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ سنة (٧٩٥هـ) في رابع شهر رمضان بأرض الخميرية

ببستان كان استأجره، ودفن بالباب الصغير، وقد ذكر الحافظ ابن ناصر الدمشقي في موته قصة ذكرها مترجموه قال ابن ناصر الدين: ولقد حدثني من حفر لحد ابن رجب أن الشيخ زين الدين ابن رجب جاءه قبل أن يموت بأيام فقال لي: احفر لي هاهنا لحداً وأشار إلى البقعة التي دفن فيها، قال: فحفرت له، فلما فرغت نزل في القبر واضطجع فيه فأعجبه وقال: هذا جيد ثم خرج، قال: فوالله ما شعرت بعد أيام إلا وقد أوتي به ميتاً محمولًا في نعشه فوضعته في ذلك اللحد.






اعتمدت في تحقيق الكتاب على نسخة خطية أصلها من دمشق، وهي مصورة من مكتبة الجامعة الأردنية في عمان.

قام بنسخها إلياس بن خضر بن محمد سنة (٨٥٠هـ) لمالكها الإمام علاء الدين علي بن سليمان المرداوي في مدرسة أبي عمر في دمشق، وقد بلغت عدد صفحاتها (٢٧٩) صفحة.

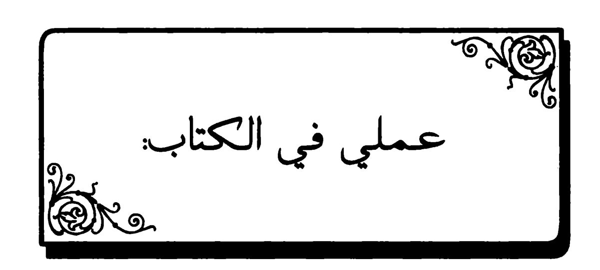
ثم قوبلت على نسختين صحيحتين بمكة المكرمة في دار عم النبي ﷺ العباس، وفرغ من مقابلتها سنة (٨٥٧هـ) وقد أثبت ناسخها ـ رحمه الله ـ فوارق النسخ، وذلك في الأصل، بوضع حرف (خ) فوق فوارق النسخ، وفي الهامش أيضاً، وقد أشرت لكل ذلك.

كما أنه ـ رحمه الله ـ اعتنى بضبط كثير من الكلمات، ووضع فوائد في هامش النسخة، ووضع عند كل باب من أبواب الكتاب: «بلغ مقابلة صحيحة» و: «بلغ مقابلة حسنة صحيحة» ونحو ذلك من عبارات تدل على إتقان النسخة.

وفي الجملة: فالمخطوطة حسنة الخط جداً، واضحة في غاية الجودة والإتقان قليلة الخطأ.

وقد تداولها جماعة من العلماء ظهرت أسماؤهم على غلاف النسخة.





## عملي في الكتاب:

قمت بمقابلة الكتاب على هذه النسخة الخطية وأثبتُّ فوارق النسخ التي أشار إليها الناسخ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، ثم قمت بعزو الأحاديث إلى مظانها مبيناً رقم الحديث في تلك المصادر إلا ما كان منها غير مرقم فعزوت إلى الجزء والصفحة، ثم قمت بتنزيل أحكام شيخنا الألباني ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ على تلك الأحاديث مع بيان المصدر الذي حكم فيه شيخنا على الحديث مع الاعتناء ببيان آخر أحكام شيخنا ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ.

**وكتبه عصام موسى هادي**
**عمان الأردن**
**١٥/من شوال/١٤٢٥هـ**



# مقدمة المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

**وبه ثقتي**

الحمدُ لله الملك القهَّار، العزيز الجبار، الرحيم الغفار، مُقَلِّب القلوب والأبصار، مقدِّر الأمور كما يشاء ويختار، مكوّر النهار على الليل، ومكور الليل على النهار، أسبلَ ذيل الليل فأظلمَ للسكون والاستتار، وأنار منار النهار، فأضاء للحركة والانتشار، وجعلهما مواقيت للأعمال ومقادير للأعمار، وسخَّر الشمس والقمر يجريان بحسبانٍ ومقدار، ويتعقبان في دارة الفلك الدوار على تعاقب الأدوار، وجعلهما معالم يُعْلَمُ بهما أوقات الليالي والأيام، والشهور والأعوام؛ في هذه الدار، ويُهتدى بهما إلى ميقات الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام والإفطار، حجةً قائمة قاطعة للأعذار، وحكمة بالغة من حكيمٍ عليمٍ ذي اقتدار.

أحمده وحلاوة محامده تزداد مع التكرار، وأشكره وفضله على مَنْ شكره مدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ شهادةً تبرئ قائلها من الشرك بصحة الإقرار، وتبوئ قائلها دار القرار، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله؛ البدر جبينه إذا سُرَّ استنار، واليمُّ يمينه فإذا سئل أعطى من لا يخشى الافتقار، والحَنِيفية دينه الدين القيّم المختار، رفع الله ببعثته عن أمته الأغلال والآصار، وكشف بدعوته أذى البصائر وقذى الأبصار، وفرَّق

بشريعته بين المتقين والفجار، حتى امتاز أهلُ اليمين من أهل اليسار، وانفتحت أقفال القلوب فانشرحت بالعلم والوقار، وزال عن الأسماع أثقال الأوقار، صلى الله عليه وعلى آله أولي الإقدام والأقدار، وعلى أصحابه أقطاب الأقطار؛ صلاةً تبلغهم في تلك الأوطان نهاية الأوطار، وسلم تسليماً.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] فأخبر سبحانه وتعالى أنه علّق معرفة السنين والحساب على تقدير القمر منازل، وقيل: بل على جعل الشمس ضياء والقمر نوراً؛ لأن حساب السنة والشهر يعرف بالقمر، واليوم والأسبوع يعرف بالشمس، وبهما يتم الحساب.

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] لما كان الشهر الهلالي لا يحتاج إلى عدٍّ لِتوفِيَتِهِ بما بين الهلالين لم يقل: لتعلموا عدد الشهور؛ فإن الشهر لا يحتاج إلى عدد[1] إلا إذا غُمَّ آخره فيكمل عدده بالاتفاق إلا في شهر شعبان إذا غم آخره بالنسبة إلى صوم رمضان خاصة فإن فيه اختلافاً مشهوراً. وأما السَّنة فلا بدَّ من عددها إذ ليس لها حدٌّ ظاهرٌ في السماء فيحتاج إلى عددها بالشهور؛ ولا سيما مع تطاول السنين وتعددها.

وجعل الله تعالى السنة اثني[2] عشر شهراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦] وذلك بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها السنة الشمسية، فإذا دار القمر فيها كلها كملت دورته السنوية؛ وإنما جعل الله الاعتبار بدور القمر؛ لأن ظهوره في السماء لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب بل هو أمر ظاهر يشاهد بالبصر،

---

(١) وفي نسخة: «عده» كما في هامش الأصل.

(٢) في الأصل: «اثنا عشر».

بخلاف سير الشمس؛ فإنه يحتاج معرفته إلى حساب وكتاب، فلم يحوجنا إلى ذلك، كما قال النبي ﷺ: «إنا أمة أُمّية لا نكتب ولا نحسب؛ الشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ وأشار بأصابعه العشر وخنس إبهامه في الثالثة ـ صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم؛ فأكملوا العدة»[١].

وإنما علّق الله تعالى على الشمس أحكام اليوم من الصلاة والصيام حيث كان ذلك أيضاً مشاهداً بالبصر لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب؛ فالصلاة تتعلق بطلوع الفجر، وطلوع الشمس، وزوالها، وغروبها، ومصير ظل الشيء مثله، وغروب الشفق، والصيام يتوقت بمدة النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحِسَابَۚ﴾ [يُونس: ٥] يعني بالحساب: حساب ما يحتاج إليه الناسُ من مصالح دينهم ودنياهم؛ كصيامهم وفطرهم، وحجهم، وزكاتهم، ونذورهم، وكفاراتهم، وَعِدَدِ نسائهم، ومُدد إيلائهم، ومدد إجاراتهم، وحلول آجال ديونهم، وغير ذلك مما يتوقت بالشهور والسنين. وقد قال الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البَقَرَة: ١٨٩] فأخبر أن الأهلة مواقيت للناس عموماً، وخُصَّ الحجُ من بين ما تُوقت للاهتمام به، وجعل سبحانه في كل يوم وليلة لعباده المؤمنين وظائف موظفة عليهم من وظائف طاعته؛ فمنها ما هو مفترض كالصلوات الخمس، ومنها ما يُندبون إليه من غير افتراض كالنوافل الصلاة، والذكر، وغير ذلك.

وجعل في شهور الأهلة وظائف موظفة أيضاً على عباده كالصيام والزكاة والحج، ومنه فرضٌ مفروضٌ عليهم كصيام رمضان وحجة الإسلام، ومنه ما هو مندوب كصيام شعبان وشوال والأشهر الحرم.

وجعل سبحانه لبعض الشهور فضلًا على بعض كما قال تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [التوبَة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧] وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ

---

(١) رواه البخاري مختصراً (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠) واللفظ له.

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] كما جعل الأيام والليالي بعضها أفضل من بعض. وجعل ليلة القدر خيراً من ألف شهر، وأقسم بالعشر وهو عشر ذي الحجة على الصحيح كما سنذكره في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا ولله تعالى فيه وظيفة من وظائف طاعاته يتقرب بها إليه فيها، ولله فيه لطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بها من يعود بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات؛ فيسعد بها سعادةً يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات.

وقد خرج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة ربكم؛ فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[١] وفي رواية للطبراني من حديث محمد بن مسلمة مرفوعاً: «إنَّ لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبداً»[٢] وفي مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا يختم عليه»[٣] وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن مجاهد قال: ما من يوم إلا يقول: ابنَ آدم! قد دَخَلْتُ عليك اليومَ ولن أرجع إليك بعد اليوم، فانظر ماذا تعمل فيَّ، فإذا انقضى طواه، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يفض ذلك الخاتم يوم القيامة، ويقول اليوم حين ينقضي: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها، ولا ليلة تدخل على الناس إلا قالت كذلك. وبإسناده عن

---

(١) حسن. ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٢٧) والطبراني في الكبير برقم (٧٢٠) من حديث أنس. قلت: أعله شيخنا في الضعيفة برقم (٢٧٩٨) ثم حسنه في الصحيحة (١٨٩٠) لشواهد له من حديث محمد بن مسلمة وأبي هريرة.

(٢) ضعيف. الطبراني في الأوسط (١٨٠/٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (١٩١٧).

(٣) صحيح. أحمد (١٦٨٦٥) وقال شيخنا في الصحيحة (٢١٩٣): «وهذا إسناد جيد».

مالك بن دينار قال: كان عيسى عليه السلام يقول: إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما. وكان يقول: اعملوا الليل لما خلق له، واعملوا النهار لما خلق له. وعن الحسن قال: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم يقول: يا أيها الناس! إني يومٌ جديد، وإني على ما يُعمل فيَّ شهيد، وإني لو قد غربت شمسي لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة. وعنه أنه كان يقول: يا ابن آدم! اليومُ ضيفك؛ والضيف مرتحل يحمدك أو يذمك، وكذلك الليل. وبإسناده عن بكر المزني أنه قال: ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا ينادي: ابنَ آدم! اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلة إلا تنادي: ابنَ آدم! اغتنمني لعله لا ليلة لك بعدي. وعن عمر بن ذر أنه كان يقول: اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده؛ فإن المغبون من غبن خير الليل والنهار، والمحروم من حرم خيرهما. إنما جعلا سبيلًا للمؤمنين إلى طاعة ربهم، ووبالًا على الآخرين للغفلة عن أنفسهم، فأحيوا لله أنفسكم بذكره؛ فإنما تحيا القلوب بذكر الله عز وجل.

كم من قائم لله في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومه عندما يرى من كرامة الله للعابدين غداً، فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام رحمكم الله. وعن داود الطائي أنه قال: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تُقَدِّمَ في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل؛ فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك فتزود لسفرك واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك.

قال ابن أبي الدنيا: وأنشدنا محمود بن الحسين:

| | |
|---|---|
| مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً | وأعقبه يوم عليك جديد |
| فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة | فثن بإحسان وأنت حميد |
| فيومك إن أعْتبته عاد نفعه | عليك وماضي الأمس ليس يعود |
| فلا ترجِ فعل الخير يوماً إلى غدٍ | لعل غداً يأتي وأنت فقيد |

وفي تفسير عبد بن حميد وغيره من التفاسير المسندة عن الحسن في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢] قال: من عجز بالليل كان له في أول النهار مستعتب، ومن عجز عن النهار كان له من الليل مستعتب. وعن قتادة: إن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار وينسى بالنهار ويذكر بالليل. قال: وجاء رجلٌ إلى سلمان الفارسي فقال: إني لا أستطيع قيام الليل، فقال له: فلا تعجز بالنهار. قال قتادة: فأدوا إلى الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود، إلى يوم القيامة.

وقد استخرت الله تعالى في أن أجمع في هذا الكتاب وظائف شهور العام وما يختص بالشهور ومواسمها من الطاعات؛ كالصلاة والصيام والذكر والشكر وبذل الطعام وإفشاء السلام، وغير ذلك من خصال البررة الكرام؛ ليكون ذلك عوناً لنفسي ولإخواني على التزود للمعاد، والتأهب للموت قبل قدومه والاستعداد. وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد. ويكون أيضاً صالحاً لمن يريد الانتصاب للمواعظ من المذكِّرين؛ فإن من أفضل الأعمال عند الله لمن أراد به وجه الله إيقاظ الراقدين وتنبيه الغافلين، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥].

ووعد من أمر بصدقة أو معروف يبتغي به وجهه أجراً عظيماً، وأخبر نَبيُّهُ ﷺ: أن من دعا إلى هدى فله مثل أجر من تبعه وكفى بذلك فضلاً عميماً.

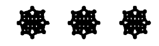
وقد جعلت هذه الوظائف المتعلقة بالشهور مجالسَ مرتبةً على ترتيب شهور السنة الهلالية؛ فأبدأ بالمحرم، وأختم بذي الحجة، وأذكر في كل شهر ما فيه من هذه الوظائف، وما لم يكن له وظيفة خاصة لم أذكر فيه شيئاً. وختمت ذلك كله بوظائف فصول السنة الشمسية؛ وهي ثلاثة[١]

---

(١) في الأصل: «ثلاث».

مجالس: في ذكر الربيع، والشتاء، والصيف. وختمت الكتاب كله بمجلس في التوبة والمبادرة بها قبل انقضاء العمر؛ فإن التوبة وظيفة العمر كله. وأبدأ قبل ذكر وظائف الشهور بمجلس في فضل التذكير بالله يتضمن ذكر بعض ما في مجالس التذكير من الفضل، وسميته: «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» والله المسؤول أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ومقرباً إليه وإلى داره دار السلام والنعيم المقيم، وأن ينفعني به وعبادَه المؤمنين، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويختم لنا بخير وعافية؛ فإنه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، آمين.

وهذا أوان الشروع فيما أردناه والبداءة بالمجلس الأول كما شرطناه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



## مجلس
## في فضل التذكير بالله تعالى ومجالس الوعظ

خرج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عافسنا أهلنا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك[1]؛ لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم» قلت: يا رسول الله، فمم خلق الخلق؟ قال: «من الماء». قلت: الجنة فما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللُّؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم»[2].

كانت مجالس النبي ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله وترغيب وترهيب إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة وتعليم ما ينفع في الدين كما أمره الله تعالى في كتابه أن يذكر ويعظ ويقص وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبشر وينذر،

---

(١) وفي نسخة: «ذلكم» كما في هامش الأصل.

(٢) صحيح إلا قوله: «ممَّ خلق الخلق؟ قال: من ماء» أحمد (٧٩٨٣) والترمذي (٢٥٢٥) وابن حبان (٧٣٨٧) صححه شيخنا لشواهده إلا فقرة ممَّ خلق الخلق كما في صحيح الترمذي (٢٥٢٦).

وسماه الله مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله؛ والتبشير والإنذار: هو الترغيب والترهيب، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه ـ كما ذكره أبو هريرة ﷺ في هذا الحديث ـ رقة القلوب والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر، فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ويذهب الغفلة عنه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: ٢٨].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٣].

وقال العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. وقال ابن مسعود: نعم المجلس المجلس الذي تنشر فيه الحكمة، وترجى فيه الرحمة: مجالس الذكر. وشكا رجلٌ إلى الحسن قساوة قلبه، فقال: أدنه من الذكر، وقال: مجالس الذكر محياة العلم، وتحدث في القلب الخشوع. القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر:

بذكر الله ترتاح القلوب ودنيانا بذكراه تطيب

وأما الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة فبما يحصل في مجالس الذكر من ذكر عيوب الدنيا وذمها والتزهيد فيها، وذكر فضل الجنة ومدحها والترغيب فيها، وذكر النار وأهوالها والترهيب منها، وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة وتحف الملائكة ويذكر الله أهلها فيمن عنده، وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت

عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[١]. وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنباً، وربما بكى فيهم باكٍ من خشية الله؛ فوهب أهل المجلس كلهم له، وهي رياض الجنة. قال النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر»[٢].

فإذا انقضى مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام:

فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر ولا يزداد هدى ولا يرتدع عن رديء، وهؤلاء شر الأقسام، ويكون ما سمعوه حجة عليهم فيزدادوا به عقوبة[٣] وهؤلاء الظالمون لأنفسهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل: ١٠٨]. ومنهم من ينتفع بما سمعه وهم على أقسام: فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات، وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين، ومنهم من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات، والتورع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات، وهؤلاء السابقون المقربون.

وينقسم المنتفعون بسماع مجلس الذكر في استحضار ما سمعوه في المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام: فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم أن يكون نفاقاً فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق. وفي صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال: يا رسول الله، نافق حنظلة! قال: «وما ذاك؟» قال: نكون عندك فتذكرنا بالجنة والنار كأنهما رأي عين، فإذا رجعنا من

---

(١) مسلم (٢٧٠٠).
(٢) حسن لغيره. الترمذي (٣٥١٠) وحسنه شيخنا لشواهده في الصحيحة (٢٥٦٢).
(٣) في نسخة: «فتزداد به عقوبتهم» كما في هامش الأصل.

عندك عافسنا الأزواج والضيعة، ونسينا كثيراً، فقال: «لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»[١]. وفي رواية له أيضاً: «لو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق». ومعنى هذا: أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جداً ولا يقدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه، فيكتفي منهم بذكر ذلك أحياناً، وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك بل يلوم نفسه عليه ويحزنه ذلك من نفسه.

العارف يتأسف في وقت الكدر على زمن الصفا، ويحن إلى زمان القرب والوصال في حال الجفا وأنشدوا:

ما أذكر عيشنا الذي قد سلفا ... إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واهاً لزماننا الذي كان صفا ... وا أسفاً وهل يرد فائتاً وا أسفا[٢]

وقسم آخرون يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازماً لهم وهؤلاء على قسمين:

**أحدهما**: من يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ولا القيام بوفاء حقوقهم، وكان كثير من السلف على هذه الحال فمنهم من كان لا يضحك، ومنهم من كان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

**والثاني**: من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال والقيام على العيال ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع مما هو عبادة في نفسه كتعليم العلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء أشرف القسمين، وهم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي رضي الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقة بالمحل الأعلى.

---

(١) مسلم (٢٧٥٠).

(٢) في نسخة: «لو كان يرد فائتاً وا أسفا» كما في هامش الأصل.

وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر يتغير ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم. ففي مسند البزار ومعجم الطبراني عن جابر قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي قلت: نذير قوم، فإذا سُرِّيَ عنه، فأكثرُ الناس ضحكاً وأحسنهم خلقاً[١]. وفي مسند الإمام أحمد عن علي أو الزبير قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فيذكرنا بأيام الله حتى نعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير جيش يصبحهم الأمر غدوة، وكان إذا كان حديث عهدٍ بجبريل لم يتبسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه[٢]. وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ: أن النبي ﷺ كان إذا خطب اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم[٣]. وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار» قال: وأشاح، ثم قال: «اتقوا النار» ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[٤]. وسئلت عائشة ﷺ كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه؟ قالت: كان كرجل من رجالكم إلا أنه: كان أكرم الناس، وأحسن الناس خلقاً، وكان ضحاكاً بساماً[٥].

فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله تعالى بقلوبهم وعاشروا الخلق بأبدانهم، كما قالت رابعة:

**ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي — وأبحت جسمي من أراد جلوسي**
**فالجسم مني للجليس مؤانس — وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي**

المواعظ سياط تضرب بها القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثره في حال وجوده لكن يبقى أثر

---

(١) ضعيف. عزاه الهيثمي في المجمع (١٧/٩) للبزار وحده وفي إسناده ضعف.
(٢) حسن. أحمد(١٤٤٠) حسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.
(٣) مسلم (٨٦٧).
(٤) البخاري (٦٠٢٣) ومسلم (١٠١٦).
(٥) ضعيف. رواه هناد في الزهد (١٢٦٩) وغيره وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤١٨٥).

التأليم بحسب قوته وضعفه. فكلما قوي الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر. كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا وعليهم السكينة والوقار، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاماً عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة.

أفضل الصدقة: تعليم جاهل، أو إيقاظ غافل، ما وصل المستثقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الموعظة ليستيقظ. المواعظ كالسياط تقع على نياط القلوب، فمن آلمه فصاح فلا جناح، ومن زاد ألمه فمات فدمه مباح.

قضى الله في القتلى قصاص دمائهم ولكن دماء العاشقين جبار

وعظ عبدُ الواحد بن زيد فصاح رجلٌ: يا أبا عبيدة كفَّ فقد كشفت بالموعظة قناع قلبي، فأتم عبدُ الواحد موعظته فمات الرجل. صاح رجل في حلقة الشبلي فمات فاستعدى أهله على الشبلي إلى الخليفة فقال الشبلي: نفس رنت فحنت فدعيت فأجابت فما ذنب الشبلي.

فكر في أفعاله ثم صاح لا خير في الحب بغير افتضاح
قد جئتكم مستأمناً فارحموا لا تقتلوني قد رميت السلاح

إنما يصلح التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع. فأما من هو سقيم البدن لا قوة له فماذا ينفع تأديبه بالضرب. كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها. وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئاً. وكان سفيان [الثوري] يتعزى بمجالسه عن الدنيا. وكان أحمد لا تذكر الدنيا في مجلسه ولا تذكر عنده. قال بعضهم: لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب فإنها تصل إلى القلب، فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج من الأخرى. قال بعض السلف: إن العالم إذا لم يُرِد بموعظة وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا. كان يحيى بن معاذ ينشد في مجالسه:

مواعظ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبه أولا

يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه وبارز الرحمن لما خلا

العالم الذي لا يعمل بعلمه مثله كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه. قال أبو العتاهية:

وبخت غيرك بالعمى فأفدته بصراً وأنت محسن لعماكا
وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتضيء للأعشى وأنت كذاكا

المواعظ دِرياق القلوب[1]: فلا ينبغي أن يسقي الدِّرياقَ إلا طبيبٌ حاذقٌ معافًى، فأما لديغ الهوى فهو إلى شرب الدرياق أحوج من أن يسقيه لغيره. في بعض الكتب السالفة: إذا أردت أن تعظ الناس فعظ نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحي مني.

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المعلم[2] غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم[3]
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى بالقول منك وينفع التعليم
لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

لما جلس عبدالواحد بن زيد للوعظ أتته امرأة من الصالحات فأنشدت:

يا واعظاً قام لاحتساب يزجر قوماً عن الذنوب
تنهى وأنت المريب حقاً هذا من المنكر العجيب
لو كنت أصلحت قبل هذا عيبك أو تبت من قريب
كان لما قلت يا حبيبي موقع صدق من القلوب

---

(١) في نسخة «الذنوب» كما في هامش الأصل.
(٢) في رواية «المقوم» كما في الأصل.
(٣) في رواية: «التقويم» كما في الأصل.

تنهى عن الغي والتمادي وأنت في النهي كالمريب

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير. قال رجل لابن عباس: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال له: إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل وإلا فابدأ بنفسك، ثم تلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقوله حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هُود: ٨٨]. قال النخعي: كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث. قيل لمورق[١] العجلي: ألا تعظ أصحابك؟! قال: أكره أن أقول ما لا أفعل. تقدم بعض الصالحين[٢] ليصلي بالناس إماماً فالتفت إلى المأمومين يعدل الصفوف وقال: استووا، فغشي عليه فسئل عن سبب ذلك؟ فقال: لما قلت لهم: استقيموا؛ فكرت في نفسي، فقلت لها: فأنت هل استقمت مع الله طرفة عين؟!

ما كل من وصف الدوا يستعمله ولا كل من وصف التقى ذو تقى
وصفت التقى حتى كأني ذو تقى وريح الخطايا من ثيابي تعبقا[٣]

ومع هذا كله فلا بد للناس من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير. ولو لم يعظ الناسَ إلا معصوم من الزلل لم يعظ بعد رسول الله ﷺ أحد؛ لأنه لا عصمة لأحد بعده.

إذا[٤] لم يعظ العاصين من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد

(١) في الأصل: «لمطرف».
(٢) في نسخة: «التابعين» كما في هامش الأصل.
(٣) في الأصل: «تسطع» وأصل البيت لأبي العتاهيه: وصفت التقى وصفاً كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك تسطع. ثم إن كان البيت متمماً للبيت الذي قبله فأرى أيكون «تعبقا» وإن كان بيتاً مستقلًا «تعبق» أو: «تستطع».
(٤) وفي نسخة: «لئن» كما في هامش الأصل.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله، وانهوا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله»[١]. وقيل للحسن: إن فلاناً لا يعظ ويقول: أخاف أن أقول ما لا أفعل، قال الحسن: وأينا يفعل ما يقول، ودَّ الشيطان أنه قد ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. وقال مالكٌ عن ربيعة: قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق، ومن ذا الذي ليس فيه شيء؟.

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

خطب عمرُ بن عبدالعزيز ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يوماً فقال في موعظته: إني لأقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي فأستغفر الله وأتوب إليه. وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً يعظه فيه فقال في آخره: وإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري، ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذاً لتواكل الناس الخير، وإذاً لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذاً لاستحلت المحارم، وقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض، الشيطانُ وأعوانُهُ يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر. وإذا أمرهم أحدٌ أو نهاهم عابوه بما فيه وبما ليس فيه كما قيل:

وأعلنت الفواحش في البوادي ... وصار الناس أعوان المريب

إذا ما عبتهم عابوا مقالي ... لما في القوم من تلك العيوب

وودوا لو كففنا فاستوينا ... فصار الناس كالشيء المشوب

وكنا نستطب إذا مرضنا ... فصار هلاكنا بيد الطبيب

---

(١) ضعيف جداً. ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف، والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٢٨٣) وقال: «لكن معنى الحديث صحيح؛ خلافاً لما قد يظن وبيان ذلك في الروض النضير (١٠٣)».

وكان بعض العلماء المشهورين له مجلس للوعظ فجلس فيه يوماً فنظر إلى من حوله وهم خلق كثير وما منهم إلا من قد رق قلبُهُ أو دمعت عينُهُ فقال لنفسه فيما بينه وبينها: كيف بك إن نجا هؤلاء وهلكت أنت، ثم قال في نفسه: اللهم إن قضيت عليَّ غداً بالعذاب فلا تعلم هؤلاء بعذابي صيانةً لكرمك لا لأجلي لئلا يقال: عَذَّبَ من كان في الدنيا يدل عليه، إلهي قد قيل لنبيك ﷺ: اقتل ابن أُبيٍّ المنافق فقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[١]، فامتنع من عقابه لما كان في الظاهر ينسب إليه، وأنا على كل حال فإليك أنسب. زوّر رجلٌ شفاعةً إلى بعض الملوك على لسان بعض أكابر الدولة فاطلع المزوَّرُ عليه على الحال فسعى عند الملك في قضاء تلك الحاجة واجتهد حتى قضيت، ثم قال للمُزَوِّر عليه: ما كنا نخيب من علق أمله بنا ورجى النفع من جهتنا. إلهي فأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين فلا تخيب من علق أمله ورجاءه بك وانتسب إليك ودعا عبادك إلى بابك، وإن كان متطفلًا على كرمك، ولم يكن أهلًا للسمسرة بينك وبين عبادك، لكن طمع في سعة جودك وكرمك، فأنت أهل الجود والكرم، وربما استحيا الكريم من رد من تطفل على سماط كرمه.

إن كنت لا أصلح للقرب فشأنكم صفح عن الذنب

وقوله ﷺ: «لو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم»[٢] وخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم جاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»[٣]. ومن حديث أبي أيوب عن النبي ﷺ: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم» وفي رواية له أيضاً: «لو لم يكن لكم ذنوب يغفرها الله لجاء الله بقوم لهم ذنوب فيغفرها لهم»[٤]. والمراد بهذا: أن لله حكمة في

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨) ومسلم (٢٥٨٤).
(٢) صحيح. الترمذي (٢٥٢٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢/٦٥٨).
(٣) مسلم (٢٧٤٩).
(٤) صحيح. انظر الصحيحة (٢/٦٥٨).

إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحياناً حتى تقع منهم بعض الذنوب، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التي يكونون عليها في حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب. وفي إيقاعهم في الذنوب أحياناً فائدتان عظيمتان:

**أحدهما**: اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم في حق مولاهم وتنكيس رؤوس عجبهم، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات، فإن دوام الطاعات قد يوجب لصاحبها العجب. وفي الحديث: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب»[(١)]. قال الحسن: لو أن ابن آدم كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسن، أوشك أن يجن من العجب. قال بعضهم: ذنب أفتقر به إليه أحب إلي من طاعة أدل بها عليه. أنين المذنبين أحب إليه من زجل المسبحين؛ لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار، في حديث: «إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه»[(٢)]. قال الحسن: إن العبد ليعمل الذنب فلا ينساه ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة. المقصود من زلل المؤمن ندمه، ومن تفريطه أسفه، ومن اعوجاجه تقويمه، ومن تأخره تقديمه، ومن زلقه في هوة الهوى أن يؤخذ بيده فَيُنجى إلى نجوة النجاة كما قيل:

قرة عيني لا بدَّ لي منك وإن ... أوحش بيني وبينك الزلل
قرة عيني أنا الغريق فخذ ... كفَّ غريق عليك يتكل

**الفائدة الثانية**: حصول المغفرة والعفو من الله لعبده، فإن الله يحب أن يعفو ويغفر ومن أسمائه الغفار والغفور[(٣)] والتواب فلو عصم الخلق فلمن كان يكون العفو والمغفرة. وقال بعض السلف: أول ما خلق الله القلم كتب: إني أنا التواب أتوب على من تاب. قال أبو الجلد: قال رجل من العاملين لله بالطاعة: اللهم أصلحني صلاحاً لا فساد عليَّ بعده، فأوحى الله

---

(١) حسن لغيره. رواه البزار (٣٦٣٣) وغيره كما في الصحيحة (٦٥٨) والحديث حسنه شيخنا لشاهد له من حديث أبي سعيد.

(٢) ضعيف. رواه العقيلي في الضعفاء وغيره كما في الضعيفة (٣١٠٥) لشيخنا.

(٣) في بعض النسخ: «العفو».

إليه: إن عبادي المؤمنين كلهم يسألوني مثل ما سألت فإذا أصلحت عبادي كلهم فعلى من أتفضل، وعلى من أجود بمغفرتي. كان بعض السلف يقول: لو أعلم أحبَّ الأعمال إلى الله لأجهدت نفسي فيها، فرأى في منامه قائلًا يقول له: إنك تريد ما لا يكون إن الله يحب أن يغفر. قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه لم يبتل بالذنب أكرم الخلق عليه.

يا رب أنت رجائي ... وفيك أحسنت ظني
يارب فاغفر ذنوبي ... وعافني واعف عني
العفو منك إلهي ... والذنب قد جاء مني
والظن فيك جميل ... حقق بحقك ظني

وقوله ﷺ لأبي هريرة لما سأله: مم خلق الخلق؟ فقال له: «من الماء»(١). يدل على أن الماء أصل جميع المخلوقات ومادتها، وجميع المخلوقات خلقت منه. وفي المسند من وجه آخر عن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله، إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء؟ فقال: «كل شيء خلق من ماء»(٢). وقد حكى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود وطائفة من السلف أن أول المخلوقات الماء. وقد روى الجوزجاني بإسناده عن عبدالله بن عمرو أنه سئل عن بدء الخلق؟ فقال: من تراب وماء وطين، ومن نار وظلمة، فقيل له: فما بدء الخلق الذي ذكرت؟ قال: من ماء ينبوع.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله» - وفي رواية: «معه»(٣) -

---

(١) ضعيف. وقد مرَّ.
(٢) ضعيف. أحمد (٧٨٧٣) والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٣/٤٩٢).
(٣) قال شيخنا في تعليقه على العقيدة الطحاوية (٧٩): «ورواية: (معه) لم أجدها عند البخاري. . .».

«وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»[١] وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[٢] وروى ابنُ جرير وغيره عن ابن عباس: أن الله ﷻ كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسمى عليه، فَسُمّيَ سماءً، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان ـ وكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفس ـ جعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات. وعن وهب: أن العرش كان قبل أن تخلق السموات والأرض على الماء، فلما أراد الله أن يخلق السموات والأرض قبض من صفاء الماء قبضة ثم فتح القبضة فارتفعت دخاناً ثم قضاهن سبع سموات في يومين، ثم أخذ طينة من الماء فوضعها في مكان البيت، ثم دحا الأرض منها. والآثار في هذا الباب كثيرة. وهذا كله يبين أن السموات والأرض خلقت من الماء والخلاف في أن الماء هل هو أول المخلوقات أم لا مشهور، وحديث أبي هريرة يدل على أن الماء مادة جميع المخلوقات. وقد دل القرآن على أن الماء مادة جميع الحيوانات قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]. وقول من قال: أن المراد بالماء النطفة التي يخلق منها الحيوانات بعيد لوجهين:

**أحدهما**: أن النطفة لا تسمى ماء مطلقاً بل مقيداً لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٦، ٧]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠].

**والثاني**: أن من الحيوانات ما يتولد من غير نطفة كدود الخل والفاكهة ونحو ذلك فليس كل حيوان مخلوقاً من نطفة، والقرآن دل على خلق جميع

(١) البخاري (٧٤١٨).
(٢) مسلم (٢٦٥٣).

ما يدب وما فيه حياة من ماء، فعلم بذلك أن أصل جميعها الماء المطلق ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحِجر: ٢٧]، وقول النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور»[(١)]؛ فإن حديث أبي هريرة دل على أن أصل النور والنار الماء، كما أن أصل التراب الذي خلق منه آدم الماء، فإن آدم خلق من طين والطين تراب مختلط بماء والتراب خلق من الماء كما تقدم عن ابن عباس وغيره. وزعم مقاتل: أن الماء خلق من النور، وهو مردود بحديث أبي هريرة هذا وغيره، ولا يستنكر خلق النار من الماء، فإن الله بقدرته جمع بين الماء والنار في الشجر الأخضر، وجعل ذلك من أدلة القدرة على البعث. وذكر الطبائعيون أن الماء بانحداره يصير بخاراً، والبخار ينقلب هواء، والهواء ينقلب ناراً، والله أعلم.

وقوله ﷺ لأبي هريرة حين سأله عن بناء الجنة فقال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران»[(٢)] وقد روي هذا أيضاً عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر مرفوعاً أخرجه الطبراني، فهذه أربعة أشياء:

**أحدها**: بناء الجنة: ويحتمل أن المراد بنيان قصورها ودورها، ويحتمل أن يراد بناء حائطها وسورها المحيط بها وهو أشبه. وقد روي من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً ـ وهو أشبه ـ: «حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب، ودرجها الياقوت واللؤلؤ» قال: وكنا نتحدث: أن رضراض أنهارها اللؤلؤ وترابها الزعفران[(٣)]. وفي مسند البزار عن أبي سعيد مرفوعاً: «خلق الله الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وملاطها المسك، فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك»[(٤)] ومما

---

(١) مسلم (٢٦٩٩).

(٢) صحيح. وقد مرَّ.

(٣) صحيح لغيره. رواه ابن المبارك في كتاب الزهد (٧٢/١) وابن أبي الدنيا وصحح شيخنا وقفه كما في صحيح الترغيب (٣٧١٢) لكنه في حكم المرفوع.

(٤) صحيح. البزار (٢٢٥٣/مختصر الزوائد) قال شيخنا في الصحيحة (٣٥٢/٦): «صحيح على شرط مسلم موقوفاً لكنه في حكم المرفوع».

يبين أن المراد ببناء الجنة في هذه الأحاديث بناء سورها المحيط بها ما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما»(١) وقد روي عن أبي موسى مرفوعاً وموقوفاً: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين»(٢) وفي الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «إنها جنان كثيرة»(٣) وقد روي: أن بناء بعضها من در وياقوت. وخرج ابن أبي الدنيا من حديث أنس مرفوعاً: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي قالت: قد أفلح المؤمنون، قال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»(٤) وروى عطية عن أبي سعيد قال: إن الله خلق جنة عدن من ياقوتة حمراء، ثم قال لها: تزيني فتزينت ثم قال لها: تكلمي، قالت: طوبى لمن رضيتَ عنه. ثم أطبقها وعلقها بالعرش فهي تفتح في كل سحر، فذلك برد السحر(٥).

وعن ابن عباس قال: كان عرش الله على الماء، ثم اتخذ لنفسه جنة ثم اتخذ دونها أخرى وطبقهما بلؤلؤة واحدة لا يعلم الخلائق ما فيهما، وهما اللتان لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين. وذكر صفوان بن عمرو عن بعض مشايخه قال: الجنة مائة درجة أولها: درجة فضة وأرضها فضة ومساكنها فضة وترابها المسك، والثانية: ذهب وأرضها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك، والثالثة: لؤلؤ [وأرضها لؤلؤ] وآنيتها لؤلؤ وترابها المسك، وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم تلا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

---

(١) البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠).
(٢) صحيح. رواه الطبري في تفسيره (١٤٦/٢٧) وقال الحافظ في الفتح (٤٣١/١٣): «ورجاله ثقات».
(٣) البخاري (٣٩٨٢).
(٤) ضعيف. ابن أبي الدنيا في صفة الجنة كما في الضعيفة (١٢٨٥) لشيخنا.
(٥) ضعيف جداً. رواه الخطيب في تاريخه (٢١٣/١١) وإسناده مسلسل بالضعفاء.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١] ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وفي صحيح مسلم[٢] عن المغيرة بن شعبة يرفعه: «سأل موسى ربه قال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: يا رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت يا رب، فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت يا رب، فيقال: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: فأعلاهم منزلة قال: أولئك الذين أردت؛ غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» قال: ومصداقه في كتاب الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدَة: ١٧].

**الثاني**: ملاط الجنة: وأنه المسك الأذفر، وقد تقدم مثل ذلك في غير حديث، والملاط: هو الطين، ويقال: الطين الذي يبنى منه البنيان، والأذفر الخالص. وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: «دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[٣] والجنابذ: مثل القباب، وقد قيل: إنه أراد بترابها ما خالطه الماء وهو طينها كما في صحيح البخاري عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال في الكوثر: «طينه المسك الأذفر»[٤] وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطفّفِين: ٢٦] إن المراد بالختام: ما يبقى في سفل الشراب من الثفل، وهذا يدل على أن أنهارها تجري على المسك، ولذلك يرسب منه في الإناء في آخر الشراب كما يرسب الطين في آنية الماء في الدنيا.

---

(١) البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤).
(٢) مسلم (١٨٩).
(٣) البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣).
(٤) البخاري (٦٥٨١).

**الثالث**: حصباء الجنة: وأنه اللؤلؤ والياقوت، والحصباء: الحصى الصغار وهو الرضراض. وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ في ذكر الكوثر: «أن رضراضه اللؤلؤ»[١]، وفي رواية: «حصباؤه اللؤلؤ» وفي الترمذي من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «أن مجراه على الدر والياقوت»[٢]، وفي الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «حاله المسك الأبيض، ورضراضه الجوهر، وحصباؤه اللؤلؤ»[٣] وفي المسند من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «حاله المسك، ورضراضه التُّوم»[٤] والتوم: الجوهر، والحال: الطين. قال أبو العالية[٥]: قرأت في بعض الكتب: يا معشر الربانيين من أمة محمد انتدبوا لدار أرضها زبرجد أخضر، تجري عليها أنهار الجنة، فيها الدر واللؤلؤ والياقوت وسورها زبرجد أخضر، متدلياً عليها أشجار الجنة بثمارها.

**الرابع**: تراب الجنة: وأنه الزعفران، وقد سبق في رواية أخرى: الزعفران، والورس. وقد قيل: إن المراد بالتراب ههنا: تربة الأرض التي لا ماء عليها، فأما ما كان عليه ماء فإنه مسك كما سبق، وسبق أيضاً في بعض الروايات حشيشها الزعفران وهو نبات أرضها وترابها، فأما حديث ترابها المسك: فقد قيل: إنه محمول على تراب يخالطه الماء كما تقدم، وقيل: إن المراد: أن ريح ترابها ريح مسك، ولونه لون الزعفران، ويشهد لهذا حديث الكوثر: أن حاله المسك الأبيض، فريحه ريح المسك، ولونه مشرق لا يشبه لون مسك الدنيا بل هو أبيض، وقد يكون منه أبيض ومنه أصفر والله أعلم. وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد: أن النبي ﷺ سأل ابن الصياد عن تربة الجنة: فقال: درمكة بيضاء مسك خالص، فصدقه النبي ﷺ[٦]. وفي

---

(١) صحيح. أحمد (١٣٠١٢) وصححه شيخنا في الإسراء والمعراج (ص٣٩).
(٢) صحيح. الترمذي (٣٣٦١) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٧١٩).
(٣) حسن لغيره.
(٤) حسن لغيره. أحمد (٣٧٧٧) وإسناده ضعيف لكن له شواهد يصح بها.
(٥) في الأصل: «العتاهية».
(٦) مسلم (٢٩٢٨).

رواية: أن ابن صياد سأل النبي ﷺ وصدقه. وفي المسند والترمذي عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: «تربة الجنة درمكة» ثم سأل اليهود؟ فقالوا: خبزة، فقال: «الخبز من الدرمك»(١). والتي تجتمع به هذه الأحاديث كلها أن تربة الجنة في لونها بيضاء، وفيها ما يشبه لون الزعفران في بهجته وإشراقه، وريحها ريح المسك الأذفر الخالص، وطعمها طعم الخبز الحواري الخالص، وقد يختص هذا بالأبيض منها. فقد اجتمعت لها الفضائل كلها. [لا حرمنا الله ذلك برحمته وكرمه](٢).

وقوله ﷺ: «من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم» إشارة إلى بقاء الجنة وبقاء جميع ما فيها من النعيم، وأن صفات أهلها الكاملة من الشباب لا تتغير أبداً، وملابسهم التي عليهم من الثياب لا تبلى أبداً، وقد دَلَّ القرآنُ على مثل هذا في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ٥٧] في مواضع كثيرة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»(٣)، وفيه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: أن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وأن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً»(٤) ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وفي رواية لغيره زيادة: «وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً»(٥)، وفي الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «أهل الجنة جرد مرد كحل، لا يفنى شبابهم، ولا

---

(١) ضعيف بهذا اللفظ. أحمد (١٤٤٦٩) والترمذي (٣٣٢٧) ضعفه شيخنا الضعيفة (٣٣٤٨) ثم قال: «ولهذه الجملة الأخيرة [: «تربة الجنة درمكة بيضاء»] شاهد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه... ولذلك كنت أخرجتها في الصحيحة (١٤٣٨)».

(٢) زيادة من نسخة دار ابن كثير.

(٣) مسلم (٢٨٣٦).

(٤) مسلم (٢٨٣٧).

(٥) قلت: هي عند مسلم أيضاً (٢٨٣٧).

تبلى ثيابهم»(١)، وعن أبي سعيد مرفوعاً: «يدخل أهل الجنة الجنة أبناء ثلاثين(٢) لا يزيدون عليها أبداً»(٣)، ومن حديث علي مرفوعاً: «إن في الجنة مجتمعاً للحور العين يرفعن بأصواتهن لم يسمع الخلائق مثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له»(٤)، وخرج الطبراني من حديث ابن عمر مرفوعاً: «إن مما يغنين به - يعني الحور العين -: نحن الخالدات فلا نَمتنه، ونحن الآمنات فلا نخفنه، ونحن المقيمات فلا نظعنه»(٥)، ومن حديث أم سلمة مرفوعاً: «أن نساء أهل الجنة يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً، ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً، طوبى لمن كنا له وكان لنا»(٦)، وفيما ذكره ﷺ في صفة من يدخل الجنة تعريض بذم الدنيا الفانية فإنه من يدخلها وإن نعم فيها فإنه يبأس، ومن أقام فيها فإنه يموت ولا يخلد، ويفنى شبابهم، وتبلى ثيابهم، بل تبلى أجسامهم. وفي القرآن نظير هذا، وهو التعريض بذم الدنيا وفنائها، مع مدح الآخرة وذكر كمالها وبقائها كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ

---

(١) صحيح لغيره. الترمذي (٢٥٣٩) قال شيخنا في الصحيحة (١٢٢٤/٢): «وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده».

(٢) في نسخة: «أبناء ثلاث وثلاثين» كما في الأصل ولكن الذي عند الترمذي: «ثلاثين».

(٣) ضعيف بهذا اللفظ. رواه الترمذي من حديث أبي سعيد (٢٥٦٢) وضعفه شيخنا في ضعيف الترمذي (٤٦٧) لكن رواه الترمذي (٢٥٤٥) وغيره من حديث معاذ وأبي هريرة وفيه: «أبناء ثلاث وثلاثين» وصححه شيخنا لشواهد له كما في الصحيحة (١٢٢٤/٦).

(٤) ضعيف. الترمذي (٢٥٦٤) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٩٨٢).

(٥) صحيح. الطبراني في الأوسط (١٤٩/٥ - ١٥٠) والصغير (٣٥/٢) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٧٤٩).

(٦) منكر. رواه الطبراني في الكبير (٣٦٨/٢٣) والأوسط (٢٧٩/٣) قال شيخنا في الترغيب (٢٢٣٠): «منكر».

ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ [يونس: ٢٤] الآية، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦].

وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]. والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع، ويفنى فما عيبت الدنيا بأبلغ من ذكر فنائها وتقلب أحوالها؛ وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشبيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس، وعمارتها بالخراب، واجتماعها بفرقة الأحباب، وكل ما فوق التراب تراب. قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقاً تبلى، أو لحماً يأكله الدود غداً. كان الإمام أحمد يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

وفي الحديث: «عجباً لمن رأى الدنيا وسرعة تقلبها بأهلها كيف

يطمئن إليها»[١]. قال الحسن: إن الموت قد فضح الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحاً. وقال مطرف: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فالتمسوا نعيماً لا موت فيه. وقال بعضهم: ذهب ذكر الموت بلذة كل عيشٍ وسرور، ثم بكى وقال: واهاً لدار لا موت فيها. وقال يونس بن عبيد: ما ترك ذكر الموت لنا قرة عين في أهل ولا مال. وقال يزيد الرقاشي: أمن أهل الجنة الموت فطاب لهم العيش، وأمنوا من الأسقام فهنيئاً لهم في جوار الله طول المقام. عيوب الدنيا بادية وهي بعبرها ومواعظها منادية، لكن حبها يعمي ويصم، فلا يسمع محبها نداءها، ولا يرى كشفها للغير وإبداءها.

قد نادت الدنيا على نفسها ... لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر أفنيته ... وجامع بَدَّدْتُ ما يجمع

كم قد تبدل نعيمها بالبؤس، كم أصبح من هو واثق بملكها وأمسى وهو منها قنوط يؤوس.

قالت بعض بنات ملوك العرب الذين نكبوا: أصبحنا وما في العرب أحد إلا وهو يحسدنا ويخشانا، وأمسينا وما في العرب أحد إلا وهو يرحمنا ثم قالت:

بينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سُوقة ليس ننصف
فأفٍّ لدار لا يدوم نعيمها ... تقلّب تارات بنا وتصرف[٢]

---

(١) ضعيف جداً. رواه ابن حبان (٣٦١) من حديث أبي ذر وقال شيخنا في التعليقات الحسان (٣٦٢): «ضعيف جداً».

(٢) في هامش الأصل: «القائلة لذلك هي خرقة بنت النعمان بن المنذر. وقالت أيضاً: ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس إنا نجد في الكتب: أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وإن الدهر لم يظفر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه. وبكت أيضاً خرقة وهي في عزها فقيل: ما يبكيك؟ لعل أحداً آذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيت نضارة في أهلي وقل ما امتلأت دار سرور إلا امتلأت حزناً».

دخلت أم جعفر بن يحيى البرمكي على قوم في عيد أضحى تطلب جلد كبش تلبسه وقالت: هجم عليَّ مثل هذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة قائمة وأنا أزعم أن ابني جعفراً عاقٌّ لي. كانت أخت أحمد بن طولون ـ صاحب مصر ـ كثيرة السرف في إنفاق المال حتى إنها زوجت بعض لعبها فأنفقت على وليمة عرسها مائة ألف دينار، فما مضى إلا قليل حتى رؤيت في سوق من أسواق بغداد وهي تسأل الناس.

خُلِعَ بعض خلفاء بني العباس وكحّل وحبس ثم أطلق، فاحتاج إلى أن وقف يوم الجمعة في الجامع وقال للناس: تصدقوا عليَّ فأنا من قد عرفتم. اجتاز بعض الصالحين بدار فيها فرح وقائلة تقول في غنائها:

ألا يا دار لا يدخلك حزن ولا يزري بصاحبك الزمان

ثم اجتاز بها عن قريب وإذا الباب مُسْوَد وفي الدار بكاء وصراخ، فسأل عنهم؟ فقيل: مات رب الدار، فطرق الباب وقال: سمعت مِنْ هذه الدار قائلة تقول: كذا وكذا، فبكت امرأة وقالت: يا عبدالله، إن الله يغير ولا يتغير، والموت غاية كل مخلوق، فانصرف من عندهم باكياً. بعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته وفداً إلى اليمن فاجتازوا في طريقهم بماء من مياه العرب عنده قصور مشيدة وهناك مواش عظيمة ورقيق كثير ورأى نسوة كثيرة مجتمعات في عرس لهم وجارية بيدها دف وهي تقول:

معشر الحساد موتوا كمدا كذا نكون ما بقينا أبدا

فنزلوا بقربهم فأكرمهم سيد الماء واعتذر إليهم باشتغاله بالعرس فدعوا له وارتحلوا، ثم إن بعض أولئك الوفد أرسلهم معاوية إلى اليمن فمروا بالقرب من ذلك الماء فعدلوا إليه لينزلوا فيه فإذا القصور المشيدة قد خربت كلها وليس هناك ماء ولا أنيس ولم يبق من تلك الآثار إلا تل خراب، فذهبوا إليه فإذا عجوز عمياء تأوي إلى نقب في ذلك التل فسألوها عن أهل ذلك الماء فقالت: هلكوا كلهم، فسألوها عن ذلك العرس المتقدم فقالت: كانت العروس أختي وأنا كنت صاحبة الدف فطلبوا أن يحملوها معهم فأبت وقالت: عزيز علي أن أفارق هذه العظام البالية حتى أصير إلى ما صارت

إليه فبينما هي تحدثهم إذ مالت فنزعت نزعاً يسيراً ثم ماتت فدفنوها وانطلقوا. حُمل إلى سليمان بن عبدالملك في خلافته من خراسان ستةُ أحمال مسك إلى الشام فأدخلت على ابنه أيوب وهو ولي عهده فدخل عليه الرسولُ بها في داره فدخل إلى دار بيضاء وفيها غلمان عليهم ثياب بياض وحليتهم فضة، ثم دخل إلى دار صفراء فيها غلمان عليهم ثياب صفر وحليتهم الذهب، ثم دخل إلى دار خضراء فيها غلمان عليهم ثياب خضر وحليتهم الزمرد، ثم دخل على أيوب وهو وجاريته على سرير فلم يعرف أحدهما من الآخر لقرب شبههما، فوضع المسك بين يديه فانتهبه كله الغلمان ثم خرج الرسول، فغاب بضعة عشر يوماً ثم رجع فمر بدار أيوب وهي بلاقع، فسأل عنهم؟ فقيل له: أصابهم الطاعون فماتوا. كان يزيد بن عبدالملك ـ وهو الذي انتهت إليه الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز ـ له جارية تسمى حبابة، وكان شديد الشغف بها ولم يقدر على تحصيلها إلا بعد جهد شديد، فلما وصلت إليه خلا بها يوماً في بستان وقد طار عقله فرحاً بها فبينما هو يلاعبها ويضاحكها إذ رماها بحبة رمان أو حبة عنب وهي تضحك فدخلت في فيها فشرقت بها فماتت فما سمحت نفسه بدفنها حتى أراحت، فعوتب على ذلك فدفنها. ويقال: إنه نبشها بعد دفنها. ويروى: أنه دخل بعد موتها إلى خزائنها ومقاصيرها ومعها جارية لها فتمثلت الجارية:

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى ... منازل من يهوى معطلة قفرا

فصاح وخرَّ مغشياً عليه فلم يفق إلى أن مضى هوي من الليل ثم أفاق فبكى بقية ليلته ومن الغد فدخلوا عليه فوجدوه ميتاً. قال بعض السلف: ما من حبرة إلا يتبعها عبرة، وما كان ضحك في الدنيا إلا كان بعده بكاء[1]، ومن عرف الدنيا حق معرفتها حقرها وأبغضها كما قيل:

أما لو بيعت الدنيا بفلس ... أنفت لعاقل أن يشتريها

---

(١) في هامش الأصل: «روي عن ابن مسعود أنه قال: لكل فرحة ترحة وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً. وقال ابن سيرين ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: ما كان من ضحك قط إلا كان بعده بكاء».

ومن عرف الآخرة وعظمتها ورغب فيها. عباد الله هلموا إلى دار لا يموت سكانها، ولا يخرب بنيانها، ولا يهرم شبابها، ولا يتغير حسنها وإحسانها، هواؤها النسيم، وماؤها التسنيم، يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم كل حين ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يُونس: ١٠]. قال عون بن عبدالله بن عتبة: بنى ملك ممن كان قبلكم مدينة فتنوق[١] في بنائها، ثم صنع طعاماً ودعا الناس إليه وأقعد على أبوابها ناساً يسألون كل من خرج هل رأيتم عيباً؟ فيقولون: لا، حتى جاء في آخر الناس قوم عليهم أكسية فسألوهم: هل رأيتم عيباً؟ فقالوا: عيبين، فأدخلوهم على الملك، فقال: هل رأيتم عيباً؟ قالوا: عيبين، قال: وما هما؟ قالوا: تخرب ويموت صاحبها. قال: فتعلمون داراً لا تخرب ولا يموت صاحبها؟ قالوا: نعم؛ دار الجنة، فدعَوه فاستجاب لهم، وانخلع من ملكه وتعبد معهم. فحدث عون بهذا الحديث عمر بن عبدالعزيز فوقع منه موقعاً حتى هَمَّ أن يخلع نفسه من الملك فأتاه ابن عمه مسلمة فقال: اتق الله يا أمير المؤمنين في أمة محمد ﷺ فوالله لئن فعلت ليقتتلن بأسيافهم، قال: ويحك يا مسلمة حملت ما لا أطيق، وجعل يرددها ومسلمة يناشده حتى سكن.

بنى بعض ملوك العرب الخورنق والسدير، فنظر إلى ملكه يوماً فقال: هل علمتم أحداً أوتي مثل ما أوتيت؟ قالوا: لا، ورجل منهم ساكت، فقال: أيها الملك إن أذنت لي تكلمت، فقال: تكلم، قال: أرأيت ما جمعت أشيء هو لك لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك وزال عنه وصار إليك؛ وكذلك يزول عنك؟ قال: بل كان لمن قبلي وصار إليَّ ويزول عني. قال: فسررتَ بشيء تزول عنك لذته وتبقى تبعته عليك، تكون فيه قليلًا وترهن به طويلًا، فبكى وقال: أين المهرب؟ قال: إما أن تقيم وتعمل بطاعة ربك، وإما أن تنخلع من ملكك وتقيم وحدك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا فعلت ذلك فما لي؟ قال: حياة لا تموت،

---

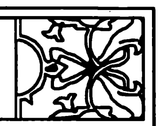
(١) في نسخة: «فتأنق» كما في هامش الأصل.

وشباب لا يهرم، وصحة لا تسقم، وملك جديد لا يبلى. قال: فأي خير فيما يفنى، والله لأطلبن عيشاً لا يزول أبداً فانخلع عن ملكه وسار في الأرض، وفيه يقول عدي بن زيد أبياته المشهورة السائرة:

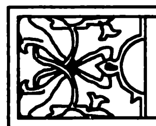
أيها الشامت المعير[1] بالدهـ ... ـر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من ... الأيام بل أنت جاهل مغرور
مَنْ رأيت المنون أخلدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم ... لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ... ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ ... ـساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ ... ـملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ أشـ ... ـرف يوماً وللهدى تفكير
سرّه ماله وكثرة ما يمـ ... ـلك والبحر معرض والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبـ ... ـطة حي إلى الممات يصير
ثم أضحوا كأنهم ورق جف ... فألوت به الصبا والدبور
ثم بعد الفلاح والملك والإمّة[2] ... وارتهم هناك القبور

❁ ❁ ❁

(١) في الأصل: «المغتر».
(٢) أي: النعمة وغضارة العيش.



# وظائف شهر الله المحرم



**ويشتمل على مجالس:**

## المجلس الأول
## في فضل شهر الله المحرم وعشره الأول

خرج مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل»[١].

الكلام على هذا الحديث في فصلين في أفضل التطوع: بالصيام، وأفضل التطوع: بالقيام.

### الفصل الأول: في أفضل التطوع بالصيام

وهذا الحديث صريح في أن أفضل ما تطوع به من الصيام بعد رمضان صوم شهر الله المحرم، وقد يحتمل أن يراد: أنه أفضل شهر تطوع بصيامه كاملًا بعد رمضان. فأما بعض التطوع ببعض شهر فقد يكون أفضل من بعض أيامه كصيام يوم عرفة، أو عشر ذي الحجة، أو ستة أيام من شوال ونحو ذلك، ويشهد لهذا ما خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث علي

(١) مسلم (١١٦٣).

أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني بشهر أصومه بعد شهر رمضان؟ قال رسول الله ﷺ: «إن كنت صائماً شهراً بعد رمضان فصم المحرم؛ فإنه شهر الله، وفيه يوم تاب الله فيه على قوم، ويتوب على آخرين»[(١)]. وفي إسناده مقال. ولكن يقال: أن النبي ﷺ كان يصوم شهر شعبان[(٢)]، ولم ينقل عنه أنه كان يصوم المحرم إنما كان يصوم عاشوراء. وقوله في آخر سنة: «لئن عشت إلى قابل لأصومن التاسع»[(٣)]، يدل على أنه كان لا يصوم التاسع قبل ذلك. وقد أجاب الناس عن هذا السؤال بأجوبة فيها ضعف، والذي ظهر لي والله أعلم أن التطوع بالصيام نوعان:

**أحدهما**: التطوع المطلق بالصوم، فهذا أفضله المحرم كما أن أفضل التطوع المطلق بالصلاة قيام الليل.

**والثاني**: ما صيامه تبع لصيام رمضان قبله وبعده فهذا ليس من التطوع المطلق بل صيامه تبع لصيام رمضان وهو ملتحق بصيام رمضان، ولهذا قيل: إن صيام ستة أيام من شهر شوال يلتحق بصيام رمضان، ويكتب بذلك لمن صامها مع رمضان صيام الدهر فرضاً. وقد روي أن أسامة بن زيد كان يصوم الأشهر الحرم فأمره النبي ﷺ بصيام شوال، فترك الأشهر الحرم وصام شوالًا[(٤)]. وسنذكر ذلك في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ. فهذا النوع من الصيام ملتحق برمضان وصيامه أفضل التطوع مطلقاً، فأما التطوع المطلق فأفضله صيام الأشهر الحرم. وقد روي عن النبي ﷺ أنه أمر رجلًا أن يصوم الأشهر الحرم[(٥)] وسنذكره في موضع آخر ـ إن شاء الله تعالى ـ. وأفضل صيام الأشهر الحرم صيام شهر الله المحرم، ويشهد لهذا أنه ﷺ قال في هذا الحديث: «وأفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل»، ومراده بعد

---

(١) ضعيف. أحمد (١٣٣٧) والترمذي (٧٤١) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٦١٤).

(٢) صحيح. وسيأتي تخريجه.

(٣) صحيح. وسيأتي تخريجه.

(٤) ضعيف. وسيأتي تخريجه.

(٥) ضعيف. وسيأتي تخريجه.

المكتوبة: ولواحقها من سننها الرواتب؛ فإن الرواتب قبل الفرائض وبعدها أفضل من قيام الليل عند جمهور العلماء لالتحاقها بالفرائض، وإنما خالف في ذلك بعض الشافعية. فكذلك الصيام قبل رمضان وبعده ملتحق برمضان، وصيامه أفضل من صيام الأشهر الحرم، وأفضل التطوع المطلق بالصيام صيام المحرم. وقد اختلف العلماء في أي الأشهر الحرم أفضل، فقال الحسن وغيره: أفضلها شهر الله المحرم، ورجحه طائفة من المتأخرين. وروى وهب بن جرير عن قرة بن خالد عن الحسن قال: إن الله افتتح السنة بشهر حرام وختمها بشهر حرام فليس شهر في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المحرم، وكان يسمى شهر الله الأصم من شدة تحريمه. وقد روي عنه مرفوعاً [و]مرسلًا، قال آدم بن أبي إياس: حدثنا أبو هلال الراسبي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل الأوسط، وأفضل الشهور بعد شهر رمضان المحرم وهو شهر الله الأصم»[١]. وخرج النسائي من حديث أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ: أي الليل خير، وأي الأشهر أفضل؟ فقال: «خير الليل جوفه، وأفضل الأشهر شهر الله الذي تدعونه المحرم»[٢]. وإطلاقه في هذا الحديث أفضل الأشهر محمول على ما بعد رمضان كما في رواية الحسن المرسلة. وقال سعيد بن جبير وغيره: أفضل الأشهر الحرم ذو الحجة[٣] بل قيل: إنه أفضل الأشهر مطلقاً، وسنذكره في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ وزعم بعض الشافعية أن أفضل الأشهر الحرم رجب وهو قول مردود. وأفضل شهر الله المحرم عشره الأول، وقد زعم يمان بن رآب: أنه العشر الذي أقسم الله به في كتابه. ولكن الصحيح أن العشر المقسم به عشر ذي الحجة

(١) صحيح دون قوله: «وهو شهر الله الأصم» فإن للحديث بدونها شواهد من حديث أبي هريرة وغيره وصحح شيخنا الحديث في صحيح الجامع (١١١٦) بدونها.

(٢) صحيح لغيره. النسائي في الكبرى (٢/٤٧٠) والحديث صححه شيخنا لشواهده في صحيح الترغيب (١٠١٦).

(٣) في بعض النسخ المطبوعة: «ذو القعدة أو ذو الحجة» وما أثبت هو الموافق للأصول الخطية.

كما سيأتي في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ. وقال أبو عثمان النهدي: كانوا يعظمون ثلاث عشرات: العشر الأخير من رمضان، والعشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من محرم. وقد وقع هذا في بعض نسخ كتاب فضائل العشر لابن أبي الدنيا عن أبي عثمان عن أبي ذر عن النبي ﷺ: أنه كان يعظم هذه العشرات الثلاث. وليس ذلك بمحفوظ. وقد قيل: إنه العشر الذي أتم الله به ميقات موسى عليه السلام أربعين ليلة وإن التكليم وقع في عاشره. وروي عن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن مر قومك أن يتقربوا إليَّ في أول عشر المحرم فإذا كان يوم العاشر فليخرجوا إليَّ أغفر لهم. وعن قتادة أن الفجر الذي أقسم الله به في أول سورة الفجر هو فجر أول يوم من المحرم تنفجر منه[1] السنة، ولما كانت الأشهر الحرم أفضل الأشهر بعد رمضان أو مطلقاً، وكان صيامها كلها مندوباً إليه كما أمر به النبي ﷺ، وكان بعضها ختام السنة الهلالية، وبعضها مفتاحاً لها، فمن صام شهر ذي الحجة سوى الأيام المحرم صيامها منه وصام المحرم فقد ختم السنة بالطاعة وافتتحها بالطاعة، فيرجى أن تكتب له سنته كلها طاعة، فإن من كان أول عمله طاعة وآخره طاعة فهو في حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين. وفي حديث مرفوع: «ما من حافظين يرفعان إلى الله صحيفة فيرى في أولها وفي آخرها خيراً إلا قال الله للملائكة: أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفيها»[2] خرجه الطبراني وغيره، وهو موجود في بعض نسخ كتاب الترمذي، وفي حديث آخر مرفوع: «ابن آدم! اذكرني من أول النهار ساعة، ومن آخر النهار ساعة أغفر لك ما بين ذلك إلا الكبائر أو تتوب منها»[3]. وقال ابن المبارك: من ختم نهاره بذكر الله كتب نهاره كله ذكراً. يشير إلى أن الأعمال بالخواتيم، فإذا كان البداءة والختام ذكراً فهو

---

(١) في الأصل: «فيه».

(٢) ضعيف جداً. رواه الترمذي (٩٨١) قال شيخنا في الضعيفة (٢٢٣٩): «قلت: وهذا إسناد ضعيف جداً».

(٣) ضعيف. رواه ابن شاذن في المشيخة الصغرى (١٥/بتحقيقي) من حديث ابن عمر وفي إسناده أحمد بن عبيد قال فيه الحافظ: «لين الحديث».

أولى أن يكون حكم الذكر شاملًا للجميع، ويتعين افتتاح العام بتوبة نصوح تمحو ما سلف من الذنوب السالفة في الأيام الخالية.

قطعت شهور العام لهواً وغفلة ... ولم تحترم فيما أتيت المحرما
فلا رجباً وافيت فيه بحقه ... ولا صمت شهر الصوم صوماً متمما
ولا في ليالي عشر ذي الحجة الذي ... مضى كنت قَوّاماً ولا كنت محرما
فهل لك أن تمحو الذنوب بعبرة ... وتبكي عليها حسرة وتندما
وتستقبل العام الجديد بتوبة ... لعلك أن تمحو بها ما تقدما

وقد سمّى النبي ﷺ المحرم شهر الله، وإضافته إلى الله يدل على شرفه وفضيلته؛ فإنه تعالى لا يضيف إليه إلا خواص مخلوقاته كما نسب محمداً وإبرهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلى عبوديته، ونسب إليه بيته وناقته. ولما كان هذا الشهر مختصاً بإضافته إلى الله وكان الصيام من بين الأعمال مضافاً إلى الله فإنه له من بين الأعمال ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله بالعمل المضاف إليه المختص به وهو الصيام. وقد قيل في معنى إضافة هذا الشهر إلى الله: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله ﷻ ليس لأحد تبديله .كما كانت الجاهلية يحلونه ويحرمون مكانه صفر فأشار إلى أنه شهر الله الذي حرمه، فليس لأحد من خلقه تبديل ذلك وتغييره.

شهر الحرام مبارك ميمون ... والصوم فيه مضاعف مسنون
وثواب صائمه لوجه إلهه ... في الخلد عند مليكه مخزون

الصيام سر بين العبد وبين ربه ولهذا يقول الله ﷻ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهواته وطعامه وشرابه من أجلي»[١]، «وفي الجنة باب يقال له: الريان لا يدخل منه إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه غيرهم»[٢]، «وهو جنة للعبد من النار كجنة

(١) رواه البخاري مختصراً (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).
(٢) رواه البخاري (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢).

أحدكم من القتال»(١). وفي المسند عن النبي ﷺ قال: «من صام يوماً ابتغاء وجه الله بَعَّدَهُ الله من نار جهنم كبعد غراب طار وهو فرخ حتى مات هرماً»(٢). وفيه أن أبا أمامة قال للنبي ﷺ: أوصني؟ قال: «عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له»(٣) فكان أبو أمامة وأهله يصومون فإذا رُئي في بيتهم دخان بالنهار علم أنه قد نزل بهم ضيف. وممن سرد الصوم عمر وأبو طلحة وعائشة وغيرهم من الصحابة، وخلق كثير من السلف، وممن صام الأشهر الحرم كلها ابن عمر والحسن البصري وغيرهما. قال بعضهم: إنما هو غداء وعشاء فإن أخرت غداءك إلى عشائك أمسيت وقد كتبت في ديوان الصائمين. «للصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه»(٤)؛ إذا وجد ثواب صيامه مدخوراً. سمع بعضهم منادياً ينادي على السحور في رمضان: ياما خبأنا للصوام، فانتبه بذلك وسرد الصوم. وروي: أن الصائمين توضع لهم مائدة تحت العرش فيأكلون والناس في الحساب، فيقول الناس: ما بال هؤلاء يأكلون ونحن نحاسب؟ فيقال: كانوا يصومون وأنتم تفطرون. وروي: أنهم يحكمون في ثمار الجنة والناس في الحساب، روى ذلك ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع. قال الله ﷻ: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقَّة: ٢٤]، قال مجاهد وغيره: نزلت في الصُّوام: من ترك لله طعامه وشرابه وشهوته عوضه الله خيراً من ذلك طعاماً وشراباً لا ينفد وأزواجاً لا تموت. وفي التوراة: طوبى لمن جوع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن ظمأ نفسه ليوم الرِّيّ الأكبر، طوبى لمن ترك شهوة

---

(١) صحيح. رواه أحمد (١٥٨٣٩) والنسائي (٢٢٣٠) وصححه شيخنا في صحيح النسائي (٢٢٣٠).

(٢) ضعيف. أحمد (١٠٤٢٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٣٣٠).

(٣) صحيح. أحمد (٢١٦٤٥) وصححه شيخنا في صحيح النسائي (٢٢٢٢) وقصة أبي أمامة وأهله رواها ابن حبان (٣٤٢٥) وصححها شيخنا أيضاً كما في التعليقات الحسان.

(٤) رواه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).

حاضرة لموعد غيب لم يره، طوبى لمن ترك طعاماً ينفد في دار تنفد لدار أكلها دائم وظلها.

من يرد ملك الجنان فليذر[١] عنه التواني
وليقم في ظلمة الليـ ل إلى نور القرآن
وليصل صوماً بصوم إن هذا العيش فاني
إنما العيش جوار الله في دار الأمان

كان بعض الصالحين يكثر الصوم فرأى في منامه كأنه دخل الجنة فنودي من ورائه: يا فلان تَذْكر أنك صمت لله يوماً قط؟ قال: إي والله، يوم ويوم ويوم، فإذا صواني النثار قد أخذته يمنة ويسرة. كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوته فمات، فرُئي بعض أصحابه في المنام فسأل عن حاله فقال:

قد كسي حلة البهاء واطافت بأباريق حوله الخدام
ثم حُلي وقيل: يا قاري ارقه فلعمري لقد براك الصيام

وصامَ بعضُ التابعين حتى اسودَّ من طول صيامه جلده، وصام الأسود بن يزيد[٢] حتى اخضر جسمه واصفر، وكان إذا عوتب في رفقه بجسده يقول: كرامة هذا الجسد أريد. وصام بعضهم حتى وجد طعم دماغه في حلقه. كان بعضهم يسرد الصوم فمرض وهو صائم فقالوا له: أفطر، فقال: ليس هذا وقت تركٍ. وقيل لآخر منهم وهو مريض: أفطر، فقال: كيف وأنا أسير لا أدري ما يفعل بي. مات عامر بن عبدالله بن الزبير وهو صائم وما أفطر[٣]. ودخلوا على أبي بكر بن أبي مريم وهو في النزع وهو صائم فعرضوا عليه ماء ليفطر فقال: أغربت الشمس؟ قالوا: لا، فأبى أن يفطر ثم أتوه بماء وقد اشتد نزعه، فأومأ إليهم أغربت الشمس؟ قالوا: نعم، فقطروا في فيه قطرة ثم

(١) في نسخة: «فليدع» كما في هامش الأصل.
(٢) في الأصل: «زيد».
(٣) في نسخة: «ما أفطر» كما في الأصل.

مات. واحتضر إبراهيم بن هانئ صاحب الإمام أحمد وهو صائم، وطلب ماء، وسأل: أغربت الشمس؟ قالوا: لا، وقالوا له: قد رخص لك في الفرض وأنت متطوع، قال: أمهل، ثم قال: لمثل هذا فليعمل العاملون، ثم خرجت نفسه وما أفطر. الدنيا كلها شهر صيام المتقين، وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم، ومعظم نهار الصيام قد ذهب وعيد اللقاء قد اقترب.

وقد صمت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم ذلك فطر صيامي

لما كان الصيام سراً بين العبد وربه اجتهد المخلصون في إخفائه بكل طريق حتى لا يطلع عليهم أحد. قال بعض السلف: بلغنا عن عيسى عليه السلام أنه قال: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته ويمسح شفتيه من دهنه حتى ينظر إليه الناظر فيظن أنه ليس بصائم. وعن ابن مسعود قال: إذا أصبح أحدكم صائماً؛ فليترجل ـ يعني: يسرح شعره ـ ويدهنه، وإذا تصدق بصدقة عن يمينه؛ فليخفها عن شماله، وإذا صلى تطوعاً؛ فليصل في داخل بيته. وقال أبو التياح: أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم ادّهن ولبس صالح ثيابه. صام بعض السلف أربعين سنة لا يعلم به أحد، كان له دكان فكان كل يوم يأخذ من بيته رغيفين ويخرج إلى دكانه؛ فيتصدق بهما في طريقه فيظن أهله أنه يأكلهما في السوق، ويظن أهل السوق أنه قد أكل في بيته قبل أن يجيء. اشتهر بعض الصالحين بكثرة الصيام فكان يقوم يوم الجمعة في مسجد الجامع فيأخذ إبريق الماء فيضع بلبلته في فيه ويمصها والناس ينظرون إليه ولا يدخل حلقه منه شيء لينفي عن نفسه ما اشتهر به من الصوم. كم يستر الصادقون أحوالهم وريح الصدق تنم عليهم، ما أسرَّ أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية.

كم أكتم حبكم عن الأغيار والدمع يذيع في الهوى أسراري
كم أستركم هتكتموا أستاري من يخفي في الهوى لهيب النار

ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، فكلما اجتهد صاحبه على إخفائه فاح ريحه للقلوب؛ فتستنشقه الأرواح، وربما ظهر بعد الموت ويوم القيامة.

فكاتم الحب يوم البين منهتك وصاحب الوجد لا تخفى سرائره

لما دفن عبدالله بن غالب كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرُئي في المنام، فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره؟ فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ. وجاء في حديث مرفوع: «يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح صيامهم، أفواههم أطيب من ريح المسك»[(١)].

وهبني كتمت السر أو قلت غيره أتخفى على أهل القلوب السرائر
أبى ذاك أن السر في الوجه ناطق وأن ضمير القلب في العين ظاهر

❋ ❋ ❋

## الفصل الثاني
## في فضل قيام الليل

وقد دلَّ حديث أبي هريرة هذا على أنه أفضل الصلاة بعد المكتوبة. وهل هو أفضل من السنن الراتبة فيه خلاف سبق ذكره. وقال ابن مسعود: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية». وخرجه الطبراني عنه مرفوعاً، والمحفوظ وقفه[(٢)]. وقال عمرو بن العاص: ركعة بالليل خير من عشر بالنهار. خرجه ابن أبي الدنيا. وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار؛ لأنها أبلغ في الإسرار، وأقرب إلى الإخلاص. كان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم. قال الحسن: كان الرجل يكون عنده زواره فيقوم من الليل يصلي ولا يعلم به زواره. وكانوا يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت. وكان الرجل ينام مع زوجته على وسادة فيبكي طول ليلته وهي لا تشعر. وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة طول ليله في محمله ويأمر حاديه أن يرفع صوته ليشغل الناس عنه. وكان بعضهم يقوم في وسط الليل ولا يدرى به، فإذا كان قرب طلوع

---

(١) ضعيف جداً. رواه أبو الشيخ في ثواب الأعمال ومن طريقه القزويني في تاريخه (٣٢٦/٢) من حديث أنس وإسناده واهٍ.

(٢) صحيح موقوفاً. الطبراني في الكبير (١٧٩/١٠) وصحح شيخنا وقفه في الضعيفة (٤٠١٠).

الفجر رفع صوته بالقرآن يوهم أنه قام تلك الساعة. ولأن صلاة الليل أشق على النفوس؛ فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة. قال بعضهم: أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه. ولأن القرآن في صلاة الليل أقرب إلى التدبر؛ فإنه تنقطع الشواغل بالليل ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمّل: ٦] ولهذا المعنى أمر بترتيل القرآن في قيام الليل ترتيلًا، ولهذا كانت صلاة الليل منهاة عن الإثم كما يأتي في حديث خرجه الترمذي[(١)]. وفي المسند عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قيل له: إن فلاناً يصلي من الليل فإذا أصبح سرق؟! فقال: «سينهاه ما تقول»[(٢)]. ولأن وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه، وهو وقت فتح أبواب السماء واستجابة الدعاء واستعراض حوائج السائلين. وقد مدح الله المستيقظين بالليل لذكره ودعائه واستغفاره ومناجاته، فقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، وقال: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧].

وقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزُّمَر: ٩]، وقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١١٣]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسَان: ٢٦]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا

---

(١) حسن. وسيأتي تخريجه.

(٢) صحيح. أحمد (٩٤٨٦) وصححه شيخنا في المشكاة (١٢٣٧).

قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ١ ـ ٤]. قالت عائشة ﵂ لرجل: لا تدع قيام الليل؛ فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض ـ أو قالت: كسل ـ صلى قاعداً[١]. وفي رواية أخرى عنها قالت: بلغني عن قوم يقولون: إنْ أدينا الفرائض لم نبال أن لا نزداد، ولعمري لا يسألهم الله إلا عما افترض عليهم، ولكنهم قوم يخطئون بالليل والنهار وما أنتم إلا من نبيكم، وما[٢] نبيكم إلا منكم، والله ما ترك رسول الله ﷺ قيام الليل ونزعت كل آية فيها قيام الليل. فأشارت عائشة ﵂ إلى أن قيام الليل فيه فائدتان عظيمتان: الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ والتأسي به، وقد قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وتكفير الذنوب والخطايا فإن بني آدم يخطئون بالليل والنهار فيحتاجون إلى الاستكثار من مكفرات الخطايا، وقيام الليل من أعظم المكفرات كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «قيام العبد في جوف الليل يكفر الخطيئة ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]»[٣] الآية خرجه الإمام أحمد وغيره. وقد روي أن المتهجدين يدخلون الجنة بغير حساب. وروي عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ ينادي بصوت يُسمع الخلائق: سيعلم الخلائقُ اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء؛ فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الناس»[٤] خرجه ابن أبي الدنيا وغيره، ويروى عن شهر بن حوشب عن ابن عباس من قوله[٥]،

---

(١) صحيح. أبو داود (١٣٠٧) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٦٣٢).

(٢) في نسخة: «ولا» كما في الأصل.

(٣) صحيح لغيره. أحمد (٢١٥٦٣) وقال شيخنا في صحيح الترغيب (٢٨٦٦): «صحيح لغيره».

(٤) ضعيف. ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد (٣٩١/١) وإسناده ضعيف.

(٥) ضعيف. وقد ضعفه شيخنا كما في الضعيفة (٦٣٢).

ويروى نحوه أيضاً من حديث أبي إسحاق عن عبدالله بن عطاء عن عقبة بن عامر مرفوعاً وموقوفاً، ويروى نحوه أيضاً عن عبادة بن الصامت، وربيعة الجرشي والحسن وكعب من قولهم. قال بعض السلف: قيام الليل يهون طول القيام يوم القيامة، وإذا كان أهله يسبقون إلى الجنة بغير حساب فقد استراح أهله من طول الموقف للحساب. وفي حديث أبي أمامة وبلال المرفوع: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، وتكفير للسيئات، ومنهاة عن الإثم ومطردة للداء عن الجسد» خرجه الترمذي[١]. ففي هذا الحديث أن قيام الليل يوجب صحة الجسد ويطرد عنه الداء وكذلك صيام النهار، ففي الطبراني من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «صوموا؛ تصحوا»[٢]، وكما أن قيام الليل يكفر السيئات فهو يرفع الدرجات. وقد ذكرنا أن أهله من السابقين إلى الجنة بغير حساب، وفي حديث المنام المشهور الذي خرجه الإمام أحمد والترمذي: «إن الملأ الأعلى يختصمون في الدرجات والكفارات»، وفيه: «إن الدرجات إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»[٣]، وفي المسند والترمذي وغيرهما عن النبي ﷺ من وجوه: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها»[٤] وإنها لأهل هذه الخصال الثلاثة. وفي حديث عبدالله بن سلام المشهور المخرج في السنن: أنه أول ما سمع النبي ﷺ يقول عند قدومه المدينة: «يا أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام»[٥].

---

(١) حسن إلا قوله: «ومطردة للداء عن الجسد». الترمذي (٣٥٤٩) قال شيخنا في الإرواء (٤٥٢): «الحديث حسن دون الزيادة لأنها لم تأت من طريقين يصلح أن يقوى أحدهما الآخر بخلاف أصل الحديث...».
(٢) ضعيف. الطبراني في الأوسط (٨/١٧٤) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٥٣).
(٣) صحيح. أحمد (١٦١٨٥) والترمذي (٣٢٣٣) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣١٩٦).
(٤) صحيح لغيره. أحمد (١٣٤٠) والترمذي (١٩٨٤) صححه شيخنا في صحيح الترغيب (٦١٨).
(٥) صحيح. الترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجه (٣٢٥١) وصححه شيخنا في الصحيحة (٥٦٩) على شرط الشيخين.

**ومن فضائل التهجد**: أن الله ﷻ يحب أهله ويباهي بهم الملائكة ويستجيب دعاءهم. روى الطبراني وغيره من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم ـ فذكر منهم ـ الذي له امرأة حسناء وفراش حسن فيقوم من الليل، فيقول الله: يذر شهوته فيذكرني ولو شاء رقد، والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضراء وسراء»[١]. وخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يحبهم الله ـ فذكر منهم ـ وقوم ساروا ليلهم حتى إذا كان النوم أحبَّ إليهم مما يعدل به فوضعوا رؤوسهم قام يتملقني ويتلو آياتي» وصححه الترمذي[٢]. وفي المسند عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحِبّه إلى صلاته، فيقول ربنا تبارك وتعالى: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه من بين أهله وحِبّه إلى الصلاة رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي»[٣] وذكر بقية الحديث.

وقوله: «ثار» فيه إشارة إلى قيامه بنشاط وعزم.

ويروى من حديث عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر: رجل قام من جوف الليل فأحسن الطهور فصلى، ورجل نام وهو ساجد، ورجل في كتيبة منهزمة فهو على فرس جواد لو شاء أن يذهب لذهب»[٤] وخرجه ابن ماجه من رواية مجالد[٥] عن أبي الوداك

---

(١) حسن. الطبراني في الكبير، وحسنه شيخنا في الصحيحة (٣٤٧٨).

(٢) ضعيف لكن قدر الشاهد منه صحيح. أحمد (٢٠٨٤٨) والنسائي (١٦١٥) والترمذي (٢٥٦٨) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٩٢٢) ثم ذكر شيخنا في هداية الرواة (٢/٢٩٩) أن للحديث طريقاً أخرى عن أبي ذر بنحوه عند أحمد (٥/١٧٦) وغيره بإسناد صحيح قلت: وبها يصح موضع الشاهد الذي ساقه المؤلف من أجله وهو فضل قيام الليل.

(٣) حسن لغيره. أحمد (٣٩٣٩) قال شيخنا في صحيح الترغيب (٦٣٠): «حسن لغيره».

(٤) ضعيف. رواه البزار في مسنده (١/٣٤٤) كما قاله شيخنا قلت: ورواه أيضاً ابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (١/١٩٠ ـ ١٩١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٧/٤٥٦).

(٥) في الأصل: «مجاهد».

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليضحك إلى ثلاثة: الصف في الصلاة، والرجل يصلي في جوف الليل، والرجل يقاتل ـ أراه قال: ـ خلف الكتيبة»(١). وروينا من حديث أبان عن أنس عن ربيعة بن وقاص عن النبي ﷺ قال: «ثلاث مواطن لا ترد فيها دعوة: رجل يكون في برية حيث لا يراه أحد فيقوم فيصلي؛ فيقول الله لملائكته: أرى عبدي هذا يعلم أن له رباً يغفر الذنب، فانظروا ما يطلب؟ فتقول الملائكة: إي رب رضاك ومغفرتك، فيقول: اشهدوا أني قد غفرت له ورضيت عنه، ورجل يقوم من الليل فيقول الله ﷻ: أليس قد جعلتُ الليل سكناً والنوم سباتاً فقام عبدي هذا يصلي ويعلم أن له رباً، فيقول الله لملائكته: انظروا ما يطلب عبدي هذا؟ فتقول الملائكة: يا رب رضاك ومغفرتك، فيقول: اشهدوا أني قد غفرت له، وذكر الثالث: الذي يكون في فئة فيفر أصحابه ويثبت هو»(٢) ـ وهو مذكور أيضاً في كل الأحاديث المتقدمة ـ.

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل فيعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد، فيتوضأ، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الربُّ ﷻ للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه [ليسألني]؛ ما سألني عبدي هذا فهو له»(٣).

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «نِعْمَ الرجل ـ يعني: عبدالله بن عمر ـ لو كان يصلي من الليل» فكان عبدالله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلاً(٤).

---

(١) ضعيف. ابن ماجه (٢٠٠) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٤٥٣).
(٢) ضعيف جداً. رواه ابن منده في معرفة الصحابة (٢/١٣) وإسناده ضعيف جداً قاله شيخنا في الضعيفة (٣٤٤٦).
(٣) حسن. أحمد (٢٧٧٣٤) وابن حبان (١٠٥٢) وحسنه شيخنا في التعليقات الحسان.
(٤) البخاري (١١٢٢) ومسلم (٢٤٧٩).

كان أبو ذر ﷺ يقول للناس: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟ قالوا: بلى، قال: فسفر طريق القيامة أبعد فخذوا له ما يصلحكم، حجوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يوماً شديداً حرُّهُ لحرِ يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور، وتصدقوا بصدقة لشر يوم عسير.

أين رجال الليل؟ أين الحسن وسفيان والفضيل؟

يا رجال الليل جدوا ... رُبَّ داعٍ لا يُرَدُّ
ما يقوم الليلَ إلا ... من له عزم وَجِدُّ
ليس شيء كصلاة ... الليل للقبر يُعَدُّ

صلى كثير من السلف صلاة الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة، ومنهم من صلى كذلك أربعين سنة. قال بعضهم: منذ أربعين سنة ما أحزنني إلا طلوع الفجر. قال ثابت: كابدت قيام الليل عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة أخرى. أفضل قيام الليل أوسطه. قال النبي ﷺ: «أفضل القيام قيام داود كان[1] ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[2]، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الصارخ يقوم للصلاة[3] - والصارخ: الديك، وهو يصيح وسط الليل -. وخرج النسائي عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ: أي قيام الليل خير؟ قال: «جوفه»[4].

وخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ: أي قيام الليل أفضل؟ قال: «جوف الليل الغابر - أو نصف الليل - وقليل فاعله»[5]. وخرج ابن أبي الدنيا من حديث أبي أمامة أن رجلًا قال: يا رسول الله أي الصلاة أفضل؟ قال: «جوف الليل الأوسط» قال: أي الدعاء أسمع؟ قال:

---

(١) في نسخة: «وكان» كما في الأصل.
(٢) البخاري (١١٣١) ومسلم (١١٥٩) بلفظ: «أحب».
(٣) البخاري (١١٣٢) ومسلم (٧٤١).
(٤) صحيح. النسائي في الكبرى (٢/٤٧٠) وانظر صحيح الترغيب (١٠١٦).
(٥) ضعيف. أحمد (٢١٠٤٥) وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (١١٢٠).

«دبر المكتوبات»[(١)]، وخرجه الترمذي والنسائي ولفظهما: أنه سأله أي الدعاء أسمع؟ قال: «جوف الليل الأخير، ودبر الصلوات المكتوبات»[(٢)]. وخرج الترمذي من حديث عمرو بن عبسة سمع النبي ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[(٣)].

ويروى أن داود عليه السلام قال: يا رب أي وقت أقوم لك؟ قال: لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إلي حوائجك. وفي الأثر المشهور: كذب من ادعى محبتي؛ فإذا جَنَّهُ الليل نام عني، أليس كل محب[(٤)] يحب خلوة حبيبه؟ فها أنا ذا مطلع على أحبابي، إذا جنهم الليل جعلت أبصارهم في قلوبهم فخاطبوني على المشاهدة، وكلموني على حضوري، غداً أقر أعين أحبابي في جناني.

الليل لي ولأحبابي أحادثهم ... قد اصطفيتهم كي يسمعوا ويعوا
لهم قلوب بأسراري لها ملئت ... على ودادي وإرشادي لهم طبعوا
سروا فما وهنوا عجزاً ولا ضعفوا ... وواصلوا حبل تقريبي فما انقطعوا

ما عند المحبين ألذ من أوقات الخلوة بمناجاة محبوبهم هو شفاء قلوبهم ونهاية مطلوبهم.

كتمت اسم الحبيب عن العبادي ... ورددت الصبابة في فؤادي
فوا شوقاً إلى بلد خليٍّ ... لعلي باسم من أهوى أنادي

---

(١) حسن لغيره. ابن أبي الدنيا في التهجد (٣٠٤/١) والحديث حسنه لشواهده شيخنا في الكلم الطيب (١١٤).

(٢) حسن لغيره. الترمذي (٣٤٩٩) والنسائي (٥٧٢) والحديث حسنه شيخنا في الكلم الطيب (١١٤).

(٣) صحيح. الترمذي (٣٥٧٩) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٦٤٧).

(٤) في نسخة: «حبيب» كما في الأصل.

كان داود الطائي يقول في الليل: همك عطل علي الهموم، وحالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات. وكان عتبة الغلام يقول في مناجاته بالليل: إن تعذبني فإني لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب.

لو أنك أبصرت أهل الهوى    إذا غارت الأنجم الطلع
فهذا ينوح على ذنبه    وهذا يصلي وذا يركع

من لم يشاركهم في هواهم وذوق حلاوة نجواهم لم يدر ما الذي أبكاهم، من لم يشاهد جمال يوسف لم يدر ما الذي آلم قلب يعقوب.

من لم يبت والحب حشو فؤاده    لم يدر كيف تفتت الأكباد

كان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وسط الليل للمحبين للخلوة بمناجاة حبيبهم، والسحر للمذنبين للاستغفار من ذنوبهم، فوسط الليل خاص لخلوة الخواص، والسحر عام لرفع قصص الجميع وبروز التوقيع لأهلها بقضاء الحوائج، فمن عجز عن مسابقة المحبين في ميدان مضمارهم، فلا يعجز عن مشاركة المذنبين في استغفارهم واعتذارهم، صحائف التائبين خدودهم، ومدادهم دموعهم. قال بعضهم: إذا بكى الخائفون فقد كاتبوا الله بدموعهم، رسائل الأسحار تحمل ولا يدري بها الفلك، وأجوبتها ترد إلى الأسرار ولا يعلم بها الملك.

صحائفنا إشارتنا    وأكثر رسلنا الحرق
لأن الكتب قد تقرا    بغير الدمع لا تثق

لا تزال القصص تستعرض ويوقع عليها بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر، ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأجيب دعوته إلى أن ينفجر الفجر؛ فلذلك كانوا يفضلون صلاة الليل آخر الليل على أوله.

نحن الذين إذا أتانا سائل    نوليه إحساناً وحسن تكرم

**ونقول في الأسحار: هل من تائب مستغفر لينال خير المنعم[١]**

الغنيمة تقسم على كل من حضر الوقعة فيعطي منها الرجالة والأجراء والغلمان مع الأمراء والأبطال والشجعان والفرسان فما يطلع فجر الأجر إلا وقد حاز القوم الغنيمة وفازوا بالفخر وحمدوا. عند الصباح يحمد القوم السُّرَى، وما عند أهل الغفلة والنوم خبر مما جرى. كان بعض الصالحين يقوم الليل فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: يا أيها الركب المعرسون، أكل هذا الليل ترقدون؟ ألا تقومون فترحلون، فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فرشهم فيسمع من هنا باكٍ، ومن هنا داعٍ، ومن هنا تالٍ، ومن هنا متوضئ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السُّرَى.

**يا نفس قومي فلقد نام الورى واصطنعي الخير فذو العرش يرى**
**وأنتِ يا عين دعي عنك الكرى عند الصباح يحمد القوم السرى**

يا قُوَّام الليل اشفعوا في النوام، يا أحياء القلوب ترحموا على الأموات.

قيل لابن مسعود: ما نستطيع قيام الليل؟ قال: أبعدتكم ذنوبكم. وقيل للحسن: قد أعجزنا قيام الليل؟ قال: قيدتكم خطاياكم. وقال الفضيل: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك. قال الحسن: إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل. قال بعض السلف: أذنبت ذنباً فحرمت به قيام الليل ستة أشهر. ما يؤهل الملوك للخلوة بهم إلا من أخلص في ودهم ومعاملتهم، فأما من كان من أهل المخالفة فلا يؤهلونه. وفي بعض الآثار: إن جبريل عليه السلام ينادي كل ليلة: أقم فلاناً وأنم فلاناً. قام بعض الصالحين في ليلة باردة وعليه ثياب رثة فضربه البرد فبكى فهتف به هاتف أقمناك وأنمناهم ثم تبكي علينا.

**يا حسنهم والليل قد جنهم ونورهم يفوق نور الأنجم**

---

(١) في نسخة: «المغنم» كما في هامش الأصل.

ترنموا بالذكر في ليلهم ... فعيشهم قد طاب بالترنم
قلوبهم للذكر قد تفرغت ... دموعهم كلؤلؤ منتظم[(١)]
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت ... وخلع الغفران خير القسم

الليل منهل يرده أهل الإرادة كلهم، ويختلفون فيما يردون ويريدون؛ قد علم كل أناس مشربهم، فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يتضرع لطلب العفو ويبكي على ذنوبه، والراجي يلح في سؤال مطلوبه، والغافل المسكين أحسن الله عزاءه في حرمانه، وفوات نصيبه. قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو: «لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[(٢)].

مرضت رابعة مرة فصارت تصلي وردها بالنهار فعوفيت، وقد ألفت ذلك وانقطع عنها قيام الليل فرأت ذات ليلة في نومها كأنها أدخلت إلى روضة خضراء عظيمة، وفتح لها فيها باب دار فسطع منها نور حتى كاد يخطف بصرها، فخرج منها وُصَفَاء كأنّ وجوههم اللؤلؤ بأيديهم مجامر فقالت لهم امرأة كانت مع رابعة: أين تريدون؟ قالوا: نريد فلاناً قتل شهيداً في البحر فنجمره، فقالت لهم: أفلا تجمرون هذه المرأة ـ تعني: رابعة ـ فنظروا إليها وقالوا: قد كان لها حظ في[(٣)] ذلك فتركته، فالتفتت تلك المرأة إلى رابعة وأنشدت:

صلاتك نور والعباد رقود ... ونومك ضد للصلاة عنيد

كان بعض العلماء يقوم السحر فنام عن ذلك ليالي، فرأى في منامه رجلين وقفا عليه، وقال أحدهما للآخر: هذا كان من المستغفرين بالأسحار فترك ذلك، يا من كان له قلب فانقلب، يا من كان له وقت مع الله فذهب، قيام السحر يستوحش لك، صيام النهار يسائل عنك، ليالي الوصال تعاتبك على الهجر.

(١) في نسخة: «منظم».
(٢) رواه البخاري (١١٥٢) ومسلم (١١٥٩).
(٣) في نسخة: «من» كما في الأصل.

تغيرتم عنا بصحبة غيرنا وأظهرتم الهجران ما هكذا كنا
وأقسمتم أن لا تحولوا عن الهوى فحلتم عن العهد القديم وما حلنا
ليالي كنا نشتفي من وصالكم فقلبي إلى تلك الليالي قد حنا

قيل للنبي ﷺ: إن فلاناً نام حتى أصبح؟ فقال: «بال الشيطان في أذنه»[١].

كان سَرِيّ يقول: رأيت الفوائد ترد في ظلمة الليل، ماذا فات من فاته خير الليل؟ لقد حَصَّل أهلُ الغفلة والنوم الحرمان والويل. كان بعض السلف يقوم الليل فنام ليلة؛ فأتاه آتٍ في منامه فقال له: قم فصل، ثم قال له: أما علمت أن مفاتح الجنة مع أصحاب الليل هم خُزَّانُها. وكان آخر يقوم الليل فنام ليلة فأتاه في منامه آت فقال له: ما لك قصرت في الخطبة؟ أما علمت أن المتهجد إذا قام إلى تهجده قالت الملائكة: قام الخاطب إلى خطبته. ورأى بعضهم حوراء في نومه فقال لها: زوجيني نفسك قالت: اخطبني إلى ربي وأمهرني، قال: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد. نام أبو سليمان [الداراني] فأيقظته حوراء وقالت: يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك في الخدور من خمسمائة عام. واشترى بعضهم من الله حوراء بصداق ثلاثين ختمة، فنام ليلة قبل أن يكمل الثلاثين ختمة[٢] فرآها في منامه تقول له:

أتخطب مثلي وعني تنام ونوم المحبين عني حرام
لأنا خلقنا لكل امرئ كثير الصلاة براه الصيام

كان النبي ﷺ يطرق باب فاطمة وعلي ويقول: «ألا تصليان؟»[٣] وفي الحديث: «إذا استيقظ الرجل وأيقظ أهله فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[٤]. كانت امرأة حبيب [العجمي] توقظه بالليل وتقول:

---

(١) رواه البخاري (١١٤٤) ومسلم (٧٧٤).
(٢) لفظة: «ختمة» زيادة من بعض النسخ كما في الأصل.
(٣) رواه البخاري (١١٢٧) ومسلم (٧٧٥).
(٤) صحيح. رواه أبو داود (١٣٠٩) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٦٢٦).

ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا.

يا راقد الليل كم[١] ترقد قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته ورداً إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لأولي الألباب أهل التقى قنطرة العرض لكم موعد

* * *

## المجلس الثاني
## في فضل يوم عاشوراء

في الصحيحين[٢] عن ابن عباس أنه سئل عن صوم يوم عاشوراء فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ صام يوماً يتحرى فضله على الأيام إلا هذا اليوم ـ يعني: يوم عاشوراء ـ وهذا الشهر ـ يعني: رمضان ـ.

يوم عاشوراء له فضيلة عظيمة، وحرمته قديمة، وصومه لفضله كان معروفاً بين الأنبياء عليهم السلام، وقد صامه نوح وموسى عليهما السلام كما سنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ. وروى إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يوم عاشوراء كانت تصومه الأنبياء؛ فصوموه أنتم»[٣] خرجه بقي بن مخلد في مسنده. وقد كان أهل الكتاب يصومونه وكذلك قريش في الجاهلية كانت تصومه. وقال دلهم بن صالح: قلت لعكرمة: عاشوراء ما أمره؟ قال: أذنبت قريش في الجاهلية ذنباً فتعاظم في صدورهم فسألوا ما توبتهم؟ قيل: صوموا[٤] يوم عاشوراء يوم العاشر من المحرم.

---

(١) في الأصل: «فكم».
(٢) البخاري (٢٠٠٦) ومسلم (١١٣٢)
(٣) ضعيف. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١١/٢) من طريف الهجري به قال شيخنا في الضعيفة (٣٨٥١): «قلت: وهذا إسناد ضعيف إبراهيم الهجري لين الحديث».
(٤) في نسخة: «صوم» كما في الأصل.

وكان للنبي ﷺ في صيامه أربع أحوال:

**الحالة الأولى**: أنه كان يصومه بمكة ولا يأمر الناس بالصوم، ففي الصحيحين عن عائشة قالت: كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان النبي ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما نزلت فريضة شهر رمضان كان رمضان هو الذي يصومه فترك صوم(١) عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء أفطره(٢). وفي رواية للبخاري؛ قال رسول الله ﷺ: «من شاء فليصم ومن شاء أفطر»(٣).

**الحالة الثانية**: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة ورأى صيام أهل الكتاب له وتعظيمهم له فكان يحب موافقتهم فيما لم يؤمر به صامه وأمر الناس بصيامه وأكد الأمر بصيامه والحث عليه حتى كانوا يصومونه أطفالهم، ففي الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه؛ فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه؛ فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه(٤). وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: مَرَّ النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا عاشوراء فقال: «ما هذا من الصوم؟» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله ﷻ فيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي؛ فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله ﷻ؛ فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم، وأحق بصوم هذا اليوم» فأمر أصحابه بالصوم(٥).

---

(١) في نسخة: «يوم» كما في الأصل.

(٢) البخاري (٢٠٠٢و٣٨٣١و٤٥٠٤) ومسلم (١١٢٥).

(٣) البخاري (١٨٩٣).

(٤) البخاري (٢٠٠٤) ومسلم (١١٣٠).

(٥) ضعيف. أحمد (٨٥٠٠) قال الشيخ شعيب الأرنوؤط في تعليقه على المسند (١٤/٣٣٥): «إسناده ضعيف... ويشهد لقصة موسى منه دون قصة نوح عليه السلام حديث ابن عباس عند البخاري ومسلم».

وفي الصحيحين عن سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ أمر رجلًا من أسلم: أن أذن في الناس: «من أكل فليصم بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم؛ فإن اليوم يوم عاشوراء»(١)، وفيهما أيضاً عن الربيع بنت معوذ قالت: أرسل رسول الله ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: «من كان أصبح صائماً فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطراً فليتم بقية يومه» فكنا بعد ذلك نصومه ونصوم صبياننا الصغار منهم، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه إياها حتى يكون عند الإفطار(٢). وفي رواية(٣): فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة نلهيهم حتى يتموا صومهم. وفي ذلك أحاديث كثيرة جداً.

وخرج الطبراني بإسناد فيه جهالة أن النبي ﷺ كان يدعو يوم عاشوراء برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة، فيتفل في أفواههم ويقول لأمهاتهم: «لا ترضعوهم إلى الليل» وكان ريقه ﷺ يجزئهم(٤). وقد اختلف العلماء هل كان صوم عاشوراء قبل فرض شهر رمضان واجباً أم كان سنة مؤكدة؟ على قولين مشهورين. ومذهب أبي حنيفة أنه كان واجباً حينئذٍ، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد وأبي بكر الأثرم. وقال الشافعي: بل كان متأكد الاستحباب فقط. وهو قول كثير من أصحابنا وغيرهم.

**الحالة الثالثة**: أنه لما فرض صيام شهر رمضان ترك النبي ﷺ أمر أصحابه بصيام يوم عاشوراء وتأكيده فيه، وقد سبق حديث عائشة في ذلك. وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: صام رسول الله ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك ذلك(٥). وكان عبدالله لا يصومه إلا أن

---

(١) البخاري (٢٠٠٧) ومسلم (١١٣٥).

(٢) البخاري (١٩٦٠) ومسلم (١١٣٦).

(٣) لمسلم.

(٤) ضعيف. الطبراني في الكبير (٢٧٧/٢٤) وفي الأوسط (٨٥/٣) وإسناده ضعيف كما قال المصنف.

(٥) البخاري (١٨٩٢) ومسلم (١١٢٦).

يوافق صومه. وفي رواية لمسلم: إن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء وأن رسول الله ﷺ صامه والمسلمون قبل أن يفرض رمضان، فلما افترض رمضان قال رسول الله ﷺ: «إن عاشوراء يوم من أيام الله فمن شاء صامه ومن شاء تركه»[١]. وفي رواية أيضاً: «فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه، ومن كره فليدعه»[٢]. وفي الصحيحين أيضاً عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه، وأنا صائم؛ فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر»[٣]. وفي رواية لمسلم التصريح برفع آخره. وفي رواية للنسائي أن آخره مدرج من قول معاوية وليس بمرفوع. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال في يوم عاشوراء: هو يوم كان رسول الله ﷺ يصومه قبل أن ينزل رمضان، فلما نزل شهر رمضان ترك[٤]. وفي رواية: له تركه. وفيه أيضاً عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام يوم عاشوراء ويحثنا عليه ويتعاهدنا عنده، فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا عنه، ولم يتعاهدنا عنده[٥]. وخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث قيس بن سعد قال: أمرنا رسول الله ﷺ بصيام عاشوراء قبل أن ينزل رمضان، فلما نزل رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا. وفي رواية: ونحن نفعله[٦]. فهذه الأحاديث كلها تدل على أن النبي ﷺ لم يجدد أمر الناس بصيامه بعد فرض صيام شهر رمضان بل تركهم على ما كانوا عليه من غير نهي عن صيامه. فإن كان أمره ﷺ بصيامه قبل فرض صيام شهر رمضان للوجوب فإنه ينبني على أن

---

(١) مسلم (١١٢٦).

(٢) مسلم (١١٢٦).

(٣) البخاري (٢٠٠٣) ومسلم (١١٢٩).

(٤) مسلم (١١٢٧).

(٥) مسلم (١١٢٨).

(٦) صحيح. أحمد (٢٣٣٢٨) والنسائي (٢٥٠٦) وابن ماجه (١٨٢٨) لكن ابن ماجه لم يذكر صوم عاشوراء وإنما ذكر من الحديث صدقة الفطر والحديث صححه شيخنا في صحيح النسائي (٢٥٠٧).

الوجوب إذا نسخ فهل يبقى الاستحباب أم لا؟ وفيه اختلاف مشهور بين العلماء، وإن كان أمره للاستحباب المؤكد، فقد قيل: إنه زال التأكيد وبقي أصل الاستحباب، ولهذا قال قيس بن سعد: ونحن نفعله. وقد روي عن ابن مسعود وابن عمر ما يدل على أن أصل استحباب صيامه زال. وقال سعيد بن المسيب: لم يصم رسول الله ﷺ عاشوراء. وروي عنه عن سعد بن أبي وقاص، والمرسل أصح قاله الدارقطني[١]. وأكثر العلماء على استحباب صيامه من غير تأكيد، وممن روي عنه صيامه من الصحابة عمر وعلي وعبدالرحمٰن بن عوف وأبو موسى وقيس بن سعد وابن عباس وغيرهم. ويدل على بقاء استحبابه قول ابن عباس وغيره: لم أر رسول الله ﷺ يصوم يوماً يتحرى فضله على الأيام إلا يوم عاشوراء، وشهر رمضان. وابن عباس إنما صحب النبي ﷺ بأخرة، وإنما عقل منه ﷺ ما كان من آخر أمره. وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن صيام عاشوراء؟ فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[٢]. وإنما سأله عن التطوع بصيامه، وإنه سأله أيضاً عن صيام يوم عرفة، وصيام الدهر، وصيام يوم وفطر يوم، وصيام يوم وفطر يومين[٣]، فعلم أنه إنما سأله عن صيام التطوع.

وخرج الإمام أحمد والنسائي من حديث حفصة بنت عمر أم المؤمنين: أن النبي ﷺ لم يكن يدع صيام يوم عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر[٤]. وخرجه أبو داود، إلا أن عنده عن بعض أزواج النبي ﷺ غير مسماة.

**الحالة الرابعة**: أن النبي ﷺ عزم في آخر عمره على أن لا يصومه

---

(١) علل الدارقطني (٤/٣٦٩)

(٢) مسلم (١١٦٢).

(٣) مسلم (١١٦٢).

(٤) ضعيف. أحمد (٢٥٩٢٠) والنسائي (٢٤١٦) والحديث ضعفه شيخنا في الإرواء (٩٥٤).

مفرداً بل يضم إليه يوماً آخر مخالفة لأهل الكتاب في صيامه. ففي صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال حين صام رسول الله ﷺ عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله ﷺ: «فإذا كان العام المقبل ـ إن شاء الله ـ صمنا اليوم التاسع» قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ[١]. وفي رواية له[٢] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع ـ يعني: عاشوراء ـ»، وخرجه الطبراني ولفظه: «إن عشت ـ إن شاء الله ـ إلى قابل صمت التاسع مخافة أن يفوتني عاشوراء»[٣]. وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود، صوموا قبله يوماً وبعده يوماً»[٤]، وجاء في رواية: «أو بعده»، فإما أن تكون [أو] للتخير، أو تكون شكاً من الراوي: هل قال: «قبله أو بعده». وروي هذا الحديث بلفظ آخر وهو: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن، ولآمرن بصيام يوم قبله ويوم بعده ـ يعني: عاشوراء ـ»، أخرجهما[٥] الحافظ أبو موسى المديني[٦]. وقد صح هذا عن ابن عباس من قوله من رواية ابن جريج قال: أخبرنا عطاء أنه سمع ابن عباس يقول في يوم عاشوراء: خالفوا اليهود، صوموا التاسع والعاشر. قال الإمام أحمد: أنا أذهب إليه. وروي عن ابن عباس: أنه صام التاسع والعاشر، وعلل بخشية فوات عاشوراء. روى ابن أبي ذئب عن شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس: أنه كان يصوم

---

(١) مسلم (١١٣٤).

(٢) مسلم (١١٣٤).

(٣) صحيح. الطبراني في الكبير (١٠/٣٣٠) قال شيخنا في الصحيحة (١/٦٨٦): «قلت: وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات».

(٤) ضعيف. أحمد (٢١٥٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/٢٨٧) والحديث ضعفه شيخنا في حجاب المرأة المسلمة (١٧٧). تنبيه: لفظ أحمد: «أو بعده» وعند البيهقي «أو بعده» و «و بعده».

(٥) كذا الأصل وفي بعض النسخ المطبوعة بعد الحديث: «وفي رواية أخرى: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع أخرجهما. . .».

(٦) منكر. رواه البيهقي (٤/٢٨٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٢٩٧).

عاشوراء في السفر، ويوالي بين اليومين خشية فواته. وكذلك روي عن أبي إسحاق أنه صام يوم عاشوراء ويوماً قبله ويوماً بعده وقال: إنما فعلت ذلك خشية أن يفوتني، وروي عن ابن سيرين أنه كان يصوم ثلاثة أيام عند الاختلاف في هلال الشهر احتياطاً. وروي عن ابن عباس والضحاك أن يوم عاشوراء هو تاسع المحرم. قال ابن سيرين: كانوا لا يختلفون أنه العاشر، إلا ابن عباس فإنه قال: إنه التاسع. وقال الإمام أحمد في رواية الميموني: لا أدري هو التاسع أو العاشر ولكن نصومهما، فإن اختلف في الهلال صام ثلاثة أيام احتياطاً. وابن سيرين يقول ذلك، وممن رأى صيام التاسع والعاشر الشافعي وأحمد وإسحاق، وكره أبو حنيفة إفراد العاشر وحده بالصوم. وروى الطبراني من حديث ابن أبي الزناد عن أبيه عن خارجة بن زيد عن أبيه قال: ليس يوم عاشوراء باليوم الذي يقول الناس: إنما كان يوم تستر فيه الكعبة، وتقلس فيه الحبشة عند النبي ﷺ، فكان يدور في السنة فكان الناس يأتون فلاناً اليهودي يسألونه، فلما مات اليهودي أتوا زيد بن ثابت فسألوه. وهذا فيه إشارة إلى أن عاشوراء ليس هو في المحرم بل يحسب بحساب السنة الشمسية كحساب أهل الكتاب وهذا خلاف ما عليه عمل المسلمين قديماً وحديثاً. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يعد من هلال المحرم، ثم يصبح يوم التاسع صائماً[١]. وابن أبي الزناد لا يعتمد على ما ينفرد[٢] به. وقد جعل الحديث كله عن زيد بن ثابت، وآخره لا يصلح أن يكون من قول زيد فلعله من قول من هو دونه، والله أعلم. و كان طائفة من السلف يصومون عاشوراء في السفر منهم ابن عباس وأبو إسحاق السبيعي والزهري وقال: رمضان له عدة من أيام أخر، وعاشوراء يفوت. ونص أحمد على أنه يصام عاشوراء في السفر. وروى عبدالرزّاق في كتابه عن إسرائيل عن سماك بن حرب عن معبد القرشي قال: كان النبي ﷺ بقديد، فأتاه رجل، فقال له النبي ﷺ: «أطعمت اليوم شيئاً ليوم عاشوراء؟»

(١) مسلم (١١٣٣).

(٢) في نسخة: «ما تفرد» كما في الأصل.

قال: لا، إلا أني شربت ماء، فقال: «فلا تطعم شيئاً حتى تغرب الشمس وأمر من وراءك أن يصوموا هذا اليوم»[١]. ولعل المأمور كان من أهل قديد. وروى بإسناده عن طاوس أنه كان يصوم عاشوراء في الحضر ولا يصومه في السفر.

ومن أعجب ما ورد في عاشوراء أنه كان يصومه الوحش والهوام. وقد روي مرفوعاً: «أن الصرد أول طير صام عاشوراء». خرجه الخطيب في تاريخه وإسناده غريب[٢]. وقد روي ذلك عن أبي هريرة[٣].

وروي عن فتح بن شخرف قال: كنت أفت للنمل الخبز كل يوم فلما كان عاشوراء لم يأكلوه.

وروي عن القادر بالله الخليفة العباسي أنه جرى له مثل ذلك وأنه عجب منه فسأل أبا الحسن القزويني الزاهد فذكر له أن يوم عاشوراء تصومه النمل.

وروى أبو موسى المديني بإسناده عن قيس بن عباد[٤] قال: بلغني أن الوحش كانت تصوم عاشوراء. وبإسناد له عن رجل أتى البادية يوم عاشوراء، فرأى قوماً يذبحون ذبائح فسألهم عن ذلك فأخبروه أن الوحش صائمة، وقالوا: اذهب بنا نرك، فذهبوا به إلى روضة فأوقفوه قال: فلما كان بعد العصر جاءت الوحوش من كل وجه، فأحاطت بالروضة رافعة رؤوسها إلى السماء ليس شيء منها يأكل حتى إذا غابت الشمس أسرعت جميعاً فأكلت. وبإسناده عن عبدالله بن عمرو قال: بين الهند والصين أرض

(١) ضعيف. عبدالرزّاق (٢٨٦/٤) قلت: وإسناده ضعيف.

(٢) موضوع. الخطيب في تاريخه (٢٩٦/٦) والحديث حكم عليه جماعة من الأئمة بالوضع منهم ابن الجوزي في الموضوعات (٢٠٤/٢) وقال بعد أن بين علته: «ومما يرد هذا أن الطير لا يوصف بالصوم».

(٣) موضوع. رواه الحكيم الترمذي في كتاب المناهي كما في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (١١٠/٢) بإسناد واهٍ.

(٤) في نسخة: «عبادة» كما في الأصل، والصواب ما أثبتناه.

كان بها بطة من نحاس على عمود من نحاس، فإذا كان يوم عاشوراء مدت منقارها فيفيض من منقارها ماء يكفيهم لزرعهم ومواشيهم إلى العام المقبل.

رُئي بعض العلماء المتقدمين في المنام، فسئل عن حاله، فقال: غفر لي بصيام عاشوراء ستين سنة، وفي رواية: ويوم قبله ويوم بعده. وذكر عبدالوهّاب الخفاف في كتاب الصيام: قال سعيد: قال قتادة: كان يقال: صوم عاشوراء كفارة لما ضيع الرجل من زكاة ماله. وقد روي: أن يوم عاشوراء كان يوم الزينة الذي كان فيه ميعاد موسى لفرعون، وأنه كان عيداً لهم. ويروى أن موسى عليه السلام كان يلبس فيه الكتان ويكتحل فيه بالإثمد، وكانت اليهود من أهل المدينة وخيبر في عهد النبي ﷺ يتخذونه عيداً. وكان أهل الجاهلية يقتدون بهم في ذلك، وكانوا يسترون فيه الكعبة. ولكن شرعنا ورد بخلاف ذلك ففي الصحيحين عن أبي موسى قال: كان يوم عاشوراء يوماً تعظمه اليهود وتتخذه عيداً؛ فقال رسول الله ﷺ: «صوموه أنتم»[(١)]، وفي رواية لمسلم: كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء ويتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «فصوموه أنتم»[(٢)]. وخرجه النسائي وابن حبان وعندهما فقال النبي ﷺ: «خالفوهم فصوموه»[(٣)]. وهذا يدل على النهي عن اتخاذه عيداً، وعلى استحباب صيام أعياد الكفار؛ فإن الصوم ينافي اتخاذه عيداً فيوافقون في صيامه مع صيام يوم آخر معه كما تقدم، فإن في ذلك مخالفة لهم في كيفية صيامه أيضاً فلا يبقى فيه موافقة لهم في شيء بالكلية، وعلى مثل هذا يحمل ما خرجه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر ما يصوم من الأيام ويقول: «إنهما يوما عيد للمشركين وأنا أحب أن أخالفهم»[(٤)]. فإنه إذا صام اليومين معاً خرج بذلك

(١) البخاري (٢٠٠٥) ومسلم (١١٣١).

(٢) مسلم (١١٣١).

(٣) صحيح. النسائي في الكبرى (٢/١٥٩) وابن حبان (٣٦١٨) وصححه شيخنا في العليقات الحسان.

(٤) أحمد (٢٦٢١٠) والنسائي في الكبرى (٢/١٤٦) وابن حبان (٣٦١٦) وضعفه شيخنا في =

عن مشابهة اليهود والنصارى في تعظيم كل طائفة ليومها منفرداً، وصيامه فيه مخالفة لهم في اتخاذه عيداً، ويجمع بذلك بين هذا الحديث وبين حديث النهي عن صيام يوم السبت.

وكل ما روي في فضل الاكتحال في يوم عاشوراء والاختضاب والاغتسال فيه فموضوع لا يصح.

وأما الصدقة فيه فقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: من صام عاشوراء فكأنما صام السنة، ومن تصدق فيه كان كصدقة السنة[١]. خرجه أبو موسى المديني.

وأما التوسعة فيه على العيال فقال حرب: سألت أحمد عن الحديث الذي جاء: «من وسع على أهله يوم عاشوراء»[٢] فلم يره شيئاً. وقال ابن منصور: قلت لأحمد: هل سمعت في الحديث: «من وسع على أهله يوم عاشوراء أوسع الله عليه سائر السنة»؟ فقال: نعم. رواه سفيان بن عيينة عن جعفر الأحمر عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر وكان من أفضل أهل زمانه أنه بلغه أنه: «من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته» قال ابن عيينة: جربناه منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما رأينا إلا خيراً. وقول حرب أن أحمد لم يره شيئاً إنما أراد به الحديث الذي يروى مرفوعاً إلى النبي ﷺ

---

= الضعيفة (١٠٩٩) وأعله بجهالة عبدالله بن محمد بن عمر بن علي وأبيه كذلك وذهب بعض العلماء قديماً وحديثاً إلى تحسين الحديث وأجابوا عن جهالة عبدالله بأن ابن حبان وثقه وروى عن جماعة من الثقات وقال ابن المديني: وسط الحديث وقال ابن سعد: قليل الحديث وقال الذهبي: ثقة وسئل الدارقطني كما في سؤالات البرقاني عن سلسلة إسناد فيها عبدالله هذا وأبوه فقال الدارقطني: كلهم ثقات وأما محمد بن عمر فوثقه ابن حبان وروى عنه جماعة وقال الذهبي: ما علمت به بأساً ولا رأيت لهم فيه كلاماً. ووثقه في الكاشف وقال الحافظ ابن حجر: صدوق.

(١) ولا يثبت ذلك عنه.

(٢) ضعيف. رواه الطبراني في الكبير (٧٧/١٠) والأوسط (١٢١/٩) والبيهقي في شعب الإيمان(٣٦٥/٣) وغيرهما وقد بسط شيخنا الكلام عليه في تمام المنة (ص٤١٠) وبين ضعفه وعلله وأطال الرد على من حاول تقويته فانظره فإن فيه فوائد.

فإنه لا يصح إسناده، وقد روي من وجوه متعددة لا يصح منها شيء، وممن قال ذلك محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، وقال العقيلي: هو غير محفوظ، وقد روي عن عمر من قوله وفي إسناده مجهول لا يعرف.

وأما اتخاذه مأتماً كما تفعله الرافضة؛ لأجل قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما فيه؛ فهو من عمل من ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، ولم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتماً، فكيف بمن دونهم.

**ومن فضائل يوم عاشوراء**: أنه يوم تاب الله فيه على قوم، وقد سبق حديث علي الذي خرجه الترمذي أن النبي ﷺ قال لرجل: «إن كنت صائماً شهراً بعد رمضان فصم المحرم؛ فإن فيه يوماً تاب الله على قوم ويتوب فيه على آخرين»(١). وقد صح من حديث أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد(٢) قال: سألت عبيد بن عمير عن صيام يوم عاشوراء فقال: المحرم شهر الله الأصم؛ فيه يوم تيب فيه على آدم، فإن استطعت أن لا يمر بك إلا صمته فافعل. كذا روي عن شعبة عن أبي إسحاق، ورواه إسرائيل عن أبي إسحاق ولفظه قال: إن قوماً أذنبوا فتابوا فيه فتيب عليهم، فإن استطعت أن لا يمر بك إلا وأنت صائم فافعل. ورواه يونس عن أبي إسحاق ولفظه: فإن المحرم شهر الله وهو رأس السنة تكتب فيه الكتب، ويؤرخ فيه التاريخ، وفيه تضرب الورق، وفيه يوم تاب فيه قوم فتاب الله عليهم، فلا يمر بك إلا صمته ـ يعني: يوم عاشوراء ـ. وروى أبو موسى المديني من حديث أبي موسى [مرفوعاً]: «هذا يوم تاب الله فيه على قوم؛ فاجعلوه صلاة وصوماً ـ يعني: يوم عاشوراء ـ»(٣) وقال: حسن غريب. وليس كما قال. وروى بإسناده عن علي قال: يوم عاشوراء هو اليوم الذي تيب فيه على قوم يونس. وعن ابن عباس قال: هو اليوم الذي تيب فيه على آدم. وعن

---

(١) ضعيف. وقد سبق الكلام عليه.

(٢) في الأصل: «زيد» وهو خطأ.

(٣) ضعيف.

وهب: إن الله تعالى أوحى إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن مُر قومك يتقربوا إليَّ في أول عشر المحرم، فإذا كان يوم العاشر؛ فليخرجوا إلي حتى أغفر لهم. وروى عبدالرزّاق عن ابن جريج عن رجل عن عكرمة قال: هو يوم تاب الله فيه على آدم يوم عاشوراء. وروى عبدالوهّاب الخفاف عن سعيد عن قتادة قال: كنا نتحدث اليوم الذي تيب فيه على آدم يوم عاشوراء، وهبط فيه آدم إلى الأرض يوم عاشوراء.

وقوله ﷺ في حديث علي: «ويتوب فيه على آخرين»[1] حَثٌّ للناس على تجديد التوبة النصوح في يوم عاشوراء، وترجيه لقبول التوبة فمن تاب فيه إلى الله عز وجل من ذنوبه كما تاب فيه على من قبلهم.

وقد قال تعالى عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البَقَرَة: ٣٧] الكلمات: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. وأخبر عنه وعن زوجته أنهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعرَاف: ٢٣]. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الأمصار كتاباً وقال فيه: قولوا كما قال أبوكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعرَاف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هُود: ٤٧]، وقولوا كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القَصَص: ١٦]، وقولوا كما قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ٨٧]. اعتراف المذنب بذنبه مع الندم عليه توبة مقبولة، قال الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبَة: ١٠٢]، وقال النبي ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»[2]، وفي دعاء الاستفتاح الذي كان النبي ﷺ يستفتح به: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي، واعترفت

---

(١) ضعيف. وقد مرَّ.

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١) ومسلم (٢٧٧٠).

بذنبي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[١]، وفي الدعاء الذي علمه ﷺ للصديق أن يقوله في صلاته: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[٢]. وفي حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء[٣] بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٤]. الاعتراف يمحو الاقتراف كما قيل:

فإن اعتراف المرء يمحو اقترافه  كما أن إنكار الذنوب ذنوب

لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة بكى على تلك المعاهد فيما يروى ثلاثمائة عام وحق له ذلك، كان في دار لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، فلما نزل إلى الأرض أصابه ذلك كله، وكان إذا رأى جبريل يتذكر برؤيته تلك المعاهد؛ فيشتد بكاؤه حتى يبكي جبريل لبكائه ويقول له: ما هذا البكاء يا آدم؟ فيقول: وكيف لا أبكي وقد أخرجت من دار النعمة إلى دار البؤس، فقال له بعض ولده: لقد آذيت أهل الأرض ببكائك، فقال: إنما أبكي على أصوات الملائكة حول العرش. وفي رواية: إنما أبكي على جوار ربي في دار تربتها طيبة أسمع فيها أصوات الملائكة. وفي رواية قال: إنما أبكي على دار لو رأيتها لزهقت نفسك شوقاً إليها. وروي أنه قال لولده: كنا نسلًا من نسل السماء خلقنا كخلقهم وغذينا بغذائهم فسبانا عدونا إبليس فليس لنا فرحة ولا راحة إلا الهم والعناء حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها.

فحي على جنات عدن فإنها  منازلك الأولى وفيها المخيم

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه البخاري (٨٣٤) ومسلم (٢٧٠٥).

(٣) في نسخة: «أبوء لك» كما في الأصل.

(٤) رواه البخاري (٦٣٠٦).

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

لما التقى آدم وموسى عليهما السلام عاتبه موسى على إخراجه نفسه وذريته من الجنة، فاحتج آدم بالقدر السابق[1]، والاحتجاج بالقدر على المصائب حسن كما قال ﷺ: «إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»[2] كما قيل:

والله لولا سابق الأقدار لم تبعد قط داركم عن داري
من قبل ولا النأي كنا جرية الأقدار هل يمحو العبد ما قضاه الباري

لما ظهرت فضائل آدم على الخلائق بسجود الملائكة له، وبتعليمه أسماء كل شيء، وإخباره الملائكة بها وهم يستمعون له كاستماع المتعلم من معلمه؛ حتى أقروا بالعجز عن علمه، وأقروا له بالفضل، وأسكن هو وزوجته الجنة؛ ظهر الحسد من إبليس وسعى في الأذى، وما زالت الفضائل إذا ظهرت تحسد، كما قيل:

لا مات حسادك بل خلدوا حتى يروا منك الذي يكمد
لا زلت محسوداً على نعمة فإنما الكامل من يُحْسَد

فما زال يحتال على آدم عليه السلام حتى تسبب في إخراجه من الجنة، وما فهم الأبله أن آدم إذا خرج منها كملت فضائله ثم عاد إلى الجنة على أكمل من حالته الأول؛ إنما أهلك إبليس العجب بنفسه، ولذلك قال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وإنما كملت فضائل آدم باعترافه على نفسه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]. كان إبليس كلما أوقد نار الحسد لآدم فاح منها ريح طيب آدم واحترق إبليس:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان[3] حسود

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢).
(٢) رواه مسلم (٢٢٦٤).
(٣) في الأصل: «لسان كل».

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

قال بعض السلف: آدم أخرج من الجنة بذنب واحد، وأنتم تعلمون الذنوب وتكثرون منها وتريدون أن تدخلوا بها الجنة.

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي ... درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أن الله أخرج آدماً ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

احذروا هذا العدو الذي أخرج أباكم من الجنة؛ فإنه ساع في منعكم من العود إليها بكل سبيل والعداوة بينكم وبينه قديمة، فإنه ما أخرج من الجنة وطرد عن الخدمة إلا بسبب تكبره على أبيكم وامتناعه من السجود له لما أمر به، وقد أبلس من الرحمة، وأيس من العود إلى الجنة وتحقق خلوده في النار، فهو يجتهد على أن يخلد معه في النار بني آدم بتحسين الشرك، فإن عجز قنع بما دونه من الفسوق والعصيان، وقد حذركم مولاكم منه، وقد أعذر من أنذر، فخذوا حذركم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

العجب ممن عرف ربه ثم عصاه، وعرف الشيطان ثم أطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

رعى الله من نهوى وإن كان ما رعي ... حفظنا له العهد القديم فضيعا
وصاحبتَ قوماً كنتُ أنهاك عنهم ... وحَقِّك ما أبقيت للصلح موضعا

لما أهبط آدم إلى الأرض وعد العود إلى الجنة هو ومن آمن من ذريته واتبع الرسل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٣٥]، فليبشر المؤمنون بالجنة هي إقطاعهم، وقد وصل منشور الإقطاع مع جبريل إلى محمد ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥]، إنما خرج الإقطاع عمن خرج عن الطاعة، فأما من تاب وآمن فالإقطاع مردود عليه، المؤمنون في دار الدنيا في سفر جهاد يجاهدون فيه

النفوس والهوى، فإذا انقضى سفر الجهاد عادوا إلى وطنهم الأول الذي كانوا فيه في صلب أبيهم، تكفل الله للمجاهد في سبيله أن يرده إلى وطنه[١] بما نال من أجر و[٢] غنيمة. وصلت إليكم معشر الأمة رسالة من أبيكم إبراهيم مع نبيكم محمد عليهما السلام قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي إبراهيم فقال: يا محمد أقرئ أمتك السلام وأخبرهم: أن الجنة عذبة الماء، طيبة التربة، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[٣]، وخرج النسائي والترمذي عن جابر عن النبي ﷺ: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده؛ غرست له نخلة في الجنة»[٤]، وخرج ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً: «من قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر يغرس له بكل واحدة شجرة في الجنة»[٥]، وخرجه الطبراني من حديث ابن عباس مرفوعاً[٦]، وخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من قال: سبحان الله العظيم؛ بني له برج في الجنة»[٧] وروي موقوفاً. وعن الحسن قال: الملائكة يعملون لبني آدم في الجنان يغرسون ويبنون، فربما أمسكوا فيقال لهم: قد أمسكتم؟ فيقولون: حتى تأتينا النفقات. وقال الحسن: فأتعبوهم ـ بأبي أنتم وأمي ـ بالعمل. وقال بعض السلف: بلغني أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك عن الذكر؛ أمسكوا عن البناء فيقال لهم؟ فيقولون: حتى تأتينا نفقة أرض الجنة اليوم قيعان والأعمال الصالحة لها عمران، بها

---

(١) في نسخة: «أهله» كما في الأصل.
(٢) في نسخة: «أو» كما في الأصل.
(٣) حسن لغيره. رواه الترمذي (٣٤٦٢) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٠٥).
(٤) صحيح. النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٢٧) والترمذي (٣٤٦٤) واللفظ له، وصححه شيخنا في الصحيحة (٦٤).
(٥) حسن لغيره. ابن ماجه (٣٨٠٧) وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب (١٥٤٩).
(٦) صحيح. الطبراني في الأوسط (٨٦٤٠) ـ كما قاله شيخنا ـ وصححه في الصحيحة (٢٨٨٠).
(٧) ضعيف بهذا اللفظ. قلت: لم أقف على إسناده عند ابن أبي الدنيا لكن علقه البخاري في تاريخه (٥٢٢/٣) وفي إسناده ضعف لكن الحديث ثابت بلفظ السابق كما في الصحيحة (٦٤و٢٨٨٠).

تبنى القصور وتغرس أرض الجنان، فإذا تكامل الغراس والبنيان انتقل إليه السكان. رأى بعض الصالحين في منامه قائلًا يقول له: قد أمرنا بالفراغ من بناء دارك واسمها دار السرور فأبشر، وقد أمرنا بتنجيدها وتزيينها والفراغ منها إلى سبعة أيام فلما كان بعد سبعة أيام مات، فرُئي في المنام فقال: أدخلت دار السرور وأنا في سرور فلا تسأل عما فيها، لم ير مثل الكريم إذا حل به مطيع. رأى بعضهم كأنه أدخل الجنة وعرض عليه منازله وأزواجه، فلما أراد أن يخرج تعلقن به أزواجه وقالوا له: بالله حسن عملك فكلما حسنت عملك ازددنا نحن حسناً. العاملون اليوم يسلفون رؤوس أموال الأعمال فيما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين إلى أجل يوم المزيد في سوق الجنة، فإذا حل الأجل دخلوا السوق فحملوا منه ما شاءوا بغير نقد ثمن على ما قد سلف من تعجيل رأس مال السلف، لكن بغير مكيال ولا ميزان. فيا من عزم أن يسلف اليوم إلى ذلك الموسم عجل بتقبيض رأس المال فإن تأخير التقبيض يفسد العقد.

فلله ذاك السوق[1] فهو موعد المزيد لوفد الحب لو كنت منهم
فما شئت منه خذ بلا ثمن له فقد أسلف التجار فيه وأسلموا

في الحديث: «إن الجنة تقول: يا رب ائتني بأهلي وبما وعدتني فقد كثر حريري وإستبرقي وسندسي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأباريقي وخمري وعسلي ولبني، فأتني بأهلي وبما وعدتني»[2]. وفي الحديث أيضاً: «من سأل الله الجنة شفعت له الجنة إلى ربها وقالت: اللهم أدخله الجنة»[3].

وفي الحديث أيضاً: «إن الجنة تفتح في كل سحر، ويقال لها:

---

(١) في الأصل: «السوق الذي هو».

(٢) منكر. رواه البزار (٣١/مختصر الزوائد) قال شيخنا في ضعيف الترغيب (٢١٢٢): «منكر» ثم ذكر أن في إسناده أبا جعفر الرازي وهو ضعيف ونقل عن الذهبي وابن كثير استنكار الحديث وكذا تضعيف الحافظ له في الفتح (٤٦٢/١).

(٣) صحيح لغيره. رواه النسائي (٥٥٢١) والترمذي (٢٥٧٢) وابن ماجه (٤٣٤٠) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٦٥٤).

ازدادي طيباً لأهلك فتزداد طيباً، فذلك البرد الذي يجده الناس في السحر»[(١)].

قلوب العارفين تستنشق أحياناً نسيم الجنة، قال أنس بن النضر يوم أحد: واهاً لريح الجنة، والله إني لأجد ريح الجنة من قبل أحد، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

تمر الصبا صفحاً بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس أين حلَّ حبيبها

كم لله من لطف وحكمه في إهباط آدم إلى الأرض، لولا نزوله لما ظهر جهاد المجاهدين واجتهاد العابدين المجتهدين، ولا صعدت[(٢)] زفرات أنفاس التائبين، ولا نزلت قطرات دموع المذنبين. يا آدم إن كنت أهبطت من دار القرب ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، إن كان حصل لك بالإخراج من الجنة كسر فأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، إن كان فاتك في السماء سماع زجل المسبحين فقد تعوضت في الأرض بسماع أنين المذنبين؛ أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين، زجل المسبحين ربما يشوبه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار، «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»[(٣)].

سبحان من إذا لطف بعبده في المحن قلبها منحاً، وإذا خذل عبداً لم ينفعه كثرة اجتهاده وعاد عليه وبالًا، لقن آدم حجته، وألقى إليه ما يتقبل به توبته ﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: ٣٧]، وطرد إبليس بعد طول خدمته فصار عمله هباءً منثوراً ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ

---

(١) موضوع. رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (٢١٣/١١) وإسناده واهٍ فيه يحيى بن سلمة بن كهيل منكر الحديث والحديث أورده الذهبي في منكرات يحيى كما في الميزان.

(٢) في الأصل: «صدعت».

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩).

عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥]. إذا وضع عدله على عبد لم تبق له حسنة، وإذا بسط فضله على عبد لم تبق له سيئة.

يعطي ويمنع من يشاء كما يشا وهباته ليست تقارنها الرشا

لما ظهر فضل آدم على الخلائق بالعلم، وكان العلم لا يكمل بدون العمل بمقتضاه، والجنة ليست دار عمل ومجاهدة إنما دار نعيم ومشاهدة، قيل له: يا آدم اهبط إلى رباط الجهاد وصابر جنود الهوى بالجد والاجتهاد واذرف دموع الأسف على البعاد، وكأنك بالعيش الماضي وقد عاد، على أكمل من ذلك أوجه المعتاد.

عودوا إلى الوصل عودوا فالهجر صعب شديد
لو ذاق طعم الفراق رضوى لكاد من وجده يميد
قد حملوني عذاب شوق يعجز عن حمله الحديد
قلت وقلبي أسير وجد متيم في الجفا عميد
أنتم لنا في الهوى موال ونحن في أسركم عبيد

* * *

## المجلس الثالث
## في قدوم الحاج

في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(١).

مباني الإسلام الخمس كل واحد منها يكفر الذنوب والخطايا ويهدمها، فلا إله إلا الله لا تبقي ذنباً ولا يسبقها عمل، والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والحج الذي لا رفث فيه ولا

(١) البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠).

فسوق يرجع صاحبه من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وقد استنبط معنى هذا الحديث من القرآن طائفةٌ من العلماء وتأولوا قول الله ﷻ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣] بأن من قضى نسكه ورجع منه فإن آثامه تسقط عنه إذا اتقى الله في أداء نسكه وسواء نفر في اليوم الأول من يومي النفر متعجلًا أو تأخر إلى اليوم الثاني. وفي مسند أبي يعلى الموصلي عن النبي ﷺ قال: «من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»(١)، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(٢)، وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «الحج يهدم ما قبله»(٣) فالحج المبرور: يكفر السيئات ويوجب دخول الجنات، وقد روي أنه ﷺ سئل عن بر الحج؟ فقال: «إطعام الطعام، وطيب الكلام»(٤)، فالحج المبرور ما اجتمع فيه أعمال البر مع اجتناب أعمال الإثم، فما دعا الحاج لنفسه ولا دعا له غيره بأحسن من الدعاء بأن يكون حجه مبروراً. ولهذا يشرع للحاج إذا فرغ من أعمال حجه وشرع في التحلل من إحرامه برمي جمرة العقبة يوم النحر أن يقول: اللهم اجعله حجاً مبروراً، وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً. وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر من قولهما وروي عنهما مرفوعاً(٥). وكذلك يدعى للقادم من الحج بأن يجعل الله حجه مبروراً، وفي الأثر: أن آدم عليه السلام لما حج البيت وقضى نسكه أتته الملائكة فقالوا له: يا آدم بر حجك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. وكذلك السلف يدعون لمن يرجع من حجه؛ لما حج خالد الحذاء ورجع قال له أبو قلابة: بر العمل، معناه جعل الله عملك مبروراً.

---

(١) ضعيف. رواه عبد بن حميد (٣٤٨/١) وغيره والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٢٨١).

(٢) البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

(٣) مسلم (١٢١).

(٤) صحيح لغيره. رواه أحمد (١٤٠٧٣) والحاكم (٤٨٣/١) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٢٦٤).

(٥) ولا يثبت ذلك كما بينه شيخنا في الضعيفة (١١٠٧).

وللحج المبرور علامات لا تخفى: قيل للحسن: الحج المبرور جزاؤه الجنة؟ قال: آية ذلك أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وقيل له: جزاء الحج المبرور المغفرة؟ قال: آية ذلك أن يدع سيِّئ ما كان عليه من العمل. الحج المبرور مثل: حج إبراهيم بن أدهم مع رفيقه الرجل الصالح الذي صحبه من بلخ فرجع من حجه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وخرج عن ملكه وماله وأهله وعشيرته وبلاده، واختار بلاد الغربة وقنع بالأكل من عمل يده إما من الحصاد أو من نظارة البساتين. حج مرة مع جماعة من أصحابه فشرط عليهم في ابتداء السفر أن لا يتكلم أحدهم إلا لله، ولا ينظر إلا له، فلما وصلوا وطافوا بالبيت رأوا جماعة من أهل خراسان في الطواف معهم غلام جميل قد فتن الناس بالنظر إليه، فجعل إبراهيم يسارقه النظر ويبكي، فقال له بعض أصحابه: يا أبا إسحاق ألم تقل لنا: لا تنظروا إلا لله؟ فقال: ويحك هذا ولدي وهؤلاء خدمي وحشمي:

هجرت الخلق طراً في هواك ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني في الحب إرباً ... لما حنَّ الفؤاد إلى سواكا

قال بعض السلف: استلام الحجر الأسود هو أن لا تعود إلى معصية. يشير إلى ما قاله ابن عباس: أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه[1]. وقال عكرمة: الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله. وورد في حديث: أن الله لما استخرج من ظهر آدم ذريته وأخذ عليهم الميثاق كتب ذلك العهد في رق، ثم استودعه هذا الحجر، فمن ثم يقول من استلمه: وفاء بعهدك. فمستلم الحجر يبايع الله على اجتناب معاصيه والقيام بحقوقه، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]. يا معاهدينا على التوبة بيننا وبينكم عهود أكيدة أولها: يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

---

(١) منكر. قلت: خرجه شيخنا في الضعيفة (٢٢٣) وبين أنه لا يثبت مرفوعاً ولا موقوفاً.

فقلتم: بلى، والمقصود الأعظم من هذا العهد: أن لا تعبدوا إلا إياه، وتمام العمل بمقتضاه: أن اتقوا الله حق تقواه، وثانيهما: يوم أرسل إليكم رسوله، وأنزل عليكم في كتابه: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٤٠]قال سهل التستري: من قال: لا إله إلا الله فقد بايع الله فحرام عليه إذ بايعه أن يعصيه في شيء من أمره في السر والعلانية أو يوالي عدوه أو يعادي وليه.

**يا بني الإسلام من علمكم — بعد إذ عاهدتم نقض العهود**
**كل شيء في الهوى مستحسن — ما خلا الغدر وإخلاف الوعود**

وثالثها: لمن حج إذا استلم الحجر فإنه يجدد البيعة ويلتزم الوفاء بالعهد المتقدم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزَاب: ٢٣] الحر الكريم لا ينقض العهد القديم.

**أحسبتم أن الليالي غيرت — عقد الهوى لا كان من يتغير**
**يفنى الزمان وليس يُنسى عهدكم[١] — وعلى محبتكم أموت وأحشر**

إذا دعتك نفسك إلى نقض عهد مولاك فقل لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف: ٢٣]، اجتاز بعضهم على منظور مشتهى فهمت عينه أن تمتد فصاح:

**حلفت بحق[٢] الحب لا خنت عهدكم — وذلك عهد لو عرفت وثيق**

تاب بعض من تقدم ثم نقض فهتف به هاتف بالليل يقول:

**سأترك ما بيني وبينك واقفاً[٣] — فإن عدت عدنا والوداد مقيم**
**تواصل قوماً لا وفاء لعهدهم — وتترك مثلي والحفاظ قديم**

من تكرر منه نقض العهد أيوثق بمعاهدته. دخل بعض السلف على مريض مكروب، فقال له: عاهد الله على التوبة لعله أن يقيلك صرعتك

(١) في نسخة: «يفنى ذكركم» كما في الأصل، ووضع الناسخ على ما أثبت (صح).
(٢) في نسخة: «بدين» كما في الأصل، ووضع الناسخ على كلمة «بدين» (صح).
(٣) في نسخة: «عامراً» كما في هامش الأصل.

فقال: كنت كلما مرضت عاهدت الله على التوبة فيقيلني، فلما كان هذه المرة ذهبت أعاهد كما كنت أعاهد فهتف بي هاتف من ناحية البيت: قد أقلناك مراراً فوجدناك كذاباً، ثم مات عن قريب.

لا كان من ينقض العهد لا كان ... ما ينقض العهد إلا كل خوان

غيره:

ترى الحيَّ الألى بانوا ... على العهد كما كانوا
أم الدهر بهم خان ... ودهر المرء خوان
إذا اغتر[1] بغير الله ... يوماً معشر هانوا

من رجع من الحج فليحافظ على ما عاهد عليه الله عند استلامه الحجر. حج بعض من تقدم فبات بمكة مع قوم، فدعته نفسه إلى معصية فسمع هاتفاً يقول: ويلك ألم تحج، فعصمه الله من ذلك. قبيح بمن كمل القيام بمباني الإسلام الخمس أن يشرع في نقض ما بنى بالمعاصي. في حديث مرسل خرجه ابن أبي الدنيا أن النبي ﷺ قال لرجل: «يا فلان إنك تبني وتهدم ـ يعني: تعمل الحسنات والسيئات ـ» فقال: يا رسول الله سوف أبني ولا أهدم[2].

خذ في جد فقد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر
أقبل فعسى يقبل منك العذر ... كم تبني كم تنقض كم ذا[3] الغدر

علامة قبول الطاعة أن توصل بطاعة بعدها، وعلامة ردها أن توصل بمعصية. ما أحسن الحسنة بعد الحسنة، وأقبح السيئة بعد الحسنة. ذنب بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. النكسة أصعب من المرض الأول. ما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة، ارحموا عزيز قوم ذل بالمعاصي، وغني

---

(١) في نسخة: «عز».
(٢) ضعيف. ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة (١٨٨) ورواه الديلمي في مسند الفردوس (٨٤٩٤) من حديث أبي هريرة بإسناد واهٍ.
(٣) في الأصل: «ماذا العذر».

قوم بالذنوب افتقر، سلوا الله الثبات إلى الممات، وتعوذوا من الحور بعد الكور. كان الإمام أحمد يدعو ويقول: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك. وكان عامة دعاء إبراهيم بن أدهم: اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة. في بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى: أنا العزيز فمن أراد العز فليطع العزيز.

ألا إنما التقوى هي العز والكرم      وحبك للدنيا هو الذل والسقم[١]
وليس على عبد تقي نقيصة      إذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم

الحاج إذا كان حجه مبروراً غفر له ولمن استغفر له وشفع فيمن شفع فيه. وقد روي: إن الله تعالى يقول لهم يوم عرفة: «أفيضوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه»[٢]. وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي موسى الأشعري قال: «إن الحاج ليشفع في أربعمائة بيت من قومه ويبارك في أربعين من أمهات البعير الذي يحمله، ويخرج من خطاياه كيوم ولدته أمه، فإذا رجع من الحج المبرور رجع وذنبه مغفور ودعاؤه مستجاب»[٣]. فلذلك يستحب تلقيه والسلام عليه وطلب الاستغفار منه، وتلقي الحاج مسنون. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن جعفر قال: كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تُلُقِّيَ بصبيان أهل بيته، وإنه قَدِم من سفرٍ فَسُبِقَ بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة؛ فأردفه خلفه، فَأُدْخِلْنا المدينةَ ثلاثةً على دابة[٤]. وقد ورد النهي عن ركوب ثلاثة على دابة في حديث مرسل[٥]. فإن صح؛ حمل على ركوب ثلاثة رجال، فإن الدابة يشق عليها حملهم بخلاف رجل وصغيرين. وفي المسند وصحيح الحاكم عن عائشة قالت: أقبلنا من مكة

---

(١) في نسخة: «والعدم» كما في هامش الأصل، ووضع الناسخ عقبها (صح).

(٢) حسن لغيره. رواه الطبراني في الكبير والبزار (٧٣٠/مختصر الزوائد) وغيرهما والحديث حسنه شيخنا في صحيح الترغيب (١١١٢).

(٣) ضعيف. رواه البزار (٧٣٧/مختصر الزوائد) والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٥٠٩١).

(٤) مسلم (٢٤٢٨).

(٥) قلت: انظر الضعيفة (٤٩٣) لشيخنا.

في حج أو عمرة فتلقانا غلمان من الأنصار كانوا يتلقون أهاليهم إذا قدموا[١]. وكذلك السلام على الحاج إذا قدم ومصافحته وطلب الدعاء منه. وفي المسند بإسناد فيه ضعف عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه ومره أن يستغفر لك قبل أن يدخل بيته؛ فإنه مغفور له»[٢]. وفيه أيضاً عن حبيب بن أبي ثابت قال: خرجت مع أبي نتلقى الحاج ونسلم عليهم قبل أن يتدنسوا. وروى معاذ بن الحكم قال: حدثنا موسى بن أعين عن الحسن قال: إذا خرج الحاج فشيعوهم وزودوهم الدعاء، وإذا قفلوا فالتقوهم وصافحوهم قبل أن يخالطوا الذنوب؛ فإن البركة في أيديهم. وروى أبو الشيخ الأصبهاني وغيره من رواية ليث عن مجاهد قال: قال عمر: يغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج بقية ذي الحجة ومحرم وصفر وعشر[٣] من ربيع الأول[٤]. وفي مسند البزار وصحيح الحاكم[٥] من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»[٦]، وروى أبو معاوية الضرير عن حجاج عن الحكم قال: قال ابن عباس: لو يعلم المقيمون ما للحاج عليهم من الحق لأتوهم حين يقدمون حتى يقبلوا رواحلهم؛ لأنهم وفد الله في جميع الناس[٧]. ما للمنقطع حيلة سوى التعلق بأذيال الواصلين.

هل الدهر يوماً بوصل يجود ... وأيامنا باللوى هل تعود

زمان تقضى وعيش مضى ... بنفسي والله تلك العهود

---

(١) ضعيف. أحمد (١٨٦١٦) والحاكم (٤٨٨/١) قلت: وإسناده ضعيف فيه عمرو بن علقمة قال فيه الحافظ: مقبول أي عند المتابعة وإلا فهو لين الحديث.

(٢) موضوع. أحمد (٥٣٤٨) قلت: حكم عليه شيخنا بالوضع في الضعيفة (٢٤١١).

(٣) في الأصل: «وعشرين» والتصويب من مصادر التخريج.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢٢/٣) من طريق ليث به وإسناده ضعيف.

(٥) قلت: أكثر المؤلف ـ رحمه الله ـ في هذا المصنف من إطلاق لفظ الصحيح على مستدرك الحاكم ولا يخفى ما في هذا الإطلاق من تساهل.

(٦) ضعيف. البزار (٧٣٥/مختصر زوائد) والحاكم (٤٤١/١) واللفظ له، والحديث ضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٦٩٤).

(٧) ضعيف. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٧٧/٣) وإسناده ضعيف.

ألا قـل لـزوار دار الـحـبـيـب هنيئاً لكم في الجنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضاً فـنـحـن عـطـاش وأنـتـم ورود

أحبُّ ما للمحب سؤال من قَدِم من دار الحبيب.

عارضا بي ركب الحجاز أسائلـ ـه متى عهده بأيام سلعِ
واستملاَّ حديث من سكن الخيف ولا تكتباه إلا بدمعي[1]
فاتني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار[2] بسمعي
من معيد[3] أيام جمع[4] على ما كان منها وأين أيام جمعي

لقاء الأحباب لقاح الألباب، وأخبار تلك الديار أحلى عند المحبين من الأسمار.

إذا قدم الركب يممتهم أحيّي الوجوه قدوماً ووردا
واسألهم عن عقيق الحمى وعن أرض نجد ومن حل نجدا
حدثوني عن العقيق حديثاً أنتم بالعقيق أقرب عهدا
ألا هل سمعتم ضجيج الحجيج على ساحة الخيف والعيس تُحدا
فذكر المشاعر والمروتين وذكر الصفا يطرد الهمّ طردا

أرواح القبول تفوح من المقبولين، وأنوار الوصول تلوح على الواصلين.

تفوح أرواح نجد من ثيابهم عند القدوم لقرب العهد بالدار
أهفو إلى الركب تعلو لي ركائبهم من الحمى في أسيحاق وأطمار
يا راكبانِ قفا لي واقضيا وطري وحدثاني عن نجد بأخبار

---

(١) في نسخة: «إلا بفائض دمعي» كما في هامش الأصل.
(٢) في الأصل: «أعي الحديث».
(٣) في الأصل: «من يعيد لي».
(٤) أصل الأبيات للشريف الرضي وعنده في هذا البيت: من معيد أيام سلع على ما كان منها وأين أيام سلع

ما يؤهل للإكثار من التردد إلى تلك الآثار إلا محبوب مختار.

حَجَّ ابن الموفق ستين حجة قال: فلما كان بعد ذلك جلست في الحجر أفكر في حالي وكثرة ترددي إلى ذلك المكان، ولا أدري هل قبل مني حجي أم رُدَّ؟ ثم نمت فرأيت في منامي قائلًا يقول لي: هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب قال: فاستيقظت وقد سري عني. ما كل من حج قبل، ولا كل من صلى وُصِل. قيل لابن عمر: ما أكثر الحاج؟ فقال: ما أقلهم، وقال: الركب كثير والحاج قليل. حجَّ بعض المتقدمين فتوفي في الطريق في رجوعه فدفنه أصحابه ونسوا الفأس في قبره فنبشوه ليأخذوا الفأس فإذا عنقه ويداه قد جمعت في حلقة الفأس فردوا عليه التراب ثم رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حاله؟ فقالوا: صحب رجلًا فأخذ ماله فكان يحج منه.

إذا حججت بمال أصله سحت ... فما حججت ولكن حجت العير
لا يقبل الله إلا كل صالحة ... ما كل من حج بيت الله مبرور

من حجه مبرور قليل، ولكن قد يوهب المسيء للمحسن. وقد روي: أن الله تعالى يقول عشية عرفة: «قد وهبت مسيئكم لمحسنكم»[(١)]. حجَّ بعض المتقدمين فنام ليلة فرأى ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما للآخر: كم حج العام؟ قال: ستمائة ألف، قال له: كم قبل منهم؟ قال: ستة، فاستيقظ الرجل وهو قلق مما رأى فرأى في الليلة الثانية كأنهما نزلا وأعادا القول، وقال أحدهما: إن الله وهبَ لكلِ واحدٍ مِن الستةِ مائةَ ألفٍ. كان بعض السلف يقول في دعائه: اللهم إن لم تقبلني فهبني لمن شئت من خلقك. من رد عليه عمله ولم يقبل منه فقد يعوض ما يعوض المصاب فيرحم بذلك. قال بعض السلف في دعائه بعرفة: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول مني. وقال آخر منهم: اللهم ارحمني فإن رحمتك قريب من المحسنين، فإن لم أكن محسناً فقد قلت: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فإن لم أكن

(١) صحيح. ابن ماجه (٣٠٢٤) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٦٢٤).

كذلك فأنا شيء وقد قلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فإن لم أكن شيئاً فأنا مصاب برد عملي وتعبي ونصبي فلا تحرمني ما وعدت المصاب من الرحمة. قال هلال بن يساف: بلغني أن المسلم إذا دعا الله فلم يستجب له كتب له حسنة. خرجه ابن أبي شيبة ـ يعني: جزاء لمصيبة رده ـ.

ومن كان في سخطه محسناً  فكيف يكون إذا ما رضي

قدوم الحاج يذكر بالقدوم على الله ﷻ. قدم مسافر فيما مضى على أهله فسروا به، وهناك امرأة من الصالحات فبكت وقالت: أذكرني هذا بقدومه القدوم على الله ﷻ، فمن مسرور ومثبور. قال بعض الملوك لأبي حازم: كيف القدوم على الله؟ فقال أبو حازم: أما قدوم الطائع على الله تعالى فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما قدوم العاصي فكقدوم العبد الآبق على سيده الغضبان.

لعلك غضبان وقلبي غافل  سلام على الدارين إن كنت راضيا

في بعض الآثار الإسرائيلية يقول الله ﷻ: ألا طال شوق الأبرار إلي وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً. كم بين الذين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وبين الذين ﴿يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. قال علي رضي الله عنه: تتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ويلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر فقد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول: هذا فلان ـ باسمه في الدنيا ـ فيقلن: أنت رأيته[1]؟ فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى يخرجن إلى أسكفة الباب[2].

---

(١) في نسخة: «أنت الذي رأيته» كما في هامش الأصل.

(٢) حسن. رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤٣٠٠٤) والطبري في تفسيره (١٨٤/٨) وابن أبي حاتم في تفسيره وإسناده حسن.

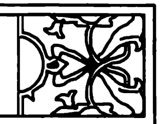
قال أبو سليمان الداراني: تبعث الحوراء من الحور الوصيف من وصائفها فتقول: ويحك انظر ما فعل بولي الله؟ فتستبطئه فتبعث وصيفاً آخر، فيأتي الأول فيقول: تركته عند الميزان، فيأتي الثاني فيقول: تركته عند الصراط، ويأتي الثالث فيقول: قد دخل باب الجنة فيستخفها الفرح فتقف على باب الجنة فإذا أتاها اعتنقته فيدخل خياشيمه من ريحها ما لا يخرج أبداً.

قد أزلفت جنة النعيم فيا ... طوبى لقوم بربعها نزلوا

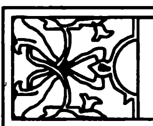
أكوابهم عسجد يطاف بها ... والخمر والسلسبيل والعسل

والحور تلقاهم وقد كُشِفَتْ ... عن الوجوه بها الأستارُ والكِللُ

❁ ❁ ❁



# وظيفة شهر صفر



في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا هامة ولا صفر» فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فمن أعدى الأول؟!»[١].

أما العدوى: فمعناها أن المرض يتعدى من صاحبه إلى من يقارنه من الأصحاء فيمرض بذلك، وكانت العرب تعتقد ذلك في أمراض كثيرة منها الجرب، ولذلك سأل الأعرابي عن الإبل الصحيحة يخالطها البعير الأجرب فتجرب؟ فقال رسول الله ﷺ: «فمن أعدى الأول؟!» ومراده: أن الأول لم يجرب بالعدوى بل بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده، وقد وردت أحاديث أشكل على كثير من الناس فهمها حتى ظن بعضهم أنها ناسخة لقوله: «لا عدوى»، مثل ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يورد ممرض على مصح»[٢] والممرض: صاحب الإبل المريضة، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة، والمراد النهي عن إيراد الإبل المريضة على الصحيحة. ومثل قوله ﷺ: «فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»[٣]، وقوله ﷺ في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا

---

(١) البخاري (٥٧١٧) ومسلم (٢٢٢٠)

(٢) البخاري (٥٧٧١و٥٧٧٥) ومسلم (٢٢٢١).

(٣) صحيح. أحمد (٩٤٢٩) ورواه البخاري معلقاً (٧٠٨/مختصر البخاري) ووصله أبو نعيم والحديث صححه شيخنا في الصحيحة (٧٨١و٧٨٣).

تدخلوها»[١] ودخول النسخ في هذا كما تخيله بعضهم لا معنى له؛ فإن قوله: «لا عدوى» خبر محض لا يمكن نسخه إلا أن يقال: هو نهي عن اعتقاد العدوى لا نفي لها. ولكن يمكن أن يكون ناسخاً للنهي في هذه الأحاديث الثلاثة وما في معناها. والصحيح الذي عليه جمهور العلماء: أنه لا نسخ في ذلك، ولكن اختلفوا في معنى قوله: «لا عدوى»، وأظهر ما قيل في ذلك: أنه نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية من أن هذه الأمراض تعدي بطبعها من غير اعتقاد تقدير الله ﷻ لذلك، ويدل على هذا قوله: «فمن أعدى الأول؟» يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره، فكذلك الثاني وما بعده. وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعدي شيء شيئاً ـ قالها ثلاثاً ـ» فقال أعرابي: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «فما أجرب الأول؟ لا عدوى، ولا هامة، ولا صفر؛ خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها»[٢] فأخبر أن ذلك كله بقضاء الله تعالى وقدره كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

وأما نهيه ﷺ عن إيراد الممرض على المصح وأمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن الدخول إلى موضع الطاعون؛ فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسباباً للهلاك أو الأذى. والعبد مأمور باتقاء أسباب البلاء إذا كان في عافية منها فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء، أو في النار، أو يدخل تحت الهدم ونحوه مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذى فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم أو القدوم على بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره. وقد روي في حديث

(١) البخاري (٥٧٢٨) ومسلم (٢٢١٨).
(٢) صحيح. أحمد (٤١٨٦) وقال شيخنا في الصحيحة (١١٥٢): «وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

مرسل خرجه أبو داود في مراسيله أن النبي ﷺ: مَرَّ بحائط مائل فأسرع وقال: «أخاف موت الفوات»[(١)] وروي متصلًا، والمرسل أصح. وهذه الأسباب التي جعلها الله أسباباً تخلق المسببات بها، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقالت طائفة: إنه يخلق المسببات عندها لا بها. وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره قويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال يجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كان مصلحة عامة أو خاصة وعلى مثل هذا يحمل الحديث الذي خرجه أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: «كل باسم الله، ثقة بالله، وتوكلًا عليه»[(٢)]. وقد أخذ به الإمام أحمد، وقد روي نحو ذلك عن عمر وابنه عبدالله، وسلمان[(٣)] ﷺ، ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد من أكل السم، ومنه: مشى سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني بالجيوش على متن البحر، ومنه: أمر عمر لتميم حيث خرجت النار من الحرة أن يردها، فدخل إليها في الغار التي خرجت منه. فهذا كله لا يصلح إلا لخواص من الناس قوي إيمانهم بالله وقضائه وقدره وتوكلهم عليه وثقتهم به، ونظير ذلك دخول المفاوز بغير زاد لمن قوي يقينه وتوكله خاصة. وقد نص عليه الإمام أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وكذلك ترك التكسب والتطبب كل ذلك يجوز عند أحمد لمن قوي توكله؛ فإن التوكل أعظم الأسباب التي يستجلب بها المنافع ويستدفع بها المضار. كما قال الفضيل: لو علم الله منك إخراج المخلوقين من قلبك لأعطاك كل ما تريد. وبذلك فسر الإمام أحمد التوكل فقال: هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين،

---

(١) ضعيف جداً. أبو داود في المراسيل (٤٧٧) ورواه أحمد في مسنده (٨٤٥٢) من حديث أبي هريرة بإسناد واهٍ.

(٢) ضعيف. أبو داود (٣٩٢٥) والترمذي (١٨١٧) والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (١١٤٤).

(٣) قلت: هو ثابت عن سلمان كما قرره شيخنا في الضعيفة (١١٤٤).

قيل له: فما الحجة فيه؟ قال: قول إبراهيم لما ألقي في النار فعرض له جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا[١]. ولا يشرع ترك الأسباب الظاهرة إلا لمن تعوض عنها بالسبب الباطن وهو تحقيق التوكل عليه؛ فإنه أقوى من الأسباب الظاهرة لأهله، وأنفع منها. فالتوكل: علم وعمل، والعلم: معرفة القلب بتوحيد الله بالنفع والضر، وعامة المؤمنين يعلمون ذلك، والعمل: هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه. وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين. والأسباب نوعان:

**أحدهما**: أسباب الخير: فالمشروع أنه يفرح بها ويستبشر، ولا يسكن إليها بل إلى خالقها ومسببها، وذلك هو تحقيق التوكل على الله والإيمان به كما قال تعالى في الإمداد بالملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠]. ومن هذا الباب الاستبشار بالفأل: وهو الكلمة الصالحة يسمعها طالب الحاجة، وأكثر الناس يركن بقلبه إلى الأسباب وينسى المسبب لها، وقلَّ من فعل ذلك إلا وكل إليها وخذل؛ فإن جميع النعم من الله وفضله كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

لا نلت خيراً ما بقيـ ... ـت ولا عداني الدهر شر
إن كنت أعلم أن غيـ ... ـر الله ينفع أو يضر

ولا تضاف النعم إلى الأسباب بل إلى مسببها ومقدرها كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: أنه صلى بهم الصبح في أثر سماء ثم قال: «أتدرون ما قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما المؤمن فقال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما الكافر فقال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[٢].

---

(١) قلت: ولا يصح هذا عن سيدنا إبراهيم وإنما هو من الإسرائيليات.

(٢) رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا عدوى، ولا هامة، ولا نوء، ولا صفر»[١]. وهذا مما يدل على أن المراد نفي تأثير هذه الأسباب بنفسها من غير اعتقاد أنها بتقدير الله وقضائه فمن أضاف شيئاً من النعم إلى غير الله مع اعتقاده أنه ليس من الله فهو مشرك حقيقة، ومع اعتقاد أنه من الله فهو نوع شرك خفي. والنوع الثاني: أسباب الشر: فلا تضاف إلا إلى الذنوب؛ لأن جميع المصائب إنما هي بسبب الذنوب كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، فلا تضاف إلى شيء من الأسباب سوى الذنوب: كالعدوى أو غيرها، والمشروع: اجتناب ما ظهر منها واتقاؤه بقدر ما وردت به الشريعة، مثل: اتقاء المجذوم، والمريض، والقدوم على مكان الطاعون، وأما ما خفي منها فلا يشرع اتقاؤه واجتنابه فإن ذلك من الطيرة المنهي عنها. والطيرة من أعمال أهل الشرك والكفر، وقد حكاها الله تعالى في كتابه عن قوم فرعون وقوم صالح، وأصحاب القرية التي جاءها المرسلون. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا طيرة»[٢] وفي حديث: «من ردته الطيرة فقد قارف الشرك»[٣] وفي حديث ابن مسعود المرفوع: «الطيرة من الشرك، وما منا إلا...[٤] ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٥]. والبحث عن أسباب الشر من النظر في النجوم ونحوها من الطيرة المنهي عنها، والباحثون عن ذلك غالباً لا يشتغلون بما يدفع البلاء من الطاعات بل يأمرون بلزوم المنزل، وترك الحركة، وهذا لا يمنع نفوذ

---

(١) مسلم (٢٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٥٧٥٣) ومسلم (٢٢٢٠).

(٣) صحيح. رواه ابن وهب في جامعه (٦٥٦) ورواه أحمد بنحوه (٧٠٠٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٠٦٥).

(٤) قلت: في الأصل: «وتطير» وهي غير موجودة في بعض النسخ، وملت إلى حذفها لأنها كذلك محذوفة في مصادر التخريج.

(٥) صحيح. رواه أبو داود (٣٩١٠) وصححه شيخنا في الصحيحة (٤٢٩) وادعى بعض الحفاظ أن قوله: «وما منا...» مدرج من كلام ابن مسعود ورده شيخنا تبعاً لابن القطان.

القضاء والقدر، ومنهم من يشتغل بالمعاصي، وهذا مما يقوي وقوع البلاء ونفوذه، والذي جاءت به الشريعة هو ترك البحث عن ذلك والإعراض عنه والإشتغال بما يدفع البلاء من الدعاء والذكر والصدقة وتحقيق التوكل على الله ﷻ والإيمان بقضائه وقدره. وفي مسند ابن وهب أن عبدالله بن عمرو بن العاص التقى هو وكعب، فقال عبدالله لكعب: علم النجوم؟ فقال كعب: لا خير فيه، قال عبدالله: لِمَ؟ قال: ترى فيه ما تكره ـ يريد الطيرة ـ فقال كعب: فإن مضى فقال: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك، ولا رب غيرك. فقال عبدالله: ولا حول ولا قوة إلا بك؛ فقال كعب: جاء بها عبدالله، والذي نفسي بيده: إنها لرأس التوكل وكنز العبد في الجنة، ولا يقولهن عبد عند ذلك ثم يمضي، ألا لم يضره شيء، قال عبدالله: أرأيت إن لم يمض وقعد؟ قال: طَعِم[1] قلبه طعم الإشراك. وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ قال: «ليس عبد إلا سيدخل قلبه طيرة، فإن أحس بذلك؛ فليقل: أنا عبدالله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله، أشهد أن الله على كل شيء قدير، ثم يمضي لوجهه»[2]. وفي مسند الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً: «من رجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك، وكفارة ذلك أن يقول أحدهم: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»[3]. وخرج أحمد وأبو داود من حديث عروة بن عامر القرشي قال: ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال: «أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[4] وخرجه أبو القاسم البغوي وعنده: «ولا تضر مسلماً»، وفي صحيح ابن حبان عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا طيرة، والطيرة على من

---

(١) في نسخة: «ذاق» كما في هامش الأصل.

(٢) ضعيف. أبو داود في المراسيل (٥٣٩) قلت: والمرسل من أقسام الحديث الضعيف.

(٣) صحيح. أحمد (٧٠٠٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٠٦٥).

(٤) ضعيف. أبو داود (٣٩١٩) قال شيخنا في الكلم الطيب (٢٥٣): «ضعيف الإسناد».

تطير»[١]، وقال النخعي: قال عبدالله بن مسعود: لا تضر الطيرة إلا من تطير. ومعنى هذا: أن من تطير تطيراً منهياً عنه وهو أن يعتمد على ما يسمعه أو يراه مما يُتطير به حتى يمنعه مما يريد من حاجته فإنه يصيبه ما يكرهه، فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاءً وقطعه عن الالتفات إلى هذه الأسباب المخوفة، وقال ما أمر به من هذه الكلمات ومضى فإنه لا يضره. وقد روي عن ابن عباس أنه كان إذا سمع نعق الغراب قال: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك. ولذلك أمر رسول الله ﷺ عند انعقاد أسباب العذاب السماوية المخوفة كالكسوف، بأعمال البر من الصلاة والدعاء والصدقة والعتق حتى يكشف ذلك عن الناس. وهذا كله مما يدل على أن الأسباب المكروهة إذا وجدت فإن المشروع الاشتغال بما يرجى به دفع العذاب المخوف منها من أعمال الطاعات والدعاء وتحقيق التوكل على الله والثقة به؛ فإن هذه الأسباب كلها مقتضيات لا موجبات ولها موانع تمنعها، فأعمال البر والتقوى والدعاء والتوكل من أعظم ما يستدفع به ومن كلام بعض الحكماء المتقدمين: ضجيج الأصوات في هياكل العبادات بأفنان اللغات تحلل ما عقدته الأفلاك الدائرات. وهذا على زعمهم واعتقادهم في الأفلاك، وأما اعتقاد المسلمين: فإن الله وحده هو الفاعل لما يشاء، ولكنه يعقد أسباباً للعذاب، وأسباباً للرحمة. فأسباب العذاب يخوف بها عباده؛ ليتوبوا إليه ويتضرعوا إليه مثل: كسوف الشمس والقمر؛ فإنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده؛ لينظر من يحدث له توبة، فدل على أن كسوفهما سبب يخشى منه وقوع عذاب. وقد أمر النبي ﷺ عائشة: أن تستعيذ من شر القمر، وقال: «الغاسق إذا وقب»[٢]، وقد أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر غاسق إذا وقب وهو الليل إذا أظلم فإنه تنتشر فيه شياطين الإنس والجن. والاستعاذة من القمر؛ لأنه آية الليل، وفيه إشارة إلى أن شر الليل المخوف لا يندفع

---

(١) حسن. ابن حبان (٦١٢٣) وحسنه شيخنا في التعليقات الحسان وفي الصحيحة (٧٨٩).

(٢) صحيح. الترمذي (٣٣٦٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٧٢).

بإشراق القمر فيه ولا يصير بذلك كالنهار بل يستعاذ منه، وإن كان مقمراً. وخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعاً: «لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الريح؛ فإنها رحمة لقوم وعذاب لآخرين»[١]. ومثل اشتداد الرياح؛ فإن الريح كما قال النبي ﷺ: «من رَوْح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب»[٢] وأمر إذا اشتدت الريح أنَ يسأل الله خيرها وخير ما أرسلت به ويستعاذ به من شرها وشر ما أرسلت به[٣]، وقد كان النبي ﷺ إذا رأى ريحاً أو غيماً تغير وجهه وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سري عنه، ويقول: «قد عذب قوم بالريح، ورأى قوم السحاب؛ فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[٤]. وأسباب الرحمة يُرَجّي بها عباده مثل: الغيم الرطب، والريح الطيبة، ومثل المطر المعتاد عند الحاجة إليه، ولهذا يقال عند نزول الغيث: اللهم سقيا رحمة ولا سقيا عذاب[٥]. وأما من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهي عنها فإنه لا ينفعه ذلك غالباً كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به فإنه كثيراً ما يصاب بما خشي منه كما قال ابن مسعود، ودل عليه حديث أنس المتقدم، وكمن اتقى الطاعون الواقع في بلده بالفرار منه فإنه قَلَّ أن ينجيه ذلك. وقد فَرَّ كثير من المتقدمين والمتأخرين من الطاعون فأصابهم ولم ينفعهم الفرار. وقد قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٣]. وقد ذكر كثير من السلف: أنهم كانوا قد فروا من الطاعون فأصابهم، وفر بعض المتقدمين من طاعون وقع، فبينا هو يسير بالليل على حمار له إذ سمع قائلًا يقول:

لن يُسْبق الله على حمار ولا على ذي منعة طيار

(١) ضعيف. الطبراني في الأوسط (٧٠/٥) وإسناده ضعيف.
(٢) صحيح. رواه أحمد (٧٥٧٥) وأبو داود (٥٠٩٧) وصححه شيخنا في الكلم الطيب (١٥٤).
(٣) مسلم (٨٩٩).
(٤) البخاري (٤٨٢٩) ومسلم (٨٩٩) والترمذي (٣٢٥٧) وابن ماجه (٣٨٩١).
(٥) ضعيف. رواه البيهقي في السنن (٣٥٦/٣) وضعفه شيخنا في تمام المنة (٢٦٦).

أو يأتي الحتف على مقدار     قد يصبح الله أمام الساري

فأصابه الطاعون؛ فمات.

وأما قوله ﷺ: «لا هامة» فهو: نفي لما كانت الجاهلية تعتقده أن الميت إذا مات صارت روحه أو عظامه هامة: وهو طائر يطير، وهو شبيه باعتقاد أهل التناسخ: أن أرواح الموتى تنتقل إلى أجساد حيوانات من غير بعث ولا نشور، وكل هذه اعتقادات باطلة جاء الإسلام بإبطالها وتكذيبها. ولكن الذي جاءت بها الشريعة: أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة وترد من أنهار الجنة إلى أن يردها الله إلى أجسادها يوم القيامة(١). وروي أيضاً أن نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى أجسادها يوم القيامة(٢).

وأما قوله ﷺ: «ولا صفر» فاختلف في تفسيره، فقال كثير من المتقدمين: الصفر داء في البطن يقال: إنه دود فيه كبار كالحيات، وكانوا يعتقدون أنه يعدي فنفى ذلك النبي ﷺ. وممن قال هذا من العلماء: ابن عيينة والإمام أحمد وغيرهما. ولكن لو كان كذلك لكان هذا داخلًا في قوله: «لا عدوى». وقد يقال: هو من باب عطف الخاص على العام، وخصه بالذكر لاشتهاره عندهم بالعدوى. وقالت طائفة: بل المراد بصفر شهر صفر. ثم اختلفوا في تفسيره على قولين: أحدهما: أن المراد نفي ما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء فكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهذا قول مالك. والثاني: أن المراد أن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشئوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك، وهذا حكاه أبو داود عن محمد بن راشد المكحولي عمن سمعه يقول ذلك. ولعل هذا القول أشبه الأقوال. وكثير من الجهال يتشاءم بصفر وربما ينهى عن السفر فيه، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك

---

(١) انظر صحيح مسلم (١٨٨٧) والصحيحة (٩٩٥).

(٢) صحيح. رواه أحمد (١٥٣٤٩) وصححه شيخنا في الصحيحة (٩٩٥) على شرط الشيخين.

التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء. وقد روي أنه: يوم نحس مستمر في حديث لا يصح[(١)]، بل في المسند عن جابر أن النبي ﷺ: دعا على الأحزاب يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر، قال جابر: فما نزل بي أمر مهم غائظ إلا توخيت ذلك الوقت فدعوت الله فيه الإجابة[(٢)]. أو كما قال. وكذلك تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة، وقد قيل: إن أصله أن طاعوناً وقع في شوال في سنة من السنين، فمات فيه كثير من العرائس؛ فتشاءم بذلك أهل الجاهلية، وقد ورد الشرع بإبطاله. قالت عائشة رضي الله عنها: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأيُّ نسائه كان أحظى عنده مني؟ وكانت عائشة تَسْتَحِبُّ أن تُدْخِل نساءَها في شوال[(٣)]. وتزوج النبي ﷺ أم سلمة في شوال أيضاً[(٤)].

فأما قول رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة والدار والدابة»[(٥)] خرجاه في الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ، فقد اختلف الناس في معناه أيضاً[(٦)]، وروي عن عائشة أنها أنكرت هذا الحديث أن يكون من كلام النبي ﷺ وقالت: إنما قال: كان أهل الجاهلية يقولون ذلك. خرجه الإمام أحمد[(٧)]. وقال معمر: سمعت من

(١) قلت: وهو حديث موضوع كما قاله شيخنا في الضعيفة (١٥٨١).
(٢) أحمد (١٤١٥٣) وحسنه شيخنا في صحيح الأدب المفرد (٧٠٤).
(٣) رواه مسلم (١٤٢٣).
(٤) ضعيف. رواه ابن ماجه (١٩٩١) وضعفه شيخنا في ضعيف ابن ماجه.
(٥) البخاري (٥٧٥٣) ومسلم (٢٢٢٥).
(٦) قال شيخنا في الصحيحة (٨٠٤/١) ـ بعد تخريجه الحديث بلفظ: «إن يك من الشؤم شيء حق...» ـ: «والحديث يعطي بمفهومه أن لا شؤم في شيء؛ لأن معناه: لو كان الشؤم ثابتاً في شيء ما لكان في هذه الثلاثة لكنه ليس ثابتاً في شيء أصلًا وعليه فما في بعض الروايات بلفظ: «الشؤم في ثلاثة» أو: «إنما الشؤم في ثلاثة» فهو اختصار وتصرف من بعض الرواة والله أعلم» وقال في الصحيحة (١٩٣٠) عن لفظ: «الشؤم في ثلاث» شاذ مرجوح.
(٧) أحمد (٢٥٥٥٧).

يفسر هذا الحديث يقولون: شؤم المرأة: إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس: إذا لم يكن يغزى عليه في سبيل الله، وشؤم الدار: جار السوء. ويروى هذا المعنى مرفوعاً من وجوه لا تصح. ومنهم من قال: قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا شؤم، وإن يكن اليمن في شيء ففي ثلاثة»[١] فذكر هذه الثلاثة. وقال: هذه الرواية أشبه بأصول الشرع كذا قاله ابن عبدالبر، ولكن إسناد هذه الرواية لا يقاوم ذلك الإسناد. والتحقيق أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاثة ما ذكرناه في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرار من المجذوم ومن أرض الطاعون، إن هذه الثلاثة أسباب قدر الله بها الشؤم واليمن ويقرنه بها، ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه ويستعيذ به من شرها وشر ما جبلت عليه[٢]. كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ الذي خرجه أبو داود وغيره، وكذا ينبغي لمن سكن داراً أن يفعل ذلك وقد أمر رسول الله ﷺ قوماً سكنوا داراً ـ فقل عددهم وقل مالهم ـ أن يتركوها ذميمة[٣]. فترك ما لا يجد الإنسان فيه بركة من دار أو زوجة أو دابة غير منهي عنه، وكذلك من اتَّجر في شيء فلم يربح فيه ثلاث مرات فإنه يتحول عنه. وروي ذلك عن عمر بن الخطاب، فإنْ بورك له في شيء فلا يتغير عنه. ففي المسند وسنن ابن ماجه عن عائشة مرفوعاً: «إذا كان لأحدكم رزق في شيء فلا يدعه حتى يتغير له أو يتنكر له»[٤].

وأما تخصيص الشؤم بزمان دون زمان كشهر صفر أو غيره فغير صحيح، وإنما الزمان كله خلق الله تعالى وفيه تقع أفعال بني آدم، فكل زمان

---

(١) صحيح. رواه الترمذي (٢٨٢٤) وابن ماجه (١٩٩٣) والحديث صححه شيخنا في الصحيحة (١٩٣٠).

(٢) حسن. أبو داود (٢١٦١) وابن ماجه (١٩١٨) وحسنه شيخنا في آداب الزفاف (ص٩٣).

(٣) حسن. رواه أبو داود (٣٩٢٤) والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٩) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٧٩٠).

(٤) ضعيف. أحمد (٢٥٥٦١) وابن ماجه (٢١٤٨) قال شيخنا كما في هداية الرواة (١٤٠/٣): «وإسناده ضعيف».

شغله المؤمن بطاعة الله فهو زمان مبارك عليه، وكل زمان شغله العبد بمعصية الله فهو مشئومٌ عليه، فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله تعالى كما قال ابن مسعود: إن كان الشؤم في شيء ففيما بين اللحين ـ يعني: اللسان ـ وقال: وما من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال عدي بن حاتم: أيمن امْرِئٍ[١] وأشأمه بين لحييه ـ يعني لسانه ـ. وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: «حسن الملكة نماء، وسوء الملكة شؤم، والبر زيادة في العمر، والصدقة تمنع ميتة السوء»[٢]. فجعل سوء الملكة شؤماً. وفي حديث آخر: «لا يدخل الجنة سيئ الملكة»[٣]، وهو من يسيء إلى مماليكه ويظلمهم. وفي الحديث: «إن الصدقة تدفع ميتة السوء»[٤]، ويروى من حديث علي مرفوعاً: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطاها» خرجه الطبراني[٥]، وفي حديث آخر: «إن لكل يوم نحساً، فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة»[٦] فالصدقة تمنع وقوع البلاء بعد انعقاد أسبابه، وكذلك الدعاء. وفي الحديث: «إن البلاء والدعاء يلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة» خرجه البزار والحاكم[٧]، وخرج الترمذي من حديث سلمان مرفوعاً: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»[٨]. وقال ابن عباس: لا ينفع الحذر من

---

(١) في نسخ: «أيمن أمرٍ».

(٢) ضعيف. أبو داود (٥١٦٢) وأحمد (١٥٦٤٩) واللفظ له والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٧٩٤).

(٣) ضعيف. رواه الترمذي (١٩٤٦) وابن ماجه (٣٦٩١) وضعفه شيخنا في ضعيف سنن الترمذي.

(٤) ضعيف. رواه الترمذي (٦٦٤) والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٦٦٥) وتمام المنة (٣٩٠) قلت: ويغني عنه قوله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» وقد حسنه شيخنا انظر تمام المنة (٣٩٢).

(٥) ضعيف جداً. الطبراني في الأوسط (٩/٦) وقال شيخنا في ضعيف الترغيب (٥٢٤): «ضعيف جداً».

(٦) موضوع. رواه ابن مردويه في تفسيره كما في الدر المنثور (٧٠٧/٦).

(٧) ضعيف جداً. البزار (٢١٣٧/مختصر) والحاكم (٤٩٢/١) وضعفه شيخنا كما في ضعيف الترغيب (١٠١٤) تنبيه: كان شيخنا قد حسنه في صحيح الجامع ثم تراجع عن ذلك.

(٨) حسن. الترمذي (٢١٣٩) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٥٤).

القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر. وعنه قال: الدعاء يدفع القدر، وهو إذا دفع القدر فهو من القدر. وهذا كقول النبي ﷺ لما سئل عن الأدوية والرقى هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»[١]، وكذلك قال عمر لما رجع من الطاعون، فقال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله[٢]. فإن الله تعالى يقدر المقادير، ويقدر ما يدفع بعضها قبل وقوعه. وكذلك الأذكار المشروعة تدفع البلاء. وفي حديث عثمان عن النبي ﷺ: «من قال حين يصبح ويمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، لم يصبه بلاء»[٣]. وفي المسند عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «الشؤم سوء الخلق»[٤]. وخرجه الخرائطي ولفظه: «اليمن حسن الخلق»[٥]. وفي الجملة: فلا شؤم إلا المعاصي والذنوب فإنها تسخط الله فإذا سخط على عبده شقي في الدنيا والآخرة كما إنه إذا رضي عن عبده سَعِدَ في الدنيا والآخرة. قال بعض الصالحين، وقد شكي إليه بلاء وقع في الناس فقال: ما أرى ما أنتم فيه إلا بشؤم الذنوب. وقال أبو حازم: كل ما شغلك عن الله من أهل أو ولد أو مال فهو عليك شؤم. وقد قيل:

فلا كان ما يلهي عن الله إنه ... يضر ويؤذي إنه لمشئوم

فالشؤم في الحقيقة هو المعصية، واليمن طاعة الله وتقواه كما قيل:

إن رأياً دعا إلى طاعة الله ... لرأي مبارك ميمون

---

(١) حسن لغيره. رواه الترمذي (٢٠٦٥) وابن ماجه (٣٤٣٧) والحديث حسنه شيخنا لشواهده كما في مشلكة الفقر (١١) وكما في صحيح موارد الظمآن (١٣٩٦) تنبيه: ضعفه شيخنا في ضعيف الترمذي وكذا ابن ماجه ويحول إلى القسم الصحيح فهو آخر قولي شيخنا.

(٢) رواه البخاري (٥٧٢٩) ومسلم (٢٢١٩).

(٣) صحيح. رواه أبو داود (٥٠٨٨) والترمذي (٣٣٨٨) قال شيخنا في الكلم الطيب (٢٣): «إسناده صحيح».

(٤) ضعيف. أحمد (٢٤٠٢٦) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٧٩٣).

(٥) ضعيف. الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص٧ ـ ٨و١٠) كما في الضعيفة لشيخنا (٢٢٦٨).

والعدوى التي تهلك من قاربها هي المعاصي فمن قاربها وخالطها وأصرَّ عليها هلك، وكذلك مخالطة أهل المعاصي ومن يحسن المعاصي ويزينها ويدعو إليها من شياطين الإنس، وهم أضر من شياطين الجن. قال بعض السلف: شيطان الجن تستعيذ بالله منه فينصرف، وشيطان الإنس لا يبرح حتى يوقعك في المعصية. وفي الحديث: «يحشر المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل»(١). وفي حديث آخر: «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»(٢). ومما يروى لعلي بن أبي طالب ﷺ:

لا تصحب أخا الجهل ... وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى ... حكيماً حين واخاه
يقاس المرء بالمرء ... إذا ما المرء ماشاه
وللشيء على الشيء ... مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب ... دليل حين يلقاه

فالعاصي مشئومٌ على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعم الناس خصوصاً من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعين فإذا كثر الخبث هلك الناس عموماً. وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب كما قال النبي ﷺ لأصحابه لما مر على ديار ثمود بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين خشية أن يصيبكم ما أصابهم»(٣)، ولما تاب الذي قتل مائة نفس من بني إسرائيل وسأل العالم: هل له من توبة؟ قال له: نعم، فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة فأدركه الموت بينهما فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إليهم أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان

---

(١) حسن. رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٩٢٧) وليس عندهما: «يحشر المرء».

(٢) حسن. رواه أبو داود (٤٨٣٢) وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٠٣٦) وفي آداب الزفاف (٧٤).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠).

أقرب فألحقوه بها، فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر فغفر له[1].

هجران أماكن المعاصي وأخوانها من جملة الهجرة المأمور بها؛ فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه. قال إبراهيم بن أدهم: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة من كان يخالط وإلا لم ينل ما يريد. احذروا الذنوب فإنها مشئومةٌ عواقبها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوب المحبة لها سقيمة، والنفوس المائلة إليها غير مستقيمة، والسلامة منها غنيمة، والعافية منها ليس لها قيمة، والبلية بها ـ لا سيما بعد نزول الشيب ـ داهية عظيمة.

طاعة الله خير ما اكتسب العبد فكن طائعاً لله لا تعصينه
ما هلاك النفوس إلا المعاصي فاجتنب ما نهاك لا تقربنه
إنَّ شيئاً هلاك نفسك فيه ينبغي أن تصون نفسك عنه

يا من ضاع قلبه! انشده في مجالس الذكر عسى أن تجده، يا من مرض قلبه! احمله إلى مجلس الذكر لعله أن يعافى. مجالس الذكر مارستانات الذنوب يداوى فيها أمراض القلوب كما تداوى أمراض الأبدان في مارستانات الدنيا، وَنُزَهٌ لقلوب المؤمنين تتنزه فيه بسماع كلام الحكمة كما تتنزه أبصار أهل الدنيا في رياضها وبساتينها، مجلسنا هذا خضرة في روضة الخشوع، طعامنا فيه الجوع، وشرابنا فيه الدموع، ونقلنا هذا الكلام المسموع نداوي به أمراضاً أعيت جالينوس وبختيشوع، نسقي فيه درياق الذنوب، وفاروق المعاصي، فمن شرب لم يكن له إلى المعصية رجوع، كم أفاق فيه من المعصية مصروع، وبرئ فيه من الهوى ملسوع، ووصل فيه إلى الله مقطوع، ما عيبه إلا أن الطبيب الذي له لو كان يستعمل ما يصف للناس لكان إلى قوله المرجوع. يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع.

---

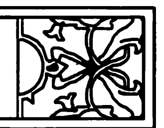
(١) رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦) وعندهما: «أقرب بشبر».

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المقوم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التقويم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
تصف الدواء لذي السقام ليشتفي ... داء ألم به وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

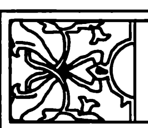
[غيره:]

كم ذا التمادي فها قد جاءنا صفر ... شهر به الفوز والتوفيق والظفر
فابدأ بما شئت من فعل تسر به ... يوم المعاد ففيه الخير ينتظر
توبوا إلى الله فيه من ذنوبكم ... من قبل يبلغ فيكم حده العمر

❁ ❁ ❁



# وظائف شهر ربيع الأول



**ويشتمل على مجالس:**

## المجلس الأول
## في ذكر مولد النبي ﷺ

خرج الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك أمهات النبيين يرين»[(١)]. وخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد[(٢)]، وقد روي معناه من حديث أبي أمامة الباهلي ومن وجوه أخر مرسلة.

المقصود من هذا الحديث أن نبوة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله ويخرجه إلى دار الدنيا حياً، وأن ذلك كان مكتوباً في أم الكتاب من قبل نفخ الروح في آدم عليه السلام، وفسر أم الكتاب باللوح المحفوظ وبالذكر في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ

---

(١) صحيح لغيره إلا قوله: «وكذلك أمهات النبيين يرين». أحمد (١٦٧٠٠) صححه شيخنا لشواهده إلا الفقرة الأخيرة انظر الضعيفة (٢٠٨٥) وصحيح السيرة (ص٥٤) والصحيحة (١٨٥٦).

(٢) الحاكم (٢/٦٠٠).

ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: ٣٩]. وعن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله ماهو خالق، وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً؛ فكان كتاباً.

ولا ريب أن علم الله ﷻ قديم أزلي لم يزل عالماً بما يحدثه من مخلوقاته، ثم إنه تعالى كتب ذلك في كتاب عنده قبل خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]. وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض[(١)]. وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(٢)]. ومن جملة ما كتبه في هذا الذكر وهو أم الكتاب: أن محمداً خاتم النبيين، ومن حينئذٍ انتقلت المخلوقات من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة وهو نوع من أنواع الوجود الخارجي؛ ولهذا قال سعيد بن راشد: سألت عطاء هل كان النبي ﷺ نبياً قبل أن يخلق الخلق؟ قال: إي والله، وقبل أن تخلق الدنيا بألفي عام[(٣)]. خرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة ـ وعطاء الظاهر أنه: الخراساني ـ وهو إشارة إلى ما ذكرنا من كتابة نبوته ﷺ في أم الكتاب عند تقدير المقادير.

وقوله ﷺ في هذا الحديث: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته» ليس المراد به والله أعلم أنه حينئذٍ كتب في أم الكتاب ختمه للنبيين، وإنما المراد الإخبار عن كون ذلك مكتوباً في أم الكتاب في تلك الحال قبل نفخ الروح في آدم، وهو أول ما خلق من

---

(١) البخاري (٧٤١٨).
(٢) مسلم (٢٦٥٣).
(٣) ضعيف جداً. الآجري في الشريعة (٩٤٩) بإسناد واهٍ.

النوع الإنساني. وجاء في أحاديث أخر أنه في تلك الحال وجبت له النبوة، وهذه مرتبة ثالثة وهي انتقاله من مرتبة العلم والكتابة إلى مرتبة الوجود العيني الخارجي؛ فإنه ﷺ استخرج حينئذٍ من ظهر آدم ونبئ فصارت نبوته موجودة في الخارج بعد كونها كانت مكتوبة مقدرة في أم الكتاب، ففي حديث ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» خرجه الإمام أحمد والحاكم[1]. قال الإمام أحمد في رواية مُهَنَّا: وبعضهم يرويه: متى كتبت نبياً؟ من الكتابة. فإن صحت هذه الرواية حملت مع حديث العرباض بن سارية على وجوب نبوته وثبوتها وظهورها في الخارج، فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب: إما شرعاً كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، أو قدراً كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجَادلة: ٢١]. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»[2] خرجه الترمذي وحسنه - وفي نسخه صححه - وخرجه الحاكم. وروى ابن سعد من رواية جابر الجعفي عن الشعبي قال: قال رجل للنبي ﷺ: متى استنبئت؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد، حين أخذ مني الميثاق»[3]، وهذه الرواية تدل على أنه ﷺ حينئذٍ استخرج من ظهر آدم ونبئ وأخذ ميثاقه، فيحتمل أن يكون ذلك دليلًا على أن استخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق منهم كان قبل نفخ الروح في آدم، وقد روي هذا عن سلمان الفارسي وغيره من السلف، ويستدل له أيضاً بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [الأعرَاف: ١١] على ما فسره به مجاهد وغيره: أن المراد: إخراج ذرية آدم من ظهره قبل أمر

---

(١) صحيح. أحمد (٢٠٠٧٣) والحاكم (٦٠٨/٢ - ٦٠٩) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٨٥٦) تنبيه: قلت: ورد في بعض المصادر بالتاء وفي بعضها بالنون والأرجح أنه بالتاء.

(٢) صحيح. الترمذي (٣٦٠٩) والحاكم (٦٠٩/٢) وصححه شيخنا في المشكاة (٥٧٥٨).

(٣) ضعيف جداً. ابن سعد في الطبقات (١٤٨/١) قال شيخنا في الصحيحة (٤٧٢/٤): «وإسناده ضعيف».

الملائكة بالسجود له. ولكن أكثر السلف على أن استخراج ذرية آدم منه كان بعد نفخ الروح فيه. وعلى هذا تدل أكثر الأحاديث فيحتمل على هذا أن يكون محمد ﷺ خص باستخراجه من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه، فإن محمداً ﷺ هو المقصود من خلق النوع الإنساني[(١)] وهو عينه وخاصته وواسطة عقده، فلا يبعد أن يكون أخرج من ظهر آدم عند خلقه قبل نفخ الروح فيه.

وقد روي: أن آدم عليه الصلاة والسلام رأى اسم محمد ﷺ مكتوباً على العرش وأن الله ﷻ قال لآدم: «لولا محمد ما خلقتك»[(٢)] وقد خرجه الحاكم في صحيحه. فيكون حينئذٍ من حين صور آدم طيناً استخرج منه محمد ﷺ ونبئ وأخذ منه الميثاق ثم أعيد إلى ظهر آدم حتى خرج في وقت خروجه الذي قدر الله خروجه فيه، ويشهد لذلك ما روي عن قتادة أن النبي ﷺ قال: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»[(٣)]، وفي رواية: «أول الناس في الخلق»[(٤)] خرجه ابن سعد وغيره، وخرجه الطبراني من رواية قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً[(٥)]، والمرسل أشبه، وفي رواية عن قتادة مرسلة: ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، فبدأ به قبل نوح الذي هو

---

(١) هذا الكلام باطل وسامح الله المصنف وهو الحافظ الناقد كيف قرر مثل هذا الكلام وسكت عن الحديث الذي بعده وهو واضح البطلان مخالف لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

(٢) موضوع. الحاكم (٢/٦١٥) وحكم شيخنا عليه بالوضع في الضعيفة (٢٥) ونقل عن جمع من الحفاظ قولهم عنه حديث باطل وأفاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الآثار السيئة التي تركها مثل هذا الحديث في المسلمين.

(٣) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (١١ ـ ١٢) وحكم شيخنا عليه بالضعف كما في الضعيفة (٦٦١) وذكر أنه يغني عنه حديث: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» ثم قال: «ولكن لا دلالة فيه ولا في الذي قبله على أن النبي ﷺ أول خلق الله تعالى خلافاً لما يظن البعض وهو ظاهر بأدنى تأمل».

(٤) ضعيف. ابن سعد (١/١٤٩) عن قتادة مرسلًا وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢/١١٥).

(٥) وإسناده ضعيف كما قرره شيخنا في المصدر السابق.

أول الرسل. فمحمد ﷺ أول الرسل خلقاً[١] وآخرهم بعثاً؛ فإنه استخرج من ظهر آدم لما صور ونبئ حينئذٍ وأخذ ميثاقه، ثم أعيد إلى ظهره، ولا يقال: فقد خلق آدم قبله؛ لأن آدم حينئذٍ كان مواتاً لا روح فيه، ومحمد ﷺ كان حياً حين استخرج ونبئ وأخذ ميثاقه، فهو أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً، فهو خاتم النبيين باعتبار أن زمانه تأخر عنهم فهو: المقفى والعاقب الذي جاء عقب الأنبياء ويقفوهم. قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وفي الصحيحين عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة»[٢]، زاد مسلم: قال: «فجئت فختمت الأنبياء»[٣]. وفيهما أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ معناه، وفيه: «فجعل الناس يطوفون به ويقولون: هلا وضعت اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[٤]. وقد استدل الإمام أحمد بحديث العرباض بن سارية هذا على أن النبي ﷺ لم يزل على التوحيد منذ نشأ. ورد بذلك على من زعم غير ذلك، بل قد يستدل بهذا الحديث على أنه ﷺ ولد نبياً؛ فإن نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق منه حيث استخرج من صلب آدم فكان نبياً من حينئذٍ، لكن كانت مدة خروجه إلى الدنيا متأخرة عن ذلك، وذلك لا يمنع كونه نبياً قبل خروجه كمن يولى ولاية ويؤمر بالتصرف فيها في زمن مستقبل فحكم الولاية ثابت له من حين ولايته وإن كان تصرفه يتأخر إلى حين مجيء الوقت. قال حنبل: قلت لأبي عبدالله ـ يعني: أحمد ـ: من زعم أن النبي كان على دين قومه قبل أن يبعث؟ قال: هذا قول سوء ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يحذر كلامه ولا يجالس، قلت له: إن جارنا الناقد أبا العباس يقول هذه

---

(١) قلت: وهذا الكلام غير صحيح وانظر رسالة شيخنا محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه الله ـ قل جاء الحق محمد أفضل الخلق لا أول الخلق فقد أجاد وأفاد.

(٢) البخاري (٣٥٣٤) ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) مسلم (٢٢٨٧).

(٤) البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦).

المقالة؟ قال: قاتله الله وأي شيء أبقى إذا زعم أن رسول الله ﷺ كان على دين قومه، وهم يعبدون الأصنام. قال الله تعالى حاكياً عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦]، قلت له: وزعم أن خديجة كانت على ذلك[1] حين تزوجها النبي ﷺ في الجاهلية قال: أما خديجة فلا أقول شيئاً قد كانت أول من آمن به من النساء، ثم قال: ماذا يحدث الناس من الكلام! هؤلاء أصحاب الكلام، من أحب الكلام لم يفلح، سبحان الله لهذا القول! واحتج في ذلك بكلام لم أحفظه.

وذكر أن أمه حين ولدت رأت نوراً أضاء له قصور الشام، أوَليس هذا عندما ولدت رأت هذا؟ وقبل أن يبعث كان طاهراً مطهراً من الأوثان، أوليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب؟ ثم قال: احذروا الكلام؛ فإن أصحاب الكلام لا يؤول أمرهم إلى خير. خرجه أبو بكر عبدالعزيز بن جعفر في كتاب «السنة»[2]. ومراد الإمام أحمد الاستدلال بتقدم البشارة بنبوته من الأنبياء الذين قبله وبما شوهد عند ولادته من الآيات على أنه كان نبياً من قبل خروجه إلى الدنيا وولادته، وهذا هو الذي يدل عليه حديث العرباض بن سارية هذا، فإنه ﷺ ذكر فيه أن نبوته كانت حاصلة من حين آدم منجدلًا في طينته، والمراد بالمنجدل: الطريح الملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه، ويقال للقتيل: إنه منجدل لذلك، ثم استدل ﷺ على سبق ذكره والتنويه باسمه ونبوته وشرف قدره لخروجه إلى الدنيا بثلاث دلائل.

وهو مراده بقوله: «وسأنبئكم بتأويل ذلك».

**الدليل الأول**: دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام، وأشار بذلك إلى ما قص الله في كتابه العزيز عن إبراهيم وإسماعيل أنهما قالا عند بناء البيت الذي بمكة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ

---

(١) في نسخة: «كذلك» كما في الأصل.

(٢) (ص١٩٥).

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩] فاستجاب الله دعاءهما وبعث في أهل مكة منهم رسولًا بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء، وقد امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم على هذه الصفة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤]. ومعلوم أنه لم يبعث في مكة رسول منهم بهذه الصفة غير محمد ﷺ وهو من ولد إسماعيل، كما أن أنبياء بني إسرائيل من ولد إسحاق. وذكر تعالى: أنه مَنَّ على المؤمنين بهذه الرسالة؛ فليس لله نعمة أعظم من إرسال محمد ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ [آل عِمرَان: ٧٥] والمراد بهم العرب: تنبيهاً لهم على قدر هذه النعمة وعظمها حيث كانوا أميين لا كتاب لهم وليس عندهم شيء من آثار النبوات كما كان عند أهل الكتاب، فمنَّ الله عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم، وعرفوا ضلالة من ضل من الأمم قبلهم. وفي كونه منهم فائدتان: إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضاً أمياً كأمته المبعوث إليهم لم يقرأ كتاباً قط ولم يخط بيمينه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العَنكبوت: ٤٨] الآيات، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم شيئاً بل لم يزل أمياً بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى كمل الأربعين من عمره ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين وهذه الشريعة الباهرة وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارهم أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان ظاهر على صدقه. والفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم ـ وهم الأميون خصوصاً أهل مكة ـ

يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته، وعفته وأنه نشأ بينهم معروفاً بذلك كله. وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفتري الكذب على الله؟ هذا هو الباطل، ولذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤] يعني: يتلو عليهم ما أنزله الله عليه من آياته المتلوة وهو القرآن وهو أعظم الكتب السماوية، وقد تضمن من العلوم والحكم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب، وذكر أخبار من سبق وأخبار ما[1] يأتي من البعث والنشور، والجنة والنار ما لم يشتمل عليه كتاب غيره، حتى قال بعض العلماء: لو أن هذا الكتاب وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك، فكيف إذا جاء على يدي أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم وقال: إنه كلام الله، وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا فيه، فكيف يبقى مع هذا شك فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العَنكبوت: ٥١]، فلو لم يكن لمحمد من المعجزات الدالة على صدقه غير هذا الكتاب لكفاه، فكيف وله من المعجزات الأرضية والسماوية مالا يحصى.

وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البَقَرَة: ١٢٩] يعني: أنه يزكي قلوبهم ويطهرها من أدناس الشرك والفجور والضلال فإن النفوس تزكوا إذا طهرت من ذلك كله، ومن زكت نفسه فقد أفلح، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشّمس: ٩] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ [الأعلى: ١٤].

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: ١٢٩] يعني بالكتاب: القرآن. والمراد تعلمهم تلاوة ألفاظه. ويعني بالحكمة: فهم معاني القرآن

(١) في نسخة: «من» كما في الأصل.

والعمل بما فيه، والحكمة هي: فهم القرآن والعمل به، فلا يكتفى بتلاوة ألفاظ الكتاب حتى يعلم معناه ويعمل بمقتضاه، فمن جمع له ذلك كله فقد أوتي الحكمة قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] قال الفضيل: العلماء كثير، والحكماء قليل. وقال: الحكماء ورثة الأنبياء، فالحكمة هي العلم النافع الذي يتبعُهُ العمل الصالح، وهي نور يقذف في القلب يفهم بها معنى العلم المنزل من السماء، ويحض على اتباعه والعمل به، ومن قال الحكمة: السنة؛ فقوله حق؛ لأن السنة تفسر القرآن وتبين معانيه وتحض على اتباعه والعمل به، فالحكيم هو العالم المستنبط لدقائق العلم المنتفع بعلمه بالعمل به، ولأبي العتاهية:

وكيف تحب أن تدعى حكيماً ... وأنت لكل ما تهوى ركوب
وتضحك دائباً ظهراً لبطن ... وتذكر ما عملت فلا تتوب

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤] إشارة إلى ما كان الناس عليه قبل إنزال هذا الكتاب من الضلال، فإن الله نظر حينئذٍ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب[1] تمسكوا بدينهم الذي لم يبدل ولم يغير وكانوا قليلًا جداً. فأما عامة أهل الكتاب فكانوا قد بدلوا كتبهم وغيروها وحرفوها وأدخلوا في دينهم ما ليس منه فضلوا وأضلوا. وأما غير أهل الكاتب فكانوا على ضلال بَيِّن، فالأميون أهل شرك يعبدون الأوثان، والمجوس يعبدون النيران ويقولون: بإلهين اثنين، وكذلك غيرهم من أهل الأرض منهم من كان يعبد النجوم، ومنهم من كان يعبد الشمس أو القمر؛ فهدى الله المؤمنين بإرسال محمد ﷺ إلى ما جاء به من الهدى والدين الحق، وأظهر الله دينه حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، فظهرت فيها كلمة التوحيد والعمل بالعدل بعد أن كانت الأرض كلها ممتلئة من ظلمة الشرك والظلم؛ فالأميون هم العرب، والآخرون الذين لم يلحقوا بهم هم أهل فارس والروم فكانت أهل فارس

(١) ورد هذا في حديث خرجه مسلم (٢٨٦٥).

مجوساً والروم نصارى؛ فهدى الله جميع هؤلاء برسالة محمد ﷺ إلى التوحيد. وقد رُئي الإمام بعد موته في المنام فسئل عن حاله فقال: لولا هذا النبي لكنا مجوساً، وهو كما قال؛ فإن أهل العراق لولا رسالة محمد ﷺ كانوا مجوساً، وأهل الشام ومصر والروم لولا محمد ﷺ لكانوا نصارى، وأهل جزيرة العرب لولا رسالة محمد ﷺ لكانوا مشركين عباد أوثان، ولكن رحم الله عباده بإرسال محمد ﷺ فأنقذهم من الضلال كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجُمُعَة: ٤]، فمن حصل له نصيب من دين الإسلام فقد حصل له الفضل العظيم. وقد عظمت عليه نعمة الله، فما أحوجه إلى القيام بشكر هذه النعمة وسؤاله دوامها والثبات عليها إلى الممات، والموت عليها فبذلك تتم النعمة. فإبراهيم عليه السلام هو إمام الحنفاء، المأمور محمد ﷺ ومن قبله من الأنبياء بالاقتداء به، وهو الذي جعله الله للناس إماماً وقد دعا هو وابنه إسماعيل بأن يبعث الله في أهل مكة رسولًا منهم موصوفاً بهذه الأوصاف فاستجاب الله لهما وجعل هذا النبي المبعوث فيهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم كما دعيا بذلك، وهو النبي الذي أظهر دين إبراهيم الحنيف بعد اضمحلاله وخفائه على أهل الأرض، فلهذا كان أولى الناس بإبراهيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ٦٨]، وقال ﷺ: «إن لكل نبي ولياً من النبيين وأنا ولي إبراهيم»[(١)] ثم تلا هذه الآية. وكان ﷺ أشبه ولد إبراهيم به صورةً ومعنى حتى إنه أشبهه في خلة الله تعالى فقال: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا»[(٢)].

**الثاني:**[(٣)] بشارة عيسى عليه السلام به، وعيسى آخر أنبياء بني إسرائيل وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦] وقد كان

---

(١) صحيح. رواه أحمد (٣٧٩٠) والترمذي (٢٩٩٥) وصححه شيخنا في صحيح الترمذي.
(٢) رواه مسلم (٥٣٢).
(٣) أي الدليل الثاني مما دل على نبوته ﷺ.

المسيح عليه السلام يحض على اتباعه ويقول: إنه يبعث بالسيف فلا يمنعكم ذلك منه. وروي عنه عليه السلام أنه قال: سوف أذهب أنا ويأتي الذي بعدي لا يتحمدكم بدعواه، ولكن يسل السيف فتدخلونه طوعاً وكرهاً. وفي المسند عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ أوحى إلى عيسى عليه السلام إني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا، ولا حلم ولا علم، قال: يا رب كيف هذا ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيهم من حلمي وعلمي»[١].

قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم: أن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: إن أحب الأمم إلى الله ﷻ لأمة أحمد ﷺ، قيل له: وما فضلهم الذي يذكر؟ قال: لم تذلل لا إله إلا الله على ألسن أمة من الأمم تذليلها على ألسنتهم.

**الثالث**: مما دل على نبوته ﷺ قبل ظهوره: رؤيا أمه التي رأت أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام. وذكر أن أمهات النبيين كذلك يرين[٢]. والرؤيا ها هنا إن أريد بها رؤية المنام فقد روي أن آمنة بنت وهب رأت في أول حملها بالنبي ﷺ أنها بشرت بأنه يخرج منها عند ولادتها نور تضيء له قصور الشام. وروى الطبراني بإسناده عن أبي مريم[٣] الكندي عن النبي ﷺ أنه سئل: أي شيء كان أول من أمر نبوتك؟ فقال: «أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم وتلا: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية، وبشرى المسيح ابن مريم، ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين يديها سراج أضاءت لها منه قصور الشام، ثم قال: «ووراء ذلك ـ مرتين أو ثلاثاً ـ»[٤].

---

(١) أحمد (٢٦٩٩٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٠٣٨ و٤٩٩١).

(٢) وقد سبق التنبيه أن قوله: «وكذلك أمهات...» ضعيف.

(٣) في الأصل: «مرة».

(٤) صحيح لغيره. الطبراني في الكبير (٢٢/٢٧٥) وإسناده ضعيف لكن له شواهد يصح بها فانظر الصحيحة لشيخنا (١٥٤٥و١٥٤٦).

وإن أريد بها رؤية عين كما قال ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] إنها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به(١). فقد روي أن آمنة رأت ذلك عند ولادة النبي ﷺ. قال ابن إسحاق: كانت آمنة بنت وهب تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع إلى الأرض؛ فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميه محمداً؛ فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد(٢).

وذكر ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له متعددة: أن آمنة بنت وهب قالت: لقد علقت به ـ تعني: النبي ﷺ ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وفي حديث بعضهم: وقع جاثياً على ركبتيه وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى، رافعاً رأسه إلى السماء(٣). وروى البيهقي بإسناده عن عثمان بن أبي العاص حدثتني أمي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته قالت: فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول: ليقعن علي(٤). وخرج الإمام أحمد من حديث عتبة بن عبد السلمي عن النبي ﷺ: أن أمه قالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام(٥). وروى ابن إسحاق عن جهم بن أبي جهم عن عبدالله بن جعفر عمن حدث عن حليمة أم النبي ﷺ التي أرضعته أن آمنة بنت وهب

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٨).

(٢) ضعيف. السيرة النبوية (١/١٥٧ ـ ١٥٨).

(٣) ضعيف جداً. ابن سعد في الطبقات (١/٩٨).

(٤) ضعيف. البيهقي في دلائل النبوة (١/١١٠ ـ ١١١) وإسناده ضعيف.

(٥) صحيح. أحمد (١٧١٩٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٧٣).

حدثتها أنها قالت: إني حملت به فلم أر حملًا قط كان أخفَّ عليَّ منه، ولا أعظم بركة منه، لقد رأيت نوراً كأنه شهاب خرج مني حين وضعته أضاءت له أعناق الإبل ببصرى[(١)].

وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض وزال به ظلمة الشرك منها كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وفي هذا المعنى يقول عمه العباس في أبياته المشهورة السائرة:

وأنت لما ولدت أشرقت الـ ... أرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي الـ ... نور وسبل الرشاد نخترق

وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته فإنها دار ملكه كما ذكر كعب أن في الكتب السابقة: محمد رسول الله مولده بمكة ومهاجره يثرب وملكه بالشام، فمن مكة بدئت نبوة محمد ﷺ وإلى الشام ينتهي ملكه؛ ولهذا أسري به ﷺ إلى الشام إلى بيت المقدس كما هاجر إبراهيم من قبله إلى الشام.

قال بعض السلف: ما بعث الله نبياً إلا من الشام فإن لم يبعثه منها هاجر إليها.

وفي آخر الزمان يستقر العلم والإيمان بالشام فيكون نور النبوة فيها أظهر منه في سائر بلاد الإسلام. وخرج الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وأبي الدرداء والحاكم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي

---

(١) ضعيف. السيرة النبوية (١/١٦٥) وإسناده ضعيف.

فأتبعته بصري فإذا هو عمود ساطع عمد به إلى الشام، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام»[(١)]. وفي المسند والترمذي وغيرهما عن النبي ﷺ قال: «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم - يعني: الشام -»[(٢)].

وبالشام ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمان، وهو المبشر بمحمد ﷺ فيقرر عند نزوله دين محمد ﷺ ويحكم به ولا يقبل من أحد غير دينه، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويصلي خلف إمام المسلمين ويقول: إن هذه الأمة أئمة بعضهم لبعض[(٣)] إشارة إلى أنه متبع لدينهم غير ناسخ له. والشام هي في آخر الزمان أرض المحشر والمنشر فيحشر الناس إليها قبل القيامة من أقطار الأرض، فيهاجر خيار أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم وهي أرض الشام طوعاً كما تقدم أن خيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم. وقال ﷺ: «عليكم بالشام فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده»[(٤)]. خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم في صحيحهما، وقال أبو أمامة: «لا تقوم الساعة حتى ينتقل خيار أهل العراق إلى الشام، وشرار أهل الشام إلى العراق»[(٥)] خرجه الإمام أحمد. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز فتضيء لها أعناق الإبل ببصرى»[(٦)]. وقد خرجت هذه النار بالحجاز بقرب المدينة، ورؤيت أعناق الإبل من ضَوْئها ببصرى في سنة

---

(١) صحيح. أحمد (١٧٣٢١و٢١٢٢٦) والحاكم (٤/٥٠٩) وصححهما شيخنا في فضائل بلاد الشام (ص١٤).

(٢) صحيح لغيره. أحمد (٦٨٣٢و٦٩١٣) وأبو داود (٢٤٨٢) وصححه شيخنا لشواهده في الصحيحة (٣٢٠٣) تنبيه: كان شيخنا قد ضعف الحديث في بعض كتبه ثم صححه.

(٣) رواه مسلم (١٥٦).

(٤) صحيح. أحمد (١٦٥٥٧) وأبو داود (٢٤٨٣) وابن حبان(٧٣٠٦) والحاكم (٤/٥١٠) وصححه شيخنا في المشكاة (٦٢٦٧) تنبيه: ابن حبان والحاكم خرجا أصل الحديث ولم يخرجاه بهذا التمام.

(٥) ضعيف. أحمد (٢١٦٤١) وإسناده ضعيف.

(٦) البخاري (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢).

أربع وخمسين وستمائة، وعقيبها جرت واقعة ببغداد وقتل بها الخليفة وعامة من كان ببغداد، وتكامل خراب أرض العراق على أيدي التتار، وهاجر خيار أهلها إلى الشام من حينئذٍ، فأما شرار الناس فتخرج نار في آخر الزمان تسوقهم إلى الشام قهراً حتى يجتمع الناس كلهم بالشام قبل قيام الساعة. وفي سنن أبي داود عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها: دمشق من خير مدائن الشام»(١) وخرجه الحاكم ولفظه: «خير منازل المسلمين يومئذٍ»(٢).

إخواني من كان من هذه الأمة فهو من خير الأمم عند الله قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، وقال النبي ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها، وأكرمها على الله تعالى»(٣).

لما كان هذا الرسول النبي الأمي خير الخلق وأفضلهم عند الله سبحانه كانت أمته خير أمة وأفضلها فما يحسن بمن كان من خير الأمم وانتسب إلى متابعة خير الخلق وأفضلهم،(٤) خصوصاً من كان يسكن خير منازل المسلمين في آخر الزمان إلا أن يكون متصفاً بصفات الخير مجتنباً لصفات الشر، وقبيح به أن يرضى لنفسه أن يكون من شرار الناس مع انتسابه إلى خير الأمم ومتابعة خير الرسل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البَيِّنَة: ٧] فخير الناس من آمن بالله وعمل صالحاً، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الناس من فقه في دين الله، ووصل رحمه، وأمر

---

(١) صحيح. أبو داود (٤٢٩٨) وصححه شيخنا في فضائل الشام (ص٣٨).

(٢) صحيح. الحاكم (٤/٤٨٦) قال شيخنا في فضائل الشام (ص٣٨): «وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وأقره المنذري وهو كما قالوا».

(٣) حسن. رواه أحمد (١٩٥٢١) والترمذي (٣٠٠١) والدارمي (٢٦٤٢) وقال شيخنا في قصة المسيح الدجال (ص٥٤): «قلت: وإسناده حسن».

(٤) وضع الناسخ فوقها: «خ» إشارة إلى أنها في نسخة.

بالمعروف، ونهى عن المنكر»، وفي رواية: «خير الناس أتقاهم للرب، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر»[١].

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٢]، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «خير الناس من طال عمره، وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وساء عمله»[٣]، وقال: «خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره»[٤]، وقال: «ألا أخبركم بخياركم؟» قالوا: بلى، قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله، ألا أنبئكم بشراركم؟» قالوا: بلى، قال: «المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب»[٥]، وقال: «شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه»[٦]، وقال: «إن من شر الناس منزلة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[٧]، وقال: «إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنيا غيره»[٨] وقال: «إن من شر الناس منزلة عند الله من يقرأ كتاب الله، ثم لا يرعوي إلى ما فيه»[٩].

أعمال الأمة تعرض على نبيها في البرزخ؛ فليستح عبد أن يعرض على نبيه من عمله ما نهاه عنه.

لما وقف ﷺ عام حجة الوداع قال: «إني فرطكم على الحوض،

---

(١) ضعيف. رواه أحمد (٢٦٨٨٨) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٠٩٣).
(٢) البخاري (٣٣٨٣) ومسلم (٢٥٢٦).
(٣) صحيح لغيره. رواه الترمذي (٢٣٣٠) وصححه شيخنا بشواهده في صحيح الترغيب (٣٣٦٣).
(٤) صحيح. رواه الترمذي (٢٢٦٣) وصححه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.
(٥) حسن لغيره. رواه أحمد (١٧٥٣٧) وقال شيخنا في آخر قوليه كما في صحيح الترغيب (٢٨٢٤): «حسن لغيره».
(٦) رواه البخاري (٦٠٥٤و٦١٣١) ومسلم (٢٥٩١).
(٧) رواه البخاري (٦٠٥٨) ومسلم (٢٥٢٦) واللفظ له.
(٨) ضعيف. رواه ابن ماجه (٣٩٦٦) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٩١٥).
(٩) ضعيف. رواه أحمد (١٠٩٨١) والنسائي (٣١٠٦) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٣٧٣).

وإني مكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهي»[١] يشير إلى أنه ﷺ يستحي من سيئات أمته إذا عرضت عليه. وقال: «ليؤخذن برجال من أمتي ذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي»[٢].

خير هذه الأمة أولها قرناً كما قال ﷺ: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٣]. وقال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[٤].

كم قد جاء مدح أصحابه في كتابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وخص الصديق من بينهم بالصحبة بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

لما جلى الرسول ﷺ عروس الإسلام وأبرزها للبصائر من خدرها أخرج أبو بكر ماله كله نثاراً لهذا العروس، فأخرج عمر النصف موافقة له، فقام عثمان بوليمة العرس فجهز جيش العسرة، فعلم عليٌّ أن الدنيا ضرة هذه العروس وأنهما لا يجتمعان فَبَتَّ طلاقها ثلاثاً. فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، وأعطانا ببركة نبينا هذه الفضائل الجمة فقال لنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. من أين في الأمم مثل أبي بكر الصديق؟ أو عمر الذي ما سلك طريقاً إلا هرب الشيطان من ذلك الطريق؟ أو عثمان الصابر على مُرِّ الضيق؟ أو علي بحر العلم العميق؟ أو حمزة والعباس؟ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين؟ أو مثل سعد وسعيد؟ هيهات! من أين؟ أو مثل ابن

(١) صحيح. رواه ابن ماجه (٣٠٥٧) وصححه شيخنا في صحيح ابن ماجه.
(٢) رواه البخاري (٤٧٤٠و٦٥٨٥) ومسلم (٢٢٩١و٢٢٩٧) قلت: المؤلف لفق الحديث من مجموع روايتين عندهما.
(٣) رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) بلفظ: «خير الناس».
(٤) رواه البخاري (٣٥٥٧).

عوف وأبي عبيدة؟ ومن مثل الاثنين؟ إن شبهتهم بهم فقد أبعدتم القياس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]. من أين في زهاد الأمم مثل أويس؟ أو في عُبَّادهم مثل عامر بن عبد قيس؟ أو في خائفهم مثل عمر بن عبدالعزيز؟ هيهات! ليس ضوء الشمس كالمقباس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، أفي علمائهم مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي السديد المسالك؟ كيف نمدحه وهو أجلُّ من ذلك؟ ما أحسن بنيانه والأساس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]. أفيهم أعلى من الحسن البصري وأنبل، أو ابن سيرين الذي بالورع تقبل، أو سفيان الثوري الذي بالخوف والعلم تسربل، أو مثل أحمد الذي بذل نفسه في الله وَسَبَّل، تالله ما في الأمم مثل ابن حنبل؛ ارفع صوتك بهذا ولا باس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

لاح شيب الرأس مني وفضح[1] ... بعد لهو وشباب ومرح
إخوتي توبوا إلى الله بنا ... قد لهونا وجهلنا ما صلح
نحن في دار نرى الموت بها ... لم يدع فيها لذي اللب فرح
يا بني آدم صونوا دينكم ... ينبغي للدين ألا يطرح
واحمدوا الله الذي أكرمكم ... بنبي قام فيكم ونصح
بنبي فتح الله به ... كل خير نلتموه ومنح
مرسل لو يوزن الناس به ... في التقى والبر خفوا ورجح
فرسول الله أولى بالعلى ... ورسول الله أولى بالمدح

***

## المجلس الثاني
## في ذكر المولد أيضاً

خرج مسلم من حديث أبي قتادة الأنصاري أن النبي ﷺ سئل عن

(١) البيت لأبي العتاهية وفي ديوانه: «فاتضح».

صيام يوم الاثنين، فقال: «ذاك يوم ولدت فيه، وأنزلت علي فيه النبوة»[(١)].

أما ولادة النبي ﷺ يوم الاثنين فكالمجمع عليه بين العلماء. وقد قاله ابن عباس وغيره. وقد حكي عن بعضهم أنه ولد يوم الجمعة وهو قول ساقط مردود. وروي عن أبي جعفر الباقر: أنه توقف في ذلك وقال: لا يعلم ذلك إلا الله. وإنما قال هذا؛ لأنه لم يبلغه في ذلك ما يعتمد عليه فتوقف في ذلك تورعاً، وأما الجمهور فبلغهم في ذلك ما قالوا بحسبه. وقد روي عن أبي جعفر أيضاً موافقتهم وأن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين موافقة لما قاله سائر العلماء، وحديث أبي قتادة يدل على أنه ﷺ ولد نهاراً في يوم الاثنين، وقد روي: أنه ولد عند طلوع الفجر منه، وروى أبو جعفر بن أبي شيبة في تاريخه وخرجه من طريقه أبو نعيم في الدلائل بإسناد فيه ضعف عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: كان بمر الظهران راهب يدعى: عيصاً من أهل الشام وكان يقول: يوشك أن يولد منكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه. فكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبدالله بن عبد المطلب حتى أتى عيصاً فناداه فأشرف عليه فقال له عيص: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الاثنين، ويبعث يوم الاثنين، ويموت يوم الاثنين قال: إنه ولد لي مع الصبح مولود قال: فما سميته؟ قال: محمداً قال: والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل البيت لثلاث خصال بها نعرفه، فقد أتى عليهن منها أنه طلع نجمه البارحة، وأنه ولد اليوم، وأن اسمه محمد، انطلق إليه فإنه الذي كنت أحدثكم عنه[(٢)]. وقد روي ما يدل على إنه ولد ليلًا وقد سبق في المجلس الذي قبله من الآثار ما يستدل به لذلك، وفي صحيح الحاكم عن عائشة قالت: كان بمكة يهودي يتجر فيها فلما كانت الليلة، التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلمه، فقال:

---

(١) مسلم (١١٦٢) لكن قوله: «فيه النبوة» ليس في مسلم.

(٢) ضعيف.

ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه فقالوا: أخرجي إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة؛ فوقع اليهودي مغشياً عليه فلما أفاق قالوا: ويلك، ما لك؟ قال: ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل(١). وهذا الحديث يدل على أنه ولد بخاتم النبوة بين كتفيه. وخاتم النبوة: من علامات نبوته التي كان يعرفه بها أهل الكتاب ويسألون عنها ويطلبون الوقوف عليها. وقد روي: أن هرقل بعث إلى النبي بتبوك من ينظر له خاتم النبوة ثم يخبره عنه(٢).

وقد روي من حديث أبي ذر، وعتبة بن عبد عن النبي ﷺ: أن الملكين اللذين شقا صدره وملآه حكمة هما اللذان ختماه بخاتم النبوة(٣). وهذا يخالف حديث عائشة هذا. وقد روي أن هذا الخاتم رفع بعد موته من بين كتفيه؛ ولكن إسناد هذا الحديث ضعيف. وقد روي في صفة ولادته آيات تستغرب فمنها ما روي عن آمنة بنت وهب أنها قالت: وضعته فما وقع كما يقع الصبيان، وقع واضعاً يده على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء(٤). وروي أيضاً: أنه قبض قبضة من التراب بيده لما وقع بالأرض، فقال بعض القافة: إن صدق الفأل ليغلبن أهل الأرض(٥). وروي: أنه وضع تحت جفنة فانفلقت عنه، ووجدوه ينظر إلى السماء(٦).

واختلفت الروايات هل ولد مختوناً؟! فروي: أنه ولد مختوناً مسروراً - يعني: مقطوع السرة - حتى قال الحاكم: تواترت الروايات بذلك. وروي أن جده ختنه، وتوقف الإمام أحمد في ذلك. قال المروذي: سئل أبو عبدالله هل ولد النبي ﷺ مختوناً؟ قال: الله أعلم، ثم قال: لا أدري. قال أبو بكر

---

(١) ضعيف. الحاكم (٦٠١/٢ - ٦٠٢).
(٢) ضعيف. رواه أحمد (١٥٢٢٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦٦/١) وإسناده ضعيف.
(٣) صحيح. رواه أحمد (١٧١٩٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٧٣).
(٤) ضعيف. رواه ابن حبان في صحيحه (٦٣٣٥) وضعفه شيخنا في التعليقات الحسان.
(٥) ضعيف. رواه ابن سعد في الطبقات (١٥٠/١).
(٦) ضعيف. رواه ابن سعد (١٠٢/١) مرسلًا.

عبدالعزيز بن جعفر من أصحابنا: قد روي أنه ﷺ ولد مختوناً مسروراً. ولم يجترئ أبو عبدالله على تصحيح هذا الحديث[(١)].

وأما شهر ولادته: فقد اختلف فيه، فقيل: في شهر رمضان. روي عن عبدالله بن عمرو بإسناد لا يصح. وقيل: في رجب، ولا يصح. وقيل: في ربيع الأول، وهو المشهور بين الناس حتى نقل ابن الجوزي وغيره عليه الاتفاق، ولكنه قول جمهور العلماء، ثم اختلفوا في أي يوم كان من الشهر، فمنهم من قال: هو غير معين وإنما ولد في يوم الاثنين من ربيع من غير تعين لعدد ذلك اليوم من الشهر. والجمهور على أنه يوم معين منه، ثم اختلفوا فقيل: لليلتين خلتا منه، وقيل: لثمان خلت منه، وقيل: لعشر، وقيل: لاثنتي عشرة، وقيل: لسبع عشرة، وقيل: لثماني عشرة، وقيل لثمان بقين منه، وقيل: إن هذين القولين غير صحيحين عمن حكيا عنه بالكلية[(٢)]. والمشهور الذي عليه الجمهور: أنه ولد يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق وغيره. وأما عام ولادته؛ فالأكثرون على أنه عام الفيل، وممن قال ذلك: قيس بن مخرمة[(٣)]، وقباث بن أشيم وابن عباس[(٤)]. وروي عنه: أنه ولد يوم الفيل، وقيل: إن هذه الرواية وهم وإنما ولد عام الفيل. ومن العلماء من حكى الاتفاق على ذلك، وقال: كل قول يخالفه فهو وهم. والمشهور أنه ولد ﷺ بعد الفيل بخمسين يوماً، وقيل: بعده بخمس وخمسين يوماً، وقيل: بشهر، وقيل: بأربعين يوماً، وقيل: إنه ولد بعد الفيل بعشر سنين، وقيل: بثلاث وعشرين سنة، وقيل: بأربعين

---

(١) وقد ردّ ابن القيم في الزاد على من زعم أنه ﷺ ولد مختوناً وضعف الأحاديث في ذلك فانظره (٦١/١).

(٢) قلت: أشار شيخنا في صحيح السيرة (ص١٣) أن هذه الأقوال لا يصح منها شيء سوى قول من قال: إنه في الثامن من ربيع الأول فإنه رواه مالك وغيره بالسند الصحيح عن محمد بن جبير بن مطعم وهو تابعي جليل.

(٣) حسن. رواه ابن إسحاق عنه في السيرة بإسناد حسنه شيخنا كما في صحيح السيرة (ص١٣).

(٤) صحيح. رواه عنه الحاكم (٦٠٣/٢) بإسناد صحيح قاله شيخنا في صحيح السيرة (ص١٣).

سنة، وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وهذه الأقوال وهم عند جمهور العلماء، ومنها لا يصح عمن حكي عنه. قال إبراهيم بن المنذر الحزامي: الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه ﷺ ولد عام الفيل. وقال خليفة بن خياط: هذا هو المجمع عليه، وكانت قصة الفيل توطئة لنبوته وتقدمة لظهوره وبعثته ﷺ، وقد قص الله تعالى في كتابه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفِيل: ١] استفهام تقرير لمن سمع هذا الخطاب. وهذا يدل على اشتهار ذلك بينهم ومعرفتهم به، وأنه مما لا يخفى علمه عن العرب خصوصاً قريش وأهل مكة، وهذا أمر اشتهر بينهم وتعارفوه، وقالوا فيه الأشعار السائرة. وقد قالت عائشة: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين يستطعمان[(١)]. وفي هذه القصة ما يدل على تعظيم مكة واحترامها[(٢)] واحترام بيت الله الذي فيها. وولادة النبي ﷺ عقب ذلك يدل على نبوته ورسالته؛ فإنه ﷺ بعث بتعظيم هذا البيت وحجه والصلاة إليه، وكان هذا البلد هو موطنه ومولده، فاضطره قومه عند دعوتهم إلى الله إلى الخروج منه كرهاً بما نالوه منه من الأذى، ثم إن الله تعالى ظفره بهم وأدخله عليهم قهراً فملك البلد عنوة وملك رقاب أهله ثم من عليهم وأطلقهم وعفا عنهم، وكان في تسليط نبيه ﷺ على هذا البلد وتمليكه إياه ولأمته من بعده ما دل على صحة نبوته. فإن الله حبس عنه من يريده بالأذى وأهلكه ثم سلط عليه رسوله وأمته كما قال ﷺ: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين»[(٣)]، فإن الرسول ﷺ وأمته إنما قصدهم تعظيم البيت وتكريمه واحترامه؛ ولهذا أنكر النبي ﷺ يوم الفتح على من قال: اليوم تستحل الكعبة، وقال: «اليوم تعظم الكعبة»[(٤)]. وقد

---

(١) صحيح. رواه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (١٧٦/١) وإسناده صحيح.

(٢) في نسخة: «وشرفها» كما في الأصل.

(٣) رواه البخاري (٢٤٣٤) ومسلم (١٣٥٥).

(٤) رواه البخاري (٤٢٨٠).

كان أهل الجاهلية غيروا دين إبراهيم وإسماعيل بما ابتدعوا من الشرك وتغيير بعض مناسك الحج؛ فسلط الله رسوله وأمته على مكة فطهروها من ذلك كله، وردوا الأمر إلى دين إبراهيم الحنيف، وهو الذي دعا لهم مع ابنه إسماعيل عند بناء البيت أن يبعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعث الله فيهم محمداً ﷺ من ولد إسماعيل بهذه الصفة فطهر البيت وما حوله من الشرك. ورد الأمر إلى دين إبراهيم الحنيف والتوحيد الذي لأجله بني البيت كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

وأما تسليط القرامطة على البيت بعد ذلك فإنما كان عقوبة بسبب ذنوب الناس ولم يصلوا إلى هدمه ونقضه ومنع الناس عن حجه وزيارته كما كان يفعل أصحاب الفيل لو قدروا على هدمه وصرف الناس عن حجه. والقرامطة أخذوا الحجر والباب وقتلوا الحاج وسلبوهم أموالهم، ولم يتمكنوا من منع الناس من حجه بالكلية، ولا قدروا على هدمه بالكلية، كما كان أصحاب الفيل يقصدونه. ثم أذلهم الله بعد ذلك وخذلهم وهتك أستارهم وكشف أسرارهم. والبيت المعظم باق على حاله من التعظيم والزيارة والحج والاعتمار والصلاة إليه، لم يبطل شيء من ذلك عنه بحمد الله ومنه، وغاية أمرهم أنهم أخافوا حج العراق حتى انقطعوا بعض السنين ثم عادوا. ولم يزل الله تعالى يمتحن عباده المؤمنين بما يشاء من المحن ولكن دينه قائم محفوظ لا يزال تقوم به أمة من أمة محمد ﷺ لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣]. وقد أخبر النبي ﷺ أن هذا البيت يحج ويعتمر بعد خروج يأجوج ومأجوج[1]، ولا يزال كذلك حتى تخربه

---

(١) رواه البخاري (١٥٩٣).

الحبشة[١]، ويلقون حجارته في البحر، وذلك بعد أن يبعث الله ريحاً طيبة تقبض أرواح المؤمنين كلهم فلا يبقى في الأرض مؤمن[٢]، ويسرى بالقرآن من الصدور والمصاحف[٣] فلا يبقى في الأرض قرآن ولا إيمان ولا شيء من الخير، فبعد ذلك تقوم الساعة ولا تقوم إلا على شرار الناس[٤].

وقوله ﷺ: «ويوم أنزلت عليَّ فيه النبوة» يعني: أنه ﷺ نبئ يوم الاثنين، وفي المسند عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وَرَفَعَ الحجرَ الأسود يوم الاثنين[٥]. وذكر ابن إسحاق: أن النبوة نزلت يوم الجمعة. وحديث أبي قتادة يرد هذا، واختلفوا: في أي شهر كان ابتداء النبوة؟ فقيل: في رمضان، وقيل: في رجب، ولا يصح، وقيل: في ربيع الأول وقيل: إنه نبئ يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول.

وأما الإسراء فقيل: كان في رجب وضعفه غير واحد، وقيل: كان في ربيع الأول، وهو قول إبراهيم الحربي وغيره.

وأما دخول المدينة، ووفاته: فكانا في ربيع الأول بغير خلاف مع الاختلاف في تعيين ذلك اليوم من أيام الشهر، وفي قول النبي ﷺ لما سئل عن صيام يوم الاثنين؟: «ذاك يوم ولدت فيه، وأنزلت علي فيه النبوة» إشارة إلى استحباب صيام الأيام التي تتجدد فيها نعم الله تعالى على عباده. فإن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد ﷺ لهم وبعثته وإرساله إليهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ

---

(١) رواه البخاري (١٥٩١) ومسلم (٢٩٠٩).
(٢) رواه مسلم (٢٩٠٧).
(٣) صحيح. رواه عبدالرزّاق في المصنف (٣/٣٦٢) والطبراني في الكبير (٩/١٤١) عن ابن مسعود.
(٤) رواه مسلم (١٩٢٤) ورواه البخاري بنحوه (٧٠٦٧).
(٥) ضعيف. أحمد (٢٥٠٢) وإسناده ضعيف.

رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤] فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض والشمس والقمر، والليل والنهار، والرياح وإنزال المطر وإخراج النبات وغير ذلك، فإن هذه النعمة كلها قد عمت خلقاً من بني آدم كفروا بالله وبرسله وبلقائه فبدلوا نعمة الله كفراً، وأما النعمة بإرسال محمد ﷺ فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، فصيام يوم تجددت فيه هذه النعم من الله على عباده حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها بالشكر، ونظير هذا صيام يوم عاشوراء حيث نجى الله فيه نوحاً من الغرق ونجى فيه موسى وقومه من فرعون وجنوده وأغرقه في اليم، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً، وصامه رسول الله ﷺ متابعة لأنبياء الله، وقال لليهود: «نحن أحق بموسى منكم» وصامه وأمر بصيامه[1]. وقد روي أن النبي ﷺ كان يتحرى صيام يوم الاثنين ويوم الخميس[2]، و[3]روي ذلك عنه من حديث أبي هريرة وعائشة وأسامة بن زيد، وفي حديث أسامة: أنه سأله عن ذلك؟ فقال ﷺ: «إنهما يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»[4]، وفي حديث أبي هريرة، أنه سئل عن ذلك؟ فقال: «إنه يغفر فيهما لكل مسلم إلا مهتجرين، يقول: دعهما حتى يصطلحا»[5]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: انظروا هذين حتى يصطلحا»[6]. ويروى من حديث أبي أمامة مرفوعاً: «ترفع الأعمال يوم الاثنين والخميس

(١) صحيح. وقد سبق تخريجه.
(٢) صحيح. رواه النسائي (٢١٨٦) وصححه شيخنا في صحيح سنن النسائي.
(٣) في نسخة بدون: «و» كما في الأصل.
(٤) صحيح. رواه الترمذي (٧٤٧) وصححه شيخنا في الإرواء (٩٤٨و٩٤٩).
(٥) صحيح لغيره. رواه ابن ماجه (١٧٤٠) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٤٢).
(٦) مسلم (٢٥٦٥).

فيغفر للمستغفرين ويترك أهل الحقد بحقدهم»(١). وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن أعمال بني آدم تعرض(٢) كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم»(٣).

كان بعض السلف التابعين يبكي إلى امرأته يوم الخميس وتبكي إليه، ويقول: اليوم تعرض أعمالنا على الله ﷻ. يا من يبهرج بعمله على من تبهرج والناقد بصير، يا من يسوف بطول أمله إلى كم تسوف والعمر قصير.

صروف الحتف مترعة الكؤوس ... تدار على الرعايا والرؤوس(٤)
فلا تتبع هواك فكل شخص ... يصير إلى بلى وإلى دروس
وخف من هول يوم قمطرير ... مخوف شره ضنك عبوس
فما لك غير تقوى الله زاداً ... وفعلك حين تقبر من أنيس
فحسنه ليعرض مستقيماً ... ففي الاثنين يعرض والخميس

❁ ❁ ❁

## المجلس الثالث
## في ذكر وفاة رسول الله ﷺ

خرجا في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ جلس على المنبر فقال: «إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده»، فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فعجبنا، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر

(١) ضعيف جداً. رواه البزار (١٧٢٣/مختصر الزوائد» وإسناده واهٍ.
(٢) في هامش المخطوطة: «عليّ» ووضع عليها الناسخ: «صح» والحديث في المسند بدونها ورواه غيره بلفظ: «تعرض على الله» وهو الصواب.
(٣) ضعيف. أحمد (٩٩٠٢) وضعفه شيخنا في الإرواء (٩٣١).
(٤) في الأصل: «على الرعايا وعلى الرؤوس» والتصويب من نسخة كما في هامش الأصل..

رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به، وقال النبي ﷺ: «إن من آمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو متخذاً من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أُخوة الإسلام، لا تبقى في المسجد خوخة إلا سُدَّت إلا خوخة أبي بكر»[(١)] رضي الله عنه. الموت مكتوب على كل حي من الأنبياء والرسل وغيرهم، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤]. الآيتين. خلق الله آدم من تراب الأرض ونفخ فيه من روحه فكانت روحه في جسده وأرواح ذريته في أجسادهم في هذه الدار عارية وقضى عليه وعلى ذريته أنه لا بد أن يسترد أرواحهم من هذه الأجساد ويعيد أجسادهم إلى ما خلقت منه وهو التراب، ووعد أن يعيد الأجساد من الأرض مرة ثانية، ثم يرد إليها الأرواح مرة ثانية تمليكاً دائماً لا رجعة فيه في دار البقاء، قال تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨]، وأرانا دليلًا في هذه الدار على إعادة الأجساد من التراب بإنبات الزرع من الأرض وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر، ودليلًا على إعادة الأرواح إلى أجسادها بعد المفارقة بقبض أرواح العباد في منامهم وردها إليهم في يقظتهم كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٢]، وفي مسند البزار عن أنس أن النبي ﷺ

---

(١) البخاري (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢).

قال لهم لما ناموا عن الصلاة: «إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها إذا شاء ويرسلها إذا شاء»[١].

استعدي للموت يا نفس واسعي لنجاة فالحازم المستعد
قد تيقنت أنه ليس للحي خلود ولا من الموت بد
إنما أنتِ مستعيرة ما سوف تردي والعواري ترد

غيره:

فما أهل الحياة لنا بأهل ولا دار الحياة لنا بدار
وما أموالنا والأهل فيها ولا أولادنا إلا عواري
وأنفسنا إلى أجل قريب سيأخذها المعير من المعار

مفارقة الجسد للروح لا تقع إلا بعد ألم عظيم تذوقه الروح والجسد جميعاً؛ فإن الروح قد تعلقت بهذا الجسد وألفته واشتدت إلفتها له وامتزاجها ودخولها فيه حتى صارا كالشيء الواحد فلا يتفارقان إلا بجهد شديد وألم عظيم، ولم يذق ابن آدم في حياته ألماً مثله وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥]. قال الربيع بن خثيم: أكثروا ذكر الموت فإنكم لم تذوقوا قبله مثله. ويتزايد الألم بمعرفة المستحضر بأن جسده إذا فارقته الروح صار جيفة مستقذرة تأكله الهوام ويبليه التراب حتى يعود تراباً. وإن الروح المفارقة لا تدري أين مستقرها هل هو في الجنة أو النار؟ فإن كان عاصياً مصراً على المعصية إلى الموت فربما غلب على ظنه أن روحه تصير إلى النار فيتضاعف بذلك حسرته وألمه، وربما كشف له مع ذلك عن مقعده من النار فيراه أو يبشر بذلك فيجتمع له مع كرب الموت وألمه العظيم معرفته بسوء مصيره، وهذا المراد بقوله ﷻ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القِيَامَة: ٢٩] على ما فسره به كثير من السلف فيجتمع عليه سكرة[٢] الموت مع حسرة الفوت فلا تسأل عن سوء حاله، وقد سمى الله

---

(١) ضعيف. البزار (٢٤٧/مختصر) وإسناده ضعيف.

(٢) في نسخة: «شدة» كما في الأصل.

تعالى ذلك سكرة؛ لأن ألم الموت مع ما يضم إليه يسكر صاحبه فيغيب عقله غالباً، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].

ألا للموت كأس أي كأس ... وأنت لكأسه لا بد حاسي
إلى كم والممات إلى قريب ... تذكر بالممات وأنت ناسي

وقد أمر النبي ﷺ بكثرة ذكر الموت فقال: «أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت»[(١)]. وفي حديث مرسل أنه ﷺ مرَّ بمجلس قد استعلاه الضحك فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الموت»[(٢)].

وفي الإكثار من ذكر الموت فوائد منها: أنه يحثه[(٣)] على الاستعداد له قبل نزوله، ويقصر الأمل، ويرضي بالقليل من الرزق، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، ويهون مصائب الدنيا، ويمنع من الأشر والبطر والتوسع في لذات الدنيا. وفي حديث أبي ذر المرفوع الذي خرجه ابن حبان في صحيحه وغيره: «أن صحف موسى عليه السلام كانت عبراً»[(٤)].

عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك؟ عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب؟ عجبت لمن رأى الدنيا وسرعة تقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ وقد روي أن الكنز الذي كان للغلامين كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه هذا أيضاً. قال الحسن: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فالتمسوا عيشاً لا موت فيه. وقال: فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب فيها فرحاً. وقال غيره: ذهب ذكر الموت بلذاذة كل عيش، وسرور كل نعيم، ثم بكى وقال: واهاً لدار لا موت فيها.

---

(١) صحيح. رواه النسائي (١٨٢٤) والترمذي (٢٣٠٧) وابن ماجه (٤٢٥٨) وصححه شيخنا في الإرواء (٦٨٣).
(٢) ضعيف. رواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت والحديث ضعفه شيخنا في ضعيف الجامع برقم (٣٤٠٩).
(٣) في نسخة: «يحث» كما في الأصل.
(٤) ضعيف جداً وقد سبق تخريجه.

اذكر الموت هاذم اللذات وتهيأ لمصرع سوف ياتي

[غيره:]

يا غافل القلب عن ذكر المنيات عما قليل ستلقى بين أموات
فاذكر محلك من قبل الحلول به وتب إلى الله من لهو ولذات
إن الحِمَام له وقت إلى أجل فاذكر مصائب أيام وساعات
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها قد آن للموت يا ذا اللب أن ياتي

قال بعض السلف: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله ﷻ.

وكيف يلذ العيش من كان موقناً بأن المنايا بغتة ستعاجله
وكيف يلذ العيش من كان موقناً بأن إله العرش لا بد سائله

وقال[1] أبو الدرداء: كفى بالموت واعظاً، وكفى بالدهر مفرقاً، اليوم في الدور وغداً في القبور.

اذكر الموت ولازم ذكره إن في الموت لذي اللب عبر
وكفى بالموت فاعلم واعظاً لمن الموت عليه قد قدر

غفلة الإنسان عن الموت مع أنه لا بد له منه من العجب. والموجب لها طول الأمل.

كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح
لبني الدنيا من الموت غبوق وصبوح
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
بين عيني كل حي عَلَم الموت يلوح
نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح

(١) في نسخة: «قال» كما في الأصل.

لتموتن ولو عمرت ما عُمّر نوح

لما كان الموت مكروهاً بالطبع لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخير، ولذلك وقع التردد فيه في حق المؤمن كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»[١].

قال ابن أبي مليكة: لما قبض إبراهيم عليه السلام قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت؟ قال: يا رب كأن نفسي تُنزع بالسّلى. فقال: هذا وقد هونا عليك الموت. وقال أبو إسحاق: قيل لموسى عليه السلام: كيف وجدت طعم الموت؟ قال: وجدته كسفود أدخل في صوف فاجتذب. قال: هذا وقد هونا عليك الموت. ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً. وكان يقول للحواريين: ادعوا الله أن يخفف عني الموت، فلقد خفت الموت خوفاً أوقفني مخافة الموت على الموت. كيف يطمع في البقاء وما من الأنبياء إلا من مات؟ أم كيف تأمن هجوم المنايا ولم يسلم الأصفياء والأحباء؟ هيهات هيهات!

قد مات كل نبي ومات كل نبيه
ومات كل شريف وعاقل وسفيه
لا يوحشنك طريق كل الخلائق فيه

أول ما أعلم النبي ﷺ من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] فإن المراد من هذه السورة: أنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجاً فقد اقترب أجلك فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار؛ فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا لك خير من الدنيا فاستعد للنقلة إلينا. قال ابن عباس: لما نزلت هذه السورة

(١) البخاري (٦٥٠٢) وليس عند البخاري: «ولا بد له منه».

نعيت لرسول الله ﷺ نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة[١]. وروي في حديث: أنه تعبد حتى صار كالشن البالي[٢]، وكان يعرض القرآن على جبريل مرة فعرضه ذلك العام مرتين[٣]، وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام فاعتكف في ذلك العام عشرين[٤]، وأكثر من الذكر والاستغفار؛ قالت أم سلمة: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فذكر من ذلك له فقال: «إني أمرت بذلك»[٥] وتلا هذه الآية. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته من قول[٦]: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» فقلت له: إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم؟ قال: «إن ربي أخبرني أني سأرى علماً في أمتي وإني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره، وقد رأيته» ثم تلا هذه السورة[٧]. إذا كان سيد المحسنين يؤمر بأن يختم أعماله بالحسنى فكيف يكون حال المذنب المسيء المتلوث بالذنوب المحتاج إلى التطهير؟ من لم ينذره باقتراب أجله وحيٌ أنذره الشيبُ وسلبُ أقرانه بالموت.

كفى مؤذناً باقتراب الأجل ... شباب تولى وشيب نزل
وموت الأخلاء هل بعده ... بقاء يؤمله من عقل
إذا ارتحلت قرناء الفتى ... على حكم ريب المنون ارتحل

قال وهيب بن الورد: إنَّ لله ملكاً ينادي في السماء كل ليلة ويوم أبناء الخمسين: زرع دنا حصاده، أبناء الستين: هلموا إلى الحساب، أبناء السبعين: ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الثمانين: لا عذر لكم. وعن وهب

(١) صحيح. رواه الطبراني في الكبير (٣٢٨/١١) ورجاله ثقات.
(٢) ضعيف. رواه الدارقطني في العلل (٢٣/٨).
(٣) رواه البخاري (٣٦٢٤) ومسلم (٢٤٥٠).
(٤) رواه البخاري (٢٠٤٤).
(٥) ضعيف. رواه الطبري في تفسيره (٣٣٥/٣٠) وإسناده ضعيف.
(٦) وضع الناسخ فوق عبارة: «من قول» (خ) إشارة إلى أنها في بعض النسخ.
(٧) رواه مسلم (٤٨٤) بنجوه.

قال: ينادي مناد: أبناء الستين: عدوا أنفسكم في الموتى. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى من بلغه ستين من عمره»[١]، وفي حديث آخر: «إذا كان يوم القيامة نودي أين أبناء الستين؟ وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فَاطِر: ٣٧]»[٢]، وفي الترمذي عنه ﷺ قال: «أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»[٣]، وفي حديث آخر: «معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين»[٤]، وفي حديث آخر: «إن لكل شيء حصاداً، وحصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين»[٥]. وفي هذا المعترك قبض النبي ﷺ.

قال سفيان الثوري: من بلغ سن رسول الله ﷺ فليتخذ[٦] لنفسه كفناً.

وإن امرأً قد عاش ستين حجة ... إلى منهل من ورده لقريب

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة، قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال فضيل: من علم أنه لله عبد، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف وأنه مسؤول، فليعد للمسألة جواباً، فقال له الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال: فما هي؟ قال: تحسن فيما بقى فيغفر لك ما مضى؛ فإنك إن أسأت فيما بقى أخذت بما مضى وبما بقى.

خذ في جِدٍّ فقد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر

---

(١) البخاري (٦٤١٩).
(٢) ضعيف جداً. رواه الطبراني في الكبير (١١/١٧٧) وفي الأوسط (٨/٤٩) والحديث ضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٥٨٤).
(٣) صحيح لغيره. الترمذي (٣٥٥٠) وصححه شيخنا في الصحيحة (٧٥٧).
(٤) حسن لغيره. رواه أبو يعلى (٦٥٤٣) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٤/٢٢).
(٥) ضعيف. رواه ابن عساكر في تاريخه (٤٥/٢٨٥) من حديث أنس بإسناد ضعيف قاله شيخنا في الضعيفة (٤٣٢١).
(٦) في نسخة: «فليعد» كما في الأصل.

أقبل فعسى يقبل منك العذر  كم تبنى كم تنقض كم ذا الغدر

وما زال ﷺ يُعَرِّضُ باقتراب أجله في آخر عمره؛ فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: «خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»(١) وطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع(٢)، فلما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى خُماً في طريقه بين مكة والمدينة فخطبهم وقال: «أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب» ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته(٣)، ثم إنه ﷺ لما بدأ به مرض الموت خير بين لقاء الله وبين زهرة الدنيا والبقاء فيها ما شاء الله، فاختار لقاء الله وخطب الناس وأشار إليهم بذلك إشارة من غير تصريح.

وكان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر، وكان مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً في المشهور، وقيل: أربعة عشر يوماً، وقيل: اثنا عشر يوماً، وقيل: عشرة أيام وهو غريب، وكانت خطبته التي خطب بها في حديث أبي سعيد هذا الذي نتكلم عليه ههنا في ابتداء مرض، ففي المسند وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه وهو معصوب الرأس فقام على المنبر فقال: «إن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة» قال: فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبو بكر فقال: بأبي وأمي بل نفديك بأموالنا وأولادنا وأنفسنا قال: ثم هبط عن المنبر فما رُئي عليه حتى الساعة(٤). وفي المسند عن أبي مويهبة أن النبي ﷺ خرج ليلة إلى البقيع فاستغفر لأهل البقيع وقال: «ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» ثم قال: «يا أبا مويهبة، إني قد

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٧) والنسائي (٣٠٦٢) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (١٧٤٢).

(٣) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٤) صحيح. أحمد (١١٤٥٣) وابن حبان (٦٥٩٣) وأصله في البخاري (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢) والحديث صححه شيخنا في التعليقات الحسان.

أعطيت خزائن الدنيا والخلد، ثم الجنة؛ فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة» ثم انصرف فابتدأه وجعه الذي قبضه الله فيه(١).

لما قويت معرفة الرسول ﷺ بربه ازداد حبه له وشوقه إلى لقائه، فلما خير بين البقاء في الدنيا وبين لقاء ربه اختار لقاءه على خزائن الدنيا والبقاء فيها. سئل الشبلي: هل يقنع المحب بشيء من حبيبه دون مشاهدته؟ فأنشد شعراً:

والله لو أنك توجتني    بتاج كسرى ملك المشرق
ولو بأموال الورى جدت لي    أموال من باد ومن قد بقي
وقلت: [أن] لا نلتقي ساعة    اخترت يا مولاي أن نلتقي

لما عَرَّضَ الرسولُ ﷺ على المنبر باختياره اللقاء على البقاء، ولم يصرح خفي المعنى على كثير ممن سمع، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] وكان رضي الله عنه أعلم الأمة بمقاصد النبي ﷺ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا. فسكن الرسول ﷺ جزعه وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر ليعلم الناس كلهم فضله فلا يقع عليه اختلاف في خلافته. فقال: «إن من آمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر»(٢)، وفي رواية أخرى أنه قال: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافَيْنَاهُ، ما خلا أبا بكر؛ فإن له عندنا يداً يكافئه الله [بها] يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر»(٣) خرجه الترمذي، ثم قال ﷺ: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أُخوة الإسلام»(٤). لما كان رسول الله ﷺ خليل الله لم يصلح له أن يخالل

---

(١) ضعيف بهذا اللفظ. أحمد (١٥٥٦٧) وإسناده ضعيف.
(٢) رواه البخاري (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢) وسبق تخريجه.
(٣) صحيح. الترمذي (٣٦٦١) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٧١٨).
(٤) رواه البخاري (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢).

مخلوقاً فإن الخليل من جرت محبة خليله منه مجرى الروح، ولا يصلح هذا لبشر كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني     وبذا سمي الخليل خليلا

ولهذا المعنى قيل: إن إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده ولم يكن المقصود إراقة دم الولد بل تفريغ محل الخلة لمن لا يصلح أن يزاحمه فيها أحد.

أروح وقد ختمت على فؤادي     بحبك أن يحل به سواكا
فلو أني استطعت غضضت طرفي     فلم أنظر به حتى أراكا

ثم قال ﷺ: «لا يبقين خوخة في المسجد إلا سدت إلا خوخة أبي بكر»(١)، وفي رواية: «سدوا جميع الأبواب الشارعة في المسجد إلا باب أبي بكر»(٢). وفي هذه إشارة إلى أن أبا بكر رضي الله عنه هو الإمام بعده؛ فإن الإمام يحتاج إلى سكنى المسجد والاستطراق فيه بخلاف غيره، وذلك من مصالح المسلمين المصلين في المسجد. ثم أكد هذا المعنى بأمره صريحاً أن يصلي بالناس أبو بكر فروجع في ذلك فغضب وقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»(٣)، فولاه إمامة الصلاة دون غيره وأبقى استطراقه من داره إلى مكان الصلاة وسد استطراق غيره، وفي هذا إشارة واضحة إلى استخلافه على الأمة دون غيره، ولهذا قالت الصحابة رضي الله عنهم عند بيعة أبي بكر: رضيه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا. ولما قال أبو بكر: قد أقلتكم بيعتي؛ قال عليٌّ: لا نقيلك ولانستقيلك؛ قدمك رسول الله ﷺ فمن ذا يؤخرك.

لما انطوى بساط النبوة من الأرض بوفاة الرسول ﷺ لم يبق على وجه الأرض أكمل من درجة الصديقية وأبو بكر رأس الصديقين؛ فلهذا

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٤) ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) صحيح. رواه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة (١٢٤٢) وأصله في البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري (٦٦٤) ومسلم (٤١٨).

استحق خلافة الرسول والقيام مقامه. وكان النبي ﷺ قد عزم على أن يكتب لأبي بكر كتاباً لئلا يختلف عليه، ثم أعرض عن ذلك لعلمه أنه لا يقع غيره، وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[(١)]، وربما كان ترك ذلك لئلا يتوهم متوهم أن نصه على خلافته كانت مكافأة ليده التي كانت له، والولايات كلها لا يقصد بها مصلحة المولى بل مصلحة المسلمين عامة.

وكان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من مرضه وجع رأسه؛ ولهذا خطب وقد عصب رأسه بعصابة دسماء[(٢)]. وكان صداع الرأس والشقيقة يعتريه كثيراً في حياته ويتألم منه أياماً. وصداع الرأس من علامات أهل الإيمان وأهل الجنة. وقد روي عن النبي ﷺ: أنه وصف أهل النار فقال: «هم الذين لا يألمون رؤوسهم»[(٣)]. ودخل عليه أعرابيٌّ فقال له: «يا أعرابي! هل أخذك هذا الصداع؟» فقال: وما الصداع؟ قال: «عروق تضرب على الإنسان في رأسه» فقال: ما وجدت هذا، فلما ولى الأعرابي قال النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»[(٤)] خرجه الإمام أحمد والنسائي. وقال كعب: أجد في التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبداً. وفي المسند عن عائشة قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدأ فيه فقلت: وارأساه فقال: «وددت أن ذلك كان وأنا حي فهيأتك ودفنتك» فقلت ـ غيراء ـ: كأني بك في ذلك اليوم عروساً ببعض نسائك فقال: «أنا وارأساه، ادعو لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً فإني أخاف أن يقول قائل ويتمنى متمن، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[(٥)]. وخرجه البخاري بمعناه ولفظه: أن عائشة قالت: وارأساه. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك لو كان وأنا حي،

---

(١) رواه البخاري (٥٦٦٦) ومسلم (٢٣٨٧) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٨).

(٣) ضعيف. أحمد (١٠٢٢٠) وإسناده ضعيف.

(٤) صحيح. أحمد (٨١٩٤) والنسائي في الكبرى (٤/٣٥٣) وصححه شيخنا في صحيح الأدب المفرد (٤٩٥).

(٥) حسن. أحمد (٢٥٣٨٠) والدارمي (٨٠) وحسنه شيخنا في صحيح ابن ماجه (١٤٦٥).

فأستغفر وأدعو لك» قالت عائشة: واثكلاه، والله إني لأظنك والله تحب موتي ولو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك، فقال النبي ﷺ: «بل أنا وارأساه»[(١)] وذكر بقية الحديث، وفي المسند أيضاً عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مَرَّ ببابي كثيراً ما يلقي الكلمة ينفع الله بها، فمر ذات يوم فلم يقل شيئاً مرتين أو ثلاثاً قلت: يا جارية ضعي لي وسادة على الباب وعصبت رأسي فمرَّ بي فقال: «يا عائشة ما شأنك؟» فقلت: أشتكي رأسي، فقال: «أنا وارأساه» فذهب فلم يلبث إلا يسيراً حتى جيء به محمولًا في كساء فدخل علي فبعث إلى النساء فقال: «إني اشتكيت، وإني لا أستطيع أن أدور بينكن فأذن لي فلأكن عند عائشة»[(٢)]، وفيه أيضاً عنها قالت: رجع إلي النبي ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، قال: «بل أنا وارأساه» ثم قال: «ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك ثم صليت عليك ودفنتك» فقلت: لكأني بك والله لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. فتبسم رسول الله ﷺ، ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه[(٣)]. فقد تبين أن أول مرضه كان صداع الرأس والظاهر أنه كان مع حمى؛ فإن الحمى اشتدت به في مرضه[(٤)] فكان يجلس في مخضب ويصب عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن يتبرد بذلك[(٥)]، وكان عليه قطيفة فكانت حرارة الحمى تصيب من وضع يده عليه من فوقها. فقيل له في ذلك؟ فقال: «إنا كذلك يشدد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر»[(٦)]، وقال: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»[(٧)]، ومن شدة وجعه كان يغمى عليه في مرضه ثم يفيق، وحصل له

---

(١) البخاري (٥٦٦٦).
(٢) صحيح. أحمد (٢٧٨٧) وأبو داود (٢١٣٧) وصححه شيخنا في صحيح سنن أبي داود.
(٣) حسن. أحمد (٢٥٣٨٠) وحسنه شيخنا في المشكاة (٥٩٧١).
(٤) في نسخة: «وجعه» كما في الأصل.
(٥) رواه البخاري (١٩٨).
(٦) صحيح. رواه أحمد (١١٤٨٣) وابن ماجه (٤٠٢٤) وصححه شيخنا في صحيح سنن ابن ماجه.
(٧) رواه البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١).

ذلك غير مرة فأغمي عليه مرة وظنوا أن وجعه ذات الجنب فلدُّوه فلما أفاق أنكر ذلك وأمر أن يُلدَّ مَنْ لَدَّهُ وقال: «إن الله لم يكن ليسلطها عليَّ»[(١)] يعني: ذات الجنب ولكنه: «من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر»[(٢)] يعني: أنه نقض عليه سم الشاة التي أهدتها له اليهودية فأكل منها يومئذ وكان ذلك يثور عليه أحياناً فقال في مرض موته: «ما زالت[(٣)] أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري»[(٤)]. وكان ابن مسعود وغيره يقولون: إنه ﷺ مات شهيداً من السم. وقالت عائشة: ما رأيت أحداً كان أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ وكان عنده في مرضه سبعة دنانير وكان يأمرهم بالصدقة بها، ثم يغمى عليه؛ فيشتغلون بوجعه، فدعا بها فوضعها في كفه وقال: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه» ثم تصدق بها كلها[(٥)]. فكيف يكون حال من لقي الله وعنده دماء المسلمين وأموالهم المحرمة؟ وما ظنه بربه؟. ولم يكن عندهم في مرضه دهن للمصباح يوقد فيه. فلما اشتد وجعه ليلة الاثنين أرسلت عائشة بالمصباح إلى امرأة من النساء فقالت: قَطِّري لنا في مصباحنا من عكة السمن؛ فإن رسول الله ﷺ أمسى في جديد الموت[(٦)]، وكان عند عائشة إزار غليظ مما يصنع باليمن وكساء من الملبدة، فكانت تقسم بالله أن رسول الله ﷺ قبض فيهما[(٧)]، ودخلت عليه فاطمة عليها السلام في مرضه فسارها بشيء فبكت، ثم سارها فضحكت؛ فسئلت عن ذلك؟ فقالت: لا أفشي سر رسول الله ﷺ. فلما توفي سئلت؟ فقالت: أخبرني أنه يموت في مرضه الذي مات فيه فبكيت، ثم أخبرني أني أول

---

(١) صحيح. رواه أحمد (٢٤٣٤٩) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٣٣٩).

(٢) ابن سعد في الطبقات (٢/٢٠٢).

(٣) في الأصل: «ما زال».

(٤) صحيح. رواه البخاري معلقاً (٤٤٢٨) ووصله البزار وغيره وله شواهد كما قال شيخنا في مختصر البخاري (٦١٨).

(٥) صحيح لغيره. رواه أحمد (٢٣٧٠٢) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٠١٤).

(٦) صحيح. رواه الطبراني في الكبير (٦/١٩٨) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٩٢٧).

(٧) رواه البخاري (٣١٠٨و٥٨١٨) ومسلم (٢٠٨٠).

أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء العالمين فضحكت[١]. فلما احتضر ﷺ اشتد به الأمر فقالت عائشة: ما أغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ[٢].

قالت: وكان عنده قدح من ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء، ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت»[٣] قالت: و جعل يقول: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»[٤]. وفي حديث مرسل أنه قال: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، اللهم فأعني على الموت وهونه علي»[٥]. ولما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، قالت فاطمة عليها السلام: واكرب أبتاه، فقال لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم»[٦]. وفي حديث خرجه ابن ماجه: أنه ﷺ قال لفاطمة: «إنه قد حضر من أبيك ما ليس الله بتارك منه أحداً الموافاة يوم القيامة»[٧].

ولم يقبض ﷺ حتى خُيِّر مرة أخرى بين الدنيا والآخرة. قالت عائشة كان النبي ﷺ يقول: «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير» فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» فقلت: الآن لا يختارنا، وعلمت أنه الحديث الذي كان يحدثناه وهو صحيح، وكانت تلك آخر كلمة تكلم بها[٨]. وفي رواية أنه قال: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى»[٩]، وفي رواية أنه أصابه بحة شديدة فسمعته يقول:

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٤) ومسلم (٢٤٥٠).
(٢) صحيح. رواه الترمذي (٩٧٩) وصححه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.
(٣) ضعيف. رواه الترمذي (٩٧٨) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٥٦٤).
(٤) رواه البخاري (٤٤٤٩).
(٥) ضعيف. رواه ابن أبي الدنيا كما في فيض القدير للمناوي وإسناده ضعيف.
(٦) رواه البخاري (٤٤٦٢).
(٧) حسن صحيح. ابن ماجه (١٦٢٩) وصححه شيخنا في صحيح سنن ابن ماجه.
(٨) رواه البخاري (٤٤٦٣) ومسلم (٢٤٤٤).
(٩) رواه البخاري (٤٤٤٠) ومسلم (٢٤٤٤).

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء: ٦٩] قالت: فظننت أنه خير[١]. وهذه الروايات مخرجة في صحيح البخاري وغيره.

وقد روي ما يدل على أنه قبض، ثم رأى مقعده من الجنة، ثم ردت إليه نفسه، ثم خير: ففي المسند عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي إلا تقبض نفسه، ثم يرى الثواب، ثم ترد إليه فيخير إليه بين أن ترد إليه إلى أن يلحق» فكنت قد حفظت ذلك منه، فإني لمسندته إلى صدري، فنظرت إليه حتى مالت عنقه؛ فقلت: قد قضى، قالت: فعرفت الذي قال، فنظرت إليه حتى ارتفع ونظر فقالت: إذاً والله لا يختارنا، فقال: «مع الرفيق الأعلى في الجنة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]» إلى آخر الآية[٢]. وفي صحيح ابن حبان عنها قالت: أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه في حجري فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء فلما أفاق قال: «لا بل أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل»[٣]، وفيه وفي المسند عنها: أنها كانت ترقيه في مرضه الذي مات فيه فقال: «ارفعي يدك؛ فإنها كانت تنفعني في المدة»[٤].

قال الحسن: لما كرهت الأنبياء الموت هون الله ذلك عليهم بلقاء الله وبكل ما أحبوا من تحفة و كرامة حتى إن نفس أحدهم لتنزع من بين جنبيه وهو يحب ذلك؛ لما قد مثل له. وفي المسند عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إنه ليهون علي الموت أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة»[٥]. وخرجه

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٦) ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) ضعيف. أحمد (٢٣٩٣٣) وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح. ابن حبان (٦٥٩١) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣١٠٤).

(٤) صحيح لغيره. أحمد.(٢٥٧١١) وابن حبان (٢٩٦٢) وصححه شيخنا في التعليقات الحسان.

(٥) أحمد (٢٤٥٥٥) إسناده ضعيف لكن معناه ثابت كما قرره شيخنا في الصحيحة (٨٦٨/٦).

ابن سعد وغيره مرسلًا: أنه ﷺ قال: «لقد أريتها في الجنة ليهون بذلك علي موتي كأني أرى كفها» ـ يعني: عائشة ـ[١].

كان ﷺ يحب عائشة حباً شديداً حتى لا يكاد يصبر عنها فمثلت له بين يديه في الجنة ليهون عليه موته فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة، وقد سأله رجل: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قال: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»[٢]. ولهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت: وارأساه: «وددت أن ذلك كان وأنا حي فأصلي عليك وأدفنك»[٣] فعظم ذلك عليها وظنت أنه يحب فراقها، وإنما كان يريد تعجيلها بين يديه ليقرب اجتماعهما. وقد كانت عائشة مضغت له سواكاً وطيبته بريقها، ثم دفعته إليه فاستن به أحسن استنان، ثم ذهب يتناوله فضعفت يده عنه فسقط من يده الكريمة فكانت عائشة تقول: جمع الله بي ريقه وريقي في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة[٤]، والحديث مخرج في الصحيحين.

وفي حديث خرجه العقيلي أن النبي ﷺ قال لها في مرضه: «ائتيني بسواك رطب امضغيه، ثم ائتيني به أمضغه لكي يختلط ريقي بريقك لكي يهوّن به علي عند الموت»[٥]. قال جعفر بن محمد عن أبيه: لما بقي من أجل رسول الله ﷺ ثلاث نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: يا أحمد إن الله قد أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلًا لك، وخاصة لك يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً» ثم أتاه في اليوم الثاني فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك ثم استأذن فيه ملك الموت فقال جبريل: يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي كان قبلك ولا يستأذن

---

(١) ابن سعد في الطبقات (٦٦/٨) وإسناده ضعيف وانظر التعليق السابق.

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٢) ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) قد سبق تخريجه.

(٤) البخاري (٤٤٥١).

(٥) ضعيف. العقيلي في الضعفاء (٢٤٩/٢).

على آدمي بعدك قال: «ائذن له» فدخل ملك الموت فوقف بين يديه فقال له: يا رسول الله يا أحمد إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها؟ قال: «وتفعل يا ملك الموت؟!» قال: بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما تأمرني به، فقال جبريل: يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك، قال: «فامض يا ملك الموت لما أمرت به» فقال جبريل: السلام عليك يا رسول الله هذا آخر موطئ من الأرض إنما كنت حاجتي من الدنيا. وجاءت التعزية يستمعون الصوت والحس ولا يرون الشخص: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، إنما المصاب من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

وكانت وفاته ﷺ في يوم الاثنين في شهر ربيع الأول بغير خلاف، وكان ﷺ قد كشف الستر في ذلك اليوم والناس في صلاة الصبح خلف أبي بكر فهم المسلمون أن يفتتنوا من فرحهم برؤيته ﷺ حين نظروا إلى وجهه كأنه ورقة مصحف وظنوا أنه يخرج للصلاة فأشار إليهم أن مكانكم ثم أرخى الستر وتوفى ﷺ من ذلك اليوم[٢]، وظن المسلمون أنه ﷺ قد برئ من مرضه لما أصبح يوم الاثنين مفيقاً، فخرج أبو بكر إلى منزله بالسنح خارج المدينة، فلما ارتفع الضحى من ذلك اليوم توفي رسول الله ﷺ[٣]. وقيل: توفي حين زاغت الشمس، والأول أصح، وأنه توفي حين اشتد الضحى من يوم الاثنين في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة حين هاجر إليها. واختلفوا في تعيين ذلك اليوم من الشهر، فقيل: كان أوله، وقيل: ثانيه، وقيل: ثاني عشره، وقيل: ثالث عشره، وقيل: خامس عشره، والمشهور بين الناس:

---

(١) موضوع. رواه الشافعي في السنن والطبراني في الكبير (٢٨٩٠) وإسناده ضعيف جداً قاله شيخنا في الضعيفة (٥٣٨٤) وبسط شيخنا الكلام عليه وعلى طرقه.

(٢) رواه البخاري (٦٨٠) ومسلم (٤١٩).

(٣) البخاري (١٢٤٢).

أنه كان ثاني عشر ربيع الأول. وقد رَدَّ ذلك السهيلي وغيره بأن وقفة حجة الوداع في السنة العاشرة كانت الجمعة وكان أول ذي الحجة فيها الخميس ومتى كان كذلك لم يصح أن يكون يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول سواء حسبت الشهور الثلاثة ـ أعني: ذا الحجة ومحرماً وصفراً ـ كلها كاملة أو ناقصة أو بعضها كاملة وبعضها ناقصة، ولكن أجيب عن هذا بجواب حسن وهو أن ابن إسحاق ذكر أن النبي ﷺ توفي لاثنتي عشرة ليلة من ربيع الأول وهذا ممكن فإن العرب تؤرخ بالليالي دون الأيام ولكن لا تؤرخ إلا بليلة مضى يومها فيكون اليوم تبعاً لليلة، وكل ليلة لم يمض يومها لم يعتد بها، كذلك إذا ذكروا الليالي في عدد فإنهم يريدون بها الليالي مع أيامها، فإذا قالوا: عشر ليال فمرادهم بأيامها، ومن هنا يتبين صحة قول الجمهور في أن عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر ليال بأيامها، وأن اليوم العاشر من جملة إتمام العدة خلافاً للأوزاعي، وكذلك قال الجمهور في أشهر الحج: شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة، وأن يوم النحر فيها داخل؛ لهذا المعنى خلافاً للشافعي وحينئذٍ فيوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ كان ثالث عشر الشهر، لكن لما لم يكن يومه قد مضى؛ لم يؤرخ بليلته وإنما أرَّخوا بليلة الأحد ويومها وهو الثاني عشر؛ فلذلك قال ابن إسحاق: توفي لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول والله أعلم.

واختلفوا في وقت دفنه فقيل: دفن من ساعته. وفيه بعد، وقيل: من ليلة الثلاثاء، وقيل: يوم الثلاثاء، وقيل: ليلة الأربعاء[1]. ولما توفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بعث إليه كما بعث إلى موسى، وكان من هؤلاء عمر، وبلغ الخبر أبا بكر فأقبل مسرعاً حتى دخل بيت عائشة ورسول الله ﷺ مسجى فكشف عن وجهه الثوب وأكب عليه وقبل جبهته مراراً وهو يبكي وهو يقول: وانبياه، واخليلاه، واصفياه، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات

(١) والصحيح ليلة الأربعاء.

والله رسول الله ﷺ، قال: والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها. ثم دخل المسجد وعمر يكلم الناس وهم مجتمعون عليه فتكلم أبو بكر رضي الله عنه وتشهد وحمد الله فأقبل الناس عليه وتركوا عمر فقال: من كان يعبد محمداً؛ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] الآية. فاستيقن الناس كلهم بموته وكأنهم لم يسمعوا هذه الآية من قبل أن يتلوها أبو بكر، فتلقاها الناس منه فما يسمع أحد إلا يتلوها، وقالت فاطمة عليها السلام: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه، يا أبتاه من ربه ما أدناه. وعاشت بعده ستة أشهر، فما ضحكت في تلك المدة - وحق لها ذلك - رضي الله عنها.

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن كان من ليلى على الهجر طاويا

كل المصائب تهون عند هذه المصيبة، في سنن ابن ماجه أنه ﷺ قال في مرضه: «أيها الناس! إنْ أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة؛ فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري؛ فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي»[(١)].

قال أبو الجوزاء: كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه[(٢)] ويقول: يا عبدالله، اتق الله، فإن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

اصبر لكل مصيبة وتجلدِ واعلم بأن المرء غير مخلد
واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب اليوم تكشف في غد
وإذا أتتك مصيبة فاصبر[(٣)] لها فاذكر مصابك بالنبي محمد

(١) صحيح. ابن ماجه (١٥٩٩) وصححه شيخنا في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) في الأصل: «وصافحه».

(٣) في نسخة: «تشجى» كما في هامش الأصل.

ولبعضهم:

وذكرت لما فوق الدهر بيننا ... فعزيت نفسي بالنبي محمد
وقلت لها: إن المنايا ستلقانا ... فمن لم يمت في يومه مات في غد

كادت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة الرسول ﷺ فكيف بقلوب المؤمنين؟. لما فقده الجذع الذي كان يخطب إليه قبل اتخاذ المنبر حَنَّ إليه وصاح كما يصيح الصبي فنزل إليه فاعتنقه فجعل يُهدى كما يُهدى الصبي الذي يُسكن عند بكائه، فقال: «لو لم أعتنقه لحنَّ إلى يوم القيامة»[1]. كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه. وروي أن بلالًا كان يؤذن بعد وفاة النبي ﷺ قبل دفنه فإذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ارتج المسجد بالبكاء والنحيب، فلما دفن ترك بلال الأذان. ما أَمَرَّ عيش من فارق الأحباب، خصوصاً من كانت رؤيته حياة الألباب.

لو ذاق طعم الفراق رضوى ... لكاد من وجده يميد
قد حملوني عذاب شوق ... يعجز عن حمله الحديد

لما دفن ﷺ قالت فاطمة: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟. قال أنس: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي دفن فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا التراب عن رسول الله ﷺ وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

لِيَبْكِ رسولَ الله من كان باكياً ... فلا تنس قبراً بالمدينة ثاويا
جزى الله عنا كل خير محمداً ... فقد كان مهدياً وقد كان هاديا
وكان رسول الله روحاً ورحمة ... ونوراً وبرهاناً من الله باديا

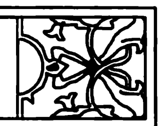
---

(١) رواه ابن ماجه (١٤١٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢١٧٤) على شرط مسلم، قلت: وأصل الحديث في البخاري (٩١٨).

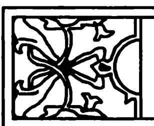
وكان رسول الله بالخير آمراً ... وكان عن الفحشاء والسوء ناهيا
وكان رسول الله بالقسط قائماً ... وكان لما استرعاه مولاه راعيا
وكان رسول الله يدعو إلى الهدى ... فلبَّى رسول الله لَبَّيْهِ داعيا
أينسى أبر الناس بالناس كلهم ... وأكرمهم بيتاً وشعباً وواديا
أينسى رسول الله أكرم من مشى ... وآثاره بالمسجدين كما هيا
تكدر من بعد النبي محمد ... عليه السلام كل ما كان صافيا
ركنا إلى الدنيا الدنية بعده ... وكشفت الأطماع منا مساويا
وكم من منار كان أوضحه لنا ... ومن عَلَم أمسى وأصبح عافيا
إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو[1] كان كاسيا
[وخير خصال المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا][2]

❋ ❋ ❋

(١) كذا الأصل، والبيت لأبي العتاهية وفيه: «وإن».
(٢) زيادة من نسخة دار ابن كثير.



# وظيفة شهر رجب



خرج في الصحيحين من حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع فقال في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[١] وذكر الحديث. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فأخبر سبحانه أنه منذ خلق السموات والأرض وخلق الليل والنهار يدوران في الفلك وخلق ما في السماء من الشمس والقمر والنجوم وجعل الشمس والقمر يسبحان في الفلك تنشأ منهما ظلمة الليل وبياض النهار فمن حينئذٍ جعل السنة اثني عشر شهراً بحسب الهلال. فالسنة في الشرع مقدرة بسير القمر وطلوعه لا بسير الشمس وانتقالها كما يفعله أهل الكتاب.

وجعل من هذه الأشهر أربعة حرماً وقد فسرها النبي ﷺ في هذا الحديث وذكر أنها ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وواحد فرد وهو شهر رجب، وهذا قد يستدل به من يقول: إنها من سنتين، وقد روي من حديث ابن عمر مرفوعاً: «أولهن رجب»[٢] وفي إسناده موسى بن

---

(١) البخاري (٣١٩٧) ومسلم (١٦٧٩).

(٢) ضعيف. رواه ابن جرير في تفسيره (١٢٤/١٠ ـ ١٢٤) وإسناده ضعيف كما ذكر المصنف.

عبيدة،[١] وفيه ضعف شديد من قبل حفظه. وقد حكي عن أهل المدينة أنهم جعلوها من سنتين، وأن أولها ذو القعدة، ثم ذو الحجة، ثم المحرم، ثم رجب، فيكون رجب آخرها. وعن بعض المدنيين: أن أولها رجب ثم ذو القعدة ثم ذو الحجة ثم المحرم. وعن بعض أهل الكوفة: أنها من سنة واحدة أولها المحرم ثم رجب ثم ذو القعدة ثم ذو الحجة. واختلف في أي هذه الأشهر الحرم أفضل؟ فقيل: رجب، قاله بعض الشافعية، وضعفه النووي وغيره، وقيل: المحرم، قاله الحسن ورجحه النووي، وقيل: ذو الحجة، وروي عن سعيد بن جبير وغيره وهو أظهر والله أعلم.

وقوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً» مراده بذلك إبطال ما كانت الجاهلية تفعله من النسيء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ [التوبة: ٣٧]. وقد اختلف في تفسير النسيء فقالت طائفة: كانوا يبدلون بعض الأشهر الحرم بغيرها من الأشهر فيحرمونها بدلها ويحلون ما أرادوا تحليله من الأشهر الحرم إذا احتاجوا إلى ذلك ولكن لا يزيدون في عدد الأشهر الهلالية شيئاً، ثم من أهل هذه المقالة من قال: كانوا يحلون المحرم فيستحلون القتال فيه لطول مدة التحريم عليهم بتوالي ثلاثة أشهر محرمة، ثم يحرمون صفر مكانه، وكأنهم يقترضون ثم يوفونه، ومنهم من قال: كانوا يحلون المحرم مع صفر من عام ويسمونهما صفرين، ثم يحرمونهما من عام قابل ويسمونهما محرمين، قاله ابن زيد بن أسلم. وقيل: بل كانوا ربما احتاجوا إلى صفر أيضاً فأحلوه وجعلوا مكانه ربيعاً، ثم يدور كذلك التحريم والتحليل بالتأخير إلى أن جاء الإسلام ووافق حجة الوداع صار رجوع التحريم إلى محرم الحقيقي وهذا هو الذي رجحه أبو عبيد، وعلى هذا فالتغير إنما وقع في عين الأشهر الحرم خاصة. وقالت طائفة أخرى: بل كانوا يزيدون في عدد شهور السنة وظاهر الآية يشعر بذلك حيث قال الله

---

(١) في الأصل: «عبدة».

تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: ٣٦] فذكر هذا توطئة لهدم النسيء وإبطاله، ثم من هؤلاء من قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، قاله مجاهد وأبو مالك، قال أبو مالك: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، ويجعلون المحرم صفراً. وقال مجاهد: كانوا يسقطون المحرم ويقولون: صفرين لصفر وربيع الأول وربيع الآخر، ثم يقولون: شهرا ربيع، ثم يقولون: لرمضان شعبان ولشوال رمضان، ولذي القعدة شوال، ولذي الحجة ذو القعدة على وجه ما ابتدأوا، وللمحرم ذو الحجة فيعدون ما يناسئون على مستقبله على وجه ما ابتدأوا. وعنه قال: كانت الجاهلية يحجون في كل شهر من شهور السنة عامين فوافق حج رسول الله ﷺ في ذي الحجة فقال: «هذا يوم استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض». ومن هؤلاء من قال: كانت الجاهلية يجعلون الشهور[1] اثني عشر شهراً وخمسة أيام قاله إياس بن معاوية. وهذا العدد قريب من عدد السنة الرومية، ولهذا جاء في مراسيل عكرمة بن خالد أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم النحر: «والشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ وخنس إبهامه في الثالثة ـ وهكذا وهكذا وهكذا ـ يعني: ثلاثين ـ»[2] فأشار إلى أن الشهر هلالي. ثم تارة ينقص وتارة يتم، ولعل أهل النسيء كانوا يتمون الشهور كلها ويزيدون عليها والله أعلم. وقد قيل: إن ربيعة ومضر كانوا يحرمون أربعة أشهر من السنة مع اختلافهم في تعيين رجب منها كما سنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ. وكانت بنو عوف بن لؤي يحرمون من السنة ثمانية أشهر وهذا مبالغة في الزيادة على ما حرمه الله تعالى. واختلفوا في أي عام عاد الحج إلى ذي الحجة على وجهه، واستدار الزمان فيه كهيئته؛ فقالت طائفة: إنما عاد على وجهه في حجة الوداع، وأما حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكانت وقعت في شهر ذي القعدة، هذا قول مجاهد وعكرمة بن خالد وغيرهما. وقيل: إنه اجتمع في ذلك العام حج الأمم كلها في وقت

---

(١) في نسخة: «السنة» كما في هامش الأصل.

(٢) لم أقف عليه والحديث في البخاري (١٩٠٨و١٩١٣و٥٣٠٢) ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر لكن ليس فيه موضع الشاهد منه وهو: «في خطبته يوم النحر».

واحد فلذلك سمي يوم الحج الأكبر. وقالت طائفة: بل وقعت حجة الصديق في ذي الحجة قاله الإمام أحمد، وأنكر قول مجاهد، واستدل: بأن النبي ﷺ أمر علياً فنادى يوم النحر: «لا يحج بعد العام مشرك»(١)، وفي رواية: «واليوم يوم الحج الأكبر»(٢)، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] فسماه يوم الحج الأكبر، وهذا يدل على أن النداء وقع في ذي الحجة. وخرج الطبراني في أوسطه(٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان العرب يحلون عاماً شهراً، وعاماً شهرين، ولا يصيبون الحج إلا في كل ستة وعشرين سنة مرة واحدة: وهو النسيء الذي ذكره الله في كتابه، فلما كان عام حَجَّ أبو بكر بالناس وافق في ذلك العام الحج؛ فسماه الله يوم الحج الأكبر، ثم حج رسول الله ﷺ في العام المقبل فاستقبل الناس الأهلة فقال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض». وقيل: بل استدار الزمان كهيئته كان من عام الفتح. وخرج البزار في مسنده من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال لهم يوم الفتح: «إن هذا العام الحج الأكبر، قد اجتمع حج المسلمين وحج المشركين في ثلاثة أيام متتابعات، واجتمع حج اليهود والنصارى في ستة أيام متتابعات، ولم يجتمع منذ خلق الله السموات والأرض ولا يجتمع بعد العام حتى تقوم الساعة»(٤) وفي إسناده يوسف السمتي وهو ضعيف جداً.

واختلفوا لم سميت هذه الأشهر الأربع حرماً؟ فقيل: لعظم حرمتها وحرمة الذنب فيها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: اختص الله أربعة أشهر جعلهن حرماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، وجعل العمل الصالح والأجر أعظم(٥). قال كعب: اختار الله الزمان فأحبه

---

(١) رواه البخاري (٣٦٩) ومسلم (١٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٣١٧٧) ومسلم (١٣٤٧).

(٣) الطبراني في الأوسط (١٩٦/٣).

(٤) موضوع. البزار (١٣٩٤/مختصر).

(٥) ضعيف. رواه ابن جرير (١٢٦/١٠) وإسناده ضعيف.

إلى الله الأشهر الحرم. وقد روي مرفوعاً ولا يصح رفعه. وقد قيل: في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]: إن المراد في الأشهر الحرم. وقيل: بل في جميع شهور السنة. وقيل: إنما سميت حرماً لتحريم القتال فيها، وكان ذلك معروفاً في الجاهلية. وقيل: إنه كان في[1] عهد إبراهيم عليه السلام. وقيل: إن سبب تحريم هذه الأربعة أشهر بين العرب؛ لأجل التمكن من الحج والعمرة، وحرم شهر ذي الحجة لوقوع الحج فيه، وحرم معه شهر ذي القعدة للسير فيه إلى الحج، وشهر المحرم للرجوع فيه من الحج حتى يأمن الحاج على نفسه من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع إليه. وحرم شهر رجب للاعتمار فيه في وسط السنة فيعتمر فيه من كان قريباً من مكة، وقد شرع الله تعالى في أول الإسلام تحريم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن جندب بن عبدالله أن النبي ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم عبدالله بن جحش، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك من رجب.أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية[2]. وروى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود في هذه الآية فذكروا هذه القصة مبسوطة، وقالوا فيها: فقال المشركون: يزعم محمد أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام؟ فقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى. وقيل: في أول رجب وآخر ليلة من جمادى وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب، وأنزل الله تعالى تعييراً لأهل مكة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ

---

(١) في نسخة: «من» كما في الأصل.

(٢) حسن. له شواهد انظر تغليق التعليق للحافظ ابن حجر (٧٥/٢) وما بعدها.

قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٧] لا يحل، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام حين أخرجوا منه محمداً ﷺ أكبر من القتل عند الله. وقد روي عن ابن عباس هذا المعنى من رواية العوفي عنه، ومن رواية أبي سعد[1] البقال عن عكرمة عنه، ومن رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، وذكر ابن إسحاق أن ذلك كان في آخر يوم من رجب وأنهم خافوا إن أخروا القتال أن يسبقهم المشركون فيدخلوا الحرم فيأمنوا وإنهم لما قدموا على النبي ﷺ قال لهم: «ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام»[2] ولم يأخذ من غنيمتهم شيئاً، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فقال من بمكة من المسلمين: إنما قتلوهم في شعبان فلما أكثر الناس في ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البَقَرَة: ٢١٧] الآية. وروي نحو هذا السياق عن عروة والزهري وغيرهما. وقيل: إنها كانت أول غنيمة غنمها المسلمون. وقال عبدالله بن جحش في ذلك ـ وقيل: إنها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدوكم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله في البيت ساجد

في أبيات أخر.

وقد اختلف العلماء في حكم القتال في الأشهر الحرم هل تحريمه باق أو نسخ. فالجمهور: على أنه نسخ تحريمه، ونص على نسخه الإمام أحمد وغيره من الأئمة، وذهبت طائفة من السلف: منهم عطاء: إلى بقاء تحريمه ورجحه بعض المتأخرين واستدلوا بآية المائدة، والمائدة من آخر ما نزل من القرآن. وقد روي: «أحلوا حلالها وحرموا حرامها»[3]. وقيل: ليس فيها

---

(١) في الأصل: «سعيد».
(٢) رواه ابن إسحاق ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٥٨/٩) من طريقه عن عروة مرسلًا.
(٣) ضعيف. رواه أبو عبيد كما في الدر المنثور (٤/٣).

منسوخ. وفي المسند أن عائشة قالت: هي آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه[١]. وروى الإمام أحمد في مسنده حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى - أو يُغْزَوْ - فإذا حضره أقام حتى ينسلخ[٢]. وذكر بعضهم أن النبي ﷺ حاصر الطائف في شوال فلما دخل ذو القعدة لم يقاتل بل صابرهم ثم رجع، وكذلك في عمرة الحديبية لم يقاتل حتى بلغه أن عثمان قتل فبايع على القتال، ثم لما بلغه أن ذلك لا حقيقة له كف عن القتال. واستدل الجمهور بأن الصحابة ﵃ اشتغلوا بعد النبي ﷺ بفتح البلاد ومواصلة القتال والجهاد، ولم ينقل عن أحد منهم أنه توقف عن القتال وهو طالب له في شيء من الأشهر الحرم؛ وهذا يدل على إجماعهم على نسخ ذلك، والله علم.

ومن عجائب الأشهر الحرم ما روى عبدالله بن عمرو بن العاص: أنه ذكر عجائب الدنيا فعد منها بأرض عاد عمود نحاس عليه شجرة من نحاس فإذا كان في الأشهر الحرم قطر منها الماء؛ فملؤوا منه حياضهم وسقوا مواشيهم وزروعهم، فإذا ذهب الأشهر الحرم انقطع الماء.

وقوله ﷺ: «ورجب مضر» سمي رجب رجباً؛ لأنه كان يرجب: أي يعظم، كذا قال الأصمعي والمفضل والفراء. وقيل: لأن الملائكة ترجب للتسبيح والتحميد فيه، وفي ذلك حديث مرفوع إلا أنه موضوع. وأما إضافته إلى مضر فقيل: لأن مضر كانت تزيد في تعظيمه واحترامه فنسب إليهم لذلك. وقيل: بل كانت ربيعة تحرم رمضان، وتحرم مضر رجباً فلذلك سماه رجب مضر رجباً، وحقق ذلك بقوله: «الذي بين جمادى وشعبان».

وذكر بعضهم أن لشهر رجب أربعة عشر اسماً: شهر الله، ورجب،

(١) صحيح. أحمد (٢٥٥٨٨).

(٢) صحيح. أحمد (١٤١٧٣) صححه الشيخ شعيب في تعليقه على المسند وعنعنة أبي الزبير لا تضر هنا لأنها من رواية الليث عنه.

ورجب مضر، ومنصل الأسنة، والأصم، والأصب، ومنفس، ومطهر، ومعلى ومقيم، وهرم، ومقشقش، ومبرئ، وفرد. وذكر غيره: أن له سبعة عشر اسماً فزاد: رجم بالميم، ومنصل الآلة، وهي الحربة، ومنزع الأسنة.

ويتعلق بشهر رجب أحكام كثيرة فمنها ما كان في الجاهلية واختلف العلماء في استمراره في الإسلام؛ كالقتال وقد سبق ذكره، وكالذبائح؛ فإنهم كانوا في الجاهلية يذبحون ذبيحة يسمونها: العتيرة، واختلف العلماء في حكمها في الإسلام، والأكثرون على أن الإسلام أبطلها، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا فرع ولا عتيرة»[(١)]. ومنهم من قال: بل هي مستحبة منهم ابن سيرين، وحكاه الإمام أحمد عن أهل البصرة، ورجحه طائفة من أهل الحديث المتأخرين ونقل حنبل عن أحمد نحوه، وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه عن مخنف بن سليم أن النبي ﷺ قال بعرفة: «إن على كل أهل بيت في كل عام أضحية[(٢)] وعتيرة» وهي التي يسمونها: الرجبية[(٣)]. وفي النسائي عن نبيشة أنهم قالوا: يا رسول الله إنا كنا نعتر في الجاهلية ـ يعني: في رجب ـ. فقال: «اذبحوا لله في أي شهر كان، وبروا لله، وأطعموا»[(٤)]. وروى الحارث بن عمرو أن النبي ﷺ سئل عن الفرع والعتائر؟ فقال: «من شاء فرع، ومن شاء لم يفرع، ومن شاء عتر ومن شاء لم يعتر»[(٥)]. وفي حديث آخر قال: «العتيرة حق»[(٦)]. وفي النسائي عن أبي رزين قال: قلت: كنا نذبح ذبائح في الجاهلية ـ يعني: في رجب ـ فنأكل ونطعم من جاءنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس به»[(٧)]. وخرج الطبراني بإسناده عن ابن عباس قال: استأذنت قريش رسول الله ﷺ في

---

(١) البخاري (٥٤٧٣) ومسلم (١٩٧٦).

(٢) في الأصل: «أضحى».

(٣) حسن. أبو داود (٢٧٨٨) والنسائي (٤٢٢٤) وابن ماجه (٣١٢٥) وحسنه شيخنا في آخر قوليه كما في صحيح سنن الترمذي وابن ماجه.

(٤) صحيح. النسائي (٤٢٢٨).

(٥) ضعيف. رواه النسائي (٤٢٢٦) وضعفه شيخنا في الإرواء (١١٨١).

(٦) حسن. رواه النسائي (٤٢٢٥) وحسنه شيخنا في صحيح سنن النسائي.

(٧) صحيح. النسائي (٤٢٣٣) وصححه شيخنا في صحيح سنن النسائي.

العتيرة؟ فقال: «أعتر كعتر الجاهلية؟! ولكن من أحب منكم أن يذبح لله فيأكل ويتصدق فليفعل»[(١)].

وهؤلاء جمعوا بين هذه الأحاديث، وبين حديث: «لا فرع ولا عتيرة» بأن المنهي عنه هو ما كان يفعله أهل الجاهلية من الذبح لغير الله، وحمله سفيان بن عيينة على أن المراد به نفي الوجوب، ومن العلماء من قال: حديث أبي هريرة أصح من هذه الأحاديث وأثبت فيكون العمل عليه دونها، وهذه طريقة الإمام أحمد.

وروى مبارك بن فضالة عن الحسن قال: ليس في الإسلام عتيرة؛ إنما كانت العتيرة في الجاهلية، كان أحدهم يصوم رجب ويعتر فيه.

ويشبه الذبح في رجب اتخاذه موسماً وعيداً لأكل الحلوى ونحوها. وقد روي عن ابن عباس أنه كان يكره أن يتخذ رجب عيداً. وروى عبدالرزّاق عن ابن جريج عن عطاء قال: كان النبي ﷺ ينهى عن صيام رجب كله لئلا يتخذ عيداً[(٢)]. وعن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا شهراً عيداً، ولا يوماً عيداً»[(٣)]. وأصل هذا أنه لا يشرع أن يتخذ المسلمون عيداً إلا ما جاءت[(٤)] الشريعة باتخاذه عيداً؛ وهو يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق وهي أعياد العام، ويوم الجمعة وهو عيد الأسبوع وما عدا ذلك فاتخاذه عيداً وموسماً بدعة لا أصل له في الشريعة[(٥)].

ومن أحكام رجب ما ورد فيه من الصلاة والزكاة والصيام والاعتمار، فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من شهر

---

(١) ضعيف. الطبراني في الكبير (١١/٢٣٢) وإسناده ضعيف.
(٢) ضعيف. عبدالرزّاق (٤/٢٩٢) وروي مسنداً وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٧٢٨).
(٣) ضعيف. عبدالرزّاق (٤/٢٩١).
(٤) في نسخة: «ما جاءت به» كما في الأصل.
(٥) كالاحتفال بعيد المولد النبوي ورأس السنة الهجرية والإسراء والمعراج ونحو ذلك.

رجب كذب باطل لا يصح، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء. وممن ذكر ذلك من أعيان العلماء المتأخرين من الحفاظ أبو إسماعيل الأنصاري، وأبو بكر بن السمعاني، وأبو الفضل بن ناصر، وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم. إنما لم يذكرها المتقدمون؛ لأنها أحدثت بعدهم. وأول ما ظهرت بعد الأربعمائة فلذلك لم يعرفها المتقدمون ولم يتكلموا فيها.

وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، ولكن روي عن أبي قلابة قال: في الجنة قصر لصوام رجب[١]. قال البيهقي: أبو قلابة من كبار التابعين لا يقول مثله إلا عن بلاغ. وإنما ورد في صيام الأشهر الحرم كلها حديث مجيبة[٢] الباهلية عن أبيها ـ أو عمها ـ: أن رسول الله ﷺ قال له: «صم من الحرم واترك ـ قالها ثلاثاً ـ»[٣] خرجه أبو داود وغيره، وخرجه ابن ماجه وعنده: «صم أشهر الحرم»[٤].

وقد كان بعض السلف يصوم الأشهر الحرم كلها منهم ابن عمر والحسن البصري وأبو إسحاق السبيعي. وقال الثوري: الأشهر الحرم أحب إلي أن أصوم فيها. وجاء في حديث خرجه ابن ماجه أن أسامة بن زيد كان يصوم أشهر الحرم فقال له رسول الله ﷺ: «صم شوالًا» فترك الأشهر الحرم وصام شوالَ حتى مات[٥]. وفي إسناده انقطاع. وخرج ابن ماجه أيضاً بإسناد فيه ضعف عن ابن عباس أن النبي ﷺ نهى عن صيام رجب[٦]. والصحيح وقفه على ابن عباس. ورواه عطاء عن النبي ﷺ مرسلًا، وقد سبق لفظه. وروى عبدالرزّاق في كتابه عن داود بن قيس عن زيد بن أسلم:

---

(١) ضعيف. البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٦٨).
(٢) في الأصل: «جحيفة» وأشار الناسخ في الهامش أن في نسخة: «نجيبة».
(٣) ضعيف. أبو داود (٢٤٢٨) وضعفه شيخنا في تمام المنة (٤١٣).
(٤) ضعيف. ابن ماجه (١٧٤١) وضعفه شيخنا في ضعيف سنن ابن ماجه.
(٥) ضعيف. وقد سبق تخريجه.
(٦) ضعيف جداً. ابن ماجه (١٧٣١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٧٢٨).

ذكر لرسول الله ﷺ قوم يصومون رجباً فقال: «أين هم من شعبان؟!»[١]. وروى أزهر بن سعيد الجمحي عن أمه أنها سألت عائشة عن صوم رجب؟ فقالت: إن كنت صائمة فعليك بشعبان. وروي مرفوعاً، ووقفه أصح. وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب أكف الرجال في صوم رجب حتى يضعوها في الطعام، ويقول: ما رجب؟ إن رجباً كانت تعظمه أهل الجاهلية فلما كان الإسلام ترك، وفي رواية: كره أن يكون صيامه سُنة. وعن أبي بكرة: أنه رأى أهله يتهيأون لصيام رجب فقال لهم: أجعلتم رجباً كرمضان، وألقى السلال وكسر الكيزان. وعن ابن عباس: أنه كره أن يصام رجب كله. وعن ابن عمر وابن عباس أنهما كانا يريان أن يفطر منه أياماً. وكرهه أنس وسعيد بن جبير. وكره صيام رجب كله يحيى بن سعيد الأنصاري والإمام أحمد وقال: يفطر منه يوم أو يومان وحكاه عن ابن عمر وابن عباس، وقال الشافعي في القديم: أكره أن يتخذ الرجل صوم شهر يكمله كما يكمل رمضان، واحتج بحديث عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل شهراً قط إلا رمضان[٢]، قال: وكذلك يوماً من بين الأيام. وقال: إنما كرهته أن لا يتأسى رجل جاهل فيظن أن ذلك واجب، وإن فعل فحسن. وتزول كراهة إفراد رجب بالصوم بأن يصوم [معه] شهراً آخر تطوعاً عند بعض أصحابنا، مثل أن يصوم الأشهر الحرم، أو يصوم رجب وشعبان. وقد تقدم عن ابن عمر وغيره صيام الأشهر الحرم، والمنصوص عن أحمد أنه لا يصومه بتمامه إلا من صام الدهر، وروي عن ابن عمر ما يدل عليه فإنه بلغه أن قوماً أنكروا عليه أنه حرم صوم رجب فقال: كيف بمن يصوم الدهر؟ وهذا يدل على أنه لا يصام رجب إلا مع صوم الدهر. وروى يوسف بن عطية عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن عائشة: أن النبي ﷺ لم يصم بعد رمضان إلا رجباً وشعبان[٣]. ويوسف ضعيف جداً. وروى أبو يوسف القاضي عن ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى عن

---

(١) ضعيف. عبدالرزّاق (٤/٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (١٩٦٩) ومسلم (١١٥٦).

(٣) ضعيف جداً. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٦٩) وضعفه.

عبدالرحمن بن أبي ليلى عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وربما أخر ذلك حتى يقضيه في رجب وشعبان[(١)]. ورواه عمرو بن أبي قيس عن ابن أبي ليلى فلم يذكر فيه رجباً، وهو أصح.

وأما الزكاة فقد اعتاد أهل هذه البلاد إخراج الزكاة في شهر رجب ولا أصل لذلك في السنة ولا عرف عن أحد من السلف، ولكن روي عن عثمان ﷺ أنه خطب الناس على المنبر فقال: إن هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليؤد دينه وليزك ما بقي. خرجه مالك في الموطأ. وقد قيل: إن ذلك الشهر الذي كانوا يخرجون فيه زكاتهم نسي ولم يعرف. وقيل: بل كان شهر المحرم؛ لأنه رأس الحول. وقد ذكر الفقهاء من أصحابنا وغيرهم أن الإمام يبعث سعاته لأخذ الزكاة في المحرم، وقيل: بل كان شهر رمضان لفضله وفضل الصدقة فيه، وبكل حال إنما تجب الزكاة إذا تم الحول على النصاب، وكل أحد له حول يخصه بحسب وقت ملكه للنصاب فإذا تم حوله وجب عليه إخراج زكاته في أي شهر كان، فإن عجل زكاته قبل الحول أجزأه عند جمهور العلماء، وسواء كان تعجيله لاغتنام زمان فاضل أو لاغتنام الصدقة على من لا يجد مثله في الحاجة أو كان لمشقة إخراج الزكاة عليه عند تمام الحول جملة، فيكون التفريق في طول الحول أرفق به. وقد صرح مجاهد بجواز التعجيل على هذا الوجه وهو مقتضى إطلاق الأكثرين. وخالف في هذه الصورة إسحاق نقله عنه ابن منصور. وأما إذا حال الحول فليس له التأخير بعد ذلك عند الأكثرين. وعن أحمد يجوز تأخيرها لانتظار قوم لا يجد مثلهم في الحاجة. وأجاز مالك وأحمد في رواية نقلها إلى بلد فاضل. فعلى قياس هذا لا يبعد جواز تأخيرها إلى زمن فاضل لا يوجد مثله كرمضان ونحوه. وروى يزيد الرقاشي عن أنس: أن المسلمين كانوا يخرجون زكاتهم في شعبان تقوية على الاستعداد لرمضان. وفي الإسناد ضعف.

وأما الاعتمار في رجب فقد روى ابن عمر أن النبي ﷺ اعتمر في

---

(١) ضعيف.

رجب فأنكرت ذلك عليه عائشة وهو يسمع فسكت[1]. واستحب الاعتمار في رجب عمر بن الخطاب وغيره، وكانت عائشة تفعله وابن عمر أيضاً. ونقل ابن سيرين عن السلف أنهم كانوا يفعلونه. فإن أفضل الأنساك أن يؤتى بالحج في سفرة وبالعمرة في سفرة أخرى في غير أشهر الحج وذلك من جملة إتمام الحج والعمرة المأمور به، كذلك قاله جمهور الصحابة: كعمر وعثمان وعلي وغيرهم ﷺ.

وقد روي أنه كان في شهر رجب حوادث عظيمة ولم يصح شيء من ذلك فروي أن النبي ﷺ ولد في أول ليلة منه، وأنه بعث في السابع والعشرين منه، وقيل: في الخامس والعشرين ولا يصح شيء من ذلك. وروي بإسناد لا يصح عن القاسم بن محمد: أن الإسراء بالنبي ﷺ كان[2] في سابع عشرين [من] رجب. وأنكر ذلك إبراهيم الحربي وغيره. وروي عن قيس بن عباد قال: في اليوم العاشر من رجب: يمحو الله ما يشاء ويثبت. وكان أهل الجاهلية يتحرون الدعاء فيه على الظالم، وكان يستجاب لهم، ولهم في ذلك أخبار مشهورة ذكرها ابن أبي الدنيا في كتاب مجابي الدعوة وغيره. وقد ذكر ذلك لعمر بن الخطاب فقال: إن الله كان يصنع بهم ذلك ليحجز بعضهم عن بعض، وإن الله جعل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر. وروى زائدة بن أبي الرقاد عن زياد النميري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل رجب قال: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان»[3].

وروي عن أبي إسماعيل الأنصاري أنه قال: لم يصح في فضل رجب غير هذا الحديث. وفي قوله نظر؛ فإن هذا الإسناد فيه ضعف، وفي هذا الحديث دليل على استحباب الدعاء بالبقاء إلى الأزمان الفاضلة لإدراك

(١) رواه البخاري (١٧٧٦) ومسلم (١٢٥٥).

(٢) في الأصل: «كانت».

(٣) ضعيف. رواه الطبراني في الأوسط (١٨٩/٤) وأبو نعيم في الحلية (٢٦٩/٦) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٣٦٩).

الأعمال الصالحة فيها؛ فإن المؤمن لا يزيده عمره إلا خيراً، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله. وكان السلف يستحبون أن يموتوا عقب عمل صالح من صوم رمضان أو رجوع من حج. وكان يقال: من مات كذلك غفر له. كان بعض العلماء الصالحين قد مرض قبل شهر رجب فقال: إني دعوت الله أن يؤخر وفاتي إلى شهر رجب فإنه بلغني أن لله فيه عتقاء، فبلغه الله ذلك ومات في شهر رجب.

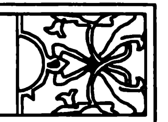
شهر رجب مفتاح أشهر الخير والبركة. قال أبو بكر الوراق البلخي: شهر رجب شهر الزرع، وشهر شعبان شهر السقي للزرع، وشهر رمضان شهر حصاد الزرع. وعنه قال: مثل شهر رجب مثل الريح، ومثل شعبان مثل الغيم، ومثل رمضان مثل القطر. وقال بعضهم: السنة مثل الشجرة وشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام تفريعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قطافها. جدير بمن سود صحيفته بالذنوب أن يبيضها بالتوبة في هذا الشهر، وبمن ضيع عمره في البطالة أن يغتنم فيه ما بقي من العمر.

بيض صحيفتك السوداء في رجب ... بصالح العمل المنجي من اللهب
شهرٌ حرام أتي من أشهر حُرُم ... إذا دعا الله داع فيه لم يخب
طوبى لعبد زكى فيه له عمل ... فكفَّ فيه عن الفحشاء والريب

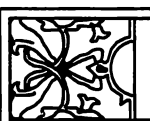
انتهاز الفرصة بالعمل في هذا الشهر غنيمة، واغتنام أوقاته بالطاعات له فضيلة عظيمة.

يا عبدُ أقبل منيباً واغتنم رجباً ... فإن عفوي عمن تاب قد وجبا
في هذه الأشهر الأبواب قد فتحت ... للتائبين فكل نحونا هربا
حطوا الركائب في أبواب رحمتنا ... بحسن ظن فكل نال ما طلبا
وقد نثرنا عليهم من تعطفنا ... نثار حسن قبول فاز من نهبا

❁ ❁ ❁



# وظائف شهر شعبان



**ويشتمل على مجالس:**

## المجلس الأول
## في صيامه

خرج الإمام أحمد والنسائي من حديث أسامة قال: كان رسول الله ﷺ يصوم الأيام يسرد حتى نقول: لا يفطر، ويفطر الأيام حتى لا يكاد يصوم إلا يومين من الجمعة إن كانا في صيامه وإلا صامهما، ولم يكن يصوم من الشهور ما يصوم من شعبان. فقلت: يا رسول الله إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر وتفطر حتى لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما؟ قال: «أي يومين؟» قلت: يوم الاثنين ويوم الخميس. قال: «ذانك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، وأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» قلت: ولم أرك تصوم من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو [شهر] ترفع الأعمال فيه إلى رب العالمين - ﷻ - فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»(١).

قد تضمن هذا الحديث ذكر صيام النبي ﷺ من جميع السنة وصيامه من أيام الأسبوع، وصيامه من شهور السنة. فأما صيامه من السنة فكان ﷺ

---

(١) حسن. أحمد (٢١٢٤٦) والنسائي (٢٣٥٧) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٨٩٨).

يسرد الصيام[1] أحياناً، والفطر أحياناً فيصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم. وقد روي ذلك أيضاً عن عائشة وابن عباس وأنس وغيرهم ففي الصحيحين عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم[2]. وفيهما عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصوم إذا صام حتى يقول القائل: لا، والله لا يفطر، ويفطر إذا أفطر حتى يقول القائل: لا، والله لا يصوم[3].

وفيهما عن أنس أنه سئل عن صيام النبي ﷺ؟ فقال: ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائماً إلا رأيته ولا مفطراً إلا رأيته، ولا من الليل قائماً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته[4]. ولمسلم عنه[5] قال: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى يقال: قد صام قد صام، ويفطر حتى يقال: قد أفطر قد أفطر[6].

وقد كان النبي ﷺ ينكر على من كان يسرد صوم الدهر ولا يفطر منه ويخبر عن نفسه: أنه لا يفعل ذلك. ففي الصحيحين عن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال له: «أتصوم النهار، وتقوم الليل؟» قال: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني»[7]. وفيهما عن أنس: أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ قال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء،

---

(١) في نسخة: «الصوم» كما في الأصل.
(٢) البخاري (١٩٦٩) ومسلم (١١٥٦).
(٣) البخاري (١٩٧١) ومسلم (١١٥٧).
(٤) البخاري (١١٤١) ومسلم (١١٥٨).
(٥) مسلم (١١٥٨).
(٦) وقع في الأصل عقب هذه العبارة: «وقد كان النبي ﷺ يصوم حتى يقال: قد صام، ويفطر حتى يقال: قد أفطر» وهي تكرار من الناسخ.
(٧) البخاري (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩) وليس عندهما من حديث ابن عمرو: «ولكني أصوم. . .» إلى آخر الحديث وإنما رواها أحمد (٦٤٤١) وغيره.

فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني»[١]. وخرجه النسائي وزاد فيه: وقال بعضهم: أصوم ولا أفطر[٢]. وفي مسند الإمام أحمد عن رجل من الصحابة قال: ذكر للنبي ﷺ مولاة لبني عبد المطلب فقيل: قامت الليل، وتصوم النهار، فقال النبي ﷺ: «لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، فمن اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني، إن لكل عمل شرة وفترة؛ فمن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل، ومن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى»[٣]. وفي المسند وسنن أبي داود عن عائشة أن عثمان بن مظعون أراد التبتل فقال له النبي ﷺ: «أترغب عن سنتي؟!» قال: لا؛ والله، ولكن سنتك أريد، قال: «فإني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان؛ فإن لأهلك عليك حقاً، ولضيفك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم»[٤]. وقد قال عكرمة وغيره: إن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب والمقداد وسالماً مولى أبي حذيفة في جماعة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار؛ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [المائدة: ٨٧] وفي صحيح البخاري أن سلمان زار أبا الدرداء وكان النبي ﷺ قد آخى بينهما فرأى أمَّ الدرداء مبتذلة فقال لها: ما شأنك مبتذلة؟ فقالت: إن أخاك أبا الدرداء لا حاجة له في الدنيا، فلما جاء أبو الدرداء قرب له طعاماً فقال له: كل، قال: إني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان: نم، ثم ذهب ليقوم فقال له: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن فقاما فصليا. فقال سلمان: إن لنفسك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك

---

(١) البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٢) صحيح. النسائي (٣٢١٧).

(٣) صحيح. أحمد (٢٢٩٦٣) وصححه شيخنا في السنة لابن أبي عاصم (٥١).

(٤) صحيح. أحمد (٢٥٧٧٦) وأبو داود (١٣٦٩) وصححه شيخنا في صحيح سنن أبي داود.

حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتيا النبي ﷺ فذكرا ذلك له فقال: «صدق سلمان»[١]، وفي رواية في غير الصحيح: «ثكلت سلمان أمه لقد أشبع من العلم»[٢]. وهكذا قال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص لما كان يصوم الدهر فنهاه وأمره أن يصوم صوم داود يصوم يوماً ويفطر يوماً وقال له: «لا أفضل من ذلك»[٣]. وقد ورد النهي عن صيام الدهر والتشديد فيه. وهذا كله يدل على أن أفضل الصيام أن لا يستدام بل يعاقب بينه وبين الفطر وهذا هو الصحيح من قولي العلماء، وهو مذهب أحمد وغيره. وقيل لعمر: إن فلاناً يصوم الدهر، فجعل يقرع رأسه بقناة معه ويقول: كل يا دهر، كل يا دهر. خرجه عبدالرزّاق[٤].

وقد أشار ﷺ إلى الحكمة في ذلك من وجوه: منها: قوله ﷺ في صيام الدهر: «لا صام ولا أفطر»[٥] يعني: أنه لا يجد مشقة الصيام ولا فقد الطعام والشراب والشهوة؛ لأنه صار الصيام له عادة مألوفة فربما تضرر بتركه فإذا صام تارة وأفطر أخرى حصل له بالصيام مقصوده بترك هذه الشهوات، وفي نفسه داعية إليها، وذلك أفضل من أن يتركها ونفسه لا تتوق إليها. ومنها قوله ﷺ في حق داود عليه السلام: «كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»[٦] يشير إلى أنه كان لا يضعفه صيامه عن ملاقاة عدوه ومجاهدته في سبيل الله. ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه يوم الفتح وكان في رمضان: «إن هذا يوم قتال فأفطروا»[٧]. وكان عمر إذا بعث سرية قال لهم: لا تصوموا فإن التقوي على الجهاد أفضل من الصوم. فأفضل الصوم أن لا يضعف البدن حتى يعجز عما هو أفضل منه من القيام بحقوق الله أو حقوق

---

(١) البخاري (١٩٦٨).
(٢) ضعيف. رواه ابن أبي شيبة (٦/٣٩٥) مرسلًا.
(٣) البخاري (١٩٧٦) ومسلم (١١٥٩).
(٤) عبدالرزّاق (٤/٢٩٨).
(٥) مسلم (١١٦٢).
(٦) رواه البخاري (١٩٧٧) ومسلم (١١٥٩).
(٧) ضعيف. رواه عبدالرزّاق (٥/٣٠٢) وابن سعد (٢/١٤٠) مرسلًا.

عباده اللازمة، فإن أضعف عن شيء من ذلك مما هو أفضل منه كان تركه أفضل. فالأول: مثل أن يضعف الصيام البدن[١] عن الصلاة أو عن الذكر أو عن العلم كما قيل في النهي عن صيام يوم الجمعة ويوم عرفة بعرفة أنه يضعف عن الذكر والدعاء في هذين اليومين. وكان ابن مسعود يقل الصيام ويقول: إنه يمنعني من تلاوة القرآن، وقراءة القرآن أحب إليَّ. فقراءة القرآن أفضل من الصيام، نص عليه سفيان الثوري وغيره من الأئمة، وكذلك تعلم العلم النافع وتعليمه أفضل من الصيام، وقد نص الأئمة الأربعة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، والصلاة أفضل من الصيام المتطوع به، فيكون العلم أفضل من الصيام بطريق الأولى؛ فإن العلم مصباح يستضاء به في ظلمة الجهل والهوى، فمن سار في طريق على غير مصباح لم يأمن أن يقع في بئر بوار فيعطب. قال ابن سيرين: إن أقواماً تركوا العلم واتخذوا محاريب فصاموا وصلوا بغير علم، والله ما عمل أحد بغير علم إلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح. والثاني: مثل أن يضعف الصيام عن الكسب للعيال أو القيام بحقوق الزوجات فيكون تركه أفضل، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إن لأهلك عليك حقاً». ومنها: ما أشار إليه ﷺ بقوله: «إن لنفسك عليك حقاً؛ فأعط كل ذي حق حقه» يشير إلى أن النفس وديعة لله عند ابن آدم وهو مأمور أن يقوم بحقها. ومن حقها اللطف بها حتى توصل صاحبها إلى المنزل. قال الحسن: نفوسكم مطاياكم إلى ربكم، فأصلحوا مطاياكم توصلكم إلى ربكم. فمن وفّى نفسه حظها من المباح بنية التقوي به على تقويتها على أعمال الطاعات كان مأجوراً في ذلك. كما قال معاذ بن جبل: إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. ومن قصر في حقها حتى ضعفت وتضررت كان ظالماً، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله لعبدالله بن عمرو بن العاص: «إنك إذا فعلت ذلك نفهت له النفس، وهجمت له العين»[٢] ومعنى نفهت: كلت وأعيت، ومعنى هجمت العين: غارت. وقال لأعرابي جاءه فأسلم، ثم أتاه من عام قابل وقد تغير فلم

(١) لفظة: «البدن» وردت في بعض النسخ دون بعض كما في الأصل.

(٢) رواه البخاري (١٩٧٩) ومسلم (١١٥٩).

يعرفه، فلما عرفه سأله عن حاله؟ قال: ما أكلت بعدك طعاماً بنهار. فقال ﷺ: «ومن أمرك أن تعذب نفسك؟!»[١]. فمن عذب نفسه بأن حملها ما لا تطيقه من الصيام ونحوه فربما أثر ذلك في ضعف بدنه وعقله فيفوته من الطاعات الفاضلة أكثر مما يحصل له بتعذيبه نفسه بالصيام. وكان النبي ﷺ يتوسط في إعطاء نفسه حقها ويعدل فيها غاية العدل فيصوم ويفطر، ويقوم وينام وينكح النساء، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلوى والعسل ولحم الدجاج، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر وقال: «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا؛ يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك، وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[٢]. فاختار ﷺ لنفسه أفضل الأحوال ليجمع بين مقامي الشكر والصبر والرضا.

ومنها ما أشار إليه بقوله ﷺ لعبدالله بن عمرو: «لعله أن يطول بك حياة»[٣] يعني: أن من تكلف الاجتهاد[٤] في العبادة فقد تحمله قوة الشباب ما دامت باقية، فإذا ذهب الشباب وجاء المشيب والكبر عجز عن حمل ذلك، فإن صابر وجاهد واستمر فربما هلك بدنه، وإن قطع فقد فاته أحب العمل إلى الله تعالى وهو المداومة على العمل. ولهذا قال النبي ﷺ: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا»[٥]. وقال: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل»[٦] فمن عمل عملًا يقوى عليه بدنه في طول عمره في قوته وضعفه استقام سيره، ومن حمل ما لا يطيق فإنه قد يحدث له مرض يمنعه من العمل بالكلية وقد يسأم ويضجر فيقطع العمل فيصير كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

---

(١) حسن. رواه البخاري في تاريخه (٢٣٩/٧) والطيالسي في مسنده (٧/١) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٢٦٢٣).

(٢) ضعيف جداً. رواه الترمذي (٢٣٤٧) وضعفه شيخنا في بداية السول (ص٦٣).

(٣) مسلم (١١٥٩).

(٤) في الأصل: «الجهاد».

(٥) رواه البخاري (٤٣ و١٩٧٠) ومسلم (٧٨٥) والنسائي (٧٦٢) واللفظ له.

(٦) رواه البخاري (٥٨٦٢) ومسلم (٧٨٢).

وأما صيام النبي ﷺ من الأيام - يعني: أيام الأسبوع - فكان يتحرى صيام الاثنين والخميس. وكذا روي عن عائشة أن النبي ﷺ كان يتحرى صيام الاثنين والخميس[١]. خرجه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه. وخرج ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يصوم الاثنين والخميس فقيل: يا رسول الله إنك تصوم الاثنين والخميس؟ فقال: «إن يوم الاثنين والخميس يغفر فيهما لكل مسلم إلا مهتجرين، فيقول: دعوهما حتى يصطلحا»[٢]. وخرجه الإمام أحمد، وعنده: أن رسول الله ﷺ كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس فقيل له؟: قال: «إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس، فيغفر لكل مسلم أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول: أخرهما»[٣]. وأخرجه الترمذي ولفظه قال: «تعرض الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس؛ فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»[٤] وروي موقوفاً على أبي هريرة، ورجح بعضهم وقفه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء يقول: انظروا هذين حتى يصطلحا»[٥]. ويروى بإسناد فيه ضعف عن أبي أمامة مرفوعاً: «ترفع الأعمال يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر للمستغفرين ويترك أهل الحقد لحقدهم»[٦]. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] قال: يكتب كل ما تكلم به من خير وشر حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت، وذهبت وجئت، ورأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقي سائره، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا

---

(١) صحيح. وقد سبق تخريجه.
(٢) صحيح لغيره. وقد سبق تخريجه.
(٣) أحمد (٨١٦١) وصححه شيخنا في صحيح الجامع (٤٨٠٤).
(٤) صحيح. وقد سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) ضعيف جداً. وقد سبق تخريجه.

يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] خرجه ابن أبي حاتم وغيره. فهذا يدل على اختصاص يوم الخميس بعرض الأعمال لا يوجد في غيره. وكان إبراهيم النخعي يبكي إلى امرأته يوم الخميس وتبكي إليه ويقول: اليوم تعرض أعمالنا على الله ﷻ. فهذا عرض خاص في هذين اليومين غير العرض العام كل يوم؛ فإن ذلك عرض دائم بكرة وعشياً، ويدل على ذلك ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيسأل الذين باتوا فيكم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»[(١)]. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(٢)]. ويروى عن ابن مسعود قال: إن مقدار كل يوم من أيامكم عند ربكم ثنتا عشرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول النهار اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات، وذكر باقيه. كان الضحاك يبكي آخر النهار ويقول: لا أدري ما رفع من عملي. يا من عمله معروض[(٣)] على من يعلم السر وأخفى لا تبهرج فالناقد بصير.

السقم على الجسم له ترداد  والعمر مضى وزلتي تزداد
ما أبعد شقتي ومالي زاد  ما أكثر بهرجي ولي نقاد

وحديث أسامة فيه أن النبي ﷺ كان إذا سرد الفطر يصوم الاثنين والخميس فدل على مواظبة النبي ﷺ على صيامهما وقد كان أسامة يصومهما حضراً وسفراً لهذا. وفي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي عن عبدالله بن

---

(١) البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).
(٢) مسلم (١٧٩).
(٣) في نسخة: «ليس يخفى» كما في الأصل.

عمرو أن النبي ﷺ أمره أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر فقال: إني أقوى على أكثر من ذلك قال: «فصم من الجمعة يوم الاثنين والخميس» قال: إني أقوى على أكثر من ذلك، قال: «فصم صيام داود»(١). وفي مسند الإمام أحمد من رواية عثمان بن رشيد حدثني أنس بن سيرين قال: أتينا أنس بن مالك في يوم خميس فدعا بمائدته فدعاهم إلى الغداء فأكل بعض القوم وأمسك بعض، ثم أتوه يوم الخميس ففعل مثلها، فقال أنس: لعلكم اثنائيون لعلكم خميسيون؟ كان رسول الله ﷺ يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم(٢).

وظاهر هذا الحديث يخالف حديث أسامة، وأن النبي ﷺ إنما كان يصوم الاثنين والخميس إذا دخلا في صيامه ولم يكن يتحرى صيامهما في أيام سرد فطره، ولكن عثمان بن رشيد ضعيف ضعفه ابن معين وغيره، وحديث أسامة أصح منه، وقد روي من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام أول خميس والاثنين والاثنين(٣)، وفي رواية بالعكس الاثنين والخميس والخميس(٤).

وأكثر العلماء على استحباب صيام الاثنين والخميس، وروي كراهته عن أنس بن مالك من غير وجه عنه، وكان مجاهد يفعله ثم يتركه وكرهه، وكره أبو جعفر محمد بن علي صيام الاثنين، وكرهت طائفة صيام يوم معين كلما مَرَّ بالإنسان. روي عن عمران بن حصين وابن عباس والشعبي والنخعي، ونقله ابن القاسم عن مالك، وقال الشافعي في القديم: أكره ذلك، قال: وإنما أكرهه لئلا يتأسى جاهل؛ فيظن أن ذلك واجب، قال: وإن فعل فحسن ـ يعني: على غير اعتقاد الوجوب ـ.

وأما صيام النبي ﷺ من أشهر السنة فكان يصوم من شعبان ما لا يصوم

---

(١) صحيح لغيره. أحمد (٦٨٧٦) والنسائي (٢٣٩٣) وصححه شيخنا لشواهده.
(٢) ضعيف. أحمد (١٢٩٩٠) وإسناده ضعيف.
(٣) ضعيف. رواه النسائي (٢٤١٩) قال شيخنا في ضعيف سنن النسائي: «شاذ».
(٤) صحيح. رواه النسائي (٢٤١٥) وصححه شيخنا في صحيح سنن النسائي.

من غيره من الشهور. ففي الصحيحين عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر صياماً منه في شعبان[١]. زاد البخاري في رواية: كان يصوم شعبان كله[٢]. ولمسلم في رواية: كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلًا[٣]. وفي رواية النسائي عن عائشة قالت: كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصوم شعبان، كان يصله برمضان[٤]. وعنها وعن أم سلمة قالتا: كان رسول الله ﷺ يصوم شعبان إلا قليلًا بل كان يصومه كله[٥]. وعن أم سلمة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يصوم شهرين متتابعين إلا شعبان ورمضان[٦].

وقد رجح طائفة من العلماء منهم ابن المبارك وغيره: أن النبي ﷺ لم يستكمل صيام شعبان، وإنما كان يصوم أكثره. ويشهد له ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: ما علمته ـ يعني: النبي ﷺ ـ صام شهراً كله إلا رمضان[٧]. وفي رواية له أيضاً عنها قالت: ما رأيته صام شهراً كاملًا منذ قدم المدينة إلا أن يكون رمضان[٨]. وفي رواية له أيضاً: أنها قالت: ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صام شهراً كاملًا غير رمضان[٩]. وفي رواية له أيضاً قالت: ما رأيته قام ليلة حتى الصباح، ولا صام شهراً متتابعاً إلا رمضان[١٠].

---

(١) وقد سبق تخريجه.
(٢) البخاري (١٩٧٠).
(٣) مسلم (١١٥٦).
(٤) صحيح. النسائي (٢٣٥٠) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٢٤).
(٥) صحيح. رواه النسائي (٢١٧٨) والترمذي (٧٣٦) وصححه شيخنا في مختصر الشمائل (٢٥٦).
(٦) صحيح. رواه النسائي (٢٣٥٢) والترمذي (٧٣٦) وصححه شيخنا في مختصر الشمائل (٢٥٥).
(٧) مسلم (١١٥٦).
(٨) مسلم (١١٥٦).
(٩) مسلم (٧٤٦).
(١٠) مسلم (٧٤٦).

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: ما صام رسول الله ﷺ شهراً كاملًا غير رمضان[١]. وكان ابن عباس يكره أن يصوم شهراً كاملًا غير رمضان. وروى عبدالرزّاق في كتابه عن ابن جريج عن عطاء قال: كان ابن عباس ينهى عن صيام الشهر كاملًا ويقول: ليصمه إلا أياماً، وكان ينهى عن إفراد اليوم كلما مر به، وعن صيام الأيام المعلومة، وكان يقول: لا تصم أياماً معلومة. فإن قيل: كيف كان النبي ﷺ يخص شعبان بصيام التطوع فيه مع أنه قال: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم»[٢]؟ فالجواب: أن جماعة من الناس أجابوا عن ذلك بأجوبة غير قوية لاعتقادهم أن صيام المحرم والأشهر الحرم أفضل من صيام شعبان كما صرح به الشافعية وغيرهم، والأظهر خلاف ذلك، وأن صيام شعبان أفضل من صيام الأشهر الحرم، ويدل على ذلك ما خرجه الترمذي من حديث أنس: سئل النبي ﷺ: أي الصيام أفضل بعد رمضان؟ قال: «شعبان، تعظيماً لرمضان»[٣] وفي إسناده مقال. وفي سنن ابن ماجه أن أسامة كان يصوم الأشهر الحرم، فقال له رسول الله ﷺ: «صم شوالًا» فترك الأشهر الحرم، فكان يصوم شوالَ حتى مات[٤]. وفي إسناده إرسال. وقد روي من وجه آخر يعضده. فهذا نص في تفضيل صيام شوال على صيام الأشهر الحرم، وإنما كان كذلك؛ لأنه يلي رمضان من بعده كما أن شعبان يليه من قبله، وشعبان أفضل الصيام[٥] لصيام رسول الله ﷺ له دون شوال فإذا كان صيام شوال أفضل من الأشهر الحرم، فلأن يكون صوم شعبان أفضل بطريق الأولى، فظهر بهذا أن أفضل التطوع ما كان قريباً من رمضان قبله وبعده، وذلك يلتحق بصيام رمضان لقربه منه، وتكون منزلته من الصيام بمنزلة السنن الرواتب مع الفرائض قبلها وبعدها، فيلتحق بالفرائض في الفضل وهي تكملة

---

(١) البخاري (١٩٧١) ومسلم (١١٥٧).
(٢) صحيح. وقد سبق تخريجه.
(٣) ضعيف. الترمذي (٦٦٣) وضعفه شيخنا في ضعيف سنن الترمذي.
(٤) ضعيف. وقد سبق تخريجه.
(٥) وضع الناسخ فوق لفظة: «الصيام» (خ) إشارة إلى أنها في نسخ دون نسخ.

لنقص الفرائض، وكذلك صيام ما قبل رمضان وبعده. وكما أن السنن الرواتب أفضل من التطوع المطلق بالصلاة فكذلك يكون صيام ما قبل رمضان وما بعده أفضل من صيام ما بَعُدَ منه. ويكون قوله: «أفضل الصيام بعد رمضان المحرم» محمولًا على التطوع المطلق بالصيام، فأما ما قبل رمضان وبعده فإنه ملتحق به في الفضل كما أن قوله في تمام الحديث: «وأفضل الصلاة بعد المكتوبة: قيام الليل» إنما أريد به تفضيل قيام الليل على التطوع المطلق دون السنن الرواتب عند جمهور العلماء خلافاً لبعض الشافعية والله أعلم. فإن قيل: فقد قال ﷺ: «أفضل الصيام صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»[1] ولم يصم كذلك، بل كان يصوم سرداً، ويفطر سرداً، ويصوم شعبان، وكل اثنين وخميس؟ قيل: صيام داود الذي فضله على الصيام فقد فسره ﷺ في حديث آخر بأنه صوم شطر الدهر وكان صيام النبي ﷺ إذا جمع يبلغ نصف الدهر أو يزيد عليه، وكان يصوم مع ما سبق ذكره يوم عاشوراء، أو[2] تسع ذي الحجة وإنما كان يفرق صيامه ولا يصوم يوماً ويفطر يوماً؛ لأنه كان ﷺ يتحرى صيام الأوقات الفاضلة. ولا يضر تفريق الصيام والفطر أكثر من يوم ويوم، إذا كان القصد به التقوي على ما هو أفضل من الصيام من أداء الرسالة وتبليغها والجهاد عليها والقيام بحقوقها وكان صيام يوم وفطر يوم يضعفه عن ذلك، ولهذا لما سئل النبي ﷺ في حديث أبي قتادة عمن يصوم يوماً ويفطر يومين؟ قال: «وددت أني طوقت ذلك»[3]. وقد كان عبدالله بن عمرو بن العاص لما كبر يسرد الفطر أحياناً ليتقوى به على الصيام، ثم يعود فيصوم ما فاته محافظة على ما فارق عليه النبي ﷺ من صيام شطر الدهر، فحصل للنبي ﷺ أجر صيام شطر الدهر وأزيد منه بصيامه المتفرق، وحصل له ﷺ أجر تتابع الصيام بتمنيه لذلك، وإنما عاقه عنه الاشتغال بما هو أهم منه وأفضل، والله أعلم. وقد ظهر بما ذكرناه وجه صيام النبي ﷺ لشعبان دون غيره من الشهور، وفيه معان أخر.

---

(١) رواه البخاري (١١٣١) ومسلم (١١٥٩).
(٢) في الأصل: «وتسع».
(٣) رواه مسلم (١١٦٢).

وقد ذكر منها ﷺ في حديث أسامة معنيين: أحدهما: أنه شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان؛ يشير ﷺ أنه لما اكتنفه شهران عظيمان الشهر الحرام وشهر الصيام اشتغل الناس بهما عنه فصار مغفولاً عنه، وكثير من الناس يظن أن صيام رجب أفضل من صيامه؛ لأنه شهر حرام وليس كذلك. وروى ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أزهر بن سعد عن أبيه عن عائشة قالت: ذكر لرسول الله ناس يصومون رجباً؟ فقال: «وأين هم عن شعبان؟»[1]. وفي قوله ﷺ: «يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان» إشارة إلى أن بعض ما يشتهر فضله من الأزمان أو الأماكن أو الأشخاص قد يكون غيره أفضل منه إما مطلقاً أو لخصوصية فيه لا يتفطن لها أكثر الناس، فيشتغلون بالمشهور عنه، ويفوتون تحصيل فضيلة ما ليس بمشهور عندهم. وفيه دليل على استحباب عمارة أزمان غفلة الناس بالطاعة، وأن ذلك محبوب لله ﷻ كما كان طائفة من السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة ويقولون: هي ساعة غفلة. وكذلك فضل القيام في وسط الليل؛ لشمول الغفلة لأكثر الناس فيه عن الذكر. وقد قال ﷺ: «إن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[2] ولهذا المعنى كان النبي ﷺ يريد أن يؤخر العشاء إلى نصف الليل وإنما علل ترك ذلك بخشية المشقة على الناس، ولما خرج ﷺ على أصحابه وهم ينتظرونه لصلاة العشاء قال: «ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم»[3]. وفي هذا إشارة إلى فضيلة التفرد بذكر الله في وقت من الأوقات لا يوجد فيه ذاكر له، ولهذا ورد في فضل الذكر في الأسواق ما ورد من الحديث المرفوع[4] والآثار الموقوفة حتى قال أبو صالح: إن الله ليضحك ممن يذكره في السوق. وسبب ذلك أنه ذكر في موطن الغفلة بين أهل الغفلة. وفي حديث أبي ذر المرفوع:

---

(١) ضعيف. وقد سبق تخريجه.
(٢) صحيح. وقد سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري (٥٦٦) ومسلم (٦٣٨).
(٤) حديث السوق رواه الترمذي وغيره واختلفت فيه أنظار المحدثين قديماً وحديثاً والذي قرره شيخنا أن الحديث حسن بمجموع طرقه انظر الكلم الطيب (ص١٧٠).

«ثلاثة يحبهم الله: قوم ساروا بليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فوضعوا رؤوسهم فقام أحدهم فتملقني ويتلو آياتي، وقوم كانوا في سرية فانهزموا فتقدم أحدهم فلقي العدو فصبر حتى قتل» وذكر أيضاً: قوماً جاءهم سائل فسألهم فلم يعطوه، فانفرد أحدهم حتى أعطاه سراً[١]. فهؤلاء الثلاثة انفردوا عن رفقتهم بمعاملة الله ﷻ سراً بينهم وبينه فأحبهم الله، فكذلك من يذكر الله في غفلة الناس، أو من يصوم في أيام غفلة الناس عن الصيام. وفي إحياء الوقت المغفول عنه بالطاعة فوائد: منها: أنه يكون أخفى، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل ولا سيما الصيام فإنه سر بين العبد وربه، ولهذا قيل: إنه ليس فيه رياء. وقد صام بعض السلف أربعين سنة لا يعلم به أحد، كان يخرج من بيته إلى السوق ومعه رغيفان فيتصدق بهما ويصوم فيظن أهله أنه أكلهما، ويظن أهل السوق أنه أكل في بيته. وكانوا يستحبون لمن صام أن يظهر ما يخفي به صيامه، فعن ابن مسعود قال: إذا أصبحتم صياماً فأصبحوا مُدَّهنين. وقال قتادة: يستحب للصائم أن يدهن حتى تذهب عنه غبرة الصائم. وقال أبو التياح: أدركت أبي ومشيخة الحي إذا صام أحدهم ادهن، ولبس أحسن ثيابه. ويروى أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن لحيته وليمسح شفتيه من دهنه حتى ينظر الناظر إليه فيرى أنه ليس بصائم. اشتهر بعض الصالحين بكثرة الصيام فكان يجتهد في إظهار فطره للناس حتى يقوم يوم الجمعة والناس مجتمعون في مسجد الجامع فيأخذ إبريقاً ويضع بلبلته في فيه ويمصه ولا يزدرد منه شيئاً ويبقى ساعة كذلك ينظر الناس إليه فيظنون أنه يشرب الماء وما يدخل إلى حلقه منه شيء. كم يستر الصادقون أحوالهم وريح الصدق تنم عليهم. ريح الصيام أطيب من ريح المسك تستنشقه قلوب المؤمنين وإن أخفي، وكلما طالت عليه المدة ازدادت قوة ريحه.

كم أكتم حبكم عن الأغيار ... والدمع يذيع في الهوى أسراري
كم أستركم هتكتموا أستاري ... من يخفي في الهوى لهيب النار

---

(١) ضعيف ولبعض شواهد. سبق تخريجه.

ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه رداءها علانية.

وهبني كتمت السر أو قلت غيره أتخفى على أهل القلوب السرائر
أبى ذاك أن السر في الوجه ناطق وأن ضمير القلب في العين ظاهر

**ومنها**: أنه أشق على النفوس؛ وأفضل الأعمال أشقها على النفوس، وسبب ذلك أن النفوس تتأسى بما يشاهد من أحوال أبناء الجنس فإذا كثرت يقظة الناس وطاعتهم كثر أهل الطاعة لكثرة المقتدين بهم فسهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس، فيشق على نفوس المستيقظين طاعاتهم لقلة من يقتدون بهم فيها، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «للعامل منهم أجر خمسين منكم، إنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون»[١] وقال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[٢] وفي رواية قيل: ومن الغرباء؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»[٣]. وفي صحيح مسلم من حديث معقل بن يسار عن النبي ﷺ: «العبادة في الهرج كالهجرة إلي»[٤] وخرجه الإمام أحمد ولفظه: «العبادة في الفتنة كالهجرة إلي»[٥] وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهواءهم ولا يرجعون إلى دين فيكون حالهم شبيهاً بحال الجاهلية فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربه ويتبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمناً به متبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، ومنها أن المنفرد بالطاعة بين أهل المعاصي والغفلة قد يدفع البلاء عن الناس فكأنه يحميهم ويدافع عنهم. وفي حديث ابن عمر الذي رويناه في جزء ابن عرفة مرفوعاً: «ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل عن الفارين،

---

(١) لم أقف عليه بهذا التمام لكن شطره الأول رواه أبو داود (٤٣٤١) وحسنه شيخنا لشواهده في الصحيحة (٤٩٤).
(٢) رواه مسلم (١٤٥).
(٣) صحيح. رواه الآجري في صفة الغرباء (١) والداني في الفتن (٢٨٨) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٢٧٣).
(٤) مسلم (٢٩٤٨).
(٥) صحيح. أحمد (١٩٨٠٠).

وذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الشجر الذي تحاتّ ورقه من الصريد ـ والصريد: البرد الشديد ـ، وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل رطب ويابس، وذاكر الله في الغافلين يعرف مقعده في الجنة»[١]. قال بعض السلف: وذاكر الله في الغافلين كمثل الذي يحمي الفئة المنهزمة، ولولا من يذكر الله في غفلة الناس لهلك الناس، رأى جماعة من المتقدمين في منامهم كأن ملائكة نزلت إلى بلاد شتى، فقال بعضهم لبعض: اخسفوا بهذه القرية فقال بعضهم: كيف نخسف بها وفلان قائم يصلي. ورأى بعض المتقدمين في منامه من ينشد:

لولا الذين لهم ورد يصلونا ... وآخرون لهم سرد يصومونا
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحراً ... لأنكم قوم سوء ما تطيعونا

وفي مسند البزار عن أبي هريرة مرفوعاً: «مهلًا عن الله مهلًا، فلولا عباد ركع، وأطفال رضع، وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً»[٢]. ولبعضهم في المعنى:

لولا عباد للإله ركع ... وصبية من اليتامى رضع
ومهملات في الفلاة رتع ... صب عليكم العذاب الموجع

وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١]: أنه يدخل فيها دفعه عن العصاة بأهل الطاعة. وجاء في الآثار: أن الله يدفع بالرجل الصالح عن أهله وولده وذريته ومن حوله. وفي بعض الآثار يقول الله ﷻ: أحب العباد إلي المتحابون بجلالي، المشاؤون في الأرض بالنصيحة، الماشون على أقدامهم إلى الجمعات. وفي رواية: المعلقة قلوبهم بالمساجد، والمستغفرون بالأسحار، فإذا أردت إنزال عذاب بأهل الأرض فنظرت إليهم صرفت العذاب عن الناس. وقال مكحول: ما دام في الناس خمسة عشر يستغفر

---

(١) ضعيف جداً. والحديث خرجه شيخنا في الضعيفة (٦٧١).

(٢) ضعيف. البزار (٢١٩٣/مختصر) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٣٦٢).

كل منهم كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يهلكوا بعذاب عامة. والآثار في هذا المعنى كثيرة جداً.

وقد روي في صيام النبي ﷺ شعبان معنى آخر وهو أنه تنسخ فيه الآجال، فروي بإسناد فيه ضعف عن عائشة قالت: كان أكثر صيام رسول الله ﷺ في شعبان، فقلت: يا رسول الله أرى أكثر صيامك في شعبان؟ قال: «إن هذا الشهر يكتب فيه لملك الموت من يقبض، فأنا لا أحب أن ينسخ اسمي إلا وأنا صائم»[١]. وقد روي مرسلًا، وقيل: إنه أصح. وفي حديث آخر مرسل: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له، ولقد خرج اسمه في الموتى»[٢]. وروي في ذلك معنى آخر وهو أن النبي ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وربما أخر ذلك حتى يصوم شعبان رواه ابن أبي ليلى عن أخيه عيسى عن أبيهما عن عائشة[٣]. خرجه الطبراني، ورواه غيره وزاد: قالت عائشة: فربما أردت أن أصوم فلم أطق حتى إذا صام صمت معه. وقد يشكل على هذا ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر لا يبالي من أيه كان[٤]. وفيه أيضاً عنها قالت: ما علمته ـ تعني: النبي ﷺ ـ صام شهراً كاملًا إلا رمضان، ولا أفطره كله حتى يصوم منه، حتى مضى لسبيله[٥]. وقد يجمع بينهما بأنه قد يكون صومه في بعض الشهور لا يبلغ ثلاثة أيام فيكمل ما فاته من ذلك في شعبان، أو أنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام مع الاثنين والخميس فيؤخر الثلاثة خاصة حتى يقضيها في شعبان مع صومه الاثنين والخميس. وبكل حال كان النبي ﷺ عمله ديمة، وكان إذا فاته شيء من نوافله قضاه، كما كان يقضي ما فاته من

---

(١) موضوع. رواه الخطيب في تاريخه (٣١٤/١١) وقال أبو حاتم وأبو زرعة عن هذا الحديث: «منكر» كما في العلل (٢٥٠/١و٢٦٤).

(٢) ضعيف. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٦/٣) والديلمي في مسند الفردوس (٧٣/٢).

(٣) ضعيف. الطبراني في الأوسط (٣٢٠/٢) وإسناده ضعيف.

(٤) مسلم (١١٦٠).

(٥) مسلم (١١٥٦).

سنن الصلاة وما فاته من قيام الليل قضاه بالنهار، وكان إذا دخل عليه شعبان وعليه بقية من صيام تطوع لم يصمه؛ قضاه في شعبان حتى يستكمل نوافله بالصوم قبل دخول رمضان. فكانت عائشة حينئذٍ تغتنم قضاءه لنوافله فتقضي ما عليها من فرض رمضان حينئذٍ لفطرها فيه بالحيض وكانت في غيره من الشهور مشتغلة بالنبي ﷺ، فإن المرأة لا تصوم وبعلها شاهد إلا بإذنه فمن دخل عليه شعبان وقد بقي عليه من نوافل صيامه في العام استحب له قضاؤها فيه حتى يكمل نوافل صيامه بين الرمضانين، ومن كان عليه شيء من قضاء رمضان وجب عليه قضاؤه مع القدرة، ولا يجوز له تأخيره إلى ما بعد رمضان آخر لغير ضرورة، فإن فعل ذلك وكان تأخيره لعذر مستمر بين الرمضانين كان عليه قضاؤه بعد رمضان الثاني ولا شيء عليه مع القضاء. وإن كان ذلك لغير عذر فقيل: يقضي ويطعم مع القضاء لكل يوم مسكيناً، وهو قول مالك والشافعي وأحمد اتباعاً لآثار وردت بذلك. وقيل: يقضي ولا إطعام عليه وهو قول أبي حنيفة. وقيل: يطعم ولا يقضي وهو ضعيف. وقد قيل: في صوم شعبان معنى آخر وهو: أن صيامه كالتمرين على صيام رمضان لئلا يدخل في صوم رمضان على مشقة وكلفة، بل قد تمرن على الصيام واعتاده، ووجد بصيام شعبان قبله حلاوة الصيام ولذته فيدخل في صيام رمضان بقوة ونشاط، ولما كان شعبان كالمقدمة لرمضان شرع فيه ما يشرع في رمضان من الصيام وقراءة القرآن ليحصل التأهب للقي رمضان وترتاض النفوس بذلك على طاعة الرحمن. روينا بإسناد ضعيف عن أنس قال: كان المسلمون إذا دخل شعبان أكبوا على المصاحف يقرؤونها، وأخرجوا زكاة أموالهم تقوية للضعيف والمسكين على صيام رمضان[1]. وقال سلمة بن كهيل: كان يقال: شهر شعبان شهر القرآن. وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: هذا شهر القراء. وكان عمرو بن قيس الملائي إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرغ لقراءة القرآن. قال الحسن بن سهل: قال شعبان: يا رب جعلتني بين شهرين عظيمين فما لي؟ قال:

(١) ضعيف. رواه الفلكي كما في فتح الباري (٣١٠/١٣) للحافظ ابن حجر وضعف إسناده.

جعلت فيك قراءة القرآن. يا من فرط في الأوقات الشريفة وضيعها وأودعها الأعمال السيئة وبئس ما استودعها.

مضى رجب وما أحسنت فيه ... وهذا شهر شعبان المبارك
فيا من ضيع الأوقات جهلاً ... بحرمتها أفق واحذر بوارك
فسوف تفارق اللذات قهراً ... ويخلي الموت كرهاً منك دارك
تدارك ما استطعت من الخطايا ... بتوبة مخلص واجعل مدارك
على طلب السلامة من جحيم ... فخير ذوي الجرائم من تدارك

* * *

## المجلس الثاني
## في ذكر نصف شعبان

خرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم من حديث العلاء بن عبدالرحمٰن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا انتصف شعبان؛ فلا تصوموا حتى رمضان»[١] وصححه الترمذي وغيره.

واختلف العلماء في صحة هذا الحديث ثم في العمل به؛ فأما تصحيحه فصححه غير واحد منهم: الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والطحاوي، وابن عبدالبر. وتكلم فيه من هو أكبر من هؤلاء وأعلم، وقالوا: هو حديث منكر منهم: عبدالرحمٰن بن مهدي، والإمام أحمد، وأبو زرعة الرازي، والأثرم، وقال أحمد: لم يرو العلاء حديثاً أنكر منه. ورده بحديث: «لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين»[٢] فإن مفهومه جواز التقدم بأكثر من يومين. وقال الأثرم: الأحاديث كلها تخالفه. يشير إلى

---

(١) صحيح. أحمد (٩٤١٤) وأبو داود (٢٣٣٧) والنسائي في الكبرى (٢/١٧٢) والترمذي (٧٣٨) وابن ماجه (١٦٥١) وابن حبان (٣٥٨٩) وصححه شيخنا في صحيح أبي داود (٢٠٢٥/الأم).

(٢) رواه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).

أحاديث صيام النبي ﷺ شعبان كله ووصله برمضان، ونهيه عن التقدم على رمضان بيومين؛ فصار الحديث حينئذٍ شاذاً مخالفاً للأحاديث الصحيحة. وقال الطحاوي: هو منسوخ، وحكى الإجماع على ترك العمل به. وأكثر العلماء على أنه لا يعمل به. وقد أخذ به آخرون منهم الشافعي وأصحابه ونهوا عن ابتداء التطوع بالصيام بعد نصف شعبان لمن ليس له عادة، ووافقهم بعض المتأخرين من أصحابنا، ثم اختلفوا في علة النهي؛ فمنهم من قال: خشية أن يزاد في صيام رمضان ما ليس منه، وهذا بعيد جداً فيما بعد النصف، وإنما يحتمل هذا في التقدم بيوم أو يومين، ومنهم من قال: النهي للتقوي على صيام رمضان شفقة أن يضعفه ذلك عن صيام رمضان. وروي ذلك عن وكيع، ويرد هذا صيام النبي ﷺ شعبان كله أو أكثره ووصله برمضان، هذا كله في الصيام بعد نصف شعبان. وأما صيام يوم النصف منه فغير منهي عنه، فإنه من جملة أيام البيض الغر المندوب إلى صيامها من كل شهر، وقد ورد الأمر بصيامه من شعبان بخصوصه، ففي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن علي عن النبي ﷺ: «إذا كان ليلة نصف شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها؛ فإن الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلًى فأعافيه، ألا كذا، ألا كذا، حتى يطلع الفجر»[١]. وفي فضل ليلة نصف شعبان أحاديث أخر متعددة. وقد اختلف فيها فضعفها الأكثرون، وصحح ابن حبان بعضها وخرجه في صحيحه.

ومن أمثلها حديث عائشة قالت: فقدت النبي ﷺ فخرجت فإذا هو بالبقيع، رافعاً رأسه إلى السماء فقال: «أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟» فقلت: يا رسول الله ظننت أنك أتيت بعض نسائك. فقال: «إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب»[٢] خرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وذكر

---

(١) موضوع. ابن ماجه (١٣٨٨) والحديث حكم عليه شيخنا بالوضع في الضعيفة (٢١٣٢).

(٢) ضعيف. أحمد (٢٥٤٨٧)والترمذي (٧٣٩) وابن ماجه (١٣٨٩) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٢٩٩).

الترمذي عن البخاري أنه ضعفه. وخرج ابن ماجه من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن»(١). وخرج الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن أو قاتل نفس»(٢) وخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث معاذ مرفوعاً(٣). ويروى من حديث عثمان بن أبي العاص مرفوعاً: «إذا كان ليلة النصف من شعبان نادى مناد: هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأعطيه، فلا يسأل أحد شيئاً إلا أعطيه إلا زانية بفرجها، أو مشركاً»(٤).

وفي الباب أحاديث أخر فيها ضعف.

ويروى عن نوف البكالي أن علياً خرج ليلة النصف من شعبان فأكثر الخروج فيها ينظر إلى السماء فقال: إن داود عليه السلام خرج ذات ليلة في مثل هذه الساعة فنظر إلى السماء فقال: إن هذه الساعة ما دعا اللهَ أحدٌ إلا أجابه، ولا استغفره أحد في هذه الليلة إلا غفر له، ما لم يكن عشاراً أو ساحراً، أو شاعراً أو كاهناً، أو عريفاً أو شرطياً، أو جابياً أو صاحب كوبة أو عُرْطُبة(٥). قال نوف: الكوبة الطبل، والعرطبة: الطنبور. اللهم رب داود اغفر لمن دعاك في هذه الليلة ولمن استغفرك فيها. وليلة النصف من شعبان كان التابعون من أهل الشام كخالد بن معدان، ومكحول، ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها. وقد قيل: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية، فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان اختلف الناس في ذلك؛ فمنهم من قبله منهم ووافقهم(٦)

---

(١) حسن. ابن ماجه (١٣٩٠) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١١٤٤و١٥٦٣).
(٢) ضعيف. أحمد (٦٦٠٤) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٦٢١).
(٣) ابن حبان (٥٦٦٥).
(٤) ضعيف. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٨٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (٦٥٣).
(٥) موضوع.
(٦) في الأصل: «فمنهم من قبله، ومنهم من وافقهم»

على تعظيمها، منهم طائفة من عباد أهل البصرة وغيرهم، وأنكر ذلك أكثر علماء أهل الحجاز منهم عطاء وابن أبي مليكة ونقله عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة وهو قول أصحاب مالك وغيرهم وقالوا: ذلك كله بدعة. واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين: أحدهما: أنه يستحب إحياؤها جماعة في المساجد. كان خالد بن معدان ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك[1]. ووافقهم إسحاق بن راهويه على ذلك وقال في قيامها في المساجد جماعة: ليس ذلك ببدعة، نقله عنه حرب الكرماني في مسائله. والثاني: أنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها بخاصة نفسه. وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وعالمهم وفقيههم، وهذا هو الأقرب ـ إن شاء الله ـ. وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز أنه كتب إلى عامله بالبصرة: عليك بأربع ليال من السنة؛ فإن الله يفرغ فيهن الرحمة إفراغاً؛ أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة الفطر، وليلة الأضحى. وفي صحته عنه نظر. وقال الشافعي: بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال: ليلة الجمعة، والعيدين، وأول رجب، ونصف شعبان. قال: واستحب كل ما حكيت في هذه الليالي. ولا يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة نصف شعبان. ويخرج في استحباب قيامها عنه روايتان من الروايتين عنه في قيام ليلة العيد؛ فإنه في رواية لم يستحب قيامها جماعة؛ لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه. واستحبها في رواية لفعل عبدالرحمٰن بن يزيد بن الأسود لذلك وهو من التابعين، فكذلك قيام ليلة النصف من شعبان لم يثبت فيها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه وثبت فيها عن طائفة من التابعين من أعيان فقهاء الشام. وروي عن كعب قال: إن الله تعالى يبعث ليلة النصف من شعبان جبريل عليه السلام إلى الجنة، فيأمرها أن تتزين ويقول: إن الله قد أعتق في ليلتك هذه عدد نجوم السماء، وعدد أيام الدنيا ولياليها،

(١) في الأصل: «ذلك».

وعدد ورق الشجر، وزنة الجبال، وعدد الرمال. وروى سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر عن أبي حازم ومحمد بن قيس عن عطاء بن يسار قال: ما من ليلة بعد ليلة القدر أفضل من ليلة نصف شعبان، ينزل الله ﷻ إلى السماء الدنيا، فيغفر لعباده كلهم إلا لمشرك أو مشاحن أو قاطع رحم. فيا من أُعتق فيها من النار هنيئاً لك هذه المنحة الجسيمة. ويا أيها المطرود عنها جبر الله مصيبتك فإنها مصيبة عظيمة.

بكيت على نفسي وحقي أن أبكي ... وما أنا من تضييع عمري في شك
لئن قلت: إني في صنيعي محسن ... فإني في قولي لذلك ذو إفك
ليالي شعبان وليلة نصفه ... بأية حال قد تنزل لي صكي
وحقي لعمري[١] أن أديم تضرعي ... لعل إله الخلق يسمح بالفك

فينبغي للمؤمن أن يتفرغ في تلك الليلة لذكر الله تعالى ودعائه بغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب، وأن يقدم على ذلك التوبة؛ فإن الله يتوب فيها على من يتوب.

فقم ليلة النصف الشريف مصلياً ... فأشرف هذا الشهر ليلة نصفه
فكم من فتًى قد بات في النصف آمناً[٢] ... وقد نسخت فيه صحيفة حتفه
فبادر بفعل الخير قبل انقضائه ... وحاذر هجوم الموت فيه بصرفه
وصم يومها لله واعظم[٣] رجاءه ... لتظفر عند الكرب منه بلطفه

ويتعين على المسلم أن يجتنب الذنوب التي تمنع من المغفرة وقبول الدعاء في تلك الليلة، وقد روي أنها: الشرك، وقتل النفس، والزنا، وهذه الثلاثة أعظم الذنوب عند الله كما في حديث ابن مسعود المتفق على صحته أنه سأل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قال: ثم أي؟

---

(١) في الأصل: «وحق عمري».
(٢) في الأصل: «غافلًا» لكن الناسخ قال في الهامش: «صوابه: آمناً».
(٣) في نسخة: «وأحسن» كما في هامش الأصل.

قال: «أن تزاني حليلة جارك» فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية[1]. ومن الذنوب المانعة من المغفرة أيضاً الشحناء وهي حقد المسلم على أخيه بغضاً له لهوى نفسه وذلك يمنع أيضاً من المغفرة في أكثر أوقات المغفرة والرحمة كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: أنظِروا هذين حتى يصطلحا»[2]. وقد فسر الأوزاعي هذه الشحناء المانعة بالذي في قلبه شحناء لأصحاب النبي ﷺ، ولا ريب أن هذه الشحناء أعظم جرماً من مشاحنة الأقران بعضهم بعضاً.

وعن الأوزاعي أنه قال: المشاحن كل صاحب بدعة فارق عليها الأمة. وكذا قال ابن[3] ثوبان: المشاحن هو التارك لسنة نبيه ﷺ الطاعن على أمته السافك دماءهم. وهذا الشحناء ـ أعني: شحناء البدعة ـ توجب الطعن على جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم كبدع الخوارج والروافض ونحوهم. فأفضل الأعمال سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة وبغضهم والحقد عليهم واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين وإرادة الخير لهم ونصيحتهم وأن يحب لهم ما يحب لنفسه. وقد وصف الله المؤمنين عموماً بأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. وفي المسند عن أنس أن النبي ﷺ قال لأصحابه ثلاثة أيام: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فيطلع رجل واحد، فاستضافه عبدالله بن عمرو، فنام عنده ثلاثاً؛ لينظر عمله، فلم ير له في بيته كثير عمل، فأخبره بالحال فقال له: هو ما

(١) البخاري (٤٧٦١) ومسلم (٨٦).
(٢) وقد سبق تخريجه.
(٣) في الأصل: «أبو».

ترى إلا أني أبيت وليس في قلبي شيء على أحد من المسلمين فقال عبدالله: بهذا بلغ ما بلغ[١]. وفي سنن ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو قال: قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ قال: «مخموم القلب صدوق اللسان» قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل، ولا حسد»[٢]. قال بعض السلف: أفضل الأعمال سلامة الصدور، وسخاوة النفوس، والنصيحة للأمة. وبهذه الخصال بلغ من بلغ لا بكثرة الاجتهاد في الصوم والصلاة.

إخواني اجتنبوا الذنوب التي تحرم العبد مغفرة مولاه الغفار في مواسم الرحمة والتوبة والاستغفار، أما الشرك: فإنه ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما القتل: فلو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم بغير حق لأكبهم الله جميعاً في النار. وأما الزنا: فحذار حذار من التعرض لسخط الجبار، الخلق كلهم عبيده وإماؤه، واللهُ يغار لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته. فمن أجل ذلك حرم الفواحش وأمر بغض الأبصار، وأما الشحناء: فيا من أضمر لأخيه السوء وقصد له الإضرار: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢] فيكفيك حرمان المغفرة.

خاب عبد بارز المو ... لى بأسباب المعاصي
ويحه مما جناه ... لم يخف يوم القصاص
يوم فيه ترعد الأقدام ... من شيب النواصي
لي ذنوب في ازدياد ... وحياة في انتقاص
فمتى أعمل ما ... أعلم لي فيه خلاصي

---

(١) ضعيف. أحمد (١٢٢٨٦) وضعفه شيخنا في آخر قوليه كما في ضعيف الترغيب (١٧٢٨).

(٢) صحيح. ابن ماجه (٤٢١٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (٩٤٨).

وقد روي عن عكرمة وغيره من المفسرين في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدّخَان: ٤] أنها ليلة النصف من شعبان. والجمهور أنها ليلة القدر وهو الصحيح. وقال عطاء بن يسار: إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال: اقبض روح من في هذه الصحيفة، فإن العبد ليغرس الغراس، وينكح الأزواج، ويبني البنيان، وإن اسمه قد نسخ في الموتى ما ينتظر به ملك الموت إلا أن يؤمر به فيقبضه. يا مغروراً بطول الأمل يا مسروراً بسوء العمل كن من الموت على وجل فما تدري متى يهجم الأجل.

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

قال بعض السلف: كم من مستقبِل يوماً لا يستكمله، ومن مؤمل غداً لا يدركه، إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره؛ لأبغضتم الأمل وغروره.

أؤمل أن أخلد والمنايا ... تدور علي من كل النواحي
وما أدري وإن أمسيت يوماً ... لعلي لا أعيش إلى الصباح

كم ممن راح في طلب الدنيا وغدا، أصبح من سكان القبور غدا.

كأنك بالمضي إلى سبيلك ... وقد جَدَّ المجهز في رحيلك
وجيء بغاسل فاستعجلوه ... بقولهم له: افرغ من غسيلك
ولم تحمل سوى كفن وقطن ... إليه من كثيرك أو قليلك
وقد مد الرجال إليك نعشاً ... فأنت عليه ممدود بطولك
وصلوا، ثم إنهم تداعوا ... لحملك في بكورك أو أصيلك
فلما أسلموك نزلت قبراً ... ومن لك بالسلامة من نزولك
أعانك يوم تدخله رحيم ... رؤوف بالعباد على دخولك
فسوف تجاور الموتى طويلاً ... فذرني من قصيرك أو طويلك
أخي ها قد نصحتك فاستمع لي ... وبالله استعنت على قبولك
ألست ترى المنايا كل حين ... تصيبك في أخيك وفي خليلك

## المجلس الثالث
## في صيام آخر شعبان

في الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لرجل: «هل صمت من سرر هذا الشهر شيئاً؟» قال: لا، قال: «فإذا أفطرت فصم يومين»[(١)] وفي رواية للبخاري: ـ أظنه يعني: رمضان ـ[(٢)]. وفي رواية لمسلم وعلقها البخاري: «هل صمت من سرر شعبان شيئاً؟»[(٣)] وفي رواية: «فإذا أفطرت من رمضان فصم يومين مكانه»[(٤)]، وفي رواية: «يوماً أو يومين ـ شك شعبة ـ»[(٥)]، وروي: «من سرار [هذا] الشهر»[(٦)].

وقد اختلف في تفسير السرار؛ والمشهور أنه آخر الشهر، يقال: سِرار الشهر وسراره بكسر السين وفتحها ذكره ابن السكيت وغيره. وقيل: إن الفتح أفصح قاله الفراء. وسمي آخر الشهر سراراً: لاستسرار القمر فيه. وممن فسر السرار بآخر الشهر أبو عبيد وغيره من الأئمة. وكذلك بوب عليه البخاري صيام آخر الشهر، وأشكل هذا على كثير من العلماء فإن في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تقدموا رمضان بيوم أو يومين إلا من كان يصوم صوماً؛ فليصمه»[(٧)]. فقال كثير من العلماء كأبي عبيد ومن تابعه كالخطابي وأكثر شراح الحديث: أن هذا الرجل الذي سأله النبي ﷺ كان يعلم أن له عادة بصيامه أو كان قد نذره فلذلك أمره بقضائه. وقالت طائفة: حديث عمران يدل على أنه يجوز صيام يوم الشك وآخر شعبان مطلقاً سواء وافق عادة أو لم يوافق عادة[(٨)] وإنما ينهى عنه إذا صامه

---

(١) البخاري (١٩٨٣) ومسلم (١١٦١).
(٢) البخاري (١٩٨٣).
(٣) البخاري معلقاً (١٩٨٣) ومسلم (١١٦١).
(٤) البخاري (١٩٨٣) ومسلم (١١٦١) واللفظ له.
(٥) مسلم (١١٦١).
(٦) صحيح. أحمد (١٩٣٨١).
(٧) البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).
(٨) في بعض النسخ دون بعض كما في الأصل.

بنية الرمضانية احتياطاً، وهذا مذهب مالك، وذكر أنه القول الذي أدرك عليه أهل العلم حتى قال محمد بن مسلمة من أصحابه: يكره الأمر بفطره لئلا يعتقد وجوب الفطر قبل الشهر كما وجب بعده. وحكى ابن عبدالبر هذا القول عن أكثر علماء الأمصار. وذكر محمد بن ناصر الحافظ: أن هذا هو مذهب أحمد أيضاً، وغلط في نقله هذا عن أحمد، ولكن يشكل على هذا حديث أبي هريرة وقوله: «إلا من كان يصوم صوماً؛ فليصمه»، وقد ذكر الشافعي في كتابه مختلف الحديث احتمالاً في معنى قوله: «إلا من كان يصوم صوماً؛ فليصمه»، وفي رواية: «إلا أن يوافق ذلك صوماً كان يصومه أحدكم»[1] أن المراد بموافقة العادة صيامه على عادة الناس في التطوع بالصيام دون صيامه بنية الرمضانية للاحتياط. وقالت طائفة: سر الشهر: أوله. وخرج أبو داود في باب تقدم رمضان من حديث معاوية أنه قال: إني متقدم الشهر فمن شاء فليتقدم، فسئل عن ذلك فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «صوموا الشهر وسره»[2]. ثم حكى أبو داود عن الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز: أن سر الشهر: أوله. قال أبو داود: وقال بعضهم: سره وسطه، وفرق الأزهري بين سرار الشهر وسره، فقال: سراره وسرره آخره، وسره وسطه وهي أيام البيض، وسر كل شيء جوفه. وفي رواية لمسلم من حديث عمران بن حصين المذكور: «هل صمت من سرة هذا الشهر؟»[3] وفسر ذلك: بالأيام البيض. قلت: لا يصح أن يفسر سرر الشهر وسراره بأوله؛ لأن أول الشهر يشتهر فيه الهلال ويرى من أول الليل ولذلك سمي الشهر شهراً لاشتهاره وظهوره، فتسمية ليالي الاشتهار ليالي السرار قلب للغة والعرف. وقد أنكر العلماء ما حكاه أبو داود عن الأوزاعي منهم الخطابي.

---

(١) صحيح. رواه النسائي (٢١٧٤) والترمذي (٦٨٤) وصححه شيخنا في الصحيحة (٥٦٥).

(٢) ضعيف بهذا اللفظ. أبو داود (٢٣٢٩) وضعفه شيخنا في ضعيف سنن أبي داود لكن قوله: «صوموا الشهر وسرره» حسن فقد حسنه شيخنا لشواهده كما في صحيح الجامع (٣٨٠٨).

(٣) مسلم (١١٦١).

وروى بإسناده عن الوليد عن الأوزاعي قال: سر الشهر: آخره. وقال الهروي: المعروف أن سر الشهر آخره. وفسر الخطابي حديث معاوية: «صوموا الشهر وسره» بأن المراد بالشهر الهلال فيكون المعنى: صوموا أول الشهر وآخره، فلذلك أمر معاوية بصوم[(١)] آخر الشهر.

قلت: لما روى معاوية: «صوموا الشهر وسره» وصام آخر الشهر؛ علم أنه فسر السر بالآخر. والأظهر أن المراد بالشهر شهر رمضان كله والمراد بسره آخر شعبان كما في رواية البخاري في حديث عمران: «ـ أظنه يعني: رمضان ـ»[(٢)]. وأضاف السر إلى رمضان وإن لم يكن منه، كما سمي رمضان شهر عيد، وإن كان العيد ليس منه لكنه يعقبه، فدل حديث عمران وحديث معاوية على استحباب صيام آخر شعبان؛ وإنما أمر بقضائه في أول شوال؛ لأن كلًّا من الوقتين صيام يلي شهر رمضان فهو ملتحق برمضان في الفضل، فمن فاته ما قبله صامه فيما بعده، كما كان النبي ﷺ يصوم شعبان وندب إلى صيام شوال. وإنما يشكل على هذا حديث أبي هريرة في نهي النبي ﷺ عن تقدم رمضان بيوم أو يومين إلا من له عادة، أو من كان يصوم صوماً. وأكثر العلماء على أنه نهى عن التقدم إلا لمن كانت له عادة بالتطوع فيه وهو ظاهر الحديث، ولم يذكر أكثر العلماء في تفسيره بذلك اختلافاً وهو الذي اختاره الشافعي في تفسيره ولم يرجح ذلك الاحتمال المتقدم. فعلى هذا فيرجح حديث أبي هريرة على حديث عمران؛ فإن حديث أبي هريرة فيه نهي عام للأمة عموماً، فهو تشريع عام للأمة فيعمل به. وأما حديث عمران، فهي قضية عين في حق رجل معين فيتعين حمله على صورة صيام لا ينهى عن التقدم به جمعاً بين الحديثين، وأحسن ما حمل عليه: أن هذا الرجل الذي سأله النبي ﷺ كان قد علم منه ﷺ أنه كان يصوم شعبان أو أكثره موافقة لصيام النبي ﷺ، وكان قد أفطر فيه بعضه فسأله عن صيام آخره، فلما أخبره أنه لم يصم آخره أمره بأن يصوم بدله

(١) في نسخة: «بصيام» كما في الأصل.
(٢) سبق تخريجه.

بعد يوم الفطر؛ لأن صيام أول شوال كصيام آخر شعبان وكلاهما حَريمٌ لرمضان. وفيه دليل على استحباب قضاء ما فات من التطوع بالصيام وأن يكون في أيام مشابهة للأيام التي فات فيها الصيام في الفضل، وفيه دليل على أنه يجوز لمن صام شعبان أو أكثره أن يصله برمضان من غير فصل بينهما. فصيام آخر شعبان له ثلاثة أحوال:

**أحدها**: أن يصوم بنية الرمضانية احتياطاً لرمضان؛ فهذا منهي عنه، وقد فعله بعض الصحابة وكأنهم لم يبلغهم النهي عنه، وفرق ابن عمر بين يوم الغيم والصحو في يوم الثلاثين من شعبان، وتبعه الإمام أحمد.

**والثاني**: أن يصام بنية الندب أو قضاء عن رمضان أو عن كفارة ونحو ذلك فجوزه الجمهور، ونهى عنه من أمر بالفصل بين شعبان ورمضان بفطر يوم مطلقاً وهم طائفة من السلف، وحكي كراهيته أيضاً عن أبي حنيفة والشافعي وفيه نظر.

**والثالث**: أن يصام بنية التطوع المطلق فكرهه من أمر بالفصل بين شعبان ورمضان بالفطر ومنهم الحسن وإن وافق صوماً كان يصومه، ورخص فيه مالك ومن وافقه، وفرق الشافعي والأوزاعي وأحمد وغيرهم بين أن يوافق عادة أو لا، وكذلك يفرق بين من تقدم صيامه بأكثر من يومين ووصله برمضان فلا يكره أيضاً إلا عند من كره الابتداء بالتطوع بالصيام بعد نصف شعبان فإنه ينهى عنه إلا أن يبتدئ الصيام قبل النصف، ثم يصله برمضان. وفي الجملة فحديث أبي هريرة هو المعمول به في هذا الباب عند كثير من العلماء وأنه يكره التقدم قبل رمضان بالتطوع بالصيام بيوم أو يومين لمن ليس له به عادة ولا سبق منه صيام قبل ذلك في شعبان متصلًا بآخره. ولكراهة التقدم ثلاثة معان: أحدها: أنه على وجه الاحتياط لرمضان فينهى عن التقدم قبله لئلا يزاد في صيام رمضان ما ليس منه كما نهي عن صيام يوم العيد لهذا المعنى؛ حذراً مما وقع فيه أهل الكتاب في صيامهم فزادوا فيه بآرائهم وأهوائهم. وخرج الطبراني وغيره عن عائشة قالت: إن ناساً كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون قبل النبي ﷺ؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحُجرَات: ١] قالت عائشة: إنما

الصوم صوم الناس، والفطر فطر الناس[١]. ومع هذا فكان من السلف من يتقدم للاحتياط والحديث حجة عليه؛ ولهذا نهي عن صيام يوم الشك قال عمار: من صامه فقد عصى أبا القاسم ﷺ[٢]. ويوم الشك هو اليوم الذي يشك فيه هل هو من رمضان أو غيره؟ فكان من المتقدمين من يصومه احتياطاً، ورخص فيه بعض الحنفية للعلماء في أنفسهم خاصة دون العامة لئلا يعتقدوا وجوبه بناء على أصلهم في أن صوم رمضان يجزئ بنية الصيام المطلق والنفل، ويوم الشك هو الذي يتحدث برؤيته من لم يقبل قوله. فأما يوم الغيم فمن العلماء من جعله يوم شك، ونهى عن صيامه وهو قول الأكثرين، ومنهم من صامه احتياطاً وهو قول ابن عمر، وكان الإمام أحمد يتابعه على ذلك، وعنه في صيامه ثلاث روايات مشهورات؛ ثالثها: لا يصام إلا مع الإمام وجماعة المسلمين لئلا يقع الافتيات عليهم والانفراد عنهم. وقال إسحاق: لا يصام يوم الغيم ولكن يتصبر[٣] بالأكل فيه إلى ضحوة النهار خشية أن يشهد برؤيته بخلاف حال الصحو؛ فإنه يأكل فيه من غدوة. والمعنى الثاني: الفصل بين صيام الفرض والنفل؛ فإن جنس الفصل بين الفرائض والنوافل مشروع، ولهذا حرم صيام يوم العيد ونهى النبي ﷺ أن توصل صلاة مفروضة بصلاة حتى يفصل بينهما بسلام أو كلام وخصوصاً سنة الفجر قبلها؛ فإنه يشرع الفصل بينها وبين الفريضة ولهذا يشرع صلاتها في البيت والاضطجاع بعدها، ولما رأى النبي ﷺ رجلًا يصلي وقد أقيمت صلاة الفجر قال له: «آلصبح أربعاً؟!»[٤]، وفي المسند أنه ﷺ قال: «افصلوا بينها وبين المكتوبة ولا تجعلوها كصلاة الظهر»[٥]، وفي سنن أبي داود: أن رجلًا صلى مع النبي ﷺ، فلما سلم قام يشفع، فوثب إليه عمر، فأخذ بمنكبيه فهزه ثم قال: اجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم يكن لصلاتهم فصل. فرفع

---

(١) ضعيف. الطبراني في الأوسط (١٣٤/٣) وإسناده ضعيف.

(٢) صحيح. رواه البخاري معلقاً (٢٩٢) ووصله أبو داود (٢٣٣٤) والترمذي (٦٨٦) وغيرهما وصححه شيخنا في مختصر البخاري (٥٥٠/١).

(٣) في نسخ: «يتلوم».

(٤) رواه البخاري (٦٦٣) ومسلم (٧١١).

(٥) صحيح. أحمد (٢٢٤١٩) بنحوه.

النبي ﷺ بصره فقال: «أصاب الله بك يا ابن الخطاب»[١]. ومن علل بهذا فمنهم من كره وصل صوم شعبان برمضان مطلقاً، وروي عن ابن عمر قال: لو صمت الدهر كله لأفطرت الذي بينهما، وروي فيه حديث مرفوع لا يصح. والجمهور على جواز صيام ما وافق عادةً؛ لأن الزيادة إنما تخشى إذا لم يعرف سبب الصيام. والمعنى الثالث: إنه أمر بذلك للتقوي على صيام رمضان فإن مواصلة الصيام قد تضعف عن صيام الفرض فإذا حصل الفطر قبله بيوم أو يومين كان أقرب إلى التقوِّي على صيام رمضان، وفي هذا التعليل نظر؛ فإنه لا يكره التقدم بأكثر من ذلك ولا لمن صام الشهر كله، وهو أبلغ في معنى الضعف، لكن الفطر بنية التقوي لصيام رمضان حسن لمن أضعفه مواصلة الصيام. كما كان عبدالله بن عمرو بن العاص يسرد الفطر أحياناً، ثم يسرد الصوم ليتقوى بفطره على صومه، ومنه قول بعض الصحابة: إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، وفي الحديث المرفوع: «الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر»[٢] خرجه الترمذي وغيره. ولربما ظن بعض الجهال أن الفطر قبل رمضان يراد به اغتنام الأكل لتأخذ النفوس حظها من الأكل[٣] والشهوات قبل أن تمنع من ذلك بالصيام؛ ولهذا يقولون: هي أيام توديع للأكل وتسمى تنحيساً، واشتقاقه من الأيام النحسات، ومن قال: هو تنهيس بالهاء فهو خطأ منه ذكره ابن درستويه النحوي، وذكر أن أصل ذلك متلقى من النصارى؛ فإنهم يفعلونه عند قرب صيامهم وهذا كله خطأ وجهل ممن ظنه، وربما لم يقتصر كثير منهم على اغتنام الشهوات المباحة، بل يتعدى إلى المحرمات وهذا هو الخسران المبين وأنشد بعضهم في المعنى:

إذا العشرون من شعبان ولت ... فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار ... فإن الوقت ضاق على الصغار

---

(١) صحيح. أبو داود (١٠٠٧) وصححه شيخنا في آخر قوليه كما في صحيح أبي داود (٩٢٢/الأم) والصحيحة (٣١٧٣).

(٢) صحيح. الترمذي (٢٤٨٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (٦٥٥).

(٣) في بعض النسخ دون بعض كما في الأصل.

غيره:

جاء شعبان منذراً بالصيام    فاسقياني خمراً بماء الغمام

ومن كانت هذه حاله؛ فالبهائم أعقل منه، وله نصيب من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعرَاف: ١٧٩] الآية، وربما تكرَّه كثير منهم بصيام شهر رمضان حتى إن بعض السفهاء من الشعراء كان يسبه، وكان للرشيد ابن سفيه فقال مرة له:

دعاني شهر الصوم لا كان من شهر    ولا صمت شهراً بعده آخر الدهر

فلو كان يعديني الإمام بقدرة    على الشهر لاستعديت جهدي على الشهر

فأخذه داء الصرع فكان يصرع في كل يوم مرات متعددة، ومات قبل أن يدركه رمضان آخر. وهؤلاء السفهاء يستثقلون رمضان لاستثقالهم العبادات فيه من الصلاة والصيام فكثير من هؤلاء الجهال لا يصلي إلا في رمضان إذا صام، وكثير منهم لا يجتنب كبائر الذنوب إلا في رمضان، فيطول عليه ويشق على نفسه مفارقتها لمألوفها، فهو يعد الأيام والليالي ليعود إلى المعصية، وهؤلاء مصرون على ما فعلوا وهم يعلمون، فهم هلكى، ومنهم من لا يصبر على المعاصي فهو يواقعها في رمضان. وحكاية محمد بن هارون البلخي مشهورة وقد رويت من وجوه وهو أنه كان مصراً على شرب الخمر، فجاء في آخر يوم من شعبان وهو سكران؛ فعاتبته أمه وهي تسجر تنوراً، فحملها فألقاها في التنور فاحترقت، وكان بعد ذلك قد تاب وتعبد، فرُئي له في النوم أن الله تعالى قد غفر للحاج كلهم سواه. فمن أراد الله به خيراً حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان فصار من الراشدين، ومن أراد به شراً خلّى بينه وبين نفسه فأتبعه الشيطان فحبب إليه الكفر والفسوق والعصيان فكان من الغاوين. الحذر الحذر من المعاصي؛ فكم سلبت من نعم، وكم جلبت من نقم، وكم خربت من ديار، وكم أخلت دياراً من أهلها فما بقي منهم ديار، كم أخذت من العصاة بالثار، كم محت لهم من آثار.

يا صاحب الذنب لا تأمن عواقبه    عواقب الذنب تخشى وهي تنتظر

فكل نفس ستجزى بالذي كسبت وليس للخلق من ديانهم وزر

أين حال هؤلاء الحمقى من قوم كان دهرهم كله رمضان؛ ليلهم قيام، ونهارهم صيام؟

باع قوم من السلف جارية فلما قرب شهر رمضان رأتهم يتأهبون له ويستعدون في الأطعمة وغيرها فسألتهم فقالوا: نتهيأ لصيام رمضان، فقالت: وأنتم لا تصومون إلا رمضان لقد كنت عند قوم كل زمانهم رمضان ردوني عليهم. وباع الحسن بن صالح جارية له فلما انتصف الليل قامت فنادتهم: يا أهل الدار الصلاة الصلاة. قالوا: طلع الفجر؟ قالت: وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة! ثم جاءت إلى الحسن فقالت: بعتني على قوم سوء لا يصلون إلا الفرائض ردني ردني. قال بعض السلف: صم الدنيا واجعل فطرك الموت. الدنيا كلها شهر صيام المتقين يصومون فيه عن الشهوات، فإذا جاءهم الموت فقد انقضى شهر صيامهم واستهلوا عيد فطرهم.

وقد صمت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها بعد مماته، ومن تعجل ما حرم عليه قبل وفاته عوقب بحرمانه في الآخرة وفواته، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] الآية، وقول النبي ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»[1] «ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[2].

أنت في دار شتات فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم صمته عن شهواتك
وليكن فطرك عند الله في يوم وفاتك

في حديث مرفوع خرجه ابن أبي الدنيا: «لو يعلم العباد ما في رمضان

---

(١) رواه البخاري (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣) واللفظ له.
(٢) رواه البخاري (٥٨٣٢) ومسلم (٢٠٧٣).

لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان»[١]. وكان النبي ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان كما خرجه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يبشر أصحابه يقول: «قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك كتب الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم»[٢]. قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان، كيف لا يبشر المؤمن بفتح أبواب السماء والجنان؟ كيف لا يبشر المذنب بغلق أبواب النيران؟ كيف لا يبشر العابد بوقت يغل فيه الشيطان؟ من أين يشبه هذا الزمان زمان؟ وفي حديث آخر: «أتاكم رمضان سيد الشهور»[٣]. فمرحباً به وأهلًا.

جاء شهر الصيام بالبركات فأكرم به من زائر هو آت

روي أن النبي ﷺ كان يدعو ببلوغ رمضان، فكان إذا دخل شهر رجب يقول: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان»[٤] خرجه الطبراني وغيره من حديث أنس. وقال معلى بن الفضل: كانوا يدعون الله تعالى ستة أشهر أن يبلغهم رمضان يدعونه ستة أشهر أن يتقبل منهم. وقال يحيى بن أبي كثير كان من دعائهم: اللهم سلمني إلى رمضان وسلم لي رمضان وتسلمه مني متقبلًا. بلوغ شهر رمضان وصيامه نعمة عظيمة على من أقدره الله عليه، ويدل على هذا[٥] حديث الثلاثة الذين استشهد اثنان منهم، ثم مات الثالث على فراشه بعدهما فرُئي في المنام سابقاً لهما، فقال النبي ﷺ: «أليس صلى بعدهما كذا وكذا صلاة، وأدرك رمضان فصامه؟

---

(١) موضوع. رواه أبو يعلى في مسنده (٩/١٨٠) وحكم عليه شيخنا بالوضع.

(٢) صحيح لغيره. أحمد (٨٧٦٥) والنسائي (٢١٠٦) وصححه شيخنا لشواهده في تمام المنة (٣٩٥).

(٣) ضعيف. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٣١٤) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٧٢٧).

(٤) ضعيف. وقد سبق تخريجه.

(٥) في نسخة: «عليه» كما في الأصل.

فوالذي نفسي بيده إن بينهما لأبعد مما بين السماء والأرض»[١] خرجه الإمام أحمد وغيره. من رحم في شهر رمضان فهو المرحوم، ومن حرم خيره فهو المحروم، ومن لم يتزود فيه لمعاده فهو ملوم.

أتى رمضان مزرعة العباد لتطهير القلوب من الفساد
فأدِّ حقوقه قولاً وفعلاً وزادك فاتخذه للمعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها تأوه نادماً يوم الحصاد

يا من طالت غيبته عنا قد قربت أيام المصالحة، يا من دامت خسارته قد أقبلت أيام التجارة الرابحة، من لم يربح في هذا الشهر ففي أي وقت يربح، من لم يقرب فيه من مولاه فهو على بعده لا يبرح.

أناس أعرضوا عنا بلا جرم ولا معنى
أساؤوا ظنهم فينا فهلا أحسنوا الظنا
فإن عادوا لنا عدنا وإن خانوا فما خُنّا
وإن كانوا قد استغنوا فإنا عنهم أغنى

كم ينادي: حي على الفلاح وأنت خاسر، كم تدعى إلى الصلاح وأنت على الفساد مثابر.

إذا رمضان أتى مقبلاً فأقبل فبالخير يستقبل
لعلك تخطئه قابلاً وتأتي بعذر فلا يقبل

كم ممن أمل أن يصوم هذا الشهر فخانه أمله فصار قبله إلى ظلمة القبر، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومؤمل غداً لا يدركه، إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره. خطب عمر بن عبدالعزيز آخر خطبة خطبها فقال فيها: إنكم لم[٢] تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للفصل بين عباده، فقد خاب وخسر من خرج من

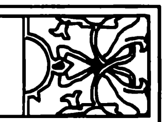
---

(١) صحيح. أحمد (١٤٠٤) وصححه شيخنا في صحيح سنن ابن ماجه (٣٩٢٥).
(٢) في الأصل: «لن».

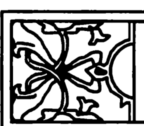
رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيرثها بعدكم الباقون كذلك؟ كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتودعونه وتدعونه في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب، غنياً عما خلف فقيراً إلى ما أسلف، فاتقوا الله عباد الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقيته، وإني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي ولكن أستغفر الله وأتوب إليه ثم رفع طرف ردائه وبكى حتى شهق، ثم نزل عن المنبر فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات ـ رحمة الله عليه ـ.

يا ذا الذي ما كفاه الذنب في رجب ... حتى عصى ربه في شهر شعبانِ
لقد أظلك شهر الصوم بعدهما ... فلا تُصيِّره أيضاً شهر عصيان
واتل القرآن وسبح فيه مجتهداً ... فإنه شهر تسبيح وقرآن
واحمل على جسد ترجو النجاة له ... فسوف تضرم أجساد بنيران
كم كنت تعرف ممن صام في سلف ... من بين أهل وجيران وإخوان
أفناهم الموت واستبقاك بعدهم ... حياً فما أقرب القاصي من الداني
ومعجب بثياب العيد يقطعها ... فأصبحت في غد أثواب أكفان
حتى متى يعمر الإنسان مسكنه ... مصير مسكنه قبر لإنسان

❋ ❋ ❋



# وظائف شهر رمضان المعظم



**وفيه مجالس:**

## المجلس الأول
## في فضل الصيام

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال عز وجل: إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك»[(١)]. وفي رواية: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي»[(٢)]. وفي رواية للبخاري: «لكل عمل كفارة، والصوم لي وأنا أجزي به»[(٣)]. وخرجه الإمام أحمد من هذا الوجه ولفظه: «كل عمل ابن آدم كفارة إلا الصوم والصوم لي وأنا أجزي به»[(٤)]. فعلى الرواية الأولى: يكون استثناء الصوم من الأعمال المضاعفة فتكون الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله أضعافاً كثيرة بغير حصر عدد؛ فإن الصيام من الصبر

(١) البخاري (٧٤٩٢) ومسلم (١١٥١).
(٢) البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).
(٣) البخاري (٧٥٣٨).
(٤) صحيح. أحمد (٩٥٧٨).

وقد قال الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: ١٠]. ولهذا ورد عن النبي ﷺ: أنه سمى شهر رمضان شهر الصبر[1]. وفي حديث آخر عنه ﷺ قال: «الصوم نصف الصبر»[2] خرجه الترمذي. والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله ﷻ، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وتجتمع الثلاثة كلها في الصوم؛ فإن فيه صبراً على طاعة الله، وصبراً عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبراً على ما يحصل للصائم من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن، وهذا الألم الناشئ من أعمال الطاعات يثاب عليه صاحبه كما قال الله تعالى في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التَّوبَة: ١٢٠]. وفي حديث سلمان المرفوع الذي أخرجه ابن خزيمة في صحيحه في فضل شهر رمضان: «وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة»[3]. وفي الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً: «الصيام لله لا يعلم ثواب عمله إلا الله ﷻ»[4]. وروي مرسلًا وهو أصح.

واعلم أن مضاعفة الأجر للأعمال تكون بأسباب منها: شرف المكان المعمول فيه ذلك العمل كالحرم؛ ولذلك تضاعف الصلاة في مسجدَي مكة والمدينة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام»[5]. وفي رواية: «فإنه أفضل»[6]، وكذلك روي: أن الصيام يضاعف

---

(١) صحيح. وقد سبق تخريج عدد من هذه الروايات التي فيها تسميته بشهر الصبر.

(٢) ضعيف. الترمذي (٣٥١٩) وضعفه شيخنا في المشكاة (٢٩٦).

(٣) منكر. ابن خزيمة (١٨٨٧) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٥٨٩).

(٤) ضعيف جداً. الطبراني في الأوسط (١/٢٦٥) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٥٧٢).

(٥) رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤).

(٦) مسلم (١٣٩٤).

بالحرم[١]. وفي سنن ابن ماجه بإسناد ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً: «من أدرك رمضان بمكة فصامه وقام منه ما تيسر كتب الله له مائة ألف شهر رمضان فيما سواه»[٢] وذكر له ثواباً كثيراً. ومنها: شرف الزمان كشهر رمضان، وعشر ذي الحجة، وفي حديث سلمان المرفوع الذي أشرنا إليه في فضل شهر رمضان: «من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه»[٣]. وفي الترمذي عن أنس: سئل النبي ﷺ أي الصدقة أفضل؟ قال: «الصدقة[٤] في رمضان»[٥]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة، ـ أو قال: حجة معي ـ»[٦]. وورد في حديث آخر: أن عمل الصائم مضاعف.

وذكر أبو بكر بن أبي مريم عن أشياخه أنهم كانوا يقولون: إذا حضر شهر رمضان فانبسطوا فيه بالنفقة؛ فإن النفقة فيه مضاعفة كالنفقة في سبيل الله، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة في غيره. قال النخعي: صوم يوم من رمضان أفضل من ألف يوم، وتسبيحة فيه أفضل من ألف تسبيحة، وركعة فيه أفضل من ألف ركعة. فلما كان الصيام في نفسه مضاعفاً أجره بالنسبة إلى سائر الأعمال كان صيام شهر رمضان مضاعفاً على سائر الصيام لشرف زمانه. وكونه هو الصوم الذي فرضه الله على عباده وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها. وقد يضاعف الثواب بأسباب أخر؛ منها: شرف العامل عند الله وقربه منه وكثرة تقواه كما ضُوعِف أجر هذه الأمة على أجور من قبلهم من الأمم وأعطوا كفلين من الأجر. وأما على الرواية الثانية: فاستثناء الصيام من بين الأعمال يرجع إلى

---

(١) لم يثبت هذا في حديث صحيح.
(٢) موضوع. ابن ماجه (٣١١٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٨٣١ و٨٣٢).
(٣) منكر. وقد سبق تخريجه.
(٤) في نسخة: «صدقة» كما في الأصل وهو الموافق لما في السنن.
(٥) ضعيف. الترمذي (٦٦٣) وضعفه شيخنا في الإرواء (٨٨٩).
(٦) رواه البخاري (١٨٦٣) ومسلم (١٢٥٦).

أن سائر الأعمال للعباد، والصيام اختصه الله لنفسه من بين أعمال عباده وأضافه إليه. وسيأتي ذكر توجيه هذا الاختصاص ـ إن شاء الله تعالى ـ. وأما [على] الرواية الثالثة: فالاستثناء يعود إلى التكفير بالأعمال، ومن أحسن ما قيل في معنى ذلك ما قاله سفيان بن عيينة ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قال: هذا من أجود الأحاديث وأجلها: إذا كان يوم القيامة يحاسب الله عبده ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله حتى لا يبقى إلا الصوم فيتحمل الله عَزَّ وَجَلَّ ما بقي عليه من المظالم ويدخله بالصوم الجنة. خرجه البيهقي في شعب الإيمان وغيره. وعلى هذا فيكون المعنى: أن الصيام لله عَزَّ وَجَلَّ، فلا سبيل لأحد إلى أخذ أجره من الصيام، بل أجره مدخر لصاحبه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وحينئذٍ قد يقال: إن سائر الأعمال يكفر بها الله عَزَّ وَجَلَّ ذنوب صاحبها فلا يبقى لها أجر، فإنه روي: أنه يوازن يوم القيامة بين السيئات والحسنات ويقتص بعضها من بعض، فإن بقي من الحسنات حسنة دخل بها صاحبها إلى الجنة. قاله سعيد بن جبير وغيره. وفيه حديث مرفوع خرجه الحاكم من حديث ابن عباس مرفوعاً[(١)]. فيحتمل أن يقال في الصوم: إنه لا يسقط ثوابه بمقاصّة ولا غيرها، بل يوفر أجره لصاحبه حتى يدخل الجنة فيوفى أجره فيها.

وأما قوله: «فإنه لي» فإن الله خص الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال وقد كثر القول في معنى ذلك من الفقهاء والصوفية وغيرهم، وذكروا فيه وجوهاً كثيرة. ومن أحسن ما ذكر فيه وجهان: أحدهما: أن الصيام هو مجرد ترك حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله عَزَّ وَجَلَّ ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام؛ لأن الإحرام إنما يترك فيه الجماع ودواعيه من الطيب دون سائر الشهوات من الأكل والشرب، وكذلك الاعتكاف مع أنه تابع للصوم، وأما الصلاة فإنه وإن ترك المصلي فيها جميع الشهوات إلا أن مدتها لا تطول فلا يجد المصلي فقد الطعام والشراب في صلاته، بل قد نهي أن يصلي ونفسه تتوق إلى الطعام بحضرته حتى يتناول منه ما يسكن نفسه. ولهذا أمر بتقديم العشاء على

---

(١) ضعيف. الحاكم (٤/٢٥٢) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٥٤٣٠).

الصلاة وذهبت طائفة من العلماء إلى إباحة شرب الماء في صلاة التطوع، وكان ابن الزبير يفعله في صلاته، وهو رواية عن الإمام أحمد، وهذا بخلاف الصيام فإنه يستوعب النهار كله فيجد الصائم فقد هذه الشهوات، وتتوق نفسه إليها خصوصاً في نهار الصيف لشدة حره وطوله، ولهذا روي: إن من خصال الإيمان الصوم في الصيف[1]. وقد كان رسول الله ﷺ يصوم رمضان في السفر في شدة الحر دون أصحابه كما قاله أبو الدرداء؛ كنا مع النبي ﷺ في سفر في رمضان وأحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر وما كان فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة[2]. وفي الموطأ أنه ﷺ كان بالعرج يصب الماء على رأسه وهو صائم من العطش والحر[3]. فإذا اشتد توقان النفس إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه، ثم تركته لله ﷻ في موضع لا يطلع عليه إلا الله كان ذلك دليلًا على صحة الإيمان، فإن الصائم يعلم أن له رباً يطلع عليه في خلوته، وقد حرم عليه أن يتناول شهواته المجبول على الميل إليها في الخلوة فأطاع ربه وامتثل أمره واجتنب نهيه خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه فشكر الله له ذلك واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله، ولهذا قال بعد ذلك: إنه ترك شهواته وطعامه وشرابه من أجلي. قال بعض السلف: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره. لما علم المؤمن الصائم أن رضا مولاه في ترك شهواته قدم رضا مولاه على هواه فصارت لذته في ترك شهوته لله لإيمانه باطلاع الله وثوابه وعقابه أعظم من لذته في تناولها في الخلوة إيثاراً لرضا ربه على هوى نفسه، بل المؤمن يكره ذلك في خلوته أشد من كراهته لألم الضرب، ولهذا أكثر المؤمنين لو ضرب على أن يفطر في رمضان لغير عذر لم يفعل لعلمه بكراهة الله لفطره في هذا الشهر، وهذا من علامات الإيمان أن يكره المؤمن ما يلائمه من شهواته إذا علم أن الله يكرهه فتصير لذته فيما يرضي مولاه وإن كان مخالفاً لهواه، ويكون ألمه فيما يكرهه مولاه وإن كان موافقاً لهواه،

---

(١) ضعيف. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٢) وإسناده ضعيف.
(٢) رواه البخاري (١٩٤٥) ومسلم (١١٢٢).
(٣) صحيح. مالك (٦٥٤) وصححه شيخنا في المشكاة (٢٠١١).

وإن كان هذا فيما حرم لعارض الصوم من الطعام والشراب ومباشرة النساء فينبغي أن يتأكد ذلك فيما حرم على الإطلاق: كالزنا، وشرب الخمر، وأخذ الأموال أو الأعراض بغير حق، وسفك الدماء المحرمة فإن هذا يسخط الله على كل حال وفي كل زمان ومكان. فإذا كمل الإيمان للمؤمن كره ذلك كله أعظم من كراهته للقتل والضرب. ولهذا جعل رسول الله ﷺ من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار[1]. وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]. سئل ذو النون [المصري] متى أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يكرهه أمر عندك من الصبر. وقال غيره: ليس من أعلام المحبة أن تحب ما يكرهه حبيبك. وكثير من الناس يمشي على العوائد دون ما يوجبه الإيمان ويقتضيه. فلهذا كثير منه لو ضرب ما أفطر في رمضان لغير عذر. ومن جهالهم من لا يفطر لعذر ولو تضرر بالصوم مع أن الله يحب منه أن يقبل رخصته منه جرياً على العادة. وقد اعتاد مع ذلك ما حرم الله من شرب الخمر والزنا وأخذ الأموال والأعراض أو الدماء بغير حق فهذا يجري على عوائده في ذلك كله لا على مقتضى الإيمان. ومن عمل بمقتضى الإيمان صارت لذته في مصابرة نفسه عما تميل نفسه إليه إذا كان فيه سخط الله، وربما يرتقي إلى أن يكره جميع ما يكرهه الله منه. وينفر منه وإن كان ملائماً للنفوس كما قيل:

إن كان رضاكم في سهري ... فسلام الله على وسني

وقال آخر:

فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقال آخر:

عذابه فيك عذاب ... وبعده فيك قرب

(١) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).

وأنـــت عـــنـــدي كـــروحـــي بـــل أنـــت مـــنـــهـــا أحـــب
حـــسـبـي مـــن الـــحـــب أنـــي لـــمـــا تـــحـــب أحـــب

الوجه الثاني: إن الصيام سر بين العبد وربه لا يطلع غيره عليه؛ لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله، وترك لتناول الشهوات التي يستخفي بتناولها في العادة. ولذلك قيل: لا تكتبه الحفظة، وقيل: إنه ليس فيه رياء. كذا قاله الإمام أحمد وغيره. وفيه حديث مرفوع مرسل. وهذا الوجه اختيار أبي عبيد[1] وغيره، وقد يرجع إلى الأول فإن من ترك ما تدعوه نفسه إليه لله ﷻ حيث لا يطلع عليه غير من أمره ونهاه دل على صحة إيمانه والله تعالى يحب من عباده أن يعاملوه سراً بينهم وبينه، وأهل محبته يحبون أن يعاملوه سراً بينهم وبينه بحيث لا يطلع على معاملتهم إياه سواه حتى كان بعض السلف يود لو تمكن من عبادة لا تشعر بها الملائكة الحفظة، وقال بعضهم لما اطُّلِعَ على بعض سرائره: إنما كانت تطيب الحياة لما كانت المعاملة بيني وبينه سراً، ثم دعا لنفسه بالموت فمات. المحبون يغارون من اطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه.

نسيم صباً نجد متى جئت حاملاً تحيتهم فاطْوِ الحديث عن الركب
ولا تذع السر المصون فإنني أغار على ذكر الأحبة من صحبي

وقوله: «ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي» فيه إشارة إلى المعنى الذي ذكرناه، وأن الصائم يقرب إلى الله بترك ما تشتهيه نفسه من الطعام والشراب والنكاح وهذه أعظم شهوات النفس. وفي التقرب بترك هذه الشهوات بالصيام فوائد:

**منها**: كسر النفس فإن الشبع والري ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة، ومنها: تخلي القلب للفكر والذكر، فإن تناول هذه الشهوات قد تقسي القلب وتعميه وتحول بين العبد وبين الفكر والذكر وتستدعي الغفلة. وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب ويوجب

---

(١) في الأصل: «أبي عبيدة».

رقته، ويزيل قسوته ويخليه للذكر والفكر. ومنها: أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيراً من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح؛ فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص وحصول المشقة له بذلك يتذكر به من منع من ذلك على الإطلاق؛ فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك. ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر سورة الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي ﷺ الصوم وجاء لقطعه عن شهوة النكاح[١].

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله تعالى بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ولهذا قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به؛ فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٢] خرجه البخاري. وفي حديث آخر: «ليس الصيام من الطعام والشراب إنما الصيام من اللغو والرفث»[٣]. قال الحافظ أبو موسى المديني: هو على شرط مسلم. وقال بعض السلف: أهون الصيام ترك الطعام والشراب. وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ودع أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في السمع مني تصاون ... وفي بصري غض وفي منطقي صمت
فحظي إذاً من صومي الجوع والظما ... فإن قلت: إني صمت يومي فما صمت

وقال النبي ﷺ: «رب صائم حظه من صومه الجوع والعطش، ورب

(١) رواه البخاري (٥٠٦٥) ومسلم (١٤٠٠).
(٢) البخاري (١٩٠٣).
(٣) صحيح. رواه ابن حبان (٣٤٧٩) والحاكم (١/٤٣٠) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٨٢).

قائم حظه من قيامه السهر»[١]. وسر هذا: أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض ويتقرب بالنوافل وإن كان صومه مجزئاً عند الجمهور بحيث لا يؤمر بإعادته؛ لأن العمل إنما يبطل بارتكاب ما نهي عنه فيه لخصوصه دون ارتكاب ما نهي عنه لغير معنى يختص به، هذا هو أصل جمهور العلماء. وفي مسند الإمام أحمد أن امرأتين صامتا في عهد النبي ﷺ فكادتا أن تموتا من العطش؛ فذكر ذلك للنبي ﷺ فأعرض ثم ذكرتا له فدعاهما فأمرهما أن يتقيآ، فقاءتا مِلء قدح قيحاً ودماً وصديداً ولحماً عبيطاً؛ فقال النبي ﷺ: «إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يأكلان لحوم الناس»[٢]. ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ ورد في القرآن بعد ذكر تحريم الطعام والشراب على الصائم بالنهار ذكر تحريم أكل أموال الناس بالباطل فإن تحريم هذا عام في كل زمان ومكان بخلاف الطعام والشراب فكان إشارة إلى أن من امتثل أمر الله في اجتناب الطعام والشراب في نهار صومه فليمتثل أمره في اجتناب أكل الأموال بالباطل فإنه محرم بكل حال لا يباح في وقت من الأوقات والله أعلم.

وقوله ﷺ: «وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه» فأما فرحة الصائم عند فطره فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا منعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما منعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه. فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً شرعاً، والصائم عند فطره كذلك. فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصوم تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل وآخره فأحب

---

(١) صحيح. رواه ابن ماجه (١٦٩١) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٨٣).

(٢) ضعيف. أحمد (٢٣١٤١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٥١٩).

عباده إليه أعجلهم فطراً[١]، والله وملائكته يصلون على المتسحرين[٢].

فالصائم ترك شهواته لله بالنهار وتقرباً إليه وطاعة له، وبادر إليها في الليل تقرباً إلى الله وطاعة له فما تركها إلا بأمر ربه ولا عاد إليها إلا بأمر ربه فهو مطيع له في الحالين، ولهذا نهي عن الوصال في الصيام. فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقرباً إلى مولاه وأكل وشرب وحمد الله فإنه يرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك، وفي الحديث: «إن الله ليرضى عن عبده يأكل الأكلة؛ فيحمده عليها، ويشرب الشربة؛ فيحمده عليها»[٣]. وربما استجيب دعاؤه عند ذلك كما في الحديث المرفوع الذي خرجه ابن ماجه: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد»[٤]. وإن نوى بأكله وشربه تقوية بدنه على القيام والصيام كان مثاباً على ذلك كما أنه إذا نوى بنومه في الليل والنهار التقوي على العمل كان نومه عبادة. وفي حديث مرفوع: «نوم الصائم عبادة»[٥]. قالت حفصة بنت سيرين: قال أبو العالية: الصائم في عبادة ما لم يغتب أحداً وإن كان نائماً على فراشه. قال: وكانت حفصة تقول: يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشي. خرجه عبدالرزّاق[٦].

فالصائم في ليله ونهاره في عبادة ويستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره فهو في نهاره صائم صابر وفي ليله طاعم شاكر، وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[٧].

ومن فهم هذا الذي أشرنا إليه لم يتوقف في معنى فرح الصائم عند فطره؛ فإن فطره على الوجه المشار إليه من فضل الله ورحمته، فيدخل في

---

(١) ضعيف. رواه الترمذي (٧٠٠) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٩٨٩).
(٢) صحيح. رواه أحمد (١٠٧٠٢) وابن حبان (٣٤٦٧) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٦٥٤).
(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).
(٤) ضعيف. ابن ماجه (١٧٥٣) وضعفه شيخنا في الإرواء (٩٢١).
(٥) ضعيف. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٤١٥) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٦٩٦)
(٦) عبدالرزّاق (٤/٣٠٧).
(٧) صحيح. وقد سبق تخريجه.

قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] ولكن شرط ذلك أن يكون فطره على حلال فإن كان فطره على حرام كان ممن صام عما أحل الله، وأفطر على ما حرم الله، ولم يستجب له دعاء، كما قال النبي ﷺ في الذي يطيل السفر: «يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»(١).

وأما فرحه عند لقاء ربه: فبما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخراً فيجده أحوج ما كان إليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] وقد تقدم قول ابن عيينة: أن ثواب الصيام لا يأخذه الغرماء في المظالم بل يدخره الله عنده للصائم حتى يدخله به الجنة. وفي المسند عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا يختم عليه»(٢). وعن عيسى عليه السلام قال: إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما. فالأيام خزائن للناس ممتلئة بما خزنوه فيها من خير وشر، وفي يوم القيامة تفتح هذه الخزائن لأهلها فالمتقون يجدون في خزائنهم العز والكرامة، والمذنبون يجدون في خزائنهم الحسرة والندامة.

الصائمون على طبقتين: إحداهما: من ترك طعامه وشرابه وشهوته لله تعالى يرجو عنده عوض ذلك في الجنة فهذا تاجر مع الله وعامله والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملًا ولا يخيب مَنْ عامله، بل يربح عليه أعظم الربح وقال النبي ﷺ لرجل: «إنك لن تدع لله شيئاً اتقاء الله إلا أتاك الله خيراً منه»(٣) خرجه الإمام أحمد، فهذا الصائم يعطى في الجنة ما شاء الله من طعام وشراب ونساء. قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) صحيح. وقد سبق تخريجه.

(٣) صحيح. أحمد (٢٠٢١٥) وصححه شيخنا في الضعيفة (٦٢/١) على شرط مسلم.

ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحَاقَّة: ٢٤] قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين. قال يعقوب بن يوسف الحنفي: بلغنا أن الله تعالى يقول لأوليائه يوم القيامة: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخفقت بطونكم كونوا اليوم في نعيمكم وتعاطوا الكأس فيما بينكم و: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحَاقَّة: ٢٤]. وقال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكئ معها على نهر العسل تعاطيه الكأس: إن الله نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش فباهى بك الملائكة وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته وشهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي رغبة فيما عندي اشهدوا إني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باباً يقال له: الريان يدخل منه الصائمون لا يدخل منه غيرهم»[(١)]. وفي رواية: «فإذا دخلوا أغلق»[(٢)]. وفي رواية: «من دخل منه شرب ومن شرب لم يظمأ أبداً»[(٣)]. وفي حديث عبدالرحمٰن بن سمرة عن النبي ﷺ في منامه الطويل قال: «ورأيت رجلًا من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيام رمضان فسقاه وأرواه»[(٤)] خرجه الطبراني وغيره. وروى ابن أبي الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أنس مرفوعاً: «الصائمون ينفح من أفواههم ريح المسك وتوضع لهم مائدة تحت العرش يأكلون منها، والناس في الحساب»[(٥)]. وعن أنس مرفوعاً: «إن لله مائدة لم تر مثلها عين ولم تسمع أذن ولا خطر على قلب بشر لا يقعد عليها إلا الصائمون»[(٦)]. وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يوضع للصوام مائدة يأكلون عليها والناس في الحساب فيقولون: يا رب نحن نحاسب وهم

---

(١) وقد سبق تخريجه.

(٢) صحيح. سبق تخريجه.

(٣) صحيح. رواه الترمذي (٧٦٥) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٩٧٩).

(٤) ضعيف. وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (٢٠٨٦).

(٥) ضعيف جداً. رواه السهمي في تاريخ جرجان (٤٧٨/١) وإسناده واهٍ.

(٦) ضعيف. رواه الطبراني في الأوسط (١٧٠/٩) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٨١٠).

يأكلون، فيقال: إنهم طالما صاموا وأفطرتم وقاموا ونمتم. رأى بعضهم بشر بن الحارث في المنام وبين يديه مائدة وهو يأكل ويقال له: كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب. كان بعض الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطع صوته فمات، فرآه بعض أصحابه الصالحين في منامه وهو يسأل عن حاله فضحك وأنشد:

قد كسي حلة البهاء وطافت ... بأباريق حوله الخدام
ثم حلي وقيل: يا قارئ ارقا ... فلعمري لقد براك الصيام

اجتاز بعض العارفين بمنادٍ ينادي على السحور في رمضان: ياما خبأنا للصائمين؛ فتنبه بهذه الكلمة وأكثر من الصيام. رأى بعض العارفين في منامه كأنه أدخل الجنة فسمع قائلًا يقول له: هل تذكر أنك صمت قط يوماً لله فقال: نعم، قال: فأخذتني صواني النثار من الجنة. من ترك لله في الدنيا طعاماً وشراباً وشهوة مدة يسيرة عوضه الله عنده طعاماً وشراباً لا ينفد وأزواجاً لا يمتن أبداً.

شهر رمضان فيه يزوج الصائمون، في الحديث: «إن الجنة لتزخرف وتنجد من الحول إلى الحول لدخول رمضان، فتقول الحور: يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجاً تقر أعيننا بهم وتقر أعينهم بنا»[١]. وفي حديث آخر: «إن الحور تنادي في شهر رمضان: هل من خاطب إلى الله فيزوجه»[٢].

مهور الحور: طول التهجد، وهو حاصل في شهر رمضان أكثر من غيره. كان بعض الصالحين كثير التهجد والصيام فصلى ليلة في المسجد ودعا، فغلبته عيناه فرأى في منامه جماعة علم أنهم ليسوا من الآدميين بأيديهم أطباق عليها أرغفة كبياض الثلج فوق كل رغيف در أمثال الرمان

(١) ضعيف. رواه الطبراني في الأوسط (٤٤/٧) وإسناده ضعيف.
(٢) موضوع. رواه الفاكهي في أخبار مكة (٣١٥/٢) وحكم عليه شيخنا بالوضع كما في ضعيف الترغيب (٥٩٤).

فقالوا: كل، فقال: إني أريد الصوم قالوا له: يأمرك صاحب هذا البيت أن تأكل. قال: فأكلت وجعلت آخذ ذلك الدر لأحتمله فقالوا لي: دعه نغرسه لك شجراً ينبت لك خيراً من هذا، قال: أين؟ قالوا: في دار لا تخرب، وثمر لا يتغير، وملك لا ينقطع، وثياب لا تبلى، فيها رضوى، وعيناً، وقرة أعين أزواج رضيات مرضيات راضيات لا يَغِرن ولا يُغَرن فعليك بالانكماش فيما أنت فإنما هي غفوة حتى ترتحل فتنزل الدار، فما مكث بعد هذه الرؤيا إلا جمعتين حتى توفي، فرآه ليلة وفاته في المنام بعض أصحابه الذين حدثهم برؤياه وهو يقول: ألا تعجب من شجر غرس لي في يوم حدثتك، وقد حمل؟! فقال له: ما حمل؟ فقال: لا تسأل لا يقدر أحد على صفته لم ير مثل الكريم إذا حل به مطيع. يا قوم ألا خاطب في هذا الشهر إلى الرحمن، ألا راغب فيما أعده الله للطائعين في الجنان، ألا طالب لما أخبر به من النعيم المقيم مع أنه ليس الخبر كالعيان.

من يرد ملك الجنان ... فليدع عنه التواني
وليقم في ظلمة الليل ... إلى نور القرآن
وليصل صوماً بصوم ... إن هذا العيش فاني
إنما العيش جوار الله ... في دار الأمان

الطبقة الثانية من الصائمين: من يصوم في الدنيا عما سوى الله فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته.

أهل الخواص من الصوام صومهمُ ... صون اللسان عن البهتان والكذب
والعارفون وأهل الإنس صومهم ... صون القلوب عن الأغيار والحجب

العارفون لا يسليهم عن رؤية مولاهم قصر، ولا يرويهم دون مشاهدته نهر، هِمَمُهم أجلُّ من ذلك.

كبرت همة عبد ... طمعت في أن يراكا
من يصم عن مفطرات ... فصيامي عن سواكا

من صام عن شهواته في الدنيا أدركها غداً في الجنة ومن صام عما سوى الله فعيده يوم لقائه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾ [العَنكبوت: ٥].

وقد صمت عن لذات دهري كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

رُئي بشر في المنام فسئل عن حاله؟ فقال: عَلِمَ قلة رغبتي في الطعام فأباحني النظر إليه. وقيل لبعضهم: أين نطلبك في الآخرة؟ قال: في زمرة الناظرين إلى الله، قيل له: كيف علمت ذلك؟ قال: بغض طرفي له عن كل محرم، وباجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه.

يا حبيب القلوب من لي سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاكا
ليس لي في الجنان أحسن رأي غير أني أريدها لأراكا

يا معشر الصائمين صوموا اليوم عن شهوات الهوى لتدركوا عيد الفطر يوم اللقاء، لا يطولن عليكم الأمد باستبطاء الأجل فإن معظم نهار الصيام قد ذهب وعيد اللقاء قد اقترب.

إن يوماً جامعاً شملي بهم ذاك عيدي ليس لي عيد سواه

وقوله: «ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» خلوف الفم: رائحة ما يتصاعد منه من الأبخرة لخلو المعدة من الطعام بالصيام، وهي رائحة مستكرهة في مشام الناس في الدنيا لكنها طيبة عند الله حيث كانت ناشئة عن طاعته وابتغاء مرضاته، كما أن دم الشهيد يجيء يوم القيامة يثعب دماً لونه لون الدم وريحه ريح المسك. وبهذا استدل من كره السواك للصائم أو لم يستحبه من العلماء، وأول من علمناه استدل بذلك عطاء بن أبي رباح وروي عن أبي هريرة أنه استدل به لكن من وجه لا يثبت. وفي المسألة اختلاف مشهور بين العلماء وإنما كرهه من كرهه في آخر نهار الصوم؛ لأنه وقت خلو المعدة وتصاعد الأبخرة. وهل يدخل وقت الكراهة بصلاة العصر؟ أو بزوال الشمس؟ أو بفعل صلاة الظهر في أول وقتها؟ على أقوال ثلاثة، والثالث هو المنصوص عن أحمد.

وفي طيب ريح خلوف الصائم عند الله ﷻ معنيان: أحدهما: أن الصيام لما كان سراً بين العبد وبين ربه في الدنيا أظهره الله في الآخرة علانية للخلق؛ ليشتهر بذلك أهل الصيام ويعرفون بصيامهم بين الناس جزاء لإخفائهم صيامهم في الدنيا. وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناد فيه ضعف عن أنس مرفوعاً: «يخرج الصائمون من قبورهم يعرفون بريح أفواههم، أفواههم أطيب من ريح المسك»(١).

قال مكحول: يروح أهل الجنة برائحة يقولون: ربنا ما وجدنا ريحاً منذ دخلنا الجنة أطيب من هذه الريح فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين، وقد تفوح رائحة الصيام في الدنيا فتستنشق قبل الآخرة، وهو نوعان: أحدهما: ما يدرك بالحواس الظاهرة. كان عبدالله بن غالب من العباد المجتهدين في الصلاة والصوم فلما دفن كان يفوح من تراب قبره رائحة المسك، فرُئي في المنام فسئل عن تلك الرائحة التي توجد من قبره؛ فقال: تلك رائحة التلاوة والظمأ. والنوع الثاني: ما تستنشقه الأرواح والقلوب، فيوجب ذلك للصائمين المخلصين المودة والمحبة في قلوب المؤمنين. وفي حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ: «إن [يحيى بن] زكريا(٢) عليه السلام قال لبني إسرائيل: آمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم تعجبه ريحه، وإن ريح الصائم عند الله أطيب من ريح المسك»(٣) خرجه الترمذي وغيره. لما كان معاملة المخلصين بصيامهم لمولاهم سراً بينهم وبينه أظهر الله سرهم لعباده فصار علانية فصار هذا التجلي والإظهار جزاء لذلك الصون والإسرار، في الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية»(٤).

قال يوسف بن أسباط: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك يخفون لي أعمالهم وعلي إظهارها لهم.

---

(١) ضعيف جداً. وقد سبق تخريجه.
(٢) في الأصل: «زكريا».
(٣) صحيح. الترمذي (٢٨٦٣) وصححه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.
(٤) ضعيف جداً. رواه الطبراني في الكبير (١٧١/٢) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٣٧).

تذلل أرباب الهوى في الهوى عز وفقرهم نحو الحبيب هو الكنز
وسترهم فيه السرائر شهرة وغير تلاف النفس فيه هو العجز

والمعنى الثاني: أن من عبدالله وأطاعه وطلب رضاه في الدنيا بعمل فنشأ من عمله آثار مكروهة للنفوس في الدنيا فإن تلك الآثار غير مكروهة عند الله، بل هي محبوبة له وطيبة عنده لكونها نشأت عن طاعته واتباع مرضاته، فإخباره بذلك للعاملين في الدنيا فيه تطبيب لقلوبهم لئلا يكره منهم ما وجد في الدنيا. قال بعض السلف: وعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة أن يكلمه على رأسها فصام ثلاثين يوماً، ثم وجد من فيه خلوفاً فكره أن يناجي ربه على تلك الحال، فأخذ سواكاً فاستاك به، فلما أتى لموعد الله إياه قال له: يا موسى أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندنا من ريح المسك، ارجع فصم عشرة أخرى. ولهذا المعنى كان دم الشهيد ريحه يوم القيامة كريح المسك وغبار المجاهدين في سبيله ذريرة أهل الجنة. ورد في ذلك حديث مرسل. كل شيء ناقص في عرف الناس في الدنيا حتى إذا انتسب إلى طاعته ورضاه فهو الكامل في الحقيقة. خلوف أفواه الصائمين له أطيب من ريح المسك. عُري المحرمين لزيارة بيته أجمل من لباس الحلل. نَوْح المذنبين على أنفسهم من خشيته أفضل من التسبيح. انكسار المخبتين لعظمته هو الجبر. ذل الخائفين من سطوته هو العز، تَهتُّك المحبين في محبته أحسن من الستر. بذل النفوس للقتل في سبيله هو الحياة. جوع الصائمين لأجله هو الشبع. عطشهم في طلب مرضاته هو الري، نصب المجتهدين في خدمته هو الراحة.

ذل الفتى في الحب مكرمة وخضوعه لحبيبه شرف

هبت اليوم على القلوب نفحة من نفحات نسيم القرب. سعى سمسار المواعظ للمهجورين في الصلح، وصلت البشارة للمنقطعين بالوصل، وللمذنبين بالعفو، وللمستوجبين النار بالعتق. لما سلسل الشيطان في شهر رمضان، وخمدت نيران الشهوات بالصيام انعزل سلطان الهوى وصارت الدولة لحاكم العقل بالعدل، فلم يبق للعاصي عذر. يا غيوم الغفلة عن

القلوب تقشعي، يا شموس التقوى والإيمان اطلعي، يا صحائف أعمال الصالحين ارتفعي، يا قلوب الصائمين اخشعي، يا أقدام المجتهدين اسجدي لربك واركعي، يا عيون المتهجدين لا تهجعي، يا ذنوب التائبين لا ترجعي، يا أرض الهوى ابلعي ماءك ويا سماء النفوس أقلعي، يا بروق الأشواق للعشاق المعي، يا خواطر العارفين ارتعي، يا همم المحبين بغير الله لا تقنعي، يا جنيد اطرب، يا شبلي احضر، يا رابعة اسمعي، قد مدت في هذه الأيام موائد الإنعام للصوام فما منكم إلا من دعي: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١] ويا همم المؤمنين أسرعي، فطوبى لمن أجاب فأصاب، وويل لمن طرد عن الباب وما دعي.

سألتك يا بانة الأجرعي ... متى رفع الحي من لعلعي
وهل مر قلبي مع الظاعنين ... أم خار ضعفاً فلم يتبعي
رحلنا ووافقنا الصادقون ... ولم يتخلف سوى مدعي
ليت شعري إن جئتهم يقبلوني ... أم تراهم عن بابهم يصرفوني
أم تراني إذا وقفت لديهم ... يأذنوا بالدخول أم يطردوني

❋ ❋ ❋

## المجلس الثاني
## في فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، وكان جبريل يلقاه كل ليلة فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة[١]. وخرجه الإمام أحمد بزيادة في آخره وهي: لا يسأل عن شيء إلا أعطاه[٢].

(١) البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).
(٢) صحيح لغيره. أحمد (٢٠٤٣) ولهذه الزيادة شواهد تصح بها انظر الصحيحة (٢١٠٩).

والجود: هو سعة العطاء وكثرته، والله تعالى يوصف بالجود وفي الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ: «إن الله جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم»[١]. وفيه أيضاً من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ عن ربه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وحيكم وميتكم، ورطبكم ويابسكم، اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل منكم، ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مَرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه؛ ذلك بأني جواد واجد ماجد أفعل ما أريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردت أن أقول له: كن فيكون»[٢]. وفي الأثر المشهور عن فضيل بن عياض: أن الله تعالى يقول كل ليلة: أنا الجواد ومني الجود أنا الكريم ومني الكرم. فالله سبحانه وتعالى أجود الأجودين، وَجوده يتضاعف في أوقات خاصة كشهر رمضان وفيه أنزل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]. وفي الحديث الذي خرجه الترمذي وغيره: «أنه ينادي فيه منادٍ: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار وذلك في كل ليلة»[٣].

ولما كان الله ﷻ قد جبل نبيه ﷺ على أكرم الأخلاق وأشرفها كما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح[٤] الأخلاق»[٥] وذكره مالك في الموطأ بلاغاً. فكان رسول الله ﷺ أجود الناس كلهم، وخَرَّج ابن عدي بإسناد فيه ضعف من حديث أنس مرفوعاً: «ألا أخبركم بالأجود؟ الأجود: الله؛ الأجود الأجود، وأنا أجود بني آدم

(١) صحيح لغيره. الترمذي (٢٧٩٩) وصححه شيخنا لشواهده في صحيح الجامع (١٧٤٤).
(٢) ضعيف بهذا اللفظ. الترمذي (٢٤٩٥) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٥٣٧٥) ثم قال: «وأصله في صحيح مسلم من طريق أخرى عن أبي ذر بلفظ...» ثم ساقه.
(٣) صحيح. الترمذي (٦٨٢) وصححه شيخنا في المشكاة (١٩٦٠).
(٤) في نسخة: «مكارم» كما في هامش الأصل.
(٥) صحيح. رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وصححه شيخنا في الصحيحة (٤٥). تنبيه: رواه مالك في الموطأ (٩٠٤/٢) بلاغاً بلفظ: «حسن الأخلاق».

وأجودهم من بعدي رجل علم علماً فنشر علمه يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله»[١]. فدل هذا على أنه عليه السلام أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة. وكان جوده بجميع أنواع الجود من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولم يزل ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة في أول مبعثه: والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق[٢]. ثم تزايدت هذه الخصال فيه ﷺ بعد البعثة وتضاعفت أضعافاً كثيرة. وفي الصحيحين عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس، وأجود الناس[٣]. وفي صحيح مسلم[٤] عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: يا قوم! أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة[٥]. وفي رواية: أن رجلًا سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه فأتى قومه فقال: يا قوم! أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. قال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[٦]. وفيه أيضاً عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلي[٧]. قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين

---

(١) ضعيف. ابن عدي (١/٣٥٧) وضعفه شيخنا في المشكاة (٢٥٩).
(٢) رواه البخاري (٤) ومسلم (١٦٠).
(٣) البخاري (٢٨٢٠) ومسلم (٢٣٠٧).
(٤) مسلم (٢٣١٢).
(٥) في نسخة: «الفقر» كما في الأصل وما أثبت هو الموافق لما في الصحيح.
(٦) مسلم (٢٣١٢).
(٧) مسلم (٢٣١٣).

مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. وفي مغازي الواقدي أن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذٍ وادياً مملوء إبلًا ونعماً؛ فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي. وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم: أن الأعراب علقوا بالنبي ﷺ مرجعه من حنين يسألونه أن يقسم بينهم فقال: «لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوباً، ولا جباناً»[1]. وفيهما عن جابر قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال: لا. وإنه قال لجابر: «لو جاءنا مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ـ وقال: بيديه جميعاً ـ»[2]. وخرج البخاري من حديث سهل بن سعد: أن شملة أهديت للنبي ﷺ فلبسها وهو محتاج إليها، فسأله إياها رجل فأعطاه، فلامه الناس وقالوا: كان محتاجاً إليها وقد علمت أنه لا يرد سائلًا فقال: إنما سألتها لتكون كفني فكانت كفنه[3]. وكان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته فإنه كان يبذل المال إما لفقير، أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع، وكان قد أتاه ﷺ سبيٌ مرةً فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها، وقال: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع»[4]. وكان جوده ﷺ يضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور كما أن جود ربه يتضاعف فيه أيضاً، فإن الله جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة وكان على ذلك من قبل البعثة، وذكر ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً يطعم من جاءه

---

(١) البخاري (٢٨٢١) والحديث لم يروه مسلم.
(٢) البخاري (٢٢٩٦) ومسلم (٢٣١٤).
(٣) البخاري (١٢٧٧).
(٤) صحيح. رواه أحمد (٥٩٧).

من المساكين، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها وذلك الشهر شهر رمضان، خرج إلى حراء كما يخرج لجواره معه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل من الله ﷻ[1].

ثم كان بعد الرسالة جوده في رمضان أضعاف ما كان قبل ذلك. فإنه كان يلتقي هو وجبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة وأكرمهم ويدارسه الكتاب الذي جاء به إليه وهو أشرف الكتب وأفضلها وهو يحث على الإحسان ومكارم الأخلاق، وقد كان ﷺ هذا الكتاب له خلقاً بحيث يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه ويسارع إلى ما حث عليه ويمتنع مما زجر عنه. فلهذا كان يتضاعف جوده وإفضاله في هذا الشهر لقرب عهده بمخالطة جبريل عليه السلام وكثرة مدارسته له هذا الكتاب الكريم الذي يحث على المكارم والجود ولا شك إن المخالطة تؤثر وتورث أخلاقاً من المخالط. كان بعض الشعراء قد امتدح ملكاً جواداً فأعطاه جائزة سَنية فخرج بها من عنده وفرقها كلها على الناس وأنشد:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنا ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي

فبلغ ذلك الملك وأضعف له الجائزة. وقد قال بعض الشعراء يمدح بعض الأجواد ـ ولا يصلح أن يكون ذلك إلا لرسول الله ﷺ ـ:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبض لم تطعه[2] أنامله
تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
هو البحر[3] من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله
ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة بإسناد مرسل صحيح عن عبيد بن عمير وهو من ثقات التابعين.

(٢) كذا الأصل، والبيت لأبي تمام وعنده: «لم تجبه».

(٣) وعند أبي تمام: «هو اليم».

سمع الشبلي قائلًا يقول: يا الله يا جواد، فتأوه وصاح وقال: كيف يمكنني أن أصف الحق بالجود ومخلوق يقول في شكله، فذكر هذه الأبيات ثم بكى وقال: بلى يا جواد فإنك أوجدت تلك الجوارح، وبسطت تلك الهمم، فأنت، الجواد كل الجود فإنهم يعطون عن محدود، وعطاؤك لا حَدَّ له ولا صفة، فيا جواداً يعلو كل جواد وبه جاد كل من جاد. وفي تضاعف جوده ﷺ في شهر رمضان بخصوصه فوائد كثيرة:

**منها**: شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه. وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً: «أفضل الصدقة صدقة في رمضان»[(١)].

**ومنها**: إعانة الصائمين والذاكرين والقائمين على طاعتهم؛ فيستوجب المعين لهم مثل أجرهم كما أن من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقد غزا. وفي حديث زيد بن خالد عن النبي ﷺ قال: «من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيء»[(٢)] خرجه الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه، وخرجه الطبراني من حديث عائشة وزاد: «وما عمل الصائم من أعمال البر إلا كان لصاحب الطعام ما دام قوة الطعام فيه»[(٣)]. وخرج ابن خزيمة في صحيحه من حديث سلمان مرفوعاً حديثاً في فضل رمضان، وفيه: «وهو شهر المواساة وشهر يزاد فيه في رزق المؤمن، من فطر فيه صائماً كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء» قالوا: يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم؟ قال: «يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائماً على مذقة لبن أو تمرة أو شربة ماء ومن أشبع فيه صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة»[(٤)].

---

(١) ضعيف. وقد سبق تخريجه.

(٢) صحيح. أحمد (١٦٥٨٥) والنسائي في الكبرى (٢/٢٥٦) والترمذي (٨٠٧) وابن ماجه (١٧٤٦) وصححه شيخنا في المشكاة (١٩٩٢).

(٣) ضعيف جداً. الطبراني في الأوسط (٧/١٥٣).

(٤) منكر. ابن خزيمة (٣/١٩١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٨٧١).

**ومنها**: أن شهر رمضان شهر يجود الله فيه على عباده بالرحمة والمغفرة والعتق من النار لا سيما في ليلة القدر، والله تعالى يرحم من عباده الرحماء كما قال ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[١]. فمن جاد على عباد الله جاد الله عليه بالعطاء والفضل؛ والجزاء من جنس العمل.

**ومنها**: أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة كما في حديث علي عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها» قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[٢].

وهذه الخصال كلها تكون في رمضان فيجتمع فيه للمؤمن الصيام[٣] والقيام والصدقة وطيب الكلام فإنه ينهى فيه الصائم عن اللغو والرفث، والصيام والصلاة والصدقة توصل صاحبها إلى الله ﷻ. قال بعض السلف: الصلاة توصل صاحبها إلى نصف الطريق، والصيام يوصله إلى باب الملك، والصدقة تأخذ بيده فتدخله على الملك. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «من تصدق بصدقة؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»[٤].

**ومنها**: أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا واتقاء جهنم والمباعدة عنها، وخصوصاً إن ضم إلى ذلك قيام الليل فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الصيام جُنّة»[٥]. وفي رواية: «جنة أحدكم من النار

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

(٢) حسن. رواه الترمذي (١٩٨٤) وحسنه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.

(٣) في نسخة: «من الصيام» كما في الأصل.

(٤) مسلم (١٠٢٨).

(٥) رواه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١).

كجنته من القتال»[١]. وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وقيام الرجل في جوف الليل»[٢] - يعني: أنه يطفئ الخطيئة أيضاً -. وقد صرح بذلك في رواية الإمام أحمد. وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٣]. وكان أبو الدرداء يقول: صلوا في ظلمة الليل ركعتين لظلمة القبور، صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور، تصدقوا بصدقة لشر يوم عسير.

**ومنها**: أن الصيام لا بد أن يقع فيه خلل و نقص، وتكفير الصيام للذنوب مشروط بالتحفظ مما ينبغي التحفظ منه كما ورد ذلك في حديث خرجه ابن حبان في صحيحه[٤]، وعامة صيام الناس لا يجتمع في صومه التحفظ كما ينبغي؛ ولهذا نهي أن يقول الرجل: صمت رمضان كله، أو قمته كله، فالصدقة تجبر ما فيه من النقص والخلل؛ ولهذا أوجب في آخر شهر رمضان زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والصيام والصدقة لهما مدخل في كفارات الأيمان ومحظورات الإحرام وكفارة الوطء في رمضان. ولهذا كان الله تعالى قد خير المسلمين في ابتداء الأمر بين الصيام وإطعام المسكين، ثم نسخ ذلك وبقي الإطعام لمن يعجز عن الصيام لكبره، ومن أخر قضاء رمضان إلى رمضان آخر فإنه يقضيه ويضم إليه إطعام مسكين لكل يوم تقوية له عند أكثر العلماء كما أفتى به الصحابة، وكذلك من أفطر لأجل غيره كالحامل والمرضع على قول طائفة من العلماء.

**ومنها**: أن الصائم يدع طعامه وشرابه لله فإذا أعان الصائمين على التقوي على طعامهم وشرابهم كان بمنزلة من ترك شهوة لله تعالى وآثر بها أو واسى فيها، ولهذا يشرع له تفطير الصوام معه إذا أفطر؛ لأن الطعام

---

(١) صحيح. سبق تخريجه.

(٢) صحيح. رواه الترمذي (٢٦١٦) وصححه شيخنا في أحاديث مشكلة الفقر (١١٧).

(٣) رواه البخاري (١٤١٧) ومسلم (١٠١٦).

(٤) ضعيف. قلت: رواه ابن حبان (٣٤٣٣) بلفظ: «من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ ما ينبغي أن يتحفظ كفر ما قبله» ضعفه شيخنا في الضعيفة (٥٠٨٣).

يكون محبوباً له حينئذٍ فيواسي منه حتى يكون من أطعم الطعام على حبه، ويكون في ذلك شكر لله على نعمة إباحة الطعام والشراب له ورده عليه بعد منعه إياه فإن هذه النعمة إنما عرف قدرها عند المنع منها، وسئل بعض السلف: لم شرع الصيام؟ قال: ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع. وهذا من بعض حكم الصوم وفوائده. وقد ذكرنا فيما تقدم حديث سلمان وفيه: «وهو شهر المواساة»[١] فمن لم يقدر فيه على درجة الإيثار على نفسه فلا يعجز عن درجة أهل المواساة. كان كثير من السلف يواسون من إفطارهم أو يؤثرون به ويطوون. كان ابن عمر يصوم ولا يفطر إلا مع المساكين فإذا منعهم أهله عنه لم يتعش تلك الليلة، وكان إذا جاءه سائل وهو على طعامه أخذ نصيبه من الطعام وقام فأعطاه السائل، فيرجع وقد أكل أهله ما بقي في الجفنة؛ فيصبح صائماً ولم يأكل شيئاً. واشتهى بعض الصالحين من السلف طعاماً، وكان صائماً فوضع بين يديه عند فطره فسمع سائلًا يقول: من يقرض المليَّ الوفي الغني؟ فقال: عبده المعدم من الحسنات، فقام فأخذ الصحفة فخرج بها إليه وبات طاوياً. جاء سائل إلى الإمام أحمد فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره ثم طوى وأصبح صائماً. وكان الحسن يطعم إخوانه وهو صائم تطوعاً ويجلس يروحهم وهم يأكلون، وكان ابن المبارك يطعم إخوانه الألوان من الحلواء وغيرها في السفر وهو صائم. سلام الله على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك الأشباح لم يبق إلا أخبار وآثار، كم بين من يمنع الحق الواجب عليه وبين أهل الإيثار؟

**لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد**

وله فوائد أخر، قال الشافعي: أحب للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداء برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم. وكذا قال القاضي أبو يعلى وغيره من أصحابنا أيضاً. ودل الحديث أيضاً على استحباب دراسة القرآن في رمضان والاجتماع على ذلك وعرض القرآن على من هو أحفظ له. وفيه دليل على

(١) منكر.

استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان. وفي حديث فاطمة عليها السلام عن أبيها ﷺ: أنه أخبرها أن جبريل كان يعارضه القرآن كل عام مرة، وأنه عارضه في عام وفاته مرتين[١]، وفي حديث ابن عباس أن المدارسة بينه وبين جبريل كان ليلًا[٢]؛ فدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلًا؛ فإن الليل تنقطع فيه الشواغل ويجتمع فيه الهم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المُزمّل: ٦]، وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وقد قال ابن عباس: إنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر. ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القَدر: ١] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدّخَان: ٣]، وقد سبق عن عبيد بن عمير: أن النبي ﷺ بدئ بالوحي ونزول القرآن عليه في شهر رمضان. وفي المسند عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[٣].

وقد كان النبي ﷺ يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان قال: فقرأ بالبقرة ثم النساء ثم بآل عمران، لا يمر بآية تخويف إلا وقف فسأل، قال: فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة[٤]. خرجه الإمام أحمد، وخرجه النسائي وعنده: ما صلى إلا أربع ركعات[٥]. وكان عمر قد أمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن

---

(١) صحيح. سبق تخريجه.

(٢) صحيح. سبق تخريجه.

(٣) حسن. أحمد (١٦٥٣٦) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٥٧٥).

(٤) صحيح. أحمد (٢٢٨٩٠) وأصل الحديث في مسلم (٧٧٢) والحديث صححه شيخنا في صلاة التراويح (ص ١٥).

(٥) صحيح. النسائي (١٦٦٥) وصححه شيخنا في المصدر السابق.

يقوما بالناس في شهر رمضان فكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر. وفي رواية: أنهم كانوا يربطون الحبال بين السواري ثم يتعلقون بها. وروي أن عمر جمع ثلاثة قراء فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ بالناس ثلاثين، وأوسطهم بخمس وعشرين، وأبطأهم بعشرين. ثم كانوا في زمان التابعين يقرؤون بالبقرة في قيام رمضان في ثمان ركعات فإن قرأ بها في اثنتي عشرة ركعة رأوا أنه قد خفف. قال ابن منصور: سئل إسحاق ـ يعني: ابن راهويه ـ كم يقرأ في قيام شهر رمضان؟ فلم يرخص في دون عشر آيات. فقيل له: إنهم لا يرضون؟ فقال: لا رضوا، فلا تؤمهم إذا لم يرضوا بعشر آيات من البقرة، ثم إذا صرت إلى الآيات الخفاف فبقدر عشر آيات من البقرة ـ يعني: في كل ركعة ـ. وكذلك كره مالك أن يقرأ دون عشر آيات. وسئل الإمام أحمد عما روي عن عمر كما تقدم ذكره في السريع القراءة والبطيء فقال: في هذا مشقة على الناس، ولا سيما في هذه الليالي القصار وإنما الأمر على ما يحتمله الناس. وقال أحمد لبعض أصحابه ـ وكان يصلي بهم في رمضان ـ: هؤلاء قوم ضعفاء اقرأ بهم خمساً ستاً سبعاً، قال: فقرأت فختمت ليلة سبع وعشرين. وقد روي عن الحسن: أن الذي أمره عمر أن يصلي بالناس كان يقرأ خمس آيات، ست آيات. وكلام الإمام أحمد يدل على أنه يراعى في القراءة حال المأمومين فلا يشق عليهم، وقاله أيضاً غيره من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة وغيرهم. وقد روي عن أبي ذر أن النبي ﷺ قام بهم ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل، وليلة خمس وعشرين إلى نصف الليل، فقالوا له: لو نفلتنا بقية ليلتنا؟ فقال: «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له بقية ليلته»[1]. خرجه أهل السنن وحسنه الترمذي.

وهذا يدل على أن قيام ثلث الليل ونصفه يكتب به قيام ليلة، لكن مع الإمام. وكان الإمام أحمد يأخذ بهذا الحديث، ويصلي مع الإمام حتى

---

(١) صحيح. أبو داود (١٣٧٥) والنسائي (١٣٦٤) والترمذي (٨٠٦) وابن ماجه (١٣٢٧) وصححه شيخنا في الإرواء (٤٤٧).

ينصرف ولا ينصرف حتى ينصرف الإمام. وقال بعض السلف: من قام نصف الليل فقد قام الليل. وفي سنن أبي داود عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين»[١] يعني: أنه كتب له قنطار من الأجر. ويروى من حديث تميم وأنس مرفوعاً: «من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قيام ليلة»[٢]. وفي إسنادهما ضعف، وروي حديث تميم موقوفاً عليه وهو أصح. وعن ابن مسعود قال: من قرأ في ليلة خمسين آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب له قنطار[٣]. ومن أراد أن يطيل في القراءة ويزيد ـ وكان يصلي لنفسه ـ فليطول ما شاء، كما قاله النبي ﷺ. وكذلك من صلى بجماعة يرضون بصلاته، وكان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع منهم قتادة، وبعضهم في كل عشر منهم أبو رجاء العطاردي، وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، وكان الأسود يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان، وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة، وفي بقية الشهر في كل ثلاث، وكان قتادة يختم في كل سبع دائماً، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة، وعن أبي حنيفة نحوه، وكان قتادة يدرس القرآن في كل شهر رمضان، وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام. قال ابن عبدالحكم: كان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف. قال عبدالرزّاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن. وكانت عائشة تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان فإذا طلعت الشمس نامت. وقال سفيان: كان زبيد اليامي إذا حضر

---

(١) صحيح. أبو داود (١٣٩٨) وصححه شيخنا في الصحيحة (٦٤٢).
(٢) صحيح. أحمد (١٦٥١٠) والدارمي (٣٣١٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (٦٤٤).
(٣) رواه ابن أبي شيبة (١٣٤/٦) موقوفاً. وفيه عنعنة أبي إسحاق.

رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه. وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات الفضيلة كشهر رمضان ـ خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر أو في الأماكن الفاضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها ـ فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتناماً للزمان والمكان وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره.

واعلم أن المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه: جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين هذين الجهادين ووفى بحقوقهما وصبر عليهما وُفِّي أجره بغير حساب. قال كعب: ينادي يوم القيامة منادٍ بأن كل حارث يعطى بحرثه ويزاد غير أهل القرآن والصيام يعطون أجرهم بغير حساب. ويشفعان له أيضاً عند الله ﷻ كما في المسند عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الصيام والقيام يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات المحرمة بالنهار[1]، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه؛ فيشفعان»[2].

فالصيام يشفع لمن منعه الطعام، والشهوات المحرمة كلها سواء كان تحريمها يختص بالصيام كشهوة الطعام والشراب والنكاح ومقدماتها أو لا يختص به كشهوة فضول الكلام المحرم، والنظر المحرم. والسماع المحرم، والكسب المحرم، فإذا منعه الصيام من هذه المحرمات كلها فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة فيقول: يا رب منعته شهواته فشفعني فيه؛ فهذا لمن حفظ صيامه ومنعه من شهواته، فأما من ضيع صيامه ولم يمنعه مما حرمه الله عليه فإنه جدير أن يضرب به وجه صاحبه ويقول له: ضيعك الله كما ضيعتني. كما ورد مثل ذلك في الصلاة[3]. قال بعض السلف: إذا احتضر

---

(١) في المسند: «والشهوات بالنهار».

(٢) صحيح لغيره. أحمد (٦٥٨٩) وصححه شيخنا لطرقه وشواهده كما في تمام المنة (ص٣٩٤) وفي صحيح الترغيب (٩٨٤).

(٣) ضعيف. انظر ضعيف الجامع (٣٠١) وضعيف الترغيب (٢٢١).

المؤمن يقال للملك: شُمَّ رأسه، قال: أجد في رأسه القرآن، فيقال: شم قلبه، فيقول: أجد في قلبه الصيام، فيقال: شم قدميه، فيقول: أجد في قدميه القيام، فيقال: حفظ نفسه حفظه الله. وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل، فأما من قرأ القرآن وقام به فقد قام بحقه فيشفع له. وقد ذكر النبي ﷺ رجلًا فقال: «ذاك لا يتوسد القرآن»[(١)] يعني: لا ينام عليه فيصير له كالوسادة. وخرج الإمام أحمد من حديث بريدة مرفوعاً: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول: هل تعرفني؟ أنا صاحبك الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وكل تاجر من وراء تجارته، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذّاً كان أو ترتيلًا»[(٢)]. وفي حديث عبادة بن الصامت الطويل: «إن القرآن يأتي صاحبه في القبر فيقول له: أنا الذي كنت أُسهِر ليلك وأظمئ نهارك، وأمنعك شهواتك وسمعك وبصرك، فستجدني من الأخلاء خليلًا صادقاً، ثم يصعد فيسأل الله له فراشاً ودثاراً فيؤمر له بفراش من الجنة وقنديل من الجنة وياسمين من الجنة ثم يدفع القرآن في قبلة القبر فيوسع عليه ما شاء الله من ذلك»[(٣)].

قال ابن مسعود: ينبغي لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، ونهاره إذا الناس يفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحزنه إذا الناس يفرحون. قال محمد بن كعب: كنا نعرف قارئ القرآن بصفرة اللون يشير إلى سهره وطول تهجده. قال وهيب بن الورد: قيل لرجل: ألا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي. وصحب رجل رجلًا شهرين فلم يره نائماً فقال: ما لي لا أراك نائماً؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى. قال أحمد أبي الحواري: إني لأقرأ

---

(١) صحيح. رواه النسائي (١٧٨٣) وصححه شيخنا في صحيح سنن النسائي.
(٢) صحيح. أحمد (٢٢٤٤١) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٨٢٩).
(٣) موضوع. رواه الحارث بن أبي أسامة (٧٢٩/زوائد) وإسناده واهٍ.

القرآن وأنظر في آية آية، فيحير عقلي بها وأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم؟! ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله؟! أما إنهم لو فهموا ما يقولون، وعرفوا حقه وتلذذوا به واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحاً بما قد رزقوا. أنشد ذو النون [المصري]:

منع القرآن بوعده ووعيده ... مقل العيون بليلها لا تهجع
فهموا عن الملك الجليل كلامه ... فهماً تذل له الرقاب وتخضع

فأما من كان معه القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار فإنه ينتصب له القرآن خصماً له يطالبه بحقوقه التي ضيعها. وخرج الإمام أحمد من حديث سمرة أن النبي ﷺ رأى في منامه رجلًا مستلقياً على قفاه ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ به رأسه، فيتدهده الحجر فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان فيصنع به مثل ذلك، فسأل عنه؟ فقيل له: هذا رجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة[(١)]. وقد خرجه البخاري بغير هذا اللفظ[(٢)]، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ: «يمثل القرآن يوم القيامة رجلًا، فيؤتى بالرجل قد حمله فخالف أمره؛ فيتمثل له خصماً فيقول: يا رب حملته إياي فبئس الحامل تعدى حدودي وضيع فرائضي وركب معصيتي وترك طاعتي...، فما يزال يقذف عليه الحجج حتى يقال: شأنك به، فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار، ويؤتى بالرجل الصالح كان قد حمله وحفظ أمره؛ فيتمثل خصماً دونه فيقول: يا رب حملته إياي فخير حامل حفظ حدودي وعمل بفرائضي واجتنب معصيتي واتبع طاعتي...، فلا يزال يقذف له بالحجج حتى يقال: شأنك به، فيأخذه بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الإستبرق ويعقد عليه تاج الملك، ويسقيه كأس الخمر»[(٣)].

يا من ضيع عمره في غير الطاعة، يا من فرط في شهره بل في دهره

---

(١) صحيح. أحمد (١٩٦٥٢) وصححه شيخنا في صحيح الجامع (٣٤٦٢).
(٢) البخاري (١٣٨٦).
(٣) ضعيف. رواه ابن أبي شيبة (١٢٩/٦) وضعفه شيخنا في اقتضاء العلم العمل (٧٤).

وأضاعه، يا من بضاعته التسويف والتفريط، وبئست البضاعة، يا من جعل خصمه القرآن، وشهر رمضان، كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة؟!

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه والصور في يوم القيامة ينفخ

رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، وقائم حظه من قيامه السهر، كل قيام لا ينهى عن الفحشاء والمنكر لا يزيده صاحبه إلا بعداً، وكل صيام لا يصان عن قول الزور والعمل به لا يورث صاحبه إلا مقتاً ورداً، يا قوم! أين آثار الصيام؟ أين أنوار القيام؟.

إن كنت تنوح يا حمام البان للبين فأين شاهد الأحزان؟
أجفانك للدموع أم أجفاني لا يقبل مدع بلا برهان

هذا عباد الله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وفي بقيته للعابدين مستمتع، وهذا كتاب الله يتلى فيه بين أظهركم ويسمع، وهو القرآن الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً يتصدع، ومع هذا فلا قلب يخشع ولا عين تدمع، ولا صيام يصان عن الحرام فينفع، ولا قيام استقام فيرجى في صاحبه أن يشفع، قلوب خلت من التقوى فهي خراب بلقع، وتراكمت عليها ظلمة الذنوب فهي لا تبصر ولا تسمع، كم تتلى علينا آيات القرآن وقلوبنا كالحجارة أو أشد قسوة، وكم يتوالى علينا شهر رمضان وحالنا فيه كحال أهل الشقوة، لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الشيخ ينزجر عن القبيح فيلتحق بالصفوة، أين نحن من قوم إذا سمعوا داعي الله أجابوا الدعوة، وإذا تليت عليهم آيات الله جلت قلوبهم جلوة، وإذا صاموا صامت منهم الألسنة والأسماع والأبصار، أفما لنا فيهم أسوة؟! كما بيننا وبين حال أهل الصفا أبعد مما هنا وبين الصفا والمروة، كلما حسنت منا الأقوال ساءت منا الأعمال، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يا نفس فاز الصالحون بالتقى وأبصروا الحق وقلبي قد عمي
يا حسنهم والليل قد جنهم ونورهم يفوق نور الأنجم
ترنموا بالذكر في ليلهم فعيشهم قد طاب بالترنم

قلوبهم للذكر قد تفرغت دموعهم كلؤلؤ منتظم
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت وخلع الغفران خير القسم
ويحك يا نفس ألا تيقظ ينفع قبل أن تزل قدمي
مضى الزمان في توان وهوى فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

❋ ❋ ❋

## المجلس الثالث
## في ذكر العشر الأوسط من شهر رمضان
## وذكر نصف الشهر الأخير

في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف في العشر الأوسط من رمضان، فاعتكف عاماً، حتى إذا كانت ليلة إحدى وعشرين ـ وهي الليلة التي يخرج في صبيحتها من اعتكافه ـ قال: «من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر، وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر» فمطرت السماء تلك الليلة، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد فبصرت عيناي رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبح إحدى وعشرين[(١)]. هذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأوسط من شهر رمضان لابتغاء ليلة القدر فيه. وهذا السياق يقتضي أن ذلك تكرر منه. وفي رواية في الصحيحين في هذا الحديث: أنه اعتكف العشر الأول ثم اعتكف العشر الأوسط ثم قال: «إني أتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر؛ فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف» فاعتكف الناس معه[(٢)]. وهذا يدل على أن ذلك كان منه قبل أن يتبين له أنها في العشر الأواخر ثم لما تبين له ذلك اعتكف العشر الأواخر حتى قبضه الله ﷻ كما رواه عنه عائشة وأبو هريرة وغيرهما، وروي أن عمر

---

(١) البخاري (٢٠٢٧) ومسلم (١١٦٧).
(٢) البخاري (٨١٣) ومسلم (١١٦٧).

جمع جماعة من الصحابة، فسألهم عن ليلة القدر؟ فقال بعضهم: كنا نراها في العشر الأوسط ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر. وسيأتي الحديث بتمامه في موضع آخر - إن شاء الله - وخرج ابن أبي عاصم في كتاب الصيام وغيره من حديث خالد بن محدوج عن أنس أن النبي ﷺ قال: «التمسوها في أول ليلة أو في تسع، أو في أربع عشرة»[١]. وخالد هذا فيه ضعف. وهذا يدل على: أنها تطلب في ليلتين من العشر الأول، وفي ليلة من العشر الأوسط، وهي أربع عشرة. وقد سبق من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: «أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة من رمضان»[٢]. وقد ورد الأمر بطلب ليلة القدر في النصف الأواخر من رمضان، وفي أفراد ما بقي من العشر الأوسط من هذا النصف وهما ليلتان: ليلة سبع عشرة، وليلة تسع عشرة. أما الأول: فخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن أنيس أنه سأل النبي ﷺ عن ليلة القدر؟ فقال: «رأيتها ونسيتها فتحرها في النصف الأواخر» ثم عاد فسأله؟ فقال: «التمسها في ليلة ثلاث وعشرين تمضي من الشهر»[٣]. ولهذا المعنى - والله أعلم - كان أبي بن كعب يقنت في الوتر في ليالي النصف الأواخر؛ لأنه يرجى فيه ليلة القدر. وأيضاً فكل زمان فاضل من ليل أو نهار فإن آخره أفضل من أوله كيوم عرفة ويوم الجمعة وكذلك الليل والنهار عموماً آخره أفضل من أوله ولذلك كانت الصلاة الوسطى صلاة العصر كما دلت الأحاديث الصحيحة عليه وآثار السلف كثيرة تدل عليه، وكذلك عشر ذي الحجة والمحرم آخرهما أفضل من أولهما. وأما الثاني: ففي سنن أبي داود عن ابن مسعود مرفوعاً: «اطلبوها ليلة سبع عشرة من رمضان، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين» ثم سكت[٤].

---

(١) موضوع.

(٢) صحيح. وقد سبق تخريجه.

(٣) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/٨٨) والطبراني في الكبير وأصل الحديث في مسلم (١١٦٨).

(٤) ضعيف. أبو داود (١٣٨٤)وضعفه شيخنا في ضعيف سنن أبي داود.

وفي رواية: «ليلة تسع عشرة»[١]. وقيل: إن الصحيح وقفه على ابن مسعود فقد صح عنه أنه قال: تحروا ليلة القدر ليلة سبع عشرة صباحية[٢] بدر أو إحدى وعشرين[٣]. وفي رواية عنه قال: ليلة سبع عشرة، فإن لم تكن ففي تسع عشرة. وخرج الطبراني من رواية أبي المهزم ـ وهو ضعيف ـ عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «التمسوا ليلة القدر في سبع عشرة أو تسع عشرة أو إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين»[٤] ففي هذا الحديث التماسها في أفراد النصف الثاني كلها. ويروى من حديث عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا كان ليلة تسع عشرة من رمضان شد المئزر، وهجر الفراش حتى يفطر[٥]. قال البخاري: تفرد به عمر بن مسكين ولا يتابع عليه.

وقد روي عن طائفة من الصحابة أنها تطلب ليلة سبع عشرة وقالوا: إن صبيحتها كان يوم بدر. روي عن علي وابن مسعود وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم، وعمرو بن حريث، ومنهم من روي عنه أنها ليلة تسع عشرة؛ روي عن علي وابن مسعود وزيد بن أرقم.

والمشهور عند أهل السير والمغازي: أن ليلة بدر كانت ليلة سبع عشرة وكانت ليلة جمعة، وروي ذلك عن علي وابن عباس وغيرهما. وعن ابن عباس ـ رواية ضعيفة ـ: أنها كانت ليلة الاثنين. وكان زيد بن ثابت لا يحيي ليلة من رمضان كما يحيي ليلة سبع عشرة، ويقول: إن الله فرق في صبيحتها بين الحق والباطل وأذل في صبيحتها أئمة الكفر. وحكى الإمام أحمد هذا القول عن أهل المدينة: أن ليلة القدر تطلب ليلة سبع عشرة قال في رواية أبي داود فيمن قال لامرأته: أنت طالق ليلة القدر

---

(١) ضعيف. رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/٩٢).
(٢) في الأصل: «صباحة».
(٣) رواه الطحاوي (٣/٩٢).
(٤) ضعيف. الطبراني في الأوسط (٢/٧١).
(٥) ضعيف. رواه العقيلي في الضعفاء (٣/١٩١).

قال: يعتزلها إذا أدخل العشر وقبل العشر؛ أهل المدينة يرونها في السبع عشرة، إلا أن المثبت عن رسول الله ﷺ في العشر الأواخر. وحكي عن عامر بن عبدالله بن الزبير أنه كان يواصل ليلة سبع عشرة. وعن أهل مكة أنهم كانوا لا ينامون فيها ويعتمرون. وحكي عن أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة أن ليلة القدر في النصف الأواخر من رمضان من غير تعيين لها بليلة وإن كانت في نفس الأمر عند الله معينة، وروي عن عبدالرحمٰن بن الحارث بن هشام[1] قال: ليلةُ القدر ليلةَ سبع عشرة ليلةَ جمعةٍ. خرجه ابن أبي شيبة[2]. وظاهره: أنها إنما تكون ليلة القدر إذا كانت ليلة جمعة لتوافق ليلة بدر. وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناد جيد عن الحسن قال: إن غلاماً لعثمان بن أبي العاص قال له: يا سيدي إن البحر يَعْذُب في هذا الشهر في ليلةٍ. قال: فإذا كانت تلك الليلة فأعلمني قال: فلما كانت تلك الليلة آذنه فنظروا فوجدوه عذباً فإذا هي ليلة سبع عشرة. وروي من حديث جابر قال: كان رسول الله ﷺ يأتي قباء صبيحة سبع عشرة من رمضان أي يوم كان. خرجه أبو موسى المديني[3]. وقد قيل: إن المعراج كان فيها أيضاً. ذكر ابن سعد عن الواقدي عن أشياخه: أن المعراج كان ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان قبل الهجرة إلى السماء، وأن الإسراء كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة إلى بيت المقدس. وهذا يدل على قول من فرق بين المعراج والإسراء فجعل المعراج إلى السماء كما ذكر في سورة النجم، والإسراء إلى بيت المقدس خاصة كما ذكر في سورة سبحان. وقد قيل: إن ابتداء نبوة النبي ﷺ كان في سابع عشر رمضان قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نزل جبريل على رسول الله ﷺ ليلة السبت وليلة الأحد ثم ظهر له بحراء برسالة الله ﷻ يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان. وأصح ما روي في الحوادث في هذه الليلة أنها ليلة بدر كما سبق أنها كانت ليلة

(١) في الأصل: «هاشم».
(٢) ابن أبي شيبة (٢/٢٥١).
(٣) ضعيف.

سبع عشرة، وقيل: تسع عشر والمشهور أنها كانت ليلة سبع عشرة كما تقدم، وصبيحتها هو يوم الفرقان يوم التقى الجمعان وسمي يوم الفرقان؛ لأن الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل وأظهر الحق وأهله على الباطل وحزبه، وعلت كلمة الله وتوحيده، وذُلَّ أعداؤه من المشركين وأهل الكتاب، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة؛ فإن النبي ﷺ قدم المدينة في ربيع الأول في أول سنة من سني الهجرة، ولم يفرض رمضان في ذلك العام ثم صام عاشوراء وفرض عليه رمضان في ثاني سنة، فهو أول رمضان صامه وصامه المسلمون معه ثم خرج النبي ﷺ لطلب عير قريش قدمت من الشام إلى المدينة في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وأفطر ﷺ في خروجه إليها. قال ابن المسيب قال عمر: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوتين في رمضان يوم بدر ويوم الفتح وأفطرنا فيهما. وكان سبب خروجه حاجة أصحابه خصوصاً المهاجرين: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨] وكانت هذه العير معها أموال كثيرة لأعدائهم الكفار الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ظلماً وعدواناً كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] الآية، فقصد النبي ﷺ أن يأخذ أموال هؤلاء الكفار الظالمين المعتدين على أولياء الله وحزبه وجنده، فيردها على أولياء الله وحزبه المظلومين المخرجين من ديارهم وأموالهم؛ ليتقوَّوْا بها على عبادة الله وطاعته وجهاد أعدائه، وهذا مما أحله الله لهذه الأمة؛ فإنه أحل لهم الغنائم ولم تحل لأحد قبلهم، وكان عدة من معه ثلاثمائة وبضعة عشر وكانوا على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر وما جاوزه معه إلا مؤمن. وفي سنن أبي داود من حديث عبدالله بن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر من المقاتلة كما خرج طالوت، فدعا لهم رسول الله ﷺ حين خرجوا فقال: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، وإنهم عراة فاكسهم، وإنهم جياع فأشبعهم» ففتح الله يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما فيهم رجل إلا وقد رجع

بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا[١]. وكان أصحاب النبي ﷺ حين خرجوا على غاية من قلة الظهر والزاد فإنهم لم يخرجوا مستعدين لحرب ولا لقتال إنما خرجوا لطلب العير فكان معهم نحو سبعين بعيراً يعتقبونها بينهم كل ثلاثة على بعير وكان للنبي ﷺ زميلان فكانوا يعتقبون على بعير واحد فكان زميلاه يقولان له: يا رسول الله اركب حتى نمشي عنك فيقول ﷺ: «ما أنتما بأقوى على المشي مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[٢] ولم يكن معهما إلا فرسان، وقيل: ثلاثة، وقيل: فرس واحد للمقداد. وبلغ المشركين خروج النبي ﷺ لطلب العير فأخذ أبو سفيان بالعير نحو الساحل وبعث إلى أهل مكة يخبرهم الخبر ويطلب منهم أن ينفروا لحماية عيرهم فخرجوا مستصرخين، وخرج أشرافهم ورؤساؤهم وساروا نحو بدر، واستشار النبي ﷺ المسلمين في القتال، فتكلم المهاجرون فسكت عنهم وإنما كان قصده ﷺ الأنصار؛ لأنه ظن أنهم لم يبايعوه إلا على نصرته على من قصده في ديارهم، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد - يعني: الأنصار - والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا[٣]. وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المَائدة: ٢٤] ولكن نقاتل معك عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك؛ فسر النبي ﷺ بذلك[٤]، وأجمع على القتال، وبات تلك الليلة ليلة الجمعة سابع عشر رمضان قائماً يصلي ويبكي ويدعو الله ويستنصره على أعدائه. وفي المسند عن علي قال: لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح[٥]. وفيه عنه أيضاً قال: أصابنا طَشٌّ من مطر - يعني: ليلة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل بها من

---

(١) حسن. أبو داود (٢٧٤٧) وحسنه شيخنا في المشكاة (٥٩٢٩).

(٢) حسن. أحمد (٣٩٩٩) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٢٢٥٧).

(٣) مسلم (١٧٧٩).

(٤) البخاري (٣٩٥٢).

(٥) صحيح. أحمد (١٠٢٦) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٥٤٥).

المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقول: «إن تهلك هذه الفئة[١] لا تعبد» فلما طلع الفجر نادى: «الصلاة عباد الله» فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحث على القتال[٢]. وأمد الله تعالى نبيه والمؤمنين بنصر من عنده وبجند من جنده كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠] وفي صحيح البخاري: أن جبريل قال للنبي ﷺ: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها ـ» قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة[٣]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عِمـرَان: ١٢٣]، وقـال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفـال: ١٧]. وروي أن النبي ﷺ لما رآهم قال: «اللهم إن هؤلاء قريش قد جاءت بخيلائها يكذبون رسولك، فأنجز لي ما وعدتني» فأتاه جبريل فقال: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فأخذ قبضة من حصباء[٤] الوادي فرمى بها نحوهم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخره وفمه شيء ثم كانت الهزيمة[٥]. وقال حكيم بن حزام: سمعنا يوم بدر صوتاً وقع من السماء كأنه صوت حصاة على طست، فرمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا. ولما قدم الخبر على أهل مكة قالوا لمن أتاهم بالخبر: كيف حال الناس؟ قال: لا شيء، والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلونا ويأسرونا كيف شاءوا، وأيم الله ـ مع ذلك ـ ما لمتُ الناسَ؛ لقينا رجالًا على خيل بُلقٍ بين السماء والأرض ما يقوم لها شيء. وقتل الله صناديد كفار قريش يومئذٍ منهم عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد بن عتبة وأبو جهل، وأسروا منهم سبعين.

---

(١) في نسخة: «العصابة» كما في الأصل.
(٢) صحيح. أحمد (٩٥١) وصححه الشيخ شعيب في تعليقه على المسند.
(٣) البخاري (٣٩٩٢).
(٤) في نسخة: «حصى» كما في الأصل.
(٥) ضعيف بهذا السياق. رواه ابن جرير في تفسيره (٩/٢٠٤).

وقصة بدر يطول استقصاؤها وهي مشهورة في التفسير وكتب الصحاح والسنن والمسانيد والمغازي والتواريخ وغيرها؛ وإنما المقصود ههنا التنبيه على بعض مقاصدها.

وكان عدو الله إبليس قد جاء إلى المشركين في صورة سراقة بن مالك وكانت يده في يد الحارث بن هشام وجعل يشجعهم ويعدهم ويمنيهم فلما رأى الملائكة هرب وألقى نفسه في البحر وقد أخبر الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]. وفي الموطأ حديث مرسل عن النبي ﷺ قال: «ما رُئي الشيطان أحقر ولا أدحر ولا أصغر من يوم عرفة إلا ما رأى يوم بدر» فقيل: ما رأى يوم بدر؟ قال: «رأى جبريل يزع الملائكة»(١). فإبليس عدو الله يسعى جهده في إطفاء نور الله وتوحيده ويغري بذلك أولياءه من الكفار والمنافقين فلما عجز عن ذلك بنصر الله نبيه وإظهار دينه على الدين كله رضي بإلقاء الفتن بين المسلمين واجتزى منهم بمحقرات الذنوب حيث عجز عن ردهم عن دينهم. كما قال النبي ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»(٢) خرجه مسلم من حديث جابر. وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص قال: سمعت النبي ﷺ يقول في حجة الوداع: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن ستكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى بها»(٣). وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع فقال: «إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضكم ولكنه يرضى أن يطاع فيما سوى ذلك فيما تحاقرون من

---

(١) ضعيف. مالك (٤٢٢/١) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٣٩).

(٢) مسلم (٢٨١٢).

(٣) صحيح. أحمد (١٥٠٨١) والنسائي في الكبرى (٣٥٣/٦) والترمذي (٢١٥٩) وابن ماجه (٣٠٥٥) وصححه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.

أعمالكم فاحذروا، يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»[١]. ولم يعظم على إبليس شيء أكثر من بعثة محمد ﷺ وانتشار دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، فإنه أيس أن تعود أمته كلهم إلى الشرك الأكبر. قال سعيد بن جبير: لما رأى إبليسُ النبيَّ ﷺ قائماً بمكة يصلي رَنَّ، ولما افتتح النبي ﷺ مكة رن رنة أخرى اجتمعت إليه ذريته فقال: آيسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا ولكن افتنوهم في دينهم وافشوا فيهم النوح والشعر. خرجه ابن أبي الدنيا[٢]. وخرج الطبراني بإسناده عن مجاهد عن أبي هريرة قال: إن إبليس رن لما أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة[٣]. ـ والمعروف هذا عن مجاهد من قوله ـ قال: رن إبليس أربع رنات: حين لعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بعث محمد، وحين أنزلت فاتحة الكتاب. وأنزلت بالمدينة، خرجه وكيع وغيره. وقال بعض التابعين: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية، بكى إبليس. يشير إلى شدة حزنه بنزولها لما فيها من الفرح لأهل الذنوب فهو لا يزال في هم وغم وحزن منذ بعث النبي ﷺ لما رأى منه ومن أمته ما يهمه ويغيظه. قال ثابت: لما بعث النبي ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو، فانطلقوا، ثم جاؤوه فقالوا: ما ندري؟ قال إبليس: أنا أنبئكم بالخبر، فذهب وجاء، قال: بعث محمد ﷺ فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فيجيئوا بصحفهم ليس فيها شيء فقال: ما لكم لا تصيبون منهم شيئاً؟ قالوا: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون إلى الصلاة فيمحى ذلك، قال: رويداً إنهم عسى أن يفتح الله لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم. وعن الحسن قال: قال إبليس: سولت لأمة محمد المعاصي فقطعوا ظهري بالإستغفار فسولت لهم ذنوباً لا يستغفرون

(١) صحيح. الحاكم (٩٣/١) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٤٠).
(٢) ضعيف. ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (٣٣).
(٣) ضعيف. الطبراني في الأوسط (١٠٠/٥) وصوب الدارقطني في العلل (٢٣٥/٨) أنه من قول مجاهد.

منها ـ يعني: الأهواء ـ. ولا يزال إبليس يرى في مواسم المغفرة والعتق من النار ما يسوؤُهُ؛ فيوم عرفة لا يرى أصغر ولا أحقر ولا أدحر فيه منه؛ لما يرى من نزول الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رُئي يوم بدر. وروي أنه لما رأى نزول المغفرة للأمة في حجة الوداع يوم النحر بالمزدلفة أهوى يحثي على رأسه التراب ويدعو بالويل والثبور، فتبسم النبي ﷺ مما رأى من جزع الخبيث.

وفي شهر رمضان يلطف الله بأمة محمد فيغل فيه الشياطين ومردة الجن حتى لا يقدروا على ما كانوا يقدرون عليه في غيره من تسويل الذنوب؛ ولهذا تقل المعاصي في شهر رمضان في الأمة لذلك. ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين»[(١)]. ولمسلم: «فتحت أبواب الرحمة»[(٢)] وله أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وأغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»[(٣)]. وخرج منه البخاري ذكر فتح أبواب الجنة[(٤)]، وللترمذي وابن ماجه عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة»[(٥)]. وفي رواية للنسائي: «وتغل فيه مردة الشياطين»[(٦)]. وللإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعطيت أمتي في رمضان خمس خصال لم تعطه أمة قبلهم: خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى

---

(١) البخاري (١٨٩٩) ومسلم (١٠٧٩).
(٢) مسلم (١٠٧٩).
(٣) مسلم (١٠٧٩).
(٤) البخاري (١٨٩٨).
(٥) صحيح. تقدم.
(٦) صحيح لغيره. النسائي (٢١٠٦) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٩٩٩).

يفطروا، ويزين الله كل يوم جنته، ثم يقول: يوشك عبادي الصالحون أن يلقوا عنهم المؤنة والأذى ويصيروا إليك، وتصفد مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، يغفر لهم في آخر ليلة» قيل: يا رسول الله أهي ليلة القدر؟ قال: «لا، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله»[1].

وفي ليلة القدر تنتشر الملائكة في الأرض فيبطل سلطان الشياطين، كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: ٤، ٥]. وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى»[2]. وفي صحيح ابن حبان عن جابر عن النبي ﷺ قال في ليلة القدر: «لا يخرج شيطانها حتى يخرج فجرها»[3]. وفي المسند من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال في ليلة القدر: «لا يحل لكوكب أن يرمى به [فيها] حتى يصبح، وإن أمارتها أن الشمس تخرج صبيحتها مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذٍ»[4]. وروي عن ابن عباس قال: إن الشيطان يطلع مع الشمس كل يوم إلا ليلة القدر وذلك أنها تطلع لا شعاع لها. وقال مجاهد في قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القدر: ٥] قال: سلام أي لا يحدث فيها داء، ولا يستطيع شيطان العمل فيها. وعنه قال: ليلة القدر ليلة سالمة لا يحدث فيها داء ولا يرسل فيها شيطان. وعنه قال: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا يحدث فيها أذىً. وعن الضحاك عن ابن عباس قال: في تلك الليلة تصفد مردة الجن وتغل عفاريت الجن وتفتح فيها أبواب السماء كلها وتقبل فيها التوبة لكل تائب. فلذلك قال: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: ٥]. ويروى عن

---

(١) ضعيف جداً. أحمد (٧٨٥٧) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٥٨٦).

(٢) حسن. أحمد (١٠٣٥٦) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٢٢٠٥).

(٣) صحيح لغيره. ابن حبان (٣٦٨٨) وقال شيخنا في التعليقات الحسان: «صحيح لغيره».

(٤) حسن لغيره. أحمد (٢٢٢٥٩) وفيه انقطاع لكن معناه ثابت في أحاديث أخرى انظر الضعيفة (٩/٣٩٣).

أبي بن كعب ﷺ قال: لا يستطيع الشيطان أن يصيب فيها أحداً بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد، ولا ينفذ فيها سحر. ويروى بإسناد ضعيف عن أنس مرفوعاً: «أنه لا تسري نجومها، ولا تنبح كلابها»(١). وكل هذا يدل على كف الشياطين فيها عن انتشارهم في الأرض ومنعهم من استراق السمع فيها من السماء.

ابن آدم! لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصي، أنت المختار من المخلوقات، ولك أعدت الجنة إن اتقيت، فهي إقطاع المتقين والدنيا إقطاع إبليس، فهو فيها من المنظرين. فكيف رضيت لنفسك بالإعراض عن إقطاعك ومزاحمة إبليس على إقطاعه؟ وأن تكون غداً معه في النار من جملة أتباعه؟ إنما طردناه عن السماء لأجلك حيث تكبر عن السجود لأبيك، وطلبنا قربك لتكون من خاصتنا وحزبنا فعاديتنا وواليت عدونا: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

رعى الله من نهوى وإن كان ما رعى ... حفظنا له العهد القديم فضيعا
وصاحبتَ قوماً كنت أنهاك عنهم ... وحقك ما أبقيت للصلح موضعا

أبشروا يا معاشر المسلمين فهذه أبواب الجنة الثمانية في هذا الشهر لأجلكم قد فتحت، ونسماتها على قلوب المؤمنين قد نفحت، وأبواب الجحيم كلها لأجلكم مغلقة، وأقدام إبليس وذريته من أجلكم موثقة، ففي هذا الشهر يؤخذ من إبليس بالثأر، وتُستخلص العصاة من أسره فما يبقى لهم عنده آثار، كانوا أفراخه قد غذاهم بالشهوات في أوكاره فهجروا اليوم تلك الأوكار، نقضوا معاقل حصونه بمعاول التوبة والاستغفار، خرجوا من سجنه إلى حصن التقوى والإيمان فأمنوا من عذاب النار، قصموا ظهره بكلمة التوحيد فهو يشكو ألم الانكسار، في كل موسم من مواسم الفضل يحزن، ففي هذا الشهر يدعو بالويل والثبور لما يرى من تنزل الرحمة ومغفرة الأوزار، غلب حزب الرحمن وهرب حزب الشياطين فما بقي له

---

(١) ضعيف.

سلطان إلا على الكفار، عزل سلطان الهوى وصارت الدولة لسلطان التقوى؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

يا ندامايَ صحا القلب صحا ... فاطردوا عني الصبا والمرحا
هزم العقل جنوداً للهوى ... فاسِدِي لا تعجبوا إن صلحا
زجر الحق فؤادي فارعوى ... وأفاق القلب مني وصحا
بادروا التوبة من قبل الردى ... فمناديه ينادينا الوحا

هذا ـ عباد الله ـ شهر رمضان قد انتصف، فمن منكم حاسب فيه نفسه لله وأنصف؟ من منكم قام في هذا الشهر بحقه الذي عرف؟ من منكم عزم قبل غلق أبواب الجنة أن يبني له فيها غرفاً من فوقها غرف؟ ألا إن شهركم قد أخذ في النقص فزيدوا أنتم في العمل، فكأنكم به وقد انصرف، فكل شهر فعسى أن يكون منه خلف، وأما شهر رمضان فمن أين لكم منه خلف؟.

تنصف الشهر والهفاه وانهدما ... واختص بالفوز بالجنات من خدما
وأصبح الغافل المسكين منكسراً ... مثلي فيا ويحه يا عظم ما حُرِما
من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصد إلا الهمَّ والندما
طوبى لمن كانت التقوى بضاعته ... في شهره وبحبل الله معتصما

❀ ❀ ❀

## المجلس الرابع
## في ذكر العشر الأواخر من رمضان

في الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله[1]. هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدَّ، وشد المئزر. وفي رواية لمسلم عنها قالت:

(١) البخاري (٢٠٢٤) ومسلم (١١٧٤).

كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر مالا يجتهد في غيره[(١)]. كان النبي ﷺ يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر فمنها: إحياء الليل: فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله. وقد روي من حديث عائشة ﵂ من وجه فيه ضعف بلفظ: وأحيا الليل كله. وفي المسند من وجه آخر عنها قالت: كان النبي ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كان العشر شمر وشد المئزر[(٢)]. وخرج الحافظ أبو نعيم بإسناد فيه ضعف عن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا شهد رمضان قام ونام، فإذا كان أربعاً وعشرين لم يذق غمضاً[(٣)]. ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه. وقد روي عن بعض المتقدمين من بني هاشم ظنه الراوي أبا جعفر محمد بن علي أنه فسر ذلك بإحياء نصف الليل، وقال: من أحيا نصف الليل فقد أحيا الليل. وقد سبق مثل هذا في قول عائشة: كان النبي ﷺ يصوم شعبان كله، كان يصومه إلا قليلًا[(٤)]. ويؤيده ما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: ما أعلمه ﷺ قام ليلة حتى الصباح[(٥)].

وذكر بعض الشافعية في إحياء ليلتي العيدين أنه يحصل فضيلة الإحياء بمعظم الليل، قال: وقيل: يحصل بساعة، وقد نقل الشافعي في الأم عن جماعة من خيار أهل المدينة ما يؤيده. ونقل بعض أصحابهم عن ابن عباس أن إحياءها يحصل بأن يصلي العشاء في جماعة ويعزم على أن يصلي الصبح في جماعة. وقال مالك في الموطأ بلغني أن ابن المسيب قال: من شهد ليلة القدر ـ يعني: في جماعة ـ فقد أخذ بحظه منها.

وكذا قال الشافعي في القديم: من شهد العشاء والصبح ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها. وقد روي هذا من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من صلى

---

(١) مسلم (١١٧٥).
(٢) ضعيف. أحمد (٢٤٦١٢) وإسناده ضعيف.
(٣) ضعيف. أبو نعيم في الحلية (٦/٣٠٦).
(٤) صحيح. تقدم.
(٥) مسلم (٧٤٦).

العشاء الآخرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر»[1] خرجه أبو الشيخ الأصبهاني، ومن طريقه أبو موسى المديني وذكر أنه روي من وجه آخر عن أبي هريرة نحوه. ويروى من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً لكن إسناده ضعيف جداً، ويروى من حديث أبي جعفر محمد بن علي مرسلًا: أن النبي ﷺ قال: «من أتى عليه رمضان صحيحاً مسلماً صام نهاره، وصلى ورداً من ليله، وغض بصره، وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ على صلاته في الجماعة، وبكر إلى جمعة فقد صام الشهر واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر، وفاز بجائزة الرب ﷻ»[2]. قال أبو جعفر: جائزة لا تشبه جوائز الأمراء. خرجه ابن أبي الدنيا.

ولو نذر قيام ليلة القدر لزمه أن يقوم من ليالي شهر رمضان ما يتيقن به قيامها، فمن قال من العلماء: إنها في جميع الشهر يقول: يلزمه قيام جميع ليالي الشهر، ومن قال: هي في النصف الأخير من الشهر قال: يلزمه قيام ليالي النصف الأخير منه، ومن قال: هي في العشر الأواخر من الشهر قال: يلزمه قيام ليالي العشر كلها. وهو قول أصحابنا، وإن كان نذره كذلك وقد مضى بعض ليالي العشر؛ فإن قلنا: إنها لا تنتقل في العشر أجزأه في نذره أن يقوم ما بقي من ليالي العشر، ويقوم من عام قابل من أول العشر إلى وقت نذره، وإن قلنا: إنها تنتقل في العشر لم يخرج من نذره بدون قيام ليالي العشر كلها بعد عام نذره، ولو نذر قيام ليلة غير معينة لزمه قيام ليلة تامة، فإن قام نصف ليلة ثم نام أجزأه أن يقوم من ليلة أخرى نصفها، قاله الأوزعي نقله عنه الوليد بن مسلم في كتاب النذور وهو شبيه بقول من قال من أصحابنا وغيرهم: إنَّ الكفارة يجزئ فيها أن يعتق نصفي رقبتين.

**ومنها**: أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي. وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ لما قام بهم ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين ذكر أنه دعا أهله ونساءه ليلة سبع وعشرين

---

(١) ضعيف. رواه ابن خزيمة (٢١٩٥) وضعفه شيخنا في تعليقه على ابن خزيمة.

(٢) ضعيف.

خاصة[١]، وهذا يدل على أنه يتأكد إيقاظهم في آكد الأوتار التي ترجى فيها ليلة القدر. وخرج الطبراني من حديث علي: أن النبي ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة[٢]. قال سفيان الثوري: أحب إلي إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل ويجتهد فيه، وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك. وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلًا فيقول لهما: «ألا تقومان فتصليان؟»[٣]. وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر. وورد الترغيب في إيقاظ أحد الزوجين صاحبه للصلاة ونضح الماء في وجهه. وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] الآية[٤]. كانت امرأة حبيب أبي محمد تقول له بالليل: قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا.

يا نائماً بالليل[٥] كم ترقد ... قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته ... ورداً إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد

**ومنها**: أنه ﷺ كان يشد المئزر؛ واختلفوا في تفسيره، فمنهم من قال: هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة كما يقال: فلان يشد وسطه ويسعى في كذا، وهذا فيه نظر فإنها قالت: جَدَّ وشد المئزر فعطفت شد المئزر على جده، والصحيح أن المراد: اعتزاله للنساء. وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون منهم: الثوري، وقد ورد ذلك صريحاً من حديث

(١) صحيح. وقد تقدم.
(٢) ضعيف. الطبراني في الأوسط (٧/٢٥٣).
(٣) صحيح. وقد سبق تخريجه.
(٤) مالك (١/١١٩).
(٥) في نسخة: «راقد الليل» كما في الأصل.

عائشة وأنس، وورد تفسيره بأنه لم يأو إلى فراشه حتى ينسلخ رمضان[1]، وفي حديث أنس: وطوى فراشه واعتزل النساء[2]. وقد كان النبي ﷺ غالباً يعتكف العشر الأواخر، والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنص والإجماع، وقد قال طائفة من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧] إنه طلب ليلة القدر، والمعنى في ذلك: أن الله تعالى لما أباح مباشرة النساء في ليالي الصيام إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر أمر مع ذلك بطلب ليلة القدر لئلا يشتغل المسلمون في طول ليالي الشهر بالاستمتاع المباح فيفوتهم طلب ليلة القدر فأمر مع ذلك بطلب ليلة القدر بالتهجد من الليل خصوصاً في الليالي المرجو فيها ليلة القدر. فمن هنا كان النبي ﷺ يصيب من أهله في العشرين من رمضان، ثم يعتزل نساءه ويتفرغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر. ومنها: تأخيره للفطور إلى السحر. وروي عنه من حديث عائشة وأنس أنه ﷺ كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحوراً، ولفظ حديث عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا كان رمضان قام ونام، فإذا دخل العشر شد المئزر واجتنب النساء، واغتسل بين الأذانين وجعل العشاء سحوراً[3]. أخرجه ابن أبي عاصم وإسناده مقارب، وحديث أنس خرجه الطبراني ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان طوى فراشه، واعتزل النساء، وجعل عشاءه سحوراً[4]. وفي إسناده حفص بن واقد، قال ابن عدي: هذا الحديث من أنكر ما رأيت له. وروي أيضاً نحوه من حديث جابر خرجه أبو بكر الخطيب وفي إسناده من لا يعرف حاله. وفي الصحيحين ما يشهد لهذه الروايات ففيهما عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم. فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله؟ فقال: «وأيكم مثلي إني أبيت عند ربي يطعمني

---

(١) ضعيف. رواه ابن عدي في الكامل (١١٦/٥).

(٢) ضعيف. رواه الطبراني في الأوسط (١٣/٦).

(٣) ضعيف.

(٤) ضعيف. وقد تقدم.

ويسقيني» فلما أبَوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: «لو تأخر لزدتكم» كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا[١]. فهذا يدل على أنه واصل بالناس في آخر الشهر. وروى عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة قال: ما واصل النبي ﷺ وصالكم قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحور. وإسناده لا بأس به. وخرج الإمام أحمد من حديث علي أن النبي ﷺ كان يواصل إلى السحر[٢]. وخرجه الطبراني من حديث جابر أيضاً، وخرج ابن جرير الطبري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يواصل إلى السحر، ففعل ذلك بعض أصحابه فنهاه، فقال: أنت تفعل ذلك؟! فقال: «إنكم لستم مثلي، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»[٣] وزعم ابن جرير: أن النبي ﷺ لم يكن يواصل في صيامه إلا إلى السحر خاصة وأن ذلك يجوز لمن قوي عليه، ويكره لغيره، وأنكر أن يكون استدامة الصيام في الليل كله طاعة عند أحد من العلماء. قال: إنما كان يمسك بعضهم لمعنى آخر غير الصيام إما ليكون أنشط له على العبادة أو إيثاراً بطعامه على نفسه أو لخوف مقلق منعه طعامه أو نحو ذلك. فمقتضى كلامه: أن من واصل ولم يفطر ليكون أنشط له على العبادة من غير أن يعتقد أن إمساك الليل قربة أنه جائز وإن أمسك تعبداً بالمواصلة فإن كان إلى السحر وقوي عليه لم يكره وإلا كره. ولذلك قال أحمد وإسحاق: لا يكره الوصال إلى السحر. وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله؟! قال: «إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني»[٤] وظاهر هذا يدل على أنه ﷺ كان يواصل الليل كله، وقد يكون النبي ﷺ إنما فعل ذلك؛ لأنه رآه أنشط له على الاجتهاد في ليالي العشر ولم يكن ذلك مضعفاً له عن العمل؛ فإن الله كان يطعمه

---

(١) البخاري (١٩٦٥) ومسلم (١١٠٣).

(٢) صحيح. أحمد (٧٠٢) انظر التعليق على ابن خزيمة (٢٠٧٢).

(٣) صحيح. ورواه ابن خزيمة (٢٠٧٢) وصححه شيخنا.

(٤) البخاري (١٩٦٣).

ويسقيه. واختلف في معنى إطعامه فقيل: إنه كان يؤتى بطعام من الجنة يأكله، وفي هذا نظر فإنه لو كان كذلك لم يكن مواصلًا وقد أقرهم على قولهم له: إنك تواصل، لكن روى عبدالرزّاق في كتابه عن ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار: أن النبي ﷺ نهى عن الوصال. قالوا: فإنك تواصل؟ قال: «وما يدريكم لعل ربي يطعمني ويسقيني»[1] وهذا مرسل. وفي رواية لمسلم من حديث أنس: «إني أظل يطعمني ربي ويسقيني»[2]. وإنما يقال: ظل يفعل كذا إذا كان نهاراً، ولو كان أكلًا حقيقياً لكان منافياً للصيام. والصحيح: أنه إشارة إلى ما كان الله تعالى يفتحه عليه في صيامه وخلوته بربه لمناجاته، وذكره من مواد أنسه ونفحات قدسه، فكان يرد بذلك على قلبه من المعارف الإلهية والمنح الربانية ما يغذيه ويغنيه فيه عن الطعام والشراب كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الطعام ويلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضيء به ... وقت المسير وفي أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعاد

الذكر قوت قلوب العارفين يغنيهم عن الطعام والشراب كما قيل:

أنت ربي إذا ظمئت إلى الما ... ء وقوتي إذا أردت الطعاما

لما جاع المجتهدون شبعوا من طعام المناجاة. فأف لمن باع لذة المناجاة بفضل لقمة.

يا من لحشا المحب بالشوق حشا ... ذا سر سراك في الدجا كيف فشا
هذا المولى إلى المماليك مشى ... لا كان عيشاً أورث القلب غشا

ويتأكد تأخير الفطر في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر، قال زر بن حبيش: في ليلة سبع وعشرين من استطاع منكم أن يؤخر فطره فليفعل

---

(١) ضعيف. عبدالرزّاق (٢٦٨/٤).

(٢) مسلم (١١٠٤) ونحوه في البخاري (٧٢٤١).

وليفطر على ضياح لبن. ورواه بعضهم عن زر عن أبي بن كعب مرفوعاً ولا يصح. وضياح اللبن: ـ ويروى: (ضيح) بالضاد المعجمة والياء آخر الحروف ـ هو اللبن الخاثر الممزوج بالماء. وروى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن علي قال: إن وافق ليلة القدر وهو يأكل أورثه داء لا يفارقه حتى يموت. وخرجه من طريقه أبو موسى المديني وكأنه يريد إذا وافق دخولها أكله والله أعلم.

**ومنها**: اغتساله ﷺ بين العشاءين؛ وقد تقدم من حديث عائشة: واغتسل بين الأذانين[1]. والمراد أذان المغرب والعشاء. وروي من حديث علي أن النبي ﷺ كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة ـ يعني: من العشر الأواخر ـ. وفي إسناده ضعف. وروي عن حذيفة أنه قام مع النبي ﷺ ليلة من رمضان فاغتسل النبي ﷺ وستره حذيفة وبقيت فضلة فاغتسل بها حذيفة وستره النبي ﷺ. خرجه ابن أبي عاصم. وفي رواية أخرى عن حذيفة قال: قام النبي ﷺ ذات ليلة من رمضان في حجرة من جريد النخل فصب عليه دلواً من ماء[2]. وقال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر. وكان النخعي يغتسل في العشر كل ليلة. ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى لليلة القدر، فأمر زر بن حبيش بالاغتسال ليلة سبع وعشرين من رمضان، وروي عن أنس بن مالك: أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين من رمضان اغتسل وتطيب ولبس حلة إزاراً أو رداء، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسهما إلى مثلها من قابل. وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ويلبس ثوبين جديدين ويستجمر ويقول: ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة أهل المدينة والتي تليها ليلتنا ـ يعني: البصريين ـ. وقال حماد بن سلمة: كان ثابت البناني وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيّبان المسجد بالنضوح والدخنة في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر. وقال ثابت البناني: كان لتميم الداري حلة

---

(١) ضعيف. تقدم.

(٢) صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٢٠٩/١).

اشتراها بألف درهم كان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر. فتبين بهذا أنه يستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين، والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات كما قال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال ابن عمر: الله أحق أن يتزين له. ويروى عنه مرفوعاً. ولا يكمل التزين الظاهر إلا بتزين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها؛ فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئاً قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً وإن كان كاسيا

لا يصلح لمناجاة الملوك في الخلوات إلا من زين ظاهره وباطنه وطهرهما خصوصاً لملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى، وهو لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن وقف بين يديه فليزين ظاهره باللباس وباطنه بلباس التقوى. وأنشد الشبلي:

قالوا: غداً العيد ماذا أنت لابسه ... فقلت: خلعة ساق حبه جرعا

فقر وصبرهما ثوبان تحتهما ... قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا

الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي ... والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به ... يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

ومنها: الاعتكاف: ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله[1]. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين[2]. وإنما كان يعتكف ﷺ في هذا العشر التي يطلب فيها ليلة القدر؛ قطعاً لاشغاله، وتفريغاً لباله، وتخلياً

---

(١) البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢).

(٢) سبق تخريجه.

لمناجاة ربه وذكره ودعائه. وكان ﷺ يحتجر حصيراً يتخلى فيها عن الناس فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم. ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية، وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات؛ فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها. سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجمعة والجماعة؟ قال: هو في النار. فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هي الإعتكاف في المساجد خصوصاً في شهر رمضان، خصوصاً في العشر الأواخر منه كما كان النبي ﷺ يفعله، فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه، وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي لهم همٌّ سوى الله وما يرضيه عنه، كما كان داود الطائي يقول في ليله: همك عطَّل علي الهموم، وحالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوبق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات.

ما لي شغل سواه ما لي شغل ... ما يصرف عن قلبي هواه عذل
ما أصنع إن جفا وخاب الأمل ... مني بدل ومنه ما لي بدل

فمعنى الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله تعالى بالكلية على كل حال. كان بعضهم لا يزال منفرداً في بيته خالياً بربه. فقيل له: أما تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني.

أوحشتني خلواتي ... بك من كل أنيسي
وتفردت فعاينتك ... بالغيب جليسي

يا ليلة القدر للعابدين اشهدي، يا أقدم القانتين اركعي لربك واسجدي، يا ألسنة السائلين جدي في المسألة واجتهدي.

يـا رجـال الـلـيـل جـدوا    رب داعٍ لا يـــرد
مـا يـقـوم الـلـيـل إلا    مـن لـه عـزم وجـد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الخلوة[1] بأنس مولاهم وقربه، وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر، كان ببغداد موضعان يقال لأحدهما: دار الملك، وللآخر: القطيعة، فجاز بعض العارفين بملاح في سفينة فقال له: احملني معك إلى دار الملك، فقال له الملاح: ما أقصد إلا القطيعة، فصاح العارف: لا؛ بالله، لا؛ بالله، منها أفر.

ولـيـلـة بـت بـأكـفـانـهـا    تـعـدل عـنـدي لـيـلـة الـقـدر
كـانـت سـلامـاً لـسـروري بـهـا    بـالـوصـل حـتـى مـطـلـع الـفـجـر

يا من ضاع عمره في لا شيء، استدرك ما فاتك في ليلة القدر فإنها تحسب بالعمر.

وليلة وصل بات منجز وعده    سميري فيها بعد طول مطال
شفيت بها قلباً أطيل عليله    زماناً فكانت ليلة بليالي

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ١ ـ ٣]. قال مالك: بلغني أن رسول الله ﷺ أري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك؛ فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر[2]. وروي عن مجاهد: أن النبي ﷺ ذكر رجلًا من بني إسرائيل لبس السلاح ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله هذه السورة: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٣][3] الذي لبس فيها ذلك الرجل في سبيل الله ألف شهر. وقال النخعي: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر. وفي الصحيحين

(١) في نسخ: «الحظوة».
(٢) ضعيف. مالك (٣٢١/١) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٦٠٤).
(٣) ضعيف.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[١]. وفي المسند والنسائي[٢] عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قامها ابتغاءها ثم وفقت[٣] له غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٤]. وفي المسند والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في شهر رمضان: «فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم»[٥]. قال جويبر: قلت للضحاك: أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم في ليلة القدر نصيب؟ قال: نعم كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر.

إخواني المعول على القبول لا على الاجتهاد، والاعتبار ببر القلوب لا بعمل الأبدان. رب قائم حظه من قيامه السهر، كم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا نام وقلبه ذاكر، وهذا قام وقلبه فاجر.

إن المقادير إذا ساعدت ألحقت النائم بالقائم

لكن العبد مأمور بالسعي في اكتساب الخيرات والاجتهاد في الأعمال الصالحات، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠] فالمبادرة المبادرة إلى اغتنام العمل فيما بقي من الشهر؛ فعسى أن يستدرك به ما فات من ضياع العمر.

تولى العمر في سهو وفي لهو وفي خسر
فيا ضيعة ما أنفقت في الأيام من عمري

---

(١) البخاري (٣٥ و١٩٠١) ومسلم (٧٦٠).

(٢) لفظة النسائي في نسخ دون نسخ كما في الأصل والأصوب عدم ذكره.

(٣) في الأصل: «وقعت».

(٤) شاذ بلفظ: «وما تأخر». أحمد (٢٢٢٠٥) وإسناده ضعيف كما بينه شيخنا في الضعيفة (٥٠٨٣).

(٥) صحيح. وقد تقدم.

ومالي في الذي ضيعت ... من عمري من عذر
فما أغفلنا عن وا ... جبات الحمد والشكر
أما قد خصنا الله ... بشهر أيما شهر
بشهر أنزل الرحما ... ن فيه أشرف الذكر
وهل يشبهه شهر ... وفيه ليلة القدر
فكم من خبر صح ... بما فيها من الأجر
روينا عن ثقات أنها ... تطلب في الوتر
فطوبى لامرئ يطلبها ... في هذه العشر
ففيها تنزل الأملا ... ك بالأنوار والبر
وقد قال: سلام هي ... حتى مطلع الفجر
ألا فادخرها إنها ... من أنفس الذخر
فكم من معتق فيها ... من النار ولا يدري

❋ ❋ ❋

## المجلس الخامس
## في ذكر السبع الأواخر من رمضان

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان منكم متحريها؛ فليتحرها في السبع الأواخر»[(١)]. وفي صحيح مسلم عنه عن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي»[(٢)] وقد ذكرنا فيما تقدم أن النبي ﷺ كان يجتهد في شهر رمضان على طلب ليلة القدر وأنه اعتكف مرة العشر الأول منه، ثم طلبها

---

(١) البخاري (٢٠١٥) ومسلم (١١٦٥).

(٢) مسلم (١١٦٥).

فاعتكف بعد ذلك العشر الأوسط في طلبها، وإن ذلك تكرر منه غير مرة. ثم استقر أمره على اعتكاف العشر الأواخر في طلبها وأمر بطلبها فيه. ففي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»[١].

وفي رواية للبخاري: «في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»[٢] وله من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان»[٣]. ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «التمسوها في العشر الغوابر»[٤]. والأحاديث في المعنى كثيرة، وكان يأمر بالتماسها في أوتار العشر الأواخر. ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»[٥] وفي رواية له: «هي في العشر في تسع[٦] يمضين أو سبع يبقين»[٧]. وخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي من حديث أبي بكرة قال: ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله ﷺ إلا في العشر الأواخر فإني سمعته يقول: «التمسوها في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث يبقين، أو آخر ليلة» وكان أبو بكرة يصلي في العشرين من رمضان كصلاته في سائر السنة فإذا دخل العشر اجتهد[٨]. ثم بعد ذلك أمر بطلبها في السبع الأواخر.

وفي المسند وكتاب النسائي عن أبي ذر قال: كنت أسأل الناس عنها -

---

(١) البخاري (٢٠٢٠).
(٢) البخاري (٢٠١٧).
(٣) البخاري (٢٠٢١).
(٤) مسلم (١١٦٦).
(٥) البخاري (٢٠٢١).
(٦) في الأصل: «سبع» والتصويب من صحيح البخاري وقد نبه الحافظ في الفتح أن الإسماعيلي رواه «سبع».
(٧) البخاري (٢٠٢٢).
(٨) صحيح. أحمد (١٩٩٠٤) والنسائي في الكبرى (٢/٢٧٣) والترمذي (٧٩٤) وصححه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.

يعني: ليلة القدر ـ فقلت: يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر؟ أفي رمضان هي أو في غيره؟ قال: «بل هي في رمضان» قلت: تكون مع الأنبياء ما كانوا فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة» قلت: في أي رمضان هي؟ قال: «التمسوها في العشر الأول والعشر الأواخر» قلت: في أي العشرين هي؟ قال: «في العشر الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها» ثم حدث رسول الله ﷺ، ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله أقسمت بحقي لما أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب علي غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته وقال: «التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها»(١). وخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم، وفي رواية لهما أنه قال له: «ألم أنهك أن تسألني عنها؟ إن الله لو أذن لي أن أخبركم بها لأخبرتكم، لا آمن أن تكون في السبع الأواخر»(٢). ففي هذه الرواية أن بيان النبي ﷺ لليلة القدر انتهى إلى أنها في السبع الأواخر ولم يزد على ذلك شيئاً. وهذا مما يستدل به من رجح ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين على ليلة إحدى وعشرين؛ فإن ليلة إحدى وعشرين ليست من السبع الأواخر بلا تردد. وقد روي عن النبي ﷺ من وجوه أخر: أنه بين أنها ليلة سبع وعشرين، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ واختلف في أول السبع الأواخر فمنهم من قال: أول السبع ليلة ثلاث وعشرين على حساب نقصان الشهر دون تمامه؛ لأنها المتيقن. وروى هذا ابن عباس وسيأتي كلامه فيما بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ. وفي صحيح البخاري عن بلال قال: إنها أول السبع من العشر الأواخر(٣). وخرجه ابن أبي شيبة وعنده قال: ليلة ثلاث وعشرين(٤). وهذا قول مالك، قال: أرى ـ والله أعلم ـ أن التاسعة ليلة إحدى وعشرين، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين، والخامسة ليلة خمس

---

(١) ضعيف. أحمد (٢٠٩٨٨) والنسائي في الكبرى (٢/٢٧٨) وضعفه شيخنا في التعليقات الحسان (٣٦٧٥).

(٢) ضعيف. ابن حبان (٣٦٨٣) والحاكم (١/٤٣٧) وضعفه شيخنا في المصدر السابق.

(٣) البخاري (٤٤٧٠).

(٤) ابن أبي شيبة (٢/٣٢٥).

وعشرين. وتأوله عبدالملك بن حبيب على أنه إنما يحسب كذلك إذا كان الشهر ناقصاً وليس هذا بشيء؛ فإنه إنما أمر بالاجتهاد في هذه الليالي على هذا الحساب وهذا لا يمكن أن يكون مراعًى بنقصان الشهر في آخره. وكان أيوب السختياني يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طيباً وليلة أربع وعشرين، ويقول: ليلة ثلاث وعشرين ليلة أهل المدينة، وليلة أربع وعشرين ليلتنا - يعني: أهل البصرة -. وكذلك كان ثابت وحميد يفعلان، وكانت طائفة يجتهدون ليلة أربع وعشرين؛ روي عن أنس والحسن. وروي عنه قال: رقبت الشمس عشرين سنة ليلة أربع وعشرين فكانت تطلع لا شعاع لها. وروي عن ابن عباس ذكره البخاري عنه، وقيل: إن المحفوظ عنه أنها ليلة ثلاث وعشرين كما سبق. وقد تقدم حديث إنزال القرآن في ليلة أربع وعشرين، وكذلك أبو سعيد الخدري وأبو ذر حسبا الشهر تاماً فيكون عندهما أول السبع الأواخر ليلة أربع وعشرين، وممن اختار هذا القول ابن عبدالبر واستدل بأن الأصل تمام الشهر، ولهذا أمر النبي ﷺ بإكماله إذا غم مع احتمال نقصانه، وكذلك رجحه بعض أصحابنا. وقد تقدم من حديث أنس: أن النبي ﷺ إذا كان ليلة أربع وعشرين لم يذق غمضاً. وإسناده ضعيف. وقد روي عن النبي ﷺ ما يدل على أن أول السبع البواقي ليلة ثلاث وعشرين ففي مسند الإمام أحمد عن جابر أن عبدالله بن أنيس سأل النبي ﷺ عن ليلة القدر وقد خلت اثنتان وعشرون ليلة فقال رسول الله ﷺ: «التمسوها في هذه السبع الأواخر التي بقين من الشهر»[١].

وفيه أيضاً عن عبدالله بن أنيس أنهم سألوا النبي ﷺ عن ليلة القدر وذلك مساء ليلة ثلاث وعشرين فقال: «التمسوها هذه الليلة» فقال رجل من القوم: فهي إذن يا رسول الله أولى ثمان؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها ليست بأولى ثمان، ولكنها أولى سبع إن الشهر لا يتم»[٢]. وفيه أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كم مضى من الشهر؟» قلنا: مضت ثنتان وعشرون

---

(١) ضعيف. أحمد (١٤١٩٧) وإسناده ضعيف.

(٢) صحيح. أحمد (١٥٦١٦) وصححه شيخنا في تعليقه على ابن خزيمة (٢١٨٥).

وبقي ثمان، فقال رسول الله ﷺ: «بل مضت ثنتان وعشرون وبقي سبع اطلبوها الليلة»[١]. وقد يحمل هذا على شهر خاص اطلع النبي ﷺ على نقصانه وهو بعيد، ويدل على خلافه أنه روي في تمام حديث أبي هريرة ثم قال رسول الله ﷺ: «الشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ ثم خنس إبهامه في الثالثة ـ»[٢]. فهذا يدل على أنه تشريع عام وأنه حسب الشهر على تقدير نقصانه أبداً؛ لأنه المتيقن كما ذهب إليه أيوب ومالك وغيرهما وعلى قولهما تكون ليلة سابعة تبقى ليلة ثلاث وعشرين، وليلة خامسة تبقى ليلة خمس وعشرين، وليلة تاسعة تبقى ليلة إحدى وعشرين. وقد روي عن النعمان بن بشير أنه أنكر أن تحسب ليلة القدر بما مضى من الشهر، وأخبر أن الصحابة يحسبونها بما بقي منه، وهذا الاحتمال إنما يكون في مثل قول النبي ﷺ: «التمسوها في التاسعة، والسابعة، والخامسة» وقد خرجه البخاري من حديث عبادة[٣]، ومسلم من حديث أبي سعيد[٤]؛ فإنه يحتمل أن يراد به التاسعة والسابعة والخامسة مما يبقى ومما يمضي.

وأما حديث ابن عباس وأبي بكرة وما في معناهما فإنها مقيدة بالباقي من الشهر فلا يحتمل أن يراد به الماضي. وحينئذٍ يتوجه الاختلاف السابق في أنه هل يحسب على تقدير تمام الشهر أو نقصانه؟ وحديث ابن عباس قد روي بالشك فيما مضى أو يبقى. وقد خرجه البخاري بالوجهين، وحديث أبي ذر في قيام النبي ﷺ بهم أفراد العشر الأواخر قد أخرجه أبو داود الطيالسي بلفظ صريح أنه قام بهم أشفاع العشر الأواخر وحسبها أوتاراً بالنسبة إلى ما يبقى من الشهر وقدره تاماً وجعل الليلة التي قامها حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح ليلة ثمان وعشرين وهي الثالثة مما يبقى، وقد قيل: إن ذلك من تصرف بعض الرواة بما فهمه من المعنى ـ والله أعلم ـ، وعلى قياس قول من حسب الليالي الباقية من الشهر على تقدير نقصان الشهر ينبغي

---

(١) صحيح. أحمد (٧٣٧٥) وصححه شيخنا في تعليقه على ابن خزيمة (٢١٧٩).
(٢) صحيح. وسبق تخريجه.
(٣) البخاري (٢٠٢٣).
(٤) مسلم (١١٦٧).

أن يكون عنده أول العشر الأواخر ليلة العشرين؛ لاحتمال أن يكون عنده أول الشهر ناقصاً فلا يتحقق كونها عشر ليال بدون إدخال ليلة العشرين فيها، وقد يقال: بل العشر الأواخر عبارة عما بعد انقضاء العشرين الماضية من الشهر وسواء كانت تامة أو ناقصة فهي المعبر عنها بالعشر الأواخر، وقيامها هم قيام العشر الأواخر، وهذا كما يقال: صام عشر ذي الحجة وإنما صام منه تسعة أيام، ولهذا كان ابن سيرين يكره أن يقال: صام عشر ذي الحجة وقال: إنما يقال: صام التسع. ومن لم يكرهه وهم الجمهور فقد يقولون: الصيام المضاف إلى العشر هو صيام ما يمكن منه، وهو ما عدا يوم النحر ويطلق على ذلك العشر؛ لأنه أكثر العشر ـ والله أعلم ـ. وقد اختلف الناس في ليلة القدر اختلافاً كثيراً فحكي عن بعضهم أنها رفعت؛ وحديث أبي ذر يرد ذلك. وروي عن محمد بن الحنفية أنها في كل سبع سنين مرة وفي إسناده ضعف. وعن بعضهم أنها في كل السنة، وحكي عن ابن مسعود وطائفة من الكوفيين. وروي عن أبي حنيفة وقال الجمهور: هي في رمضان كل سنة ثم منهم من قال: هي في الشهر كله. وحكي عن بعض المتقدمين: أنها أول ليلة منه. وقالت طائفة: هي في النصف الثاني منه، وحكي عن أبي يوسف ومحمد.

وقد تقدم قول من قال: إنها ليلة بدر على اختلافهم هل هي ليلة سبع عشرة أو تسع عشرة؟ وقال الجمهور: هي منحصرة في العشر الأواخر، واختلفوا في أي ليالي العشر أرجى؟ فحكي عن الحسن ومالك أنها تطلب في جميع ليال العشر، أشفاعه وأوتاره ورجحه بعض أصحابنا وقال: لأن قول النبي ﷺ: «التمسوها في تاسعة تبقى أو سابعة تبقى أو خامسة تبقى»[(١)] إن حملناه على تقدير كمال الشهر كانت أشفاعاً، وإن حملناه على ما بقي منه حقيقة كان الأمر موقوفاً على كمال الشهر فلا يعلم قبله فإن كان تاماً كانت الليالي المأمور بها بطلبها أشفاعاً وإن كان ناقصاً كانت أوتاراً فيوجب ذلك الإجتهاد في القيام في كلا الليلتين الشفع منها والوتر. وقال الأكثرون:

---

(١) صحيح. تقدم.

بل بعض لياليه أرجى من بعض. وقالوا: الأوتار أرجى في الجملة، ثم اختلفوا أي الأوتار أرجى: فمنهم من قال: ليلة إحدى وعشرين، وهو المشهور عن الشافعي لحديث أبي سعيد الخدري، وقد ذكرناه فيما سبق، وحكي عنه أنها تطلب ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، قال في القديم: كأني رأيت ـ والله أعلم ـ أقوى الأحاديث فيه ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وقد جاء في ليلة سبع عشرة، وليلة أربع وعشرين، وليلة سبع وعشرين انتهى. وروي عن علي وابن مسعود أنها تطلب ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وحكي للشافعي قول آخر: أرجاها ليلة ثلاث وعشرين، وهذا قول أهل المدينة، وحكاه سفيان الثوري عن أهل مكة والمدينة. وممن روي عنه أنه كان يوقظ أهلها فيها ابن عباس وعائشة وهو قول مكحول. وروى رشدين بن سعد عن زهرة بن معبد قال: أصابني احتلام في أرض العدو وأنا في البحر ليلة ثلاث وعشرين في رمضان فذهبت لأغتسل فسقطت في الماء فإذا الماء عذب فناديت أصحابي أعلمهم أني في ماء عذب. قال ابن عبدالبر: هذه الليلة تعرف بليلة الجهني بالمدينة يعني: عبدالله بن أنيس. وقد روي عنه أن النبي ﷺ أمره بقيامها[1]. وفي صحيح مسلم عنه أن النبي ﷺ قال في ليلة القدر: «أريت أني أسجد صبيحتها في ماء وطين» فانصرف النبي ﷺ من صلاة الصبح يوم ثلاث وعشرين وعلى جبهته أثر الماء والطين[2].

وقال سعيد بن المسيب: كان النبي ﷺ في نفر من أصحابه فقال: «ألا أخبركم بليلة القدر؟» قالوا: بلى يا رسول الله، فسكت ساعة فقال: «لقد قلت لكم ما قلت آنفاً وأنا أعلمها ثم أنسيتها، أرأيتم يوماً كنا بموضع كذا وكذا أي ليلة هي؟ ـ في غزوة غزاها ـ» فقالوا: سرنا، فقفلنا حتى استقام ملأ القوم على أنها ليلة ثلاث وعشرين[3]. خرجه عبدالرزّاق في كتابه. ورجحت طائفة ليلة أربع وعشرين وهم: الحسن وأهل البصرة، وقد

---

(١) صحيح. تقدم.
(٢) صحيح. تقدم.
(٣) ضعيف. عبدالرزّاق (٤/٢٤٩).

روي عن أنس، وكان حميد وأيوب وثابت يحتاطون فيجمعون بين الليلتين ـ أعني: ليلة ثلاث وأربع ـ، ورجحت طائفة ليلة سبع وعشرين، وحكاه الثوري عن أهل الكوفة، فقال: نحن نقول: هي ليلة سبع وعشرين؛ لما جاءنا عن أبي بن كعب. وممن قال بهذا أبي بن كعب ـ وكان يحلف عليه ولا يستثني ـ وَزِرّ بن حُبيش، وعبدة بن أبي لبابة. وروي عن قنان بن عبدالله النهمي[1] قال: سألت زراً عن ليلة القدر؟ فقال: كان عمر وحذيفة وناس من أصحاب رسول الله ﷺ لا يشكون أنها ليلة سبع وعشرين. خرجه ابن أبي شيبة[2]، وهو قول أحمد وإسحاق. وذهب أبو قلابة وطائفة إلى أنها تنتقل في ليالي العشر. وروي عنه أنها تنتقل في أوتاره خاصة. وممن قال بانتقالها في ليالي العشر: المزني وابن خزيمة، وحكاه ابن عبدالبر عن مالك والثوري والشافعي وأحمد وأبي ثور وفي صحة ذلك عنهم بُعْدٌ، وإنما قول هؤلاء أنها في العشر وتطلب في لياليه كله. واختلفوا في أرجى لياليه كما سبق، واستدل من رجح ليلة سبع وعشرين بأن أبي بن كعب كان يحلف على ذلك ويقول بالآية أو بالعلامة التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها. خرجه مسلم[3]، وخرجه[4] أيضاً بلفظ آخر عن أبي بن كعب قال: والله إني لأعلم أي ليلة هي؛ هي الليلة التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها هي ليلة سبع وعشرين[5]. وفي المسند عن ابن عباس أن رجلًا قال: يا رسول الله إني شيخ كبير عليل يشق علي القيام فمرني بليلة يوفقني فيها لليلة القدر. قال: «عليك بالسابعة»[6] وإسناده على شرط البخاري. وروى الإمام أحمد أيضاً حدثنا يزيد بن هارون: أنا شعبة عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان منكم

---

(١) في الأصل: «عباد بن عبدالله السهمي».
(٢) في المصنف (٢/٢٥٠).
(٣) مسلم (٧٦٢).
(٤) مسلم (٧٦٢).
(٥) في نسخة: «ليلة صبيحتها سبع وعشرين» كما في هامش الأصل.
(٦) صحيح. أحمد (٢١٥٠) وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين ـ أو قال: تحروها ليلة سبع وعشرين، يعني: ليلة القدر ـ»[١] ورواه شبابة ووهب بن[٢] جرير عن شعبة مثله، ورواه أسود بن عامر عن شعبة مثله، وزاد: «في السبع البواقي». قال شعبة: وأخبرني رجل ثقة عن سفيان أنه إنما قال: في السبع البواقي يعني: لم يقل: ليلة سبع وعشرين. قال أحمد في رواية ابنه صالح: الثقة هو: يحيى بن سعيد. قال شعبة: فلا أدري أيهما قال، قال: ورواه عمرو عن شعبة وقال في حديثه: ليلة سبع وعشرين، ـ أو قال: في السبع الأواخر ـ بالشك؛ فرجع الأمر إلى أن شعبة شك في لفظه.

ورواه حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: كانوا لا يزالون يقصون على النبي ﷺ أنها الليلة السابعة من العشر الأواخر فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم أنها قد تواطأت أنها ليلة السابعة في العشر الأواخر؛ فمن كان متحريها؛ فليتحرها ليلة السابعة من العشر الأواخر»[٣] كذا رواه حنبل بن إسحاق عن عارم عن حماد. وكذا خرجه الطحاوي عن إبراهيم بن مرزوق عن عارم[٤]. ورواه البخاري في صحيحه عن عارم إلا أنه لم يذكر لفظة: «ليلة السابعة» بل قال: «من كان متجريها؛ فليتحرها في العشر الأواخر»[٥]. ورواه عبدالرزّاق في كتابه عن معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني رأيت في النوم ليلة القدر كأنها ليلة سابعة فقال النبي ﷺ: «إني أرى رؤياكم قد تواطأت أنها ليلة سابعة؛ فمن كان متحريها؛ فليتحرها في ليلة سابعة» قال معمر: فكان أيوب يغتسل في ليلة ثلاث وعشرين.[٦] يشير إلى أنه حملها على سابعة تبقى. وخرجه الثعلبي في تفسيره من طريق الحسن بن

(١) صحيح. أحمد (٤٧٩٣) وصححه شيخنا في صحيح الجامع (٢٩٢٠).
(٢) في الأصل: «عن».
(٣) صحيح.
(٤) الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/٩١).
(٥) البخاري (١١٥٨).
(٦) صحيح. عبدالرزّاق (٤/٢٤٩).

عبدالأعلى عن عبدالرزّاق بهذا الإسناد وقال: في حديثه: «ليلة سابعة تبقى» فقال رسول الله ﷺ: «إني أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين؛ فمن كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً؛ فليقم ليلة ثلاث وعشرين»[١] وهذه الألفاظ غير محفوظة في الحديث ـ والله أعلم ـ.

وفي سنن أبي داود بإسناد رجاله كلهم رجال الصحيح عن معاوية عن النبي ﷺ في ليلة القدر: «ليلة سبع وعشرين»[٢] وخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه ابن عبدالبر وله علة، وهي وقفه على معاوية وهو أصح عند الإمام أحمد والدارقطني. وقد اختلف أيضاً عليه في لفظه. وفي المسند عن ابن مسعود أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: متى ليلة القدر؟ فقال: «من يذكر منكم ليلة الصهباوات؟» قال عبدالله: أنا بأبي أنت وأمي! وإن في يدي لتمرات أتسحر بهن مستتراً بمؤخرة رحلي من الفجر وذلك حين طلع القمر[٣]. وخرجه يعقوب بن شيبة في مسنده وزاد: وذلك ليلة سبع وعشرين. وقال: صالح الإسناد.

والصهباوات: موضع بقرب خيبر، وفي المسند أيضاً من وجه آخر عن ابن مسعود عن النبي قال: «إن ليلة القدر في النصف من السبع الأواخر من رمضان»[٤]. وإذا حسبنا أول السبع الأواخر ليلة أربع وعشرين كانت ليلة سبع وعشرين نصف السبع؛ لأن قبلها ثلاث ليال، وبعدها ثلاث ليال، ومما يرجح أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين أنها من السبع الأواخر التي أمر النبي ﷺ بالتماسها فيها بالاتفاق. وفي دخول الثالثة والعشرين في السبع اختلاف سبق ذكره. ولا خلاف أنها آكد من الخامسة والعشرين. ومما يدل على ذلك أيضاً حديث أبي ذر في قيام النبي ﷺ

---

(١) ضعيف.

(٢) صحيح لغيره. أبو داود (١٣٨٦) وابن حبان (٣٦٨٠) وصححه شيخنا لشاهد له في الصحيحة (١٤٧١) وصحيح أبي داود (١٢٥٤/الأم).

(٣) ضعيف. أحمد (٣٥٥٥) فيه انقطاع.

(٤) حسن لغيره. أحمد (٣٨٤٧) إسناده ضعيف كما ذكره شيخنا في صحيح أبي داود (١٢٣/٥) لكن له ما يشهد له.

بهم في أفراد السبع الأواخر وأنه قام بهم في الثالثة والعشرين إلى ثلث الليل، وفي الخامسة إلى نصف الليل، وفي السابعة إلى آخر الليل حتى خشوا أن يفوتهم الفلاح، وجمع أهله ليلتئذٍ وجمع الناس[1]، وهذا كله يدل على تأكدها على سائر أفراد السبع والعشر. ومما يدل على ذلك ما استشهد به ابن عباس بحضرة عمر والصحابة معه ﷺ واستحسنه عمر، وقد روي من وجوه متعددة؛ فروى عبدالرزّاق في كتابه[2] عن معمر عن قتادة وعاصم أنهما سمعا عكرمة يقول: قال ابن عباس: دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر؟ فأجمعوا أنها في العشر الأواخر. قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم ـ أو إني لأظن ـ أي ليلة هي، قال عمر: وأي ليلة هي؟ قلت: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال عمر: ومن أين علمت ذلك؟ قال: فقلت: إن الله خلق سبع سماوات وسبع أرضين وسبعة أيام وإن الدهر يدور على سبع، وخلق الله الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها، فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له. وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: يأكل من سبع؛ قال هو قول الله ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]. ولكن في هذه الرواية: أنها في سبع تمضي أو تبقى بالترديد في ذلك، وخرجه ابن شاهين من زواية عبدالواحد بن زياد عن عاصم الأحول حدثني لاحق بن حميد وعكرمة قالا: قال عمر: من يعلم ليلة القدر؟ فذكر الحديث بنحوه وزاد: أن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «هي في العشر سبع تمضي أو سبع تبقى» فخالف في إسناده وجعله مرسلًا ورفع آخره، وروى ابن عبدالبر[3] بإسناد صحيح من طريق سعيد بن جبير قال: كان ناس من المهاجرين وجدوا على عمر في إدنائه ابن عباس فجمعهم ثم سألهم عن

---

(١) صحيح. تقدم.

(٢) المصنف (٢٤٦/٤).

(٣) في التمهيد (٢٠٩/٢).

ليلة القدر فأكثروا فيها فقال بعضهم: كنا نراها في العشر الأوسط ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر فأكثروا فيها، فقال بعضهم: ليلة إحدى وعشرين، وقال بعضهم: ليلة ثلاث وعشرين، وقال بعضهم: ليلة سبع وعشرين، فقال عمر: يا ابن عباس تكلم، فقال: الله أعلم، فقال عمر: قد نعلم أن الله يعلم؛ وإنما نسألك عن علمك، فقال ابن عباس: إن الله وتر يحب الوتر؛ خلق من خلقه سبع سماوات فاستوى عليهن، وخلق الأرض سبعاً، وجعل عدة الأيام سبعاً، ورمي الجمار سبعاً، وخلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع، فقال عمر: خلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع هذا أمر ما فهمته؟ فقال: إن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] حتى بلغ آخر الآيات وقرأ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٥ ـ ٣٢] ثم قال: والأب للدواب. وخرجه ابن سعد في طبقاته عن إسحاق الأزرق عن عبدالملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير فذكره بمعناه، وزاد في آخره: قال: وأما ليلة القدر فما تراها إن شاء الله إلا ليلة ثلاث وعشرين يمضين أو سبع يبقين. والظاهر أن هذا سمعه سعيد بن جبير من ابن عباس فيكون متصلًا. وروى عاصم بن كليب عن أبيه عن ابن عباس قال: دعا عمر الأشياخ من أصحاب محمد ﷺ ذات يوم فقال لهم: إن رسول الله ﷺ قال: في ليلة القدر ما قد علمتم: «التمسوها في العشر الأواخر وتراً» ففي أي الوتر ترونها؟ فقال رجل برأيه: إنها تاسعة، سابعة، خامسة، ثالثة، فقال: يا ابن عباس تكلم، فقلت: أقول برأي؟ قال: عن رأيك أسألك؟ قلت: إني سمعت الله أكثر من ذكر السبع. وذكر باقيه بمعنى ما تقدم وفي آخره، قال عمر: أعجزتم أن تقولوا مثل ما قال هذا الغلام الذي لم تستوِ شؤون رأسه؟. خرجه الإسماعيلي في مسند عمر والحاكم وقال: صحيح الإسناد[1]. وخرجه الثعلبي في تفسيره وزاد: قال

---

(١) الحاكم (١/٤٣٨).

ابن عباس فما أراها إلا ليلة ثلاث وعشرين لسبع بقين. وخرج علي بن المديني في كتاب العلل المرفوعَ منه وقال: هو صالح وليس مما يحتج به.

وروى مسلم الملائي ـ وهو ضعيف ـ عن مجاهد عن ابن عباس أن عمر قال له: أخبرني برأيك عن ليلة القدر فذكر معنى ما تقدم، وفيه أن ابن عباس قال: لا أراها إلا في سبع يبقين من رمضان، فقال عمر: وافق رأيي رأيك. وروي بإسناد فيه ضعف عن محمد بن كعب عن ابن عباس: أن عمر جلس في رهط من أصحاب النبي ﷺ فتذاكروا ليلة القدر فذكر معنى ما تقدم وزاد فيه: عن ابن عباس أنه قال: وأعطى من المثاني سبعاً ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم الميراث في كتابه على سبع، ونقع في السجود من أجسادنا على سبع، وقال: فأراها في السبع الأواخر من رمضان. وليس في شيء من هذه الروايات أنها ليلة سبع وعشرين جزماً بل في بعضها الترديد بين ثلاث وسبع، وفي بعضها: أنها ليلة ثلاث وعشرين؛ لأنها أول السبع الأواخر على رأيه، وقد صح عن ابن عباس أنه كان ينضح على أهله الماء ليلة ثلاث وعشرين. خرجه عبدالرزّاق، وخرجه ابن أبي عاصم مرفوعاً والموقوف أصح. وقد استنبط طائفة من المتأخرين من القرآن أنها ليلة سبع وعشرين موضعين: أحدهما: أن الله تعالى ذكر ليلة القدر في سورة القدر في ثلاثة مواضع منها، وليلة القدر حروفها تسع حروف، والتسع إذا ضربت في ثلاثة فهي سبع وعشرون. والثاني: أنه قال: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ [القَدر: ٥] وكلمة (هي)؛ هي الكلمة السابعة والعشرون من السورة؛ فإن كلماتها كلها ثلاثون كلمة. قال ابن عطية: هذا من ملح التفسير لا من متين العلم. وهو كما قال. ومما استدل به من رجح ليلة سبع وعشرين بالآيات والعلامات التي رويت فيها قديماً وحديثاً، وبما وقع فيها من إجابة الدعوات. فقد تقدم عن أبي بن كعب أنه استدل على ذلك بطلوع الشمس في صبيحتها لا شعاع لها، وكان عبدة بن أبي لبابة يقول: هي ليلة سبع وعشرين. ويستدل على ذلك بأنه قد جرب ذلك بأشياء وبالنجوم. وخرجه عبدالرزّاق. وروي عن عبدة أنه ذاق ماء البحر ليلة سبع وعشرين فإذا هو عذب ذكره الإمام أحمد بإسناده. وطاف بعض السلف ليلة

سبع وعشرين بالبيت الحرام فرأى الملائكة في الهواء طائفين فوق رؤوس الناس. وروى أبو موسى المديني من طريق أبي الشيخ الأصبهاني بإسناد له عن حماد بن شعيب عن رجل منهم قال: كنت بالسواد فلما كان في العشر الأواخر جعلت أنظر بالليل فقال لي رجل منهم: إلى أي شيء تنظر؟ قلت: إلى ليلة القدر قال: فنم؛ فإني سأخبرك، فلما كان ليلة سبع وعشرين جاء وأخذ بيدي فذهب بي إلى النخل فإذا النخل واضع سعفه في الأرض فقال: لسنا نرى هذا في السنة كلها إلا في هذه الليلة. وذكر أبو موسى بأسانيد له أن رجلًا مقعداً دعا الله ليلة سبع وعشرين فأطلقه. وعن امرأة مقعدة كذلك، وعن رجل بالبصرة وكان أخرس ثلاثين سنة فدعا الله ليلة سبع وعشرين فأطلق لسانه فتكلم. وذكر الوزير أبو المظفر بن هبيرة أنه رأى ليلة سبع وعشرين - وكانت ليلة جمعة - باباً في السماء مفتوحاً شامي الكعبة قال: فظننته حيال الحجرة النبوية المقدسة قال: ولم يزل كذلك إلى أن التفت إلى المشرق لأنظر طلوع الفجر ثم التفت إليه فوجدته قد غاب قال: وإن وقع في ليلة من أوتار العشر ليلة جمعة فهي أرجى من غيرها. واعلم أن جميع هذه العلامات لا توجب القطع بليلة القدر، وقد روى سلمة بن شبيب في كتاب فضائل رمضان حدثنا إبراهيم بن الحكم حدثني أبي حدثني فرقد: أن أناساً من الصحابة كانوا في المسجد فسمعوا كلاماً من السماء ورأوا نوراً من السماء وباباً من السماء وذلك في شهر رمضان فأخبروا رسول الله ﷺ بما رأوا فزعم أن رسول الله ﷺ قال: «أما النور فنور رب العزة تعالى، وأما الباب فباب السماء، والكلام كلام الأنبياء، فكل شهر رمضان على هذه الحال، ولكن هذه ليلة كشف غطاؤها»[1] وهذا مرسل ضعيف.

وأما العمل في ليلة القدر فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» وقيامها إنما هو إحياؤها بالتهجد فيها، والصلاة وقد أمر عائشة بالدعاء فيها أيضاً. قال سفيان الثوري الدعاء في تلك الليلة أحب إلي من الصلاة قال: وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله

---

(١) ضعيف جداً.

في الدعاء والمسألة لعله أن يوافق، انتهى. ومراده أن كثرة الدعاء أفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء، وإن قرأ ودعا كان حسناً. وقد كان النبي ﷺ يتهجد في ليالي رمضان ويقرأ قراءة مرتلة لا يمر بآية فيها رحمة إلا سأل، ولا بآية فيها عذاب إلا تعوذ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكر، وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها والله أعلم.

وقد قال الشعبي في ليلة القدر: ليلها كنهارها. وقال الشافعي في القديم: أستحب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها. وهذا يقتضي استحباب الاجتهاد في جميع زمان العشر الأواخر ليله ونهاره والله أعلم. المحبون تطول عليهم الليالي فيعدونها غداً لانتظار ليالي العشر في كل عام، فإذا ظفروا بها نالوا مطلوبهم وخدموا محبوبهم.

قد مزق الحب قميص الصبر وقد غدوت حائراً في أمري

آهِ على تلك الليالي الغر ما كن إلا كليالي القدر

إن عدن لي من بعد هذا الهجر وفيت لله بكل نذر

وقام بالحمد خطيب شكري

رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين وأنفاس المحبين، وقصص التائبين، ثم تعود برد الجواب بلا كتاب.

أعلمتم أن النسيم إذا سرى حمل الحديث إلى الحبيب كما جرى

جهل العذول بأنني في حبهم سهر الدجى عندي ألذ من الكرى

فإذا ورد بريد برد السحر بحمل ملطفات الألطاف لم يفهمها غير من كتبت إليه ولا يعقلها إلا كل مشتاق.

نسيم صبا نجد متى جئت حاملاً تحيتهم فاطوِ الحديث عن الركب

ولا تذع السر المصون فإنني أغار على ذكر الأحبة من صحبي

يا يعقوب الهجر قد هبت ريح يوسف الوصل، فلو استنشقت لعدت بعد العمى بصيراً ولوجدت ما كنت لفقده فقيراً.

كان لي قلب أعيش به ضاع مني في تقلبه
رب فاردده علي فقد عيل صبري في تطلبه
وأغثني ما دام بي رمق يا غياث المستغيث به

لو قام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار ورفعوا قصص الاعتذار مضمونها: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨] لبرز لهم التوقيع عليها: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

أشكو إلى الله كما قد شكى أولاد يعقوب إلى يوسف
قد مسني الضر وأنت الذي تعلم حالي وترى موقفي
بضاعتي المزجاة محتاجة إلى سماح من كريم وفي
فقد أتى المسكين مستمطراً جودك فارحم ذله واعطف
فأوف كيلي وتصدق على هذا المقل البائس الأضعف

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: أرأيت إن وافقتُ ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[١].

العفو من أسماء الله؛ وهو المتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارها عنهم، وهو يحب العفو فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته، وكان النبي ﷺ يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وعفوك من عقوبتك»[٢]. قال يحيى بن معاذ: لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه لم يبتل بالذنب أحب[٣] الناس عليه. يشير إلى أنه ابتلى كثيراً من أوليائه وأصفيائه[٤] بشيء من الذنوب؛ ليعاملهم بالعفو فإنه سبحانه

(١) صحيح. رواه الترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٣٣٧).
(٢) رواه مسلم (٤٨٦).
(٣) في نسخة: «أكرم» كما في هامش الأصل.
(٤) في نسخة: «أحبائه» كما في هامش الأصل.

يحب العفو. قال بعض السلف الصالحين: لو علمت أحب الأعمال إلى الله تعالى لأجهدت نفسي فيه، فرأى قائلًا يقول له في منامه: إنك تريد ما لا يكون إن الله يحب أن يعفو ويغفر؛ وإنما أحب أن يعفو؛ ليكون العباد كلهم تحت عفوه، ولا يدل عليه أحد منهم بعمل. وقد جاء في حديث ابن عباس مرفوعاً: «إن الله ينظر ليلة القدر إلى المؤمنين من أمة محمد ﷺ فيعفو عنهم ويرحمهم إلا أربعة: مدمن خمر، وعاقاً، ومشاحناً، وقاطع رحم»[(١)].

لما عرف العارفون بجلاله خضعوا، ولما سمع المذنبون بعفوه طمعوا، ما ثم إلا عفو الله أو النار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من الرحمة، ولكن إذا ذكرت عفو الله استروحت إلى برد عفوه. كان بعض المتقدمين يقول في دعائه: اللهم إن ذنوبي قد عظمت وجلّت عن الصِّفة، وإنها صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني. وقال آخر منهم: جرمي عظيم، وعفوك كبير؛ فاجمع بين جرمي وعفوك يا كريم، يا كثير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر، أكبر الأوزار في جنب عفو الله تصغر. وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر؛ لأن العارفين يجتهدون في الأعمال ثم لا يرون لأنفسهم عملًا صالحاً ولا حالًا ولا مقالًا فيرجعون إلى سؤال العفو كحال المذنب المقصر. قال يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

إن كنت لا أصلح للقرب فشأنكم عفو عن الذنب

كان مطرف يقول في دعائه: اللهم ارض عنا فإن لم ترض عنا فاعف عنا. من عظمت ذنوبه في نفسه لم يطمع في الرضا، وكان غاية أمله أن يطمع في العفو، ومن كملت معرفته لم ير نفسه إلا في هذه المنزلة.

يا رب عبدك قد أتاك وقد أساء وقد هفا
يكفيه منك حياؤه من سوء ما قد أسلفا

---

(١) موضوع. رواه الفاكهي في أخبار مكة (٣١٦/٢).

حمل الذنوب على الذنو ... ب الموبقات وأسرفا
وقد استجار بذيل عفو ... ك من عقابك ملحفا
يا رب فاعف عنه وعافه ... فلأنت أولى من عفا

***

## المجلس السادس
## في وداع شهر رمضان

في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[١]. وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢]. وللنسائي في رواية: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٣]. وقد سبق في قيام ليلة القدر مثل ذلك من رواية عبادة بن الصامت. والتكفير بصيامه ورد مشروطاً بالتحفظ مما ينبغي أن يتحفظ منه. وفي المسند وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان فعرف حدوده وتحفظ مما ينبغي له أن يتحفظ منه كفر ذلك ما قبله»[٤]. والجمهور على أن ذلك إنما يكفر الصغائر. ويدل عليه ما خرجه مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، الجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»[٥]. وفي تأويله قولان: أحدهما: أن تكفير هذه الأعمال مشروط باجتناب الكبائر فمن لم يجتنب الكبائر لم تكفر له هذه الأعمال

---

(١) صحيح. تقدم.
(٢) البخاري (٣٧) ومسلم (٧٥٩).
(٣) قوله: «وما تأخر» شاذ. وقد سبق تخريجه.
(٤) ضعيف. وسبق تخريجه.
(٥) مسلم (٢٣٣).

كبيرة ولا صغيرة. والثاني: أن المراد أن هذه الفرائض تكفر الصغائر خاصة بكل حال، وسواء اجتنبت الكبائر أو لم تجتنب. وأنها لا تكفر الكبائر بحال. وقد قال ابن المنذر في قيام ليلة القدر: إنه يرجى به مغفرة الذنوب كبائرها وصغائرها. وقال غيره مثل ذلك في الصوم أيضاً. والجمهور على أن الكبائر لا بد لها من توبة نصوح. وهذه المسائل قد ذكرناها مستوفاة في مواضع أخر. فدل حديث أبي هريرة على أن هذه الأسباب الثلاثة كل واحد منها مكفر لما سلف من الذنوب وهي: صيام رمضان، وقيامه، وقيام ليلة القدر. فقيام ليلة القدر بمجرده يكفر الذنوب لمن وقعت له كما في حديث عبادة بن الصامت وقد سبق ذكره، وسواء كانت أول العشر أو أوسطه أو آخره، وسواء شعر بها أو لم يشعر، ولا يتأخر تكفير الذنوب بها إلى انقضاء الشهر، وأما صيام شهر رمضان وقيامه فيتوقف التكفير بهما على تمام الشهر، فإذا تم الشهر فقد كمل للمؤمنين صيامه وقيامه فيترتب له على ذلك مغفرة ما تقدم من ذنبه بتمام الشيئين[(١)] وهما صيام رمضان وقيامه. وقد يقال: إنه يغفر لهم عند استكمال القيام في آخر ليلة من رمضان بقيام رمضان، قبل تمام نهارها وتتأخر المغفرة بالصيام إلى إكمال النهار بالصوم فيغفر لهم بالصوم في ليلة الفطر. ويدل على ذلك ما خرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم يعطها أمة غيرهم: خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، ويزين الله كل يوم جنته ويقول: يوشك عبادي أن يلقوا عنهم المؤنة والأذى ويصيروا إليك، وتصفد فيه مردة الشياطين فلا يخلصون فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره، ويغفر لهم في آخر ليلة» فقيل: يا رسول الله أهي ليلة القدر؟ قال: «لا، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله»[(٢)]. وقد روي أن الصائمين يرجعون يوم الفطر مغفوراً لهم وإن يوم الفطر يسمى يوم الجوائز، وفيه

---

(١) في نسخ: «السببين».

(٢) ضعيف جداً. وقد سبق تخريجه.

أحاديث ضعيفة. وقال الزهري: إذا كان يوم الفطر خرج الناس إلى الجبّان اطلع الله عليهم فقال: يا عبادي لي صمتم، ولي قمتم، ارجعوا مغفوراً لكم. قال مورق العجلي لبعض إخوانه في المصلى يوم الفطر: يرجع هذا اليوم قوم كما ولدتهم أمهاتهم. وفي حديث أبي جعفر الباقر المرسل: «من أتى عليه رمضان فصام نهاره، وصلى ورداً من ليله وغض بصره وحفظ فرجه ولسانه ويده، وحافظ على صلاته في الجماعة وبكر إلى الجمعة فقد صام الشهر، واستكمل الأجر، وأدرك ليلة القدر وفاز بجائزة الرب» قال أبو جعفر: جائزة لا تشبه جوائز الأمراء[١]. إذا أكمل الصائمون صيام رمضان وقيامه فقد وفوا ما عليهم من العمل وبقي ما لهم من الأجر وهو المغفرة، فإذا خرجوا يوم عيد الفطر إلى الصلاة قسمت عليهم أجورهم، فرجعوا إلى منازلهم وقد استوفوا الأجر واستكملوه. كما في حديث ابن عباس المرفوع: «إذا كان يوم الفطر هبطت الملائكة إلى الأرض فيقفون على أفواه السكك ينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس يقولون: يا أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يعطي الجزيل ويغفر الذنب العظيم، فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله ﷻ لملائكته: يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله؟ فيقولون: إلهنا وسيدنا أن توفيه أجره فيقول: إني أشهدكم أني قد جعلت ثوابهم من صيامهم وقيامهم رضائي ومغفرتي، انصرفوا مغفوراً لكم»[٢] خرجه سلمة بن شبيب في كتاب فضائل رمضان وغيره، وفي إسناده مقال. وقد روي من وجه آخر عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً بعضه، وقد روي معناه مرفوعاً من وجوه أخر فيها ضعف.

من وفّى ما عليه من العمل كاملًا وفى له الأجر كاملًا، ومن سَلَّم ما عليه موفراً، سُلِّم ماله نقداً لا مؤخراً.

ما بعتكم مهجتي إلا بوصلكم ... ولا أسلمها إلا يداً بيد

---

(١) ضعيف. وقد سبق تخريجه.

(٢) موضوع. رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٣٦/٣) وحكم عليه شيخنا بالوضع في ضعيف الترغيب (٥٩٤).

ومن نقص من العمل الذي عليه نقص من الأجر بحسب نقصه، فلا يلم إلا نفسه، قال سلمان: الصلاة مكيال فمن وفى وفي له، ومن طفف فقد علمتم ما قيل في المطففين. فالصيام وسائر الأعمال على هذا المنوال من وفاها فهو من خيار عباد الله الموفين، ومن طفف فيها فويل للمطففين، أما يستحي من يستوفي مكيال شهواته ويطفف في مكيال صيامه وصلاته ألا بعداً لمدين. في الحديث: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته»[١]. إذا كان الويل لمن طفف مكيال الدنيا، فكيف حال من طفف مكيال الدين: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤، ٥].

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

كان السلف الصالحون يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله ويخافون من رده وهؤلاء الذين: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. روي عن علي قال: كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٧]. وعن فضالة بن عبيد قال: لأن أكون أعلم أن الله قد تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المَائدة: ٢٧]. وقال مالك بن دينار: الخوف على العمل أن لا يتقبل أشد من العمل. وقال عطاء السلمي: الحذر: الاتقاء على العمل أن لا يكون لله. وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهمّ أتقبل أم لا. قال بعض السلف: كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبله منهم. خرج عمر بن عبدالعزيز ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في يوم عيد فطر فقال في خطبته: أيها الناس إنكم صمتم لله ثلاثين يوماً وقمتم ثلاثين ليلة، وخرجتم اليوم تطلبون من الله أن يتقبل منكم. كان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر فيقال له: إنه يوم فرح

(١) صحيح. أحمد (١١١٣٨) وصححه شيخنا في المشكاة (٨٨٥).

وسرور فيقول: صدقتم ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملًا فلا أدري أيقبله مني أم لا؟ رأى وهيب بن الورد قوماً يضحكون في يوم عيد فقال: إن كان هؤلاء تقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين. وإن كان لم يتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين. وعن الحسن قال: إن الله جعل شهر رمضان لخلقه مضماراً يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق قوم ففازوا وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من اللاعب الضاحك في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون.

لعلك غضبان وقلبي غافل سلام على الدارين إن كنت راضيا

وروي عن علي أنه كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان: يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنيه ومن هذا المحروم فنعزيه. وعن ابن مسعود أنه كان يقول: من هذا المقبول منا فنهنيه ومن هذا المحروم منا فنعزيه. أيها المقبول هنيئاً لك، أيها المردود جبر الله مصيبتك!.

ليت شعري من فيه يقبل منا فَيُهنّا يا خيبة المردود
من تولى عنه بغير قبول أرغم الله أنفه بخزي شديد

ماذا فات من فاته خير رمضان وأي شيء أدرك من أدركه فيه الحرمان، كم بين من حظه فيه القبول والغفران، ومن كان حظه فيه الخيبة والخسران، رب قائم حظه من قيامه السهر وصائم حظه من صيامه الجوع والعطش.

ما أصنع هكذا جرى المقدور الجبر لغيري وأنا المكسور
أسير ذنب مقيد مهجور هل يمكن أن يغير المقدور

غيره:

سار القوم والشقا يقعدني حازوا القرب والجفا يبعدني
حسبي حسبي إلى متى تطردني أعداي دائي وكلهم يقصدني

غيره:

أسباب هواك أوهنت أسبابي من بعد جفاك فالضنى أولى بي

ضاقت حيلي وأنت تدري ما بي ارحم فالعبد واقف بالباب

شهر رمضان تكثر فيه أسباب الغفران فمن أسباب المغفرة فيه صيامه وقيامه وقيام ليلة القدر فيه كما سبق.

**ومنها**: تفطير الصوام والتخفيف عن المملوك وهما مذكوران في حديث سلمان المرفوع.

**ومنها**: الذكر؛ وفي حديث مرفوع: «ذاكر الله في رمضان مغفور له»[(١)].

**ومنها**: الاستغفار، والاستغفار: طلب المغفرة ودعاء الصائم يستجاب في صيامه وعند فطره؛ ولهذا كان ابن عمر إذا أفطر يقول: اللهم يا واسع المغفرة اغفر لي. وفي حديث أبي هريرة المرفوع في فضل شهر رمضان: «ويغفر فيه إلا لمن أبى» قالوا: يا أبا هريرة ومن يأبى؟ قال: يأبى أن يستغفر الله»[(٢)].

**ومنها**: استغفار الملائكة للصائمين حتى يفطروا، وقد تقدم ذكره.

فلما كثرت أسباب المغفرة في رمضان، كان الذي تفوته المغفرة فيه محروماً غاية الحرمان. وفي صحيح ابن حبان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: «آمين آمين آمين» قيل: يا رسول الله إنك صعدت المنبر فقلت: «آمين آمين آمين» قال: «إن جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل: آمين. قلت: آمين. ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل: آمين. قلت: آمين. ومن ذكرتَ عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل: آمين. قلت: آمين»[(٣)].

---

(١) موضوع. رواه الطبراني في الأوسط (٢٢٦/٧) وحكم عليه شيخنا بالوضع (٣٦٢١).

(٢) ضعيف. رواه الخطيب في تاريخه (٣١٨/٥) وإسناده ضعيف.

(٣) صحيح لغيره. ابن حبان (٤٠٩) وقال شيخنا في التعليقات الحسان: «صحيح لغيره».

وخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن حبان أيضاً من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «رغم أنفه»[١] وحسنه الترمذي. وقال سعيد عن قتادة: كان يقال: من لم يغفر له في رمضان فلن يغفر له فيما سواه. وفي حديث آخر: «إذا لم يغفر له في رمضان فمتى يغفر له؟»[٢].

متى يغفر لمن لا يغفر له في هذا الشهر؟ متى يقبل من رد في ليلة القدر؟ متى يصلح من لا يصلح في رمضان؟ متى يصح من كان فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان؟ كل ما لا يثمر من الأشجار في أوان الثمار فإنه يقطع ثم يوقد في النار، من فرط في الزرع في وقت البذار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسارة.

ترحل الشهر وا لهفاه وانصرما ... واختص بالفوز في الجنات من خدما
وأصبح الغافل المسكين منكسراً ... مثلي فيا ويحه يا عظم ما حرما
من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصد إلا الهم والندما

«شهر رمضان شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار»[٣] روي هذا عن النبي ﷺ من حديث سلمان الفارسي خرجه ابن خزيمة في صحيحه، وروي عنه أيضاً من حديث أبي هريرة خرجه ابن أبي الدنيا وغيره. والشهر كله شهر رحمة ومغفرة وعتق، ولهذا في الحديث الصحيح: «إنه تفتح فيه أبواب الرحمة»[٤] وفي الترمذي وغيره: «إن لله عتقاء من النار وذلك كل ليلة»[٥] ولكن الأغلب على أوله الرحمة وهي للمحسنين المتقين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

---

(١) حسن صحيح. أحمد (٧٤٠٢) والترمذي (٣٥٤٥) وابن حبان (٩٠٨) وقال شيخنا في التعليقات الحسان: «حسن صحيح».
(٢) لم أقف عليه.
(٣) منكر. ابن خزيمة (١٨٨٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٥٦٩).
(٤) صحيح. تقدم.
(٥) صحيح. تقدم.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فيفاض على المتقين في أول الشهر خلع الرحمة والرضوان، ويعامل أهل الإحسان بالفضل والإحسان. وأما أوسط الشهر فالأغلب عليه المغفرة فيغفر الله فيه للصائمين وإن ارتكبوا بعض الذنوب الصغائر فلا يمنعهم ذلك من المغفرة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]. وأما آخر الشهر فيعتق فيه من النار من أوبقته الأوزار واستوجب النار بالذنوب الكبار. وفي حديث ابن عباس المرفوع: «لله في كل ليلة في شهر رمضان عند الإفطار ألف ألف عتيق من النار كلهم قد استوجبوا العذاب، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله في ذلك اليوم بعدد ما أعتق من أول الشهر إلى آخره»(١) خرجه سلمة بن شبيب وغيره.

وإنما كان يوم الفطر من رمضان عيداً لجميع الأمة؛ لأنه يعتق فيه أهل الكبائر من الصائمين من النار فيلتحق فيه المذنبون بالأبرار، كما أن يوم النحر هو العيد الكبير؛ لأن قبله يوم عرفة وهو اليوم الذي لا يرى في يوم من الدنيا أكثر عتقاً من النار منه، فمن أعتق من النار في اليومين فله يوم عيد، ومن فاته العتق في اليومين فله يوم وعيد. أنشد الشبلي:

ليس عيد المحب قصد المصلى ... وانتظار الأمير والسلطان
إنما العيد أن تكون لدى ... الله كريماً مقرباً في أمان

ورُئي بعض العارفين ليلة عيد في فلاة يبكي على نفسه وينشد:

بحرمة غربتي كم ذا الصدود ... ألا تعطف عليَّ ألا تجود
سرور العيد قد عم النواحي ... وحزني في ازدياد لا يبيد
فإن كنت اقترفت خلال سوء ... فعذري في الهوى أن لا أعود

لما كانت المغفرة والعتق من النار كل منهما مرتباً على صيام رمضان وقيامه أمر الله سبحانه وتعالى عند إكمال العدة بتكبيره وشكره فقال:

(١) موضوع. حكم عليه شيخنا بالوضع كما في ضعيف الترغيب (٥٩٤).

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] فشكر من أنعم على عباده بتوفيقهم للصيام وإعانتهم عليه ومغفرته لهم به وعتقهم به من النار أن يذكروه ويشكروه ويتقوه حق تقاته. وقد فسر ابن مسعود تقواه حق تقاته بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. فيا أرباب الذنوب العظيمة! الغنيمة الغنيمة في هذه الأيام الكريمة فما منها عوض ولا لها قيمة، فكم يعتق فيها من النار من ذي جريرة وجريمة، فمن أُعتق فيها من النار فقد فاز بالجائزة العظيمة، والمنحة الجسيمة. يا من أعتقه مولاه من النار إياك أن تعود بعد أن صرت حراً إلى رق الأوزار، أيبعدك مولاك عن النار وأنت تتقرب منها، وينقذك منها وأنت توقع نفسك فيها ولا تحيد عنها؟!.

وإن امرأً ينجو من النار بعدما ... تزود من أعمالها لسعيد

إن كانت الرحمة للمحسنين فالمسيء لا ييأس منها، وإن تكن المغفرة مكتوبة للمتقين فالظالم لنفسه غير محجوب عنها.

إن كان عفوك لا يرجوه ذو خطأ ... فمن يجود على العاصين بالكرم

غيره:

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يرجو ويدعو المذنب

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فيا أيها العاصي ـ وكلنا ذلك ـ لا تقنط من رحمة الله بسوء أعمالك، فكم يعتق من النار في هذه الأيام من أمثالك، فأحسن الظن بمولاك وتب إليه فإنه لا يهلك على الله [إلا] هالك.

إذا أوجعتك الذنوب فداوها ... برفع يد في الليل والليل مظلم
ولا تقنطن من رحمة الله إنما ... قنوطك منها من ذنوبك أعظم
فرحمته للمحسنين كرامة ... ورحمته للمذنبين تكرم

ينبغي لمن يرجو العتق من النار في شهر رمضان أن يأتي بأسباب توجب

العتق من النار، وهي متيسرة في هذا الشهر، وكان أبو قلابة يعتق في آخر الشهر جارية حسناء مزينة يرجو بعتقها العتق من النار. وفي حديث سلمان المرفوع الذي في صحيح ابن خزيمة: «من فطر صائماً كان عتقاً له من النار، ومن خفف فيه عن مملوكه كان عتقاً له من النار»(١). وفيه أيضاً: «فاستكثروا فيه من خصلتين: ترضون بها ربكم، وخصلتين: لا غناء بكم عنهما، فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم: فشهادة أن لا إله إلا الله والاستغفار، وأما اللتان لا غناء بكم عنهما: فتسألون الله تعالى الجنة وتعوذون به من النار»(٢). فهذه الخصال الأربع المذكورة في الحديث كل منها سبب للعتق والمغفرة؛ فأما كلمة التوحيد: فإنها تهدم الذنوب وتمحوها محواً ولا تبقي ذنباً ولا يسبقها عمل، وهي تعدل عتق الرقاب الذي يوجب العتق من النار، ومن أتى بها أربع مرار حين يصبح وحين يمسي أعتقه الله من النار، ومن قالها مخلصاً من قلبه حرمه الله على النار، وأما كلمة الاستغفار؛ فمن أعظم أسباب المغفرة؛ فإن الاستغفار دعاء بالمغفرة ودعاء الصائم مستجاب في حال صيامه وعند فطره. وقد سبق حديث أبي هريرة المرفوع: «ويغفر فيه ـ يعني: شهر رمضان ـ إلا لمن أبى» قالوا: يا أبا هريرة ومن أبى؟ قال: من أبى أن يستغفر الله ﷻ(٣). قال الحسن: أكثروا من الاستغفار فإنكم لا تدرون متى تنزل الرحمة. وقال لقمان لابنه: يا بني عود لسانك الاستغفار فإن لله ساعات لا يرد فيهن سائلًا. وقد جمع الله بين التوحيد والإستغفار في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمَّد: ١٩]. وفي بعض الآثار: أن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله، والاستغفار. الاستغفار ختام الأعمال الصالحة كلها فيختم به الصلاة والحج وقيام الليل، وتختم به المجالس فإن كانت ذكراً كان كالطابع عليها، وإن كانت لغواً كان كفارة لها، فكذلك ينبغي أن يختم صيام رمضان بالاستغفار والصدقة(٤).

---

(١) منكر. ابن خزيمة (١٨٨٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٥٦٩).

(٢) منكر. انظر المصدر السابق.

(٣) ضعيف. تقدم.

(٤) في نسخ دون نسخ كما في الأصل.

كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم رمضان بالاستغفار والصدقة؛ صدقة الفطر، فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرقع ما تخرق من الصيام باللغو والرفث؛ ولهذا قال بعض العلماء المتقدمين: إن صدقة الفطر للصائم كسجدتي السهو للصلاة. وقال عمر بن عبدالعزيز في كتابه: قولوا كما قال أبوكم آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقولوا كما قال إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢] وقولوا كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] وقولوا كما قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. ويروى عن أبي هريرة قال: الغيبة تخرق الصيام والاستغفار يرقعه، فمن استطاع منكم أن يجيء بصوم مرقع فليفعل. وعن ابن المنكدر معنى ذلك: الصيام جُنّة من النار ما لم يخرقها، والكلام السيء يخرق هذه الجنة، والاستغفار يرقع ما تَخرَّق منها. فصيامنا هذا يحتاج إلى استغفار نافع، وعمل صالح له شافع. كم نخرق صيامنا بسهام الكلام ثم نرقعه وقد اتسع الخرق على الراقع، كم نرفوا خروقه بمخيط الحسنات ثم نقطعه بحسام السيئات القاطع. كان بعض السلف إذا صلى صلاة استغفر من تقصيره فيها كما يستغفر المذنب من ذنبه. إذا كان هذا حال المحسنين في عباداتهم فكيف حال المسيئين مثلنا في عباداتهم، ارحموا من حسناته سيئات وطاعاته كلها غفلات.

| | |
|---|---|
| أستغفر الله من صيامي | طول زماني ومن صلاتي |
| صيامنا كله خروق | صلاتنا أيما صلاتي |
| مستيقظ في الدجى ولكن | أحسن من يقظتي سباتي |

وقريب من هذا أمر النبي ﷺ لعائشة في ليلة القدر بسؤال العفو؛ فإن المؤمن يجتهد في شهر رمضان في صيامه وقيامه فإذا قرب فراغه وصادف ليلة القدر لم يسأل الله إلا العفو كالمسيء المقصر. كان صلة بن

أشيم يحيي الليل ثم يقول في دعائه في السحر: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يجترئ أن يسألك الجنة. كان مطرف يقول في دعائه: اللهم ارض عنا فإن لم ترض عنا فاعف عنا فإن السيد يعفو عن عبده وهو عنه غير راضٍ. قال يحيى بن معاذ: ليس بعارف من لم يكن غاية أمله من الله العفو.

إن كنت لا أصلح للقرب فشأنكم عفو عن الذنب

أنفع الاستغفار ما قارنته التوبة وهي حل عقدة الإصرار، فمن استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود، وعزمه أن يرجع إلى المعاصي بعد الشهر ويعود؛ فصومه عليه مردود وباب القبول عليه مسدود. قال كعب: من صام رمضان وهو يحدث نفسه أنه إذا أفطر بعد رمضان أن لا يعصي الله دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب، ومن صام رمضان وهو يحدث نفسه أنه إذا أفطر عصى ربه فصيامه عليه مردود. خرجه مسلمة بن شبيب.

ولولا التقى ثم النهى خشية الردى لعاصيت في حب الصبا كل زاجر
قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى له عودة أخرى الليالي الغوابر

في سنن أبي داود وغيره عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: صمت رمضان كله، ولا قمت رمضان كله» قال أبو بكرة: فلا أدري أكره التزكية أم لا بد من غفلة[(١)].

أين من كان إذا صام صان الصيام؟ وإذا قام استقام في القيام؟ أحسنوا الإسلام ثم ادخلوا بسلام. ما بقي إلا من إذا صام افتخر بصيامه وصال، وإذا قام أعجب بقيامه وقال: كم بين خلي وشجي وواجد وفاقد وكاتم ومبدي. وأما سؤال الجنة والاستعاذة من النار فمن أهم الدعاء، و قد قال النبي ﷺ: «حولها ندندن»[(٢)]. فالصائم يرجى استجابة دعائه فينبغي أن لا يدعو إلا بأهم الأمور. قال أبو مسلم: ما عرضت لي دعوة إلا صرفتها إلى الاستعاذة من

---

(١) ضعيف. أبو داود (٢٤١٥) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٨١٩).

(٢) صحيح. أبو داود (٧٩٢) وصححه شيخنا في الكلم (ص١٠٨).

النار. في الحديث: «تعرضوا لنفحات رحمة بكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً»[(١)]. فمن أعظم نفحاته مصادفة ساعة الإجابة يسأل فيها العبد الجنة والنجاة من النار فيجاب سؤاله فيفوز بسعادة الأبد، قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود: ١٠٦] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨].

ليس السعيد الذي دنياه تسعده ... إن السعيد الذي ينجو من النار

عباد الله إن شهر رمضان قد عزم على الرحيل ولم يبق منه إلا القليل، فمن منكم أحسن فيه فعليه التمام، ومن فرط فليختمه بالحسنى فالعمل بالختام، فاستمتعوا منه بما بقي من الليالي النيرة والأيام، واستودعوه عملًا صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلام، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام.

سلام من الرحمن كل أوان ... على خير شهر قد مضى وزمان

سلام على شهر الصيام فإنه ... أمان من الرحمن أي أمان

لئن فنيت أيامك الغر بغتة ... فما الحزن من قلبي عليك بفان

فقد ذهبت أيامه وما أطعتم، وكتبت عليكم فيه آثامه وما أضعتم، وكأنكم بالمشمرين فيه وقد وصلوا وانقطعتم، أترى ما هذا التوبيخ لكم أو ما سمعتم؟!.

ما ضاع من أيامنا هل يُغَرَّم ... فهيهات والأزمان كيف تُقوَّم

يوم بأرباح يباع ويشترى ... وأخوه بخس لا يساوي درهم

---

(١) ضعيف. رواه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٢٧) وغيره وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٧٩٨).

قلوب المتّقين إلى هذا الشهر تحن ومن ألم فراقه تئن.

دهاك الفراق فما تصنع أتصبر للبين أم تجزع
إذا كنت تبكي وهم جيرة فكيف تكون إذا ودعوا

كيف لا تجرى للمؤمن على فراقه عليه دموع وهو لا يدري هل بقي له في عمره إليه رجوع.

تذكرت أياماً مضت ولياليا خلت فجرت من ذكرهن دموع
ألا هل لها يوماً من الدهر عودة وهل لي إلى وقت الوصال رجوع
وهل بعد إعاض الحبيب تواصل وهل لبدور قد أفلن طلوع

أين حرق المجتهدين في نهاره؟ أين قلق المجتهدين في أسحاره؟

اسمع أنين العاشقين إن استطعت له سماعا
راح الحبيب فشيّعته مدامعٌ تهمي سراعا
لو كلف الجبل الأصم فراق إلفٍ ما استطاعا

إذا كان هذا جزع من ربح فيه فكيف حال من خسر في أيامه ولياليه؟ ماذا ينفع المفرط فيه بكاؤه، وقد عظمت فيه مصيبته وجل عزاؤه؟ كم نصح المسكين فما قبل النصح، كم دعي إلى المصالحة فما أجاب إلى الصلح، كم شاهد الواصلين وهو متباعد، كم مرت به زمر السائرين وهو قاعد، حتى إذا ضاق به الوقت وحاق به المقت ندم على التفريط حين[1] لا ينفع الندم، وطلب الاستدراك في وقت العدم.

أتترك من تحب وأنت جار وتطلبهم إذا بعد المزار
وتبكي بعد نأيهم اشتياقاً وتسأل في المنازل أين ساروا
تركتَ سؤالهم وهم حضور وترجو أن تخبرك الديار
فنفسك لُمْ ولا تلم المطايا ومت كمداً فليس لك اعتذار

---

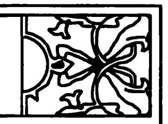
(١) في نسخة: «حيث» كما في هامش الأصل.

يا شهر رمضان ترفق، دموع المحبين لذهابك تدفق، قلوبهم من ألم الفراق تشقق، عسى وقفة للوداع تطفئ من نار الشوق ما أحرق، عسى ساعة توبة وإقلاع ترفو من الصيام كلما تخرق، عسى منقطع عن ركب المقبولين يلحق، عسى من استوجب النار يعتق، عسى أسراء الأوزار تطلق، عسى رحمة المولى لها العاصي يوفق.

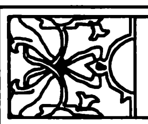
عسى وعسى من قبل وقت التفرق ... إلى كل ما ترجو من الخير ترتقي

فيجبر مكسور ويقبل تائب ... ويعتق خطاء ويسعد من شقي

❋ ❋ ❋



# وظائف شهر شوال



وفيه مجالس:

## المجلس الأول
## في صيام شوال كله
## وإتباع رمضان بصيام ستة أيام منه

خرج مسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر»[١].

وقد اختلف في هذا الحديث، ثم في العمل به؛ فمنهم من صححه، ومنهم من قال: هو موقوف، قاله ابن عيينة وغيره، وإليه يميل الإمام أحمد. ومنهم من تكلم في إسناده.

وأما العمل به فاستحب صيام ستة أيام من شوال أكثر العلماء، روي ذلك عن ابن عباس، وطاوس، والشعبي، وميمون بن مهران، وهو قول ابن المبارك، والشافعي، وأحمد، واسحاق. وأنكر ذلك آخرون؛ روي عن الحسن أنه كان إذا ذكر عنده صيام هذه الستة قال: لقد رضي الله بهذا الشهر للسنة كلها. ولعله إنما أنكر على من اعتقد وجوب صيامها وأنه لا يكتفي بصيام رمضان عنها في الوجوب. وظاهر كلامه يدل على هذا،

(١) مسلم (١١٦٤).

وكرهها الثوري وأبو حنيفة وأبو يوسف، وعلل أصحابهما ذلك بمشابهة أهل الكتاب يعنون في الزيادة في صيامهم المفروض عليهم ما ليس منه. وأكثر المتأخرين من مشايخهم قالوا: لا بأس به، وعللوا بأن الفضل قد حصل بفطر يوم العيد، حكى ذلك صاحب الكافي منهم، وكان ابن مهدي يكرهها ولا ينهى عنها، وكرهها أيضاً مالك وذكر في الموطأ: أنه لم ير أحداً من أهل العلم والفقه يصومها، قال: ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف، وأن أهل العلم يكرهون ذلك، ويخافون بدعته، وأن يلحق برمضان ما ليس منه أهلُ الجهالة لو رأوا واحداً من أهل العلم يفعل ذلك. وقد قيل: إنه كان يصومها في نفسه وإنما كرهها على وجه يخشى منه أن يعتقد فريضتها لئلا يزاد في رمضان ما ليس منه.

وأما الذين استحبوا صيامها فاختلفوا في صيامها على ثلاثة أقوال:

**أحدها**: أنه يستحب صيامها من أول الشهر متتابعة، وهو قول الشافعي وابن المبارك وقد روي في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من صام ستة أيام بعد الفطر متتابعة؛ فكأنما صام السنة»[1] خرجه الطبراني وغيره من طرق ضعيفة. وروي موقوفاً، وروي عن ابن عباس من قوله بمعناه بإسناد ضعيف أيضاً.

**والثاني**: أنه لا فرق بين أن يتابعها أو يفرقها من الشهر كله وهما سواء، وهو قول وكيع وأحمد.

**والثالث**: أنه لا يصام عقيب يوم الفطر، فإنها أيام أكل وشرب، ولكن يصام ثلاثة أيام قبل أيام البيض، وأيام البيض أو بعدها. وهذا قول معمر وعبدالرزّاق. وروي عن عطاء حتى روي عنه أنه كره لمن عليه صيام من قضاء رمضان أن يصومه ثم يصله بصيام تطوع وأمر بالفصل بينهما وهو قول شاذ وأكثر العلماء على أنه لا يكره صيام ثاني يوم الفطر وقد دل عليه حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال لرجل: «إذا

---

**(١) منكر بهذا اللفظ. الطبراني في الأوسط (٣١٥/٧) قاله شيخنا في الضعيفة (٥١٨٩).**

أفطرت فصم»[١] وقد ذكرناه في صيام آخر شعبان. وقد سرد طائفة من الصحابة والتابعين الصوم إلا يوم فطر أو أضحى.

وقد روي عن أم سلمة أنها كانت تقول لأهلها من كان عليه رمضان فليصمه الغد من يوم الفطر، فمن صام الغد من يوم الفطر فكأنما صام رمضان. وفي إسناده ضعف. وعن الشعبي قال: لأن أصوم يوماً بعد رمضان أحب إلي من أن أصوم الدهر كله. ويروى بإسناد ضعيف عن ابن عمر مرفوعاً: «من صام بعد الفطر يوماً فكأنما صام السنة»[٢]. وبإسناد ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً: «الصائم بعد رمضان كالكارّ بعد الفارّ»[٣].

وأما صيام شوال كله؛ ففي حديث رجل من قريش سمع النبي ﷺ يقول: «من صام رمضان وشوالًا، والأربعاء والخميس دخل الجنة»[٤] خرجه الإمام أحمد والنسائي. وخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث مسلم القرشي عن النبي ﷺ أنه سئل عن صيام الدهر؟ فقال: «إن لأهلك عليك حقاً، فصم رمضان، والذي يليه وكل أربعاء وخميس فإذا أنت قد صمت الدهر وأفطرت»[٥]. وخرج ابن ماجه بإسناد منقطع أن أسامة بن زيد كان يصوم أشهر الحرم فقال له رسول الله ﷺ: «صم شوالًا»؛ فترك أشهر الحرم، ثم لم يزل يصوم شوالًا حتى مات[٦].

وخرجه أبو يعلى الموصلي بإسناد متصل عن أسامة قال: كنت أصوم شهراً من السنة فقال لي النبي ﷺ: «أين أنت من شوال؟» فكان أسامة رضي الله عنه

---

(١) صحيح. تقدم.

(٢) ضعيف. وانظر تاريخ البخاري (٥/٣٣٧).

(٣) ضعيف جداً. رواه البيهقي في الشعب (٣/٣٤٩) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٧٨٩).

(٤) ضعيف. أحمد (١٥٠٠٨) والنسائي في الكبرى (٢/١٤٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٦١٢).

(٥) ضعيف. أبو داود (٢٤٣٢) والنسائي في الكبرى (٢/١٤٧) والترمذي (٧٤٨) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٦٣٥) ولم أره عند أحمد.

(٦) ضعيف. تقدم.

إذا أفطر أصبح الغد صائماً من شوال حتى يأتي على آخره[١]. وصيام شوال كصيام شعبان؛ لأن كلا الشهرين حريم لشهر رمضان، وهما يليانه. وقد ذكرنا في فضل صيام شعبان أن الأظهر أن صيامهما أفضل من صيام الأشهر الحرم والاختلاف في ذلك. وإنما كان صيام رمضان وإتباعه بست من شوال يعدل صيام الدهر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها. وقد جاء ذلك مفسراً من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «صيام رمضان بعشرة أشهر، وصيام ستة أيام بشهرين؛ فذلك صيام سنة»[٢] يعني: صيام رمضان وستة أيام بعده. خرجه الإمام أحمد والنسائي وهذا لفظه، وابن حبان في صحيحه، وصححه أبو حاتم الرازي وقال الإمام أحمد: ليس في أحاديث الباب أصح منه. وتوقف فيه في رواية أخرى. ولا فرق في ذلك بين أن يكون شهر رمضان ثلاثين أو تسعاً وعشرين، وعلى هذا حمل بعضهم قول النبي ﷺ: «شهرا عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة»[٣]. وقال: المراد كمال آخره، سواء كان ثلاثين أو تسعاً وعشرين وأنه أُتبع بستة أيام من شوال فإنه يعدل صيام الدهر على كل حال. وكره إسحاق بن راهويه أن يقال لشهر رمضان: إنه ناقص، وإن كان تسعاً وعشرين لهذا المعنى. فإن قال قائل: فلو صام هذه الستة أيام من غير شوال يحصل له هذا الفضل؟ فكيف خص صيامها من شوال؟ قيل: صيامها من شوال يلتحق بصيام رمضان في أجر الفضل فيكون له أجر صيام الدهر فرضاً، ذكر ذلك ابن المبارك وذكر أنه في بعض الحديث حكاه عنه الترمذي في جامعه، ولعله أشار إلى ما روي عن أم سلمة: أن من صام الغد من يوم الفطر فكأنما صام رمضان.

وفي معاودة الصيام بعد رمضان فوائد عديدة:

**منها**: أن صيام ستة أيام من شوال بعد رمضان يستكمل بها أجر صيام الدهر كله كما سبق.

---

(١) ضعيف. رواه ابن عساكر وخرج طرفاً منه البخاري في تاريخه (٢٠/١) وإسناده ضعيف.

(٢) صحيح. أحمد (٢١٩٠٦) والنسائي في الكبرى (١٦٢/٢) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٠٧).

(٣) رواه البخاري (١٩١٢) ومسلم (١٠٨٩).

**ومنها**: أن صيام شوال وشعبان كصلاة السنن الرواتب قبل الصلاة المفروضة وبعدها فيكمل بذلك ما حصل في الفرض من خلل ونقص، فإن الفرائض تكمل بالنوافل يوم القيامة كما ورد ذلك عن النبي ﷺ من وجوه متعددة، وأكثر الناس في صيامه للفرض نقص وخلل فيحتاج إلى ما يجبره ويكمله من الأعمال ولهذا نهى النبي ﷺ: أن يقول الرجل: صمت رمضان كله أو قمته كله[1]. قال الصحابي: فلا أدري أكره التزكية أم لا بد من غفلة. وكان عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ يقول: من لم يجد ما يتصدق به؛ فليصم. يعني: من لم يجد ما يخرجه صدقة الفطر في آخر رمضان فليصم بعد الفطر؛ فإن الصيام يقوم مقام الإطعام في التكفير للسيئات كما يقوم مقامه في كفارات الإيمان وغيرها من الكفارات مثل كفارة القتل والوطء في رمضان والظهار.

**ومنها**: أن معاودة الصيام بعد صيام رمضان علامة على قبول صوم رمضان، فإن الله إذا تقبل عمل عبد وفقه لعمل صالح بعده، كما قال بعضهم: ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فمن عمل حسنة، ثم أتبعها بحسنة بعدها كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى، .كما أن من عمل حسنة ثم، أتبعها بسيئة كان ذلك علامة رد الحسنة وعدم قبولها.

**ومنها**: أن صيام رمضان يوجب مغفرة ما تقدم من الذنوب كما سبق ذكره، وأن الصائمين لرمضان يوفون أجورهم في يوم الفطر وهو يوم الجوائز فيكون معاودة الصيام بعد الفطر شكراً لهذه النعمة، فلا نعمة أعظم من مغفرة الذنوب. كان النبي ﷺ يقوم حتى تتورم قدماه فيقال له: أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[2] وقد أمر الله سبحانه عباده بشكر نعمة صيام رمضان بإظهار ذكره وغير ذلك من أنواع شكره فقال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥] فمن جملة شكر العبد لربه على توفيقه لصيام

(١) ضعيف. تقدم.

(٢) رواه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩).

رمضان وإعانته عليه ومغفرة ذنوبه أن يصوم له شكراً عقيب ذلك. كان بعض السلف إذا وفق لقيام ليلة من الليالي أصبح في نهارها صائماً، ويجعل صيامه شكراً للتوفيق للقيام. وكان وهيب بن الورد يُسْأل عن ثواب شيء من الأعمال كالطواف ونحوه؟ فيقول: لا تسألوا عن ثوابه، ولكن اسألوا ما الذي على من وفق لهذا العمل من الشكر للتوفيق والإعانة عليه.

إذا أنت لم تزدد على كل نعمة لموليكها شكراً فلست بشاكر

كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا يحتاج إلى شكر عليها، ثم للتوفيق للشكر عليها نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى يحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبداً فلا يقدر العباد على القيام بشكر النعم. وحقيقة الشكر الاعتراف بالعجز عن الشكر كما قيل:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر

قال أبو عمرو الشيباني: قال موسى عليه السلام يوم الطور: يا رب إن أنا صليت فمن قِبَلك وإن أنا تصدقت فمن قبلك، وإن بلغت رسالتك فمن قبلك، فكيف أشكرك؟ قال: يا موسى الآن شكرتني. فأما مقابلة نعمة التوفيق لصيام شهر رمضان بارتكاب المعاصي بعده فهو من فعل من بدل نعمة الله كفراً، فإن كان قد عزم في صيامه على معاودة المعاصي بعد انقضاء الصيام فصيامه عليه مردود وباب الرحمة في وجهه مسدود. قال كعب: من صام رمضان وهو يحدث نفسه أنه إذا أفطر رمضان أن لا يعصي الله دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب، ومن صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر عصى الله فصيامه عليه مردود.

**ومنها**: أن الأعمال التي كان العبد يتقرب بها إلى ربه في شهر رمضان لا تنقطع بانقضاء رمضان، بل هي باقية بعد انقضائه ما دام العبد حياً. وهذا معنى الحديث المتقدم: «أن الصائم بعد رمضان كالكارّ بعد الفارّ»[١] يعني: كالذي

---

(١) ضعيف. تقدم.

يفر من القتال في سبيل الله ثم يعود إليه. وذلك لأن كثيراً من الناس يفرح بانقضاء شهر رمضان لاستثقال الصيام ومللـه وطوله عليه، ومن كان كذلك فلا يكاد يعود إلى الصيام سريعاً، فالعائد إلى الصيام بعد فطره يوم الفطر يدل عوده على رغبته في الصيام وأنه لم يمله ولم يستثقله ولا تكرَّه به. وفي حديث خرجه الترمذي مرفوعاً: «أحب الأعمال إلى الله الحال المرتحل»[١] وفسر بصاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره، ومن آخره إلى أوله، كلما حل ارتحل، والعائد إلى الصيام سريعاً بعد فراغ صيامه شبيه بقارئ القرآن، إذا فرغ من قراءته ثم عاد إليه، في المعنى ـ والله أعلم ـ. قيل لبشر: إن قوماً يتعبدون ويجتهدون في رمضان فقال: بئس القوم قوم لا يعرفون لله حقاً إلا في شهر رمضان، إن الصالح الذي يتعبد ويجتهد السنة كلها. وسئل الشبلي أيما أفضل رجب أو شعبان؟ فقال: كن ربانياً ولا تكن شعبانياً. ثم أنشد:

إذا كنت في حرب الهوى متجرداً  فكل أرض لي ثغر وطرسوس

كان النبي ﷺ عمله ديمة. وسئلت عائشة: هل كان النبي ﷺ يخص يوماً من الأيام؟ فقالت: لا، كان عمله ديمة[٢]. وقالت: كان النبي ﷺ لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة[٣]. وقد كان النبي ﷺ يقضي ما فاته من أوراده في رمضان في شوال؛ فترك في عام اعتكاف العشر الأواخر من رمضان، ثم قضاه في شوال فاعتكف العشر الأول منه[٤]. وسأل رجلًا هل صام من سرر شعبان شيئاً؟ فقال: لا، فأمره أن يصوم إذا أفطر[٥]. يعني: يقضي ما فاته من صيام شعبان في شوال. وقد تقدم.

عن أم سلمة أنها كانت تأمر أهلها من كان عليه قضاء من رمضان أن يقضيه الغد من يوم الفطر. فمن كان عليه قضاء من شهر رمضان فليبدأ

---

(١) ضعيف. الترمذي (٢٩٤٨) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٨٣٤).
(٢) رواه البخاري (١٩٨٧) ومسلم (٧٨٣).
(٣) رواه البخاري (٢٠١٣) ومسلم (٧٣٨).
(٤) رواه البخاري (٢٠٣٣) ومسلم (١١٧٣).
(٥) صحيح. تقدم.

بقضائه في شوال فإنه أسرع لبراءة ذمته وهو أولى من التطوع بصيام ستة من شوال، فإن العلماء اختلفوا فيمن عليه صيام مفروض هل يجوز أن يتطوع قبله أم لا؟ وعلى قول من جوز التطوع قبل القضاء فلا يحصل مقصود صيام ستة أيام من شوال إلا لمن أكمل صيام رمضان ثم أتبعه بست من شوال، فمن كان عليه قضاء من رمضان ثم بدأ بصيام ست من شوال تطوعاً لم يحصل له ثواب من صام رمضان، ثم أتبعه بست من شوال حيث لم يكمل عدة رمضان، كما لا يحصل لمن أفطر رمضان لعذر بصيام ستة أيام من شوال أجر صيام السنة بغير إشكال. ومن بدأ بالقضاء في شوال ثم أراد أن يتبع ذلك بصيام ستة من شوال بعد تكملة قضاء رمضان كان حسناً؛ لأنه يصير حينئذٍ قد صام رمضان وأتبعه بست من شوال، ولا يحصل له فضل صيام ست من شوال بصوم قضاء رمضان؛ لأن صيام الست من شوال إنما يكون بعد إكمال عدة رمضان. عمل المؤمن لا ينقضي حتى يأتيه أجله. قال الحسن: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلًا دون الموت، ثم قرأ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩]. هذه الشهور والأعوام والليالي والأيام كلها مقادير للآجال، ومواقيت للأعمال، ثم تنقضي سريعاً وتمضي جميعاً والذي أوجدها وابتدعها وخصها بالفضائل وأودعها باقٍ لا يزول، ودائم لا يحول هو في جميع الأوقات إله واحد، ولأعمال عباده رقيب مشاهد، فسبحان من قلب عباده في اختلاف الأوقات بين وظائف الخدم؛ ليسبغ عليهم فيها فواضل النعم، ويعاملهم بنهاية الجود والكرم. لما انقضت الأشهر الثلاثة الكرام التي أولها الشهر الحرام وآخرها شهر الصيام أقبلت الأشهر الثلاثة أشهر الحج إلى البيت الحرام، فكما أن من صام رمضان وقامه غفر له ما تقدم من ذنبه، فمن حج البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فما يمضي من عمر المؤمن ساعة من الساعات إلا ولله عليه فيها وظيفة من وظائف الطاعات فالمؤمن يتقلب بين هذه الوظائف، ويتقرب بها إلى مولاه وهو راج خائف، المحب لا يمل من التقرب بالنوافل إلى مولاه، ولا يأمل إلا قربه ورضاه.

ما للمحب سوى إرادة حبه ... إن المحب بكل برٍ يضرع

كل وقت يخليه العبد من طاعة مولاه فقد خسره، وكل ساعة يغفل فيها عن ذكر الله تكون عليه يوم القيامة تِرَة. فوا أسفاه! على زمان ضاع في غير طاعته، وواحسرتاه! على وقت فات في غير خدمته.

من فاته أن يراك يوماً فكل أوقاته فوات
وحيثما كنت من بلاد فلي إلى وجهك التفات

من عمل طاعةً من الطاعات وفرغ منها، فعلامة قبولها أن يصلها بطاعة أخرى، وعلامة ردها أن يعقب تلك الطاعة بمعصية. ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها، وأحسن منها الحسنة بعد الحسنة تتلوها، وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها وتعفوها. ذنب واحد بعد التوبة أقبح من سبعين ذنباً قبلها، النكسة أصعب من المرض، وربما أهلَكَتْ. سلوا الله الثبات على الطاعات إلى الممات وتعوذوا به من تقلب القلوب، ومن الحور بعد الكور، ما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة، وأفحش فقر الطمع بعد غنى القناعة، ارحموا عزيز قوم بالمعاصي ذل، وغني قوم بالذنوب افتقر.

ترى الحي الأولى بانوا على العهد كما كانوا
أم الدهر بهم خان ودهر المرء خوان
إذا عز بغير الله يوماً معشر هانوا

يا شبان التوبة لا ترجعوا إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفطام، فالرضاع إنما يصلح للأطفال لا للرجال ولكن لا بد من الصبر على مرارة الفطام، فإن صبرتم تعوضتم عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان في القلوب، من ترك لله شيئاً لم يجد فقده عوضه الله خيراً منه: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٧٠]. وفي الحديث: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس من تركه من خوف الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[١] خرجه الإمام أحمد. وهذا الخطاب للشباب؛ فأما الشيخ إذا عاود المعاصي بعد انقضاء رمضان فهو أقبح وأقبح؛ لأن الشباب يؤمل

---

(١) ضعيف جداً. القضاعي في مسند الشهاب (٢٩٢) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٠٦٥).

معاودة التوبة في آخر عمره وهو مخاطر؛ فإن الموت قد يعاجله وقد يطرقه بغتة، فأما الشيخ فقد شارف مركبه على ساحل بحر المنون فماذا يؤمل؟

نعى لك ظل الشباب المشيب ... ونادتك باسم سواك الخطوب
فكن مستعداً لداعي الفناء ... فكل الذي هو آتٍ قريب
ألسنا نرى شهوات النفو ... س تفنى وتبقى علينا الذنوب
يخاف على نفسه من يتوب ... فكيف بحالة من لا يتوب

❋ ❋ ❋

## المجلس الثاني
## في ذكر الحج وفضله والحث عليه

في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور»[1]. وهذه الأعمال الثلاثة ترجع في الحقيقة إلى عملين:

**أحدهما**: الإيمان بالله ورسوله وهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما فسر النبي ﷺ الإيمان بذلك في حديث سؤال جبريل له وفي غيره من الأحاديث، وقد ذكر الله تعالى الإيمان بهذه الأصول في مواضع كثيرة من كتابه كأول البقرة ووسطها وآخرها.

**والعمل الثاني**: الجهاد في سبيل الله، وقد جمع الله بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصَّف: ١٠، ١١] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحُجرَات: ١٥]. وقد صح عن النبي ﷺ من غير وجه: أن أفضل الأعمال الإيمان بالله والجهاد في سبيله؛ فالإيمان المجرد يدخل فيه أعمال الجوارح

(١) البخاري (٢٦) ومسلم (٨٣).

عند السلف وأهل الحديث، والإيمان المقرون بالعمل يراد به التصديق مع القول وخصوصاً إن قُرِن الإيمان بالله بالإيمان برسوله كما في هذا الحديث، فالإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة واللسان بالكلام الطيب كما قاله النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1] ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبته ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه.

قال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكنه بما وقر في الصدور وصدقته الأعمال، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وفي هذا يقول بعضهم:

ما كل من زوق لي قوله ... يغرني يا صاح تزويقه
من حقق الإيمان في قلبه ... لا بد أن يظهر تحقيقه

فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته، ظهر ثمرة ذلك على لسانه وجوارحه فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذٍ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل [حب] الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد حره للظمآن الشديد عطشه، ويصير الخروج من الإيمان أكره إلى القلوب من الإلقاء في النار وأمر عليها من الصبر. ذكر ابن المبارك عن أبي الدرداء أنه دخل المدينة فقال لهم: ما لي لا أرى عليكم يا أهل المدينة حلاوة الإيمان؟ والذي نفسي بيده لو أن دُبَّ الغابة وجد طعم الإيمان لرُئي عليه حلاوة الإيمان.

(١) رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

لو ذاق طعم الإيمان رضوى لكاد من وجده يميد
قد حملوني تكليف عهد يعجز عن حمله الحديد

فالإيمان بالله ورسوله قد سبق أنه وظيفة القلب واللسان، ثم يتبعهما عمل الجوارح، وأفضلها الجهاد في سبيل الله وهو نوعان: أفضلهما: جهاد المؤمن لعدوه الكافر وقتاله في سبيل الله؛ فإن فيه دعوة له إلى الإيمان بالله ورسوله ليدخل في الإيمان، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال أبو هريرة في هذه الآية: يجيئون بهم في السلاسل حتى يدخلونهم الجنة.

وفي الحديث المرفوع: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[(١)]. فالجهاد في سبيل الله دعاء الخلق إلى الإيمان بالله ورسوله بالسيف واللسان بعد دعائهم إليه بالحجة والبرهان.

وقد كان النبي ﷺ في أول الأمر لا يقاتل قوماً حتى يدعوهم. فالجهاد به تعلو كلمة الإيمان وتتسع رقعة الإسلام ويكثر الداخلون فيه، وهو وظيفة الرسل وأتباعهم وبه تصير كلمة الله هي العليا، والمقصود منه أن يكون الدين كله لله والطاعة له كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، والمجاهد في سبيل الله هو المقاتل لتكون كلمة الله هي العليا خاصة.

والنوع الثاني من الجهاد: جهاد النفس في طاعة الله كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[(٢)]. وقال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو: ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فجاهدها. وأعظم مجاهدة النفس على طاعة الله عمارة بيوته بالذكر والطاعة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، وفي حديث أبي سعيد المرفوع: «إذا رأيتم الرجل يعتاد

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠).

(٢) صحيح. رواه الترمذي (١٦٢١) وصححه شيخنا في الصحيحة (٥٤٩).

المسجد فاشهدوا له بالإيمان»[١] ثم تلا هذه الآية. خرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه. وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧] الآية. والنوع الأول من الجهاد أفضل من هذا النوع الثاني قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٩، ٢٠].

وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما[٢] أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] إلى آخر الآية[٣]. فهذا الحديث الذي فيه ذكر سبب نزول هذه الآية يبين أن المراد أفضل ما يتقرب به إلى الله من أعمال النوافل والتطوع، وأن الآية تدل على أن أفضل ذلك الجهاد مع الإيمان، فدل على أن التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بعمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، وعلى مثل هذا يحمل حديث أبي هريرة هذا، وأن الجهاد أفضل من الحج المتطوع به؛ فإن فرض الحج تأخر عند كثير من العلماء إلى السنة التاسعة، ولعل النبي ﷺ قال هذا الكلام قبل أن يفرض الحج بالكلية، فكان حينئذٍ تطوعاً. وقد قيل: إن الجهاد كان في أول الإسلام فرض عين، فلا إشكال

---

(١) ضعيف. أحمد (٢٧٣٠٨) والترمذي (٢٦١٧) وابن ماجه (٨٠٢) وضعفه شيخنا في تمام المنة (٢٩١).

(٢) في نسخة: «لا» كما في الأصل.

(٣) مسلم (١٨٧٩).

في هذا على تقديمه على الحج قبل افتراضه، فأما بعد أن صار الجهاد فرض كفاية والحج فرض عين فإن الحج المفروض حينئذٍ يكون أفضل [من] الجهاد. قال عبدالله بن عمرو بن العاص: حجة قبل الغزو أفضل من عشر غزوات، وغزوة بعد حجة أفضل من عشر حجات(١). روي ذلك مرفوعاً من وجوه متعددة في أسانيدها مقال. وقال الصبي بن معبد: كنت نصرانياً فأسلمت فسألت أصحاب محمد: الجهاد أفضل أم الحج؟ فقالوا: الحج.

والمراد ـ والله أعلم ـ: أن الحج أفضل لمن لم يحج حجة الإسلام مثل الذي أسلم، وقد يكون المراد بحديث أبي هريرة أن جنس الجهاد أشرف من جنس الحج، فإن عرض للحج وصف يمتاز به على الجهاد وهو كونه فرض عين صار ذلك الحج المخصوص أفضل من الجهاد وإلا فالجهاد أفضل والله أعلم. و قد دل حديث أبي هريرة على أن أفضل الأعمال بعد الجهاد في سبيل الله جنس عمارة المساجد بذكر الله وطاعته، فيدخل في ذلك الصلاة والذكر والتلاوة والاعتكاف وتعليم العلم النافع وإسماعه، وأفضل من ذلك عمارة أفضل المساجد وأشرفها وهو المسجد الحرام بالزيارة والطواف، فلهذا خصه بالذكر وجعل قصده للحج أفضل الأعمال بعد الجهاد، وقد خرجه ابن المنذر ولفظه: «ثم حج مبرور أو عمرة»(٢).

وقد ذكر الله تعالى هذا البيت في كتابه بأعظم ذكر وأفخم تعظيم وثناء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] الآيات، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ

(١) ضعيف جداً. انظر الضعيفة لشيخنا (١٢٣٠و٢٦٥٦).
(٢) صحيح. رواه أبو عوانة (١/٦٤).

عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧]. فعمارة سائر المساجد سوى المسجد الحرام، وقصدها للصلاة فيها، وأنواع العبادات من الرباط في سبيل الله كما قال النبي ﷺ: «في إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[(١)]. فأما المسجد الحرام بخصوصه فقصده لزيارته وعمارته بالطواف الذي خصه الله به من نوع الجهاد في سبيل الله ﷻ. وفي صحيح البخاري عن عائشة قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور»[(٢)] يعني: أفضل جهاد النساء. ورواه بعضهم: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور»[(٣)] فيكون صريحاً في هذا المعنى. وقد خرجه البخاري بلفظ آخر وهو: «جهادكن الحج»[(٤)] وهو كذلك، وفي المسند وسنن ابن ماجه عن أم سلمة عن النبي قال: «الحج جهاد كل ضعيف»[(٥)]. وخرج البيهقي وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «جهاد الكبير والضعيف والمرأة: الحج والعمرة»[(٦)]. وفي حديث مرسل: «الحج جهاد، والعمرة تطوع»[(٧)]، وفي حديث آخر مرسل خرجه عبدالرزّاق أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إني جبان لا أطيق لقاء العدو قال: «أفلا أدلك على جهاد لا قتال فيه؟» قال: بلى، قال: «عليك بالحج والعمرة»[(٨)]. وخرج أيضاً من مراسيل علي بن الحسين أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الجهاد، فقال: «ألا أدلك على جهاد لا شوكة فيه؟ الحج»[(٩)]. وفيه عن عمر أنه

---

(١) رواه مسلم (٢٥١).
(٢) البخاري (١٥٢٠).
(٣) البخاري (٢٧٨٤).
(٤) البخاري (٢٨٧٥).
(٥) حسن لغيره. أحمد (٢٥٩٨١) وابن ماجه (٢٩٠٢) وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب (١١٠٢).
(٦) حسن لغيره. البيهقي في السنن (٣٥٠/٤) ورواه النسائي (٢٦٢٦) وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب (١١٠٠).
(٧) ضعيف. رواه ابن ماجه (٢٩٨٩) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٠٠).
(٨) صحيح لغيره. عبدالرزّاق (٨/٥) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٩٨).
(٩) صحيح. عبدالرزّاق (٧/٥) وصححه شيخنا في المصدر السابق.

قال: إذا وضعتم السروج ـ يعني: من سفر الجهاد ـ فشدوا الرحال إلى الحج والعمرة؛ فإنه أحد الجهادين[١]. وذكره البخاري تعليقاً. وقال ابن مسعود: إنما هو سرج ورحل؛ فالسرج في سبيل الله والرحل في الحج. خرجه الإمام أحمد في مناسكه. وإنما كان الحج والعمرة جهاداً؛ لأنه يجهد المال والنفس والبدن كما قال أبو الشعثاء: نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن دون المال، والصيام كذلك، والحج يجهدهما؛ فرأيته أفضل. وروى عبدالرزّاق بإسناده عن أبي موسى الأشعري أن رجلًا سأله عن الحج قال: إن الحاج يشفع في أربعمائة بيت من قومه، ويبارك في أربعين من أمهات البعير الذي حمله ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. فقال له رجل: يا أبا موسى إني كنت أعالج الحج، وقد كبرت وضعفت فهل من شيء يعدل الحج؟ فقال: هل تستطيع أن تعتق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل؟ فأما الحل والرحيل فلا أجد له عدلًا ـ أو قال: مثلًا ـ[٢]. وبإسناده عنه طاوس أنه سئل هل الحج بعد الفريضة أفضل أم الصدقة؟ قال: فأين الحل والرحيل، والسهر والنصب، والطواف بالبيت، والصلاة عنده، والوقوف بعرفة وجمع، ورمي الجمار، كأنه يقول الحج أفضل.

وقد اختلف العلماء في تفضيل الحج تطوعاً على الصدقة؛ فمنهم من رجح الحج كما قال طاوس وأبو الشعثاء، وقاله الحسن أيضاً. ومنهم من رجح الصدقة وهو قول النخعي، ومنهم من قال: إن كان ثم رحم محتاجة أو زمن مجاعة فالصدقة وإلا فالحج. وهو نص أحمد. وروي عن الحسن معناه، وإن صلة الرحم والتنفيس عن المكروب أفضل من التطوع بالحج. وفي كتاب عبدالرزّاق بإسناد ضعيف عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل حج فأكثر أيجعل نفقته في صلة أو عتق؟ فقال النبي ﷺ: «طواف سبع لا لغو فيه يعدل رقبة»[٣] وهذا يدل على تفضيل الحج. واستدل من رأى ذلك أيضاً بأن النفقة في الحج أفضل من النفقة في سبيل الله. وفي

---

(١) صحيح. عبدالرزّاق (٥/٧) وصححه شيخنا في مختصر صحيح البخاري (١/٤٥٠).
(٢) ضعيف. عبدالرزّاق (٥/٧) بإسناد ضعيف وسبق تخريجه بإسناد واهٍ مرفوعاً.
(٣) ضعيف جداً. عبدالرزّاق (٥/١٨) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٠٣٥).

مسند الإمام أحمد عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف»[(١)]. وخرجه الطبراني من حديث أنس عن النبي ﷺ: «النفقة في سبيل الله الدرهم فيه بسبعمائة»[(٢)]. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٥، ١٩٦] ففيه دليل على أن النفقة في الحج والعمرة تدخل في جملة النفقة في سبيل الله، وقد كان بعض الصحابة جعل بعيره في سبيل الله فأرادت امرأته أن تحج عليه فقال لها النبي ﷺ: «حجي عليه؛ فإن الحج في سبيل الله»[(٣)]. وقد خرجه أهل المسانيد والسنن من وجوه متعددة، وذكره البخاري تعليقاً. وهذا يستدل به على أن الحج يصرف فيه من سهم سبيل الله المذكور في آية الزكاة، كما هو أحد قولي العلماء، فيعطى من الزكاة من لم يحج ما يحج به، وفي إعطائه لحج التطوع اختلاف بينهم أيضاً.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[(٤)]. وفي المسند أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حجةٌ بَرَّةٌ تفضل سائر الأعمال ما بين مطلع الشمس إلى مغربها»[(٥)]. وثبت عنه ﷺ أنه قال: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[(٦)]. فمغفرة الذنوب بالحج ودخول الجنة مترتب على كون الحج مبروراً؛ وإنما يكون مبروراً باجتماع أمرين فيه أحدهما: الإتيان فيه بأعمال البر، والبر يطلق بمعنيين: أحدهما: بمعنى الإحسان إلى الناس كما يقال: البر والصلة، وضده العقوق. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل عن البر؟ فقال: «البر

---

(١) ضعيف. أحمد (٢٢٤٩١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٥٣٠).
(٢) ضعيف. الطبراني في الأوسط (٢٧/٦ ـ ٢٨) وضعفه شيخنا في المصدر السابق.
(٣) صحيح لغيره. أبو داود (١٩٨٩) وحسنه شيخنا في تمام المنة (٣٨١) وذكر له شاهداً.
(٤) صحيح. سبق تخريجه.
(٥) صحيح. أحمد (١٥٨٣١) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١١٠٣).
(٦) صحيح. سبق تخريجه.

حسن الخلق»[١] وكان ابن عمر يقول: إن البر شيء هين: وجه طليق، وكلام لين. وهذا يحتاج إليه في الحج كثيراً أعني: معاملة الناس بالإحسان بالقول والفعل. قال بعضهم: إنما سمي السفر سفراً؛ لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. وفي المسند عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» قالوا: وما بِرُّ الحج يا رسول الله؟ قال: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام»[٢]. وفي حديث آخر: «وطيب الكلام»[٣]. وسئل سعيد بن جبير: أي الحج أفضل؟ قال: من أطعم الطعام، وكف لسانه. قال الثوري: سمعت أنه من بر الحج. وفي مراسيل خالد بن معدان عن النبي ﷺ قال: «ما يصنع من يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه خصال ثلاثة: ورع يحجزه عما حرم الله، وحلم يضبط به جهله، وحسن صحابة لمن يصحب، وإلا فلا حاجة لله بحجه»[٤]. وقال أبو جعفر الباقر: ما يعبأ من يؤم هذا البيت إذا لم يأت بثلاث: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف به غضبه، وحسن الصحابة لمن يصحبه من المسلمين. فهذه الثلاثة يحتاج إليها في الأسفار كلها خصوصاً في سفر الحج فمن كملها فقد كمل حجه وبر.

ومِنْ أجمع خصال البر التي يحتاج إليها الحاج ما وصى به النبي ﷺ أبا جري الهجيمي فقال له: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تنحي الشي من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض»[٥]. وفي الجملة؛ فخير الناس أنفعهم للناس وأصبرهم على أذى الناس كما وصف الله المتقين بذلك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

(١) مسلم (٢٥٥٣).
(٢) صحيح لغيره. وسبق تخريجه.
(٣) صحيح لغيره. تقدم.
(٤) ضعيف.
(٥) صحيح لغيره. رواه النسائي في الكبرى (٥/٤٨٦) وغيره وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٤٢٢).

﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤]. والحاج يحتاج إلى مخالطة الناس والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم. قال ربيعة: المروءة في السفر بذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله ﷻ. وجاء رجلان إلى ابن عون يودعانه ويسألانه أن يوصيهما فقال لهما: عليكما بكظم الغيظ، وبذل الزاد. فرأى أحدهما في المنام: أن ابن عون أهدى إليهما حلتين. والإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة، لا سيما إن احتاج العابد إلى خدمة إخوانه. وقد كان النبي ﷺ في سفر في حر شديد، ومعه من هو صائم ومفطر، فسقط الصوام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال النبي ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»[1]. وروي أنه ﷺ كان في سفر فرأى رجلًا صائماً فقال له: «ما حملك على الصوم في السفر؟» فقال: معي ابناي يرحلان بي ويخدماني فقال له: «ما زال لهما الفضل عليك»[2]. وفي مراسيل أبي داود عن أبي قلابة قال: قدم ناس من أصحاب رسول الله ﷺ من سفر يثنون على صاحب لهم قالوا: ما رأينا مثل فلان قط ما كان في مسير إلا كان في قراءة ولا نزلنا منزلًا إلا كان في صلاة قال: «فمن كان يكفيه ضيعته؟» حتى ذكر: «ومن كان يعلف دابته؟» قالوا: نحن. قال: «فكلكم خير منه»[3]. وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في السفر لأخدمه فكان يخدمني. وكان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتناماً لأجر ذلك؛ منهم: عامر بن عبد قيس، وعمرو بن عتبة بن فرقد مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان، وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره فيشترط عليهم أن يخدمهم، فكان إذا رأى رجلًا يريد أن يغسل ثوبه قال له: هذا من شرطي فيغسله، وإذا رأى رجلًا يريد أن يغسل رأسه قال: هذا من شرطي فيغسله، فلما مات نظروا في يده فإذا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٠) ومسلم (١١١٩).
(٢) لم أقف عليه وذكره المصنف أيضاً في جامع العلوم والحكم ولم يذكر من خرجه.
(٣) ضعيف. أبو داود في المراسيل (٣٠٦) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (١٥٧٨).

فيها مكتوب: من أهل الجنة، فنظروا إليها، فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم. وترافق بهيم العجلي وكان من العابدين البكائين ورجل تاجر موسر في الحج فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على صدره، ثم قطرت على الأرض وقال: ذكرت بهذه الرحلة الرحلة إلى الله ثم علا صوته بالنحيب فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن ينغص عليه سفره معه بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء الرجل الذي رافق بينهما إليه ليسلم عليهما فبدأ بالتاجر فسلم عليه وسأله عن حله مع بهيم فقال: والله ما ظننت أن في هذا الخلق مثله، كان والله يتفضل علي في النفقة وهو معسر وأنا موسر، ويتفضل علي في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب، ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر. فسأله عما كان يكرهه منه من كثرة بكائه؟ فقال: ألفت والله ذلك البكاء وأشرب حبه قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذى بنا الرفقة، ثم ألفوا ذلك، فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا، ويقول بعضهم لبعض: ما الذي جعلهما أولى بالبكاء منا والمصير واحد؟ فجعلوا والله يبكون ونبكي ثم خرج من عنده فدخل على بهيم فسلم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب كثير الذكر لله طويل التلاوة للقرآن سريع الدمعة محتمل لهفوات الرفيق فجزاك الله عني خيراً. وكان ابن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم وكان إذا أراد الحج من بلده مَرو[1] جمع أصحابه وقال: من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة، ويطعمهم أطيب الطعام ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فرد إلى كل واحد نفقته.

المعنى الثاني: مما يراد بالبر: فعل الطاعات كلها وضده الإثم، وقد فسر الله البر بذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] إلى آخر الآية. فتضمنت الآية

(١) في الأصل: «مرّ».

أن أنواع البر ستة أنواع من استكملها فقد استكمل البر: أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة. وثانيها: إيتاء المال المحبوب لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب. وثالثها: إقام الصلاة. ورابعها: إيتاء الزكاة. وخامسها: الوفاء بالعهد. وسادسها: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس. وكلها يحتاج الحاج إليها؛ فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبروراً بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإن أركان الإسلام بعضها مرتبطة ببعض فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتى بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهد في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله إيتاءه له، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر. فهذه خصال البر، ومن أهمها للحاج: إقام الصلاة فمن حج من غير إقام الصلاة لا سيما إن كان حجه تطوعاً كان بمنزلة من سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله وهو ألوف كثيرة، وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها ويوتر عليها[1]. وحج مسروق فما نام إلا ساجداً. وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليله أجمع في محمله يومئ إيماء ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه حتى يشتغل عنه بسماع صوت الحادي فلا يتفطن له. وكان المغيرة بن حكيم الصنعاني يحج من اليمن ماشياً، وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن، فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده، ثم يلحق بالركب متى لحق، فربما لم يلحقهم إلا في آخر النهار.

سلامٌ على تلك الأرواح، رحمة الله على تلك الأشباح، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل:

**نزلوا بمكة في قبائل هاشم[2] ونزلت بالبيداء أبعد منزل**

فنحن ما نأمر إلا بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت إحداهما بالأرض، فإنه لا يرخص لأحد أن

(١) رواه البخاري (١٠٠٠) ومسلم (٧٠٠).

(٢) في نسخة: «نوفل» كما في هامش الأصل.

يصلي صلاة الليل في النهار، ولا صلاة النهار في الليل، ولا أن يصلي على ظهر راحلته المكتوبة إلا من خاف الانقطاع عن الرفقة أو نحو ذلك مما يخاف على نفسه. فأما المريض ومن كان في ماء وطين؛ ففي صلاته على الراحلة اختلاف مشهور للعلماء وفيه روايتان عن الإمام أحمد، وأن يكون بالطهارة الشرعية بالوضوء بالماء مع القدرة عليه، والتيمم عند العجز عنه حساً أو شرعاً، ومتى علم الله من عبد حرصه على إقامة الصلاة على وجهها أعانه الله. قال بعض العلماء: كنت في طريق الحج وكان الأمير يقف للناس كل يوم لصلاة الفجر فينزل فيصلي ثم نركب، فلما كان ذات يوم قرب طلوع الشمس ولم يقفوا للناس، فناديتهم فلم يلتفتوا إلى ذلك، فتوضأت على المحمل ثم نزلت للصلاة على الأرض، ووطنت نفسي على المشي إلى وقت نزولهم للضحى وكانوا لا ينزلون إلى قريب وقت الظهر مع علمي بمشقة ذلك علي وإني لا قدرة لي عليه، فلما صليت وقضيت صلاتي نظرت إلى رفقتي فإذا هم وقوف وقد كانوا لو سئلوا ذلك لم يفعلوه، فسألتهم عن سبب وقوفهم؟ فقالوا: لما نزلت تعرقلت مقاود الجمال بعضها في بعض فنحن في تخليصها إلى الآن قال: فجئت وركبت وحمدت الله ﷻ وعلمت أنه ما قدم أحد حق الله تعالى على هوى نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة، ولا عكس أحد ذلك فقدم حظ نفسه على حق ربه إلا ورأى الشقاوة في الدنيا والآخرة، واستشهد بقول القائل:

والله ما جئتكم زائراً ... إلا وجدت الأرض تطوى لي
ولا ثنيت العزم عن بابكم ... إلا تعثرت بأذيالي

ومن أعظم أنواع بر الحج كثرة ذكر الله تعالى فيه، وقد أمر الله تعالى بكثرة ذكره في إقامة مناسك الحج مرة بعد أخرى، وروي أن النبي ﷺ سئل: أي الحاج أفضل؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً»[1] أخرجه الإمام أحمد، وروي مرسلًا من وجوه متعددة.

---

(١) ضعيف. أحمد (١٥١٨٧) وإسناده ضعيف.

وخصوصاً كثرة الذكر في حال الإحرام بالتلبية والتكبير. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: «أفضل الحج العج والثج»[(١)]. وفي حديث جبير بن مطعم المرفوع: «عجوا التكبير عجاً، وثجوا الإبل ثجاً»[(٢)]. فالعج: رفع الصوت في التكبير والتلبية، والثج: إراقة دماء الهدايا والنسك، والهدي من أفضل الأعمال قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحَجّ: ٣٦] الآية وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحَجّ: ٣٢]. وأهدى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة[(٣)]، وكان يبعث بالهدي إلى منى فينحر عنه وهو مقيم بالمدينة[(٤)].

الأمر الثاني: مما يكمل به بر الحج اجتناب أفعال الإثم فيه من الرفث والفسوق والمعاصي، قال الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧]. وفي الحديث الصحيح: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[(٥)]. وقد سبق حديث: «من لم يكن له ورع يحجزه عن معاصي الله فليس لله حاجة في حجه»[(٦)].

فما تزود حاج ولا غيره أفضل من زاد التقوى، ولا دعي للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى. وقد روي أن النبي ﷺ ودع غلاماً للحج فقال له: «زودك الله التقوى»[(٧)]. قال بعض السلف لمن ودعه: اتق الله فمن اتقى الله فلا وحشة عليه. وقال آخر: لمن ودعه للحج أوصيك بما وصى به

---

(١) صحيح لغيره. رواه الترمذي (٨٢٧) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٥٠٠).
(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢١٨/٣) ومعناه ثابت في الحديث السابق.
(٣) رواه البخاري (١٧١٨).
(٤) رواه البخاري (١٦٩٩) ومسلم (١٣٢١).
(٥) صحيح. تقدم.
(٦) ضعيف. تقدم.
(٧) صحيح بلفظ سفراً. رواه الطبراني في الكبير (٢٩٢/١٢) وإسناده ضعيف وأصل الحديث ثابت فقد رواه الترمذي (٣٤٤٤» وفيه: أريد سفراً، وصححه شيخنا في الكلم الطيب (١٧١).

النبي ﷺ معاذاً حين ودعه: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[(١)]. وهذه وصية جامعة لخصال البر كلها، ولأبي الدرداء رضي الله عنه:

يريد المرء أن يؤتى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

ومن أعظم ما يجب على الحاج اتقاؤه من الحرام أن يطيب نفقته في الحج وأن لا يجعلها من كسب حرام. وقد خرج الطبراني وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إذا خرج الرجل حاجاً بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك؛ ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك؛ ناداه مناد من السماء: لا لبيك ولا سعديك؛ زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور»[(٢)].

مات رجل في طريق مكة فحفروا له فدفنوه ونسوا الفأس في لحده فكشفوا عنه التراب ليأخذوا الفاس فإذا رأسه وعنقه قد جمعا في حلقة الفاس، فردوا عليه التراب، ورجعوا إلى أهله فسألوهم عنه؟ فقالوا: صحب رجلًا فأخذ ماله فكان يحج منه ويغزو.

إذا حججت بمال أصله سحت ... فما حججت ولكن حجت العير
لا يقبل الله إلا كل طيبة ... ما كل من حج بيت الله مبرور

وما يجب اجتنابه على المحرم وبه يتم بر حجه أن لا يقصد بحجه رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا فخراً ولا خيلاء ولا يقصد به إلا وجه الله ورضوانه، ويتواضع في حجه ويستكين ويخشع لربه. روي عن أنس أن النبي ﷺ حج على رحل رثّ وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: «اللهم

(١) حسن لغيره. رواه الترمذي (١٩٨٧) وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب (٣١٦٠).
(٢) ضعيف جداً. الطبراني في الأوسط (٥/٢٥١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٤٠٣).

اجعلها حجة لا رياء فيها ولا سمعة»[١]. وقال عطاء: صلى رسول الله ﷺ الصبح بمنى غداة عرفة ثم غدا إلى عرفات وتحته قطيفة اشتريت له بأربعة دراهم وهو يقول: «اللهم اجعلها حجة مبرورة متقبلة لا رياء فيها ولا سمعة»[٢]. وقال عبدالله بن الحارث: ركب رسول الله ﷺ رحلًا فاهتز به فتواضع لله ﷻ وقال: «لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة»[٣]. قال رجل لابن عمر: ما أكثر الحاج! فقال: ابن عمر: ما أقلهم! ثم رأى رجلًا على بعير على رحل رث خطامه حبل فقال: لعل هذا. وقال شريح: الحاج قليل والركبان[٤] كثير، ما أكثر من يعمل الخير ولكن ما أقل الذين يريدون وجه الله.

خليلي قطاع الفيافي إلى الحمى كثير وأما الواصلون قليل

وجوه عليها للقبول علامة وليس على كل الوجوه قبول

كان بعض المتقدمين يحج ماشياً على قدميه كل عام، فكان ليلة نائماً في فراشه، فطلبت منه أمه شربة ماء فصعب على نفسه القيام من فراشه لسقي أمه الماء فتذكر حجه ماشياً كل عام وأنه لا يشق عليه فحاسب نفسه فرأى أنه لا يُهوّنه عليه إلا رؤية الناس له ومدحهم إياه فعلم أنه كان مدخولًا. قال بعض التابعين: رب محرم يقول: لبيك اللهم لبيك، فيقول الله: لا لبيك ولا سعديك هذا مردود عليك. قيل له: لم؟ قال: لعله اشترى ناقة بخمسمائة درهم ورحلًا بمائتي درهم ومفرشاً بكذا وكذا ثم ركب ناقته ورجل رأسه ونظر في عطفيه، فذلك الذي يرد عليه. ومن هنا استحب للحاج أن يكون شعثاً أغبر، وفي حديث المباهاة يوم عرفة أن الله تعالى يقول لملائكته: «انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين؛ أشهدكم أني

---

(١) صحيح لغيره. رواه ابن ماجه (٢٨٩٠) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٦١٧).

(٢) رواه الفاكهي في أخبار مكة (١/٤٠٠) ورواه موصولًا عن ابن عباس الفاكهي والطبراني في الأوسط (٢/٩٩) وانظر المصدر السابق.

(٣) صحيح. أحمد (١٢٨٤٦) وصححه الشيخ شعيب في تعليقه على المسند.

(٤) في نسخة: «الركاب» كما في الأصل.

قد غفرت لهم»(١). قال عمر يوماً وهو بطريق مكة: يشعثون ويغبرون ويتفلون ويضحون لا يريدون بذلك شيئاً من عرض الدنيا، ما نعلم سفراً خيراً من هذا ـ يعني: الحج ـ. وعنه قال: إنما الحاج الشعث التفل. وقال ابن عمر لرجل رآه: قد استظل في إحرامه أَضْحِ لمن أحرمت له. أي: ابْرُز للضحى؛ وهو حر الشمس.

أتاك الوافدون إليك شعثاً يسوقون المقلدة الصواف
فكم من قاصد للرب رغباً ورهباً بين منتعل وحاف

سبحان من جعل بيته الحرام مثابة للناس وأمناً، يترددون إليه ويرجعون عنه ولا يرون أنهم قضوا منه وطراً. لما أضاف تعالى ذلك البيت إلى نفسه ونسبه إليه بقوله لخليله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحَجّ: ٢٦] تعلقت قلوب المحبين ببيت محبوبهم، فكلما ذكر لهم ذلك البيت الحرام حنوا، وكلما تذكروا بعدهم عنه أنُّوا.

لا يذكر الرمل إلا حنّ مغترب له بذي الرمل أوطار وأوطان
تهفو إلى البان من قلبي نوازعه وما بي البان بل من داره البان

رأى بعض الصالحين الحاج في وقت خروجهم فوقف يبكي ويقول: وا ضعفاه! وينشد على إثر ذلك:

فقلت: دعوني واتباعي ركابكم أكن طوع أيديكم كما يفعل العبد

ثم تنفس وقال: هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت فكيف تكون حسرة من انقطع عن الوصول إلى رب البيت؟ يحق لمن رأى الواصلين وهو منقطع أن يقلق، ولمن شاهد السائرين إلى ديار الأحبة وهو قاعد أن يحزن.

يا سائق العيس ترفق واستمع مني وبلغ إن وصلت عني
عَرِّض بذكري عندهم لعلهم إن سمعوك سائلوك عني

---

(١) ضعيف. أحمد (٧٠٤٩) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٦٧٩).

قل ذلك المحبوس عن قصدكم  معذب القلب بكل فنٍّ
يقول: أملت بأن أزوركم  في جملة الوفد فخاب ظني
أقعدني الحرمان عن قصدكم  ورمت أن أسعى فلم يدعني

ينبغي للمنقطعين طلب الدعاء من الواصلين لتحصل المشاركة، كما روي عن النبي ﷺ قال لعمر لما أراد العمرة: «يا أخي أشركنا في دعائك»[١]. وفي مسند البزار عن أبي هريرة مرفوعاً: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج»[٢]. وفي الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول في الطواف: «اللهم اغفر لفلان بن فلان» فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟» قال: رجل حملني أن أدعو له بين الركن والمقام، فقال: «قد غفر لصاحبك»[٣].

ألا قل لزوار دار الحبيب:  هنيئاً لكم في الجنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضاً  فنحن عطاش وأنتم ورود

لئن سار القوم وقعدنا، وقربوا وبعدنا فما يؤمننا أن نكون ممن: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]؟

لله در ركائب سارت بهم  تطوي القفار الشاسعات على الدجا
رحلوا إلى البيت الحرام وقد شجا  قلب المتيم منهمُ ما قد شجا
نزلوا بباب لا يخيب نزيله  وقلوبهم بين المخافة والرجا

على أن المتخلف لعذر شريك للسائر كما قال النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم خلفهم العذر»[٤].

---

(١) ضعيف. رواه أبو داود (١٤٩٨) وضعفه شيخنا في ضعيف سنن أبي داود.
(٢) ضعيف. تقدم.
(٣) ضعيف. الطبراني في الكبير (١٢/٥) وإسناده ضعيف.
(٤) رواه البخاري (٤٤٢٣) ومسلم (١٩١١).

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا

وربما سبق بعض من سار بقلبه وهمته وعزمه بعض السائرين ببدنه. رأى بعض الصالحين في منامه عشية عرفة بعرفة قائلًا يقول له: ترى هذا الزحام بالموقف؟ قال: نعم. قال: ما حج منهم إلا رجل واحد تخلف عن الموقف، فحج بهمته فوهب الله له أهل الموقف. ما الشأن فيمن سار ببدنه إنما الشأن فيمن قعد بدنه وسار بقلبه حتى سبق الركب.

من لي بمثل سيرك المذلل تمشي رويداً وتجي في الأول

يا سائرين إلى دار الأحباب قفوا للمنقطعين يحملوا معكم رسائل المحصرين. خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى.

يا سائرين إلى الحبيب ترفقوا فالقلب بين رحالكم خلفته

ما لي سوى قلبي وفيك أذبته ما لي سوى دمعي وفيك سكبته

كان عمر بن عبدالعزيز إذا رأى من يسافر إلى المدينة النبوية يقول له: أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام. وروي أنه كان يبرد عليه البريد من الشام.

هذه الخيف وهاتيك منى فترفق أيها الحادي بنا

واحبس الركب علينا ساعة نندب الربع ونبكي الدمنا

فلذا الموقف أعددنا البكا ولذا اليوم الدموع تقتنى

أتراكم في النقا والمنحنى أهل سلع تذكرونا ذكرنا

انقطعنا ووصلتم فاعلموا واشكروا المنعم يا أهل منى

قد خسرنا وربحتم فصلوا بفضول الربح من قد غبنا

سار قلبي خلف أحمالكم غير أن العذر عاق البدنا

ما قطعتم وادياً إلا وقد جئته أسعى بأقدام المنى

آه وا شواقي إلى ذاك الحمى شوق محروم وقد ذاق العنا

سلموا عني على أربابه أخبروهم أنني حلف الضنا

أنا مذ غبتم على تذكاركم ... أترى عندكم ما عندنا
بيننا يوم أثيلات النقا ... كان عن غير تراض بيننا
زمناً كان وكنا جيرة ... فأعاد الله ذاك الزمنا

من شاهد تلك الديار، وعاين تلك الآثار، ثم انقطع عنها لم يمت إلا بالأسف عليها، والحنين إليها.

ما أذكر عيشنا الذي قد سلفا ... إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واهاً لزماننا الذي كان صفا ... وا أسفا لرده وا أسفا
من يرجع دهرنا بأرض الجزع ... بين الأثلات والرُّبا في سلع
قالوا[1]: اصبر وليس ذا في وسعي ... يا حزن أقم وأنت سر يا دمعي
يا ليتنا بزمزم والحجر ... يا جيرتنا قبيل يوم النفر
هل يرجع صافي ما مضى من عمري ... أدري ما كان ليتني لا أدري

* * *

## المجلس الثالث
## فيما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما
## يذكر ذلك بعد خروج الحاج

في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضل أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا أحدثكم بمال إن أخذتم به لحقتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين»[2]،

---

(١) في الأصل: «قالوا لي».
(٢) البخاري (٨٤٣) ورواه مسلم (٥٩٥).

وفي المسند وسنن النسائي عن أبي الدرداء قال: قلنا: يا رسول الله ذهب الأغنياء بالأجر يحجون ولا نحج ويجاهدون ولا نجاهد وبكذا وبكذا، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على شيء إن أخذتم به جئتم من أفضل ما يجيء به أحد منهم؟ أن تكبروا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحوه ثلاثاً وثلاثين، وتحمدوه ثلاثاً وثلاثين في دبر كل صلاة»(١).

المال لمن استعان به على طاعة الله وأنفقه في سبل الخيرات، القربة إلى الله تعالى سبب موصل له إلى الله ﷻ، وهو لمن أنفقه في معاصي الله واستعان به على نيل أغراضه المحرمة أو اشتغل به عن طاعة الله سبب قاطع له عن الله. كما قال أبو سليمان الداراني: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسبحان من جعل شيئاً واحداً سبباً للاتصال به والانقطاع عنه. وقد مدح الله في كتابه القسم الأول، وذم القسم الثاني، فقال في مدح الأولين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠] والآيات في المعنى كثيرة جداً. وقال في ذم الآخرين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]. وقد قال ابن عباس: ليس أحد لا يؤتي زكاة ماله إلا سأل الرجعة عند الموت ثم تلا هذه الآية. وأخبر الله عن أهل النار الذين يؤتى أحدهم كتابه بشماله أنه يقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. والأحاديث في مدح من أنفق ماله في سبيل الطاعات، وفي ذم من لم يؤد حق الله منه كثيرة جداً. وقد قال النبي ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل

---

(١) صحيح. أحمد (٢٠٨٥٦) والنسائي في الكبرى (٦/٤٤).

الصالح»[١]. وقال: «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن بين يديه[٢] ومن خلفه، وقليل ما هم»[٣]، وقال ﷺ: «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[٤].

فالمؤمن الذي يأخذ المال من حقه ويضعه في حقه فله أجر ذلك كله، وكلما أنفق منه يبتغي به وجه الله فهو له صدقة يؤجر عليها، حتى ما يطعم نفسه فهو له صدقة، وما يطعم ولده فهو له صدقة وما يطعم أهله فهو له صدقة وما يطعم خادمه فهو له صدقة. وكان عامة أهل الأموال من أصحاب النبي ﷺ من هذا القسم. قال أبو سليمان: كان عثمان بن عفان وعبدالرحمٰن بن عوف خازنين من خزان الله في أرضه ينفقان في طاعته وكانت معاملتهما لله بقلوبهما. ورأس المنفقين أموالهم في سبيل الله من هذه الأمة أبو بكر الصديق، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١]. وفي صحيح الحاكم[٥] عن ابن الزبير قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقاباً ضعافاً؛ فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالًا جلداً يمنعونك ويقومون دونك. فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد. قيل: وإنما نزلت هذه الآيات فيه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الليل: ٥] إلى آخر السورة. وروي من وجه آخر عن ابن الزبير وخرجه الإسماعيلي ولفظه: أن أبا بكر كان يبتاع الضعفة فيعتقهم، فقال له أبو قحافة: يا بني! لو ابتعت من يمنع ظهرك فقال:

---

(١) صحيح. رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) وصححه شيخنا في تخريج أحاديث مشكلة الفقر (١).

(٢) هذه العبارة في نسخة كما في الأصل.

(٣) رواه البخاري (٢٣٨٨) ومسلم (٩٤).

(٤) رواه البخاري (١٤٧٢) ومسلم (١٠٣٥).

(٥) الحاكم (٢/٥٢٥).

يا أبت! أما إنه مَنْعَ ظهري أريد، ونزلت فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل: ١٧] إلى آخر السورة. وخرج أبو داود والترمذي من حديث عمر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، ووافق ذلك عندي مالًا فقلت: اليوم أسبق أبا بكر؛ إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. وإن أبا بكر أتى بكل ما عنده فقال: «يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقه إلى شيء أبداً[١]. وخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله[٢]. وخرجه الترمذي بدون هذه الزيادة في آخره.

وكان من المنفقين أموالهم في سبيل الله عثمان بن عفان؛ ففي الترمذي عن عبدالرحمٰن بن خباب قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. قال: فرأيت رسول الله ﷺ ينزل من المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما فعل بعد هذه»[٣]. وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عبدالرحمٰن بن سمرة أن عثمان جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره قال: فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم ـ مرتين ـ»[٤].

وكان منهم أيضاً عبدالرحمٰن بن عوف. وفي مسند الإمام أحمد أنه

---

(١) حسن. أبو داود (١٦٧٨) والترمذي (٣٦٧٥) وحسنه شيخنا في المشكاة (٦٠٢١).

(٢) صحيح. تقدم.

(٣) ضعيف بهذا اللفظ. الترمذي (٣٧٠٠) وضعفه شيخنا في المشكاة (٦٠٦٣) ويغني عنه ما بعده.

(٤) حسن. أحمد (٢٠١٠٧) والترمذي (٣٧٠١) وحسنه شيخنا في المشكاة (٦٠٦٤).

قدم له عير إلى المدينة؛ فارتجت لها المدينة، فسألت عائشة عنها، وحدثت حديثاً عن النبي ﷺ فبلغ عبدالرحمٰن، فجعلها كلها في سبيل الله بأقتابها وأحلاسها وكانت سبعمائة راحلة[١]. وخرجه ابن سعد من وجه آخر فيه انقطاع وعنده أنها كانت خمسمائة راحلة[٢]. وخرج الترمذي من حديث أبي سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول ـ يعني: لأزواجه ـ: «إن أمركن لَمِمَّا يهمني بعدي ولن يصبر عليكن إلا الصابرون». قال: ثم تقول عائشة لأبي سلمة: سقى الله أباك من سلسبيل الجنة، وكان قد وصل أزواج النبي ﷺ بمال أرض بيعت بأربعين ألفاً[٣]. وقال: حسن غريب، وخرجه الحاكم وصححه وخرج الإمام أحمد أوله.

وخرج الإمام أحمد أيضاً والحاكم من حديث أم بكر بنت المسور بن مخرمة أن عبدالرحمٰن بن عوف باع أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار فقسمها في فقراء بني زهرة وفي المهاجرين وأمهات المؤمنين، قال المسور: فأتيت عائشة بنصيبها من ذلك المال فقالت لنا: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون» سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة.

وخرج الإمام أحمد والحاكم أيضاً من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ قال لأزواجه: «إن الذي يحنو عليكن بعدي هو الصادق البار، اللهم اسق عبدالرحمٰن بن عوف من سلسبيل الجنة». وخرجه ابن سعد[٤] وزاد: إن إبراهيم بن سعد قال: حدثني بعض أهلي من ولد عبدالرحمٰن بن عوف: أن عبدالرحمٰن بن عوف باع أمواله من كيدمة ـ وهو سهمه من بني النضير ـ بأربعين ألف دينار فقسمها على أزواج النبي ﷺ.

وخرج الترمذي من حديث أبي سلمة بن عبدالرحمٰن أن أباه

---

(١) ضعيف. أحمد (٢٤٣٢١) وإسناده ضعيف.

(٢) ضعيف. ابن سعد (١٣٢/٣).

(٣) حسن. الترمذي (٣٧٤٩) وحسنه شيخنا في المشكاة (٦١٢١).

(٤) ابن سعد (١٣٢/٣).

عبدالرحمٰن بن عوف أوصى بحديقة لأمهات المؤمنين بيعت بأربعمائة ألف[١]. وخرجه الحاكم[٢] ولفظه: بيعت بأربعين ألف دينار.

وأخبار الأجواد المنفقين أموالهم في سبيل الله من أصحاب رسول الله ﷺ يطول ذكرها جداً. وكان الفقراء من الصحابة كلما رأوا أصحاب الأموال منهم ينفقون أموالهم فيما يحبه الله من الحج والاعتمار والجهاد في سبيل الله والعتق والصدقة والبر والصلة وغير ذلك من أنواع البر والطاعات والقربات؛ حزنوا لما فاتهم من مشاركتهم في هذه الفضائل. وقد ذكرهم الله في كتابه بذلك فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢] نزلت هذه الآية بسبب قوم من فقراء المسلمين أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى غزوة تبوك فطلبوا منه أن يحملهم فقال لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه» فرجعوا وهم يبكون حزناً على ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله ﷺ. قال بعض العلماء: هذا والله بكاء الرجال بكوا على فقدهم رواحل يتحملون عليها إلى الموت في مواطن تراق فيها الدماء في سبيل الله، وتنزع فيها رؤوس الرجال عن كواهلها بالسيوف. فأما من يبكي على فقد حظه من الدنيا وشهواته العاجلة فذلك شبيه بالأطفال والنساء على فقد حظوظهم العاجلة.

**سهر العيون لغير وجهك باطل ... وبكاؤهن لغير فقدك ضائع**

إنما يحسن البكاء والأسف على فوات الدرجات العلى والنعيم المقيم، قال بعضهم: يُرى رجل في الجنة يبكي فيسأل عن حاله فيقول: كانت لي نفس واحدة فقتلت في سبيل الله، وودِدت أنه كانت لي نفوس كثيرة تقتل

---

(١) حسن. الترمذي (٣٧٥٠) وقال شيخنا في صحيح سنن الترمذي: «حسن الإسناد، صحيح لغيره».

(٢) الحاكم (٣/٣١٢)

كلها في سبيله. غزا قوم في سبيل الله فلما صافوا عدوهم واقتتلوا، رأى كل واحد منهم زوجته من الحور قد فتحت باباً من السماء وهي تستدعي صاحبها إليها وتحثه على القتال، فقتلوا كلهم إلا واحداً، وكان كلما قتل منهم واحد غلق باب وغابت منه المرأة، فأفلت آخرهم فأغلقت تلك المرأة الباب الباقي وقالت: يا ما فاتك يا شقي؟! فكان يبكي على حاله إلى أن مات، ولكنه أورثه ذلك طول الاجتهاد والحزن والأسف.

**على مثل ليلى يقتل المرء نفسه      وإن كان من ليلى على الهجر طاويا**

لما سمع الصحابة رضي الله عنهم قول الله عز وجل: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨] وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣] فهموا من ذلك أن المراد أن يجتهد كل واحد منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان أحدهم إذا رأى من يعمل عملًا يعجز عنه خشي أن يكون صاحب ذلك العمل هو السابق له فيحزن لفوات سبقه. فكان تنافسهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطفّفِين: ٢٦] ثم جاء مَنْ بعدهم فعكس الأمر فصار تنافسهم في الدنيا الدنية وحظوظها الفانية.

قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة. وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك أحد إلى الله فافعل. وقال بعض السلف: لو أن رجلًا سمع بأحد أطوع لله منه كان ينبغي له أن يحزنه ذلك. وقال غيره: لو أن رجلًا سمع برجل أطوع لله منه فانصدع قلبه فمات لم يكن ذلك بعجب. قال رجل لمالك بن دينار: رأيت في المنام منادياً ينادي: أيها الناس الرحيل الرحيل، فما رأيت أحداً يرتحل إلا محمد بن واسع؛ فصاح مالك وغشي عليه. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢]. قال عمر بن عبدالعزيز في حجة حجها عند دفع الناس من عرفة: ليس السابق اليوم من سبق به بعيره؛ إنما السابق من غفر له. كان رأس السابقين إلى الخيرات من هذه الأمة أبو بكر الصديق

قال عمر: ما استبقنا إلى شيء من الخير[١] إلا سبقنا أبو بكر، وكان سباقاً بالخيرات. ثم كان السابق بعده إلى الخيرات عمر، وفي آخر حجة حجها عمر جاء رجل لا يعرف كانوا يرونه من الجن فرثاه بأبيات منها:

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

صاحب الهمة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدنية الفانية؛ وإنما همته المسابقة إلى الدرجات الباقية الزاكية التي لا تفنى، ولا يرجع عن مطلوبه ولو تلفت نفسه في طلبه، ومن كان في الله تلفه كان على الله خلفه. قيل لبعض المجتهدين في الطاعات: لم تعذب هذا الجسد؟ قال: كرامته أريد.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

قال عمر بن عبدالعزيز: إن لي نفساً تواقة ما نالت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، وإنها لما نالت هذه المنزلة ـ يعني: الخلافة ـ وليس في الدنيا منزلة أعلى منها تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا ـ يعني: الآخرة ـ.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

قيمة كل إنسان ما يطلب، فمن كان يطلب الدنيا فلا أدنى منه؛ فإن الدنيا دنية، وأدنى منها من يطلبها، وهي خسيسة وأخس منها من يخطبها. قال بعضهم: القلوب جوالة فقلب يجول حول العرش، وقلب يجول حول الحش. الدنيا كلها حش وكل ما فيها من مطعم ومشرب يؤول إلى الحش، وما فيها من أجسام ولباس يصير تراباً. كما قيل: وكل الذي فوق التراب تراب.

وقال بعضهم في يوم عيد لإخوانه: هل تنظرون إلا خرقاً تبلى أو لحماً يأكله الدود غداً. وأما من كان يطلب الآخرة فقدره خطير؛ لأن الآخرة خطيرة شريفة، ومن يطلبها أشرف منها كما قيل:

أثامن بالنفس النفيسة ربها وليس لها في الخلق كلها ثمن

---

(١) في نسخة: «الخيرات» كما في الأصل.

بها تدرك الأخرى فإن أنا بعتها        بشيء من الدنيا فذاك هو الغبن
لئن ذهبت نفسي بدنيا أصبتها        لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

وأما من كان يطلب الله فهو أكبر الناس عنده كما أن مطلوبه أكبر من كل شيء كما قيل:

له همم لا منتهى لكبارها        وهمته الصغرى أجل من الدهر

قال الشبلي: من ركن إلى الدنيا أحرقته بنارها فصار رماداً تذروه الرياح، ومن ركن إلى الآخرة أحرقته بنورها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن ركن إلى الله أحرقه بنور التوحيد فصار جوهراً لا قيمة له. العالي الهمة يجتهد في نيل مطلوبه ويبذل وسعه في الوصول إلى رضى محبوبه، فأما خسيس الهمة فاجتهاده في متابعة هواه ويتكل على مجرد العفو فيفوته إن حصل له العفو منازل السابقين المقربين، قال بعض السلف: هب أن المسيء عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟.

فيا مذنباً يرجو من الله عفوه        أترضى بسبق المتقين إلى الله

لما تنافس المتنافسون في نيل الدرجات غبط بعضهم بعضاً بالأعمال الصالحات. قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالًا فهو ينفقه في سبيل الله آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار»[١]. وفي رواية: «لا تحاسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار يقول: لو أتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه في حقه يقول: لو أتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل»[٢]. وهذا الحديث في الصحيحين. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل هذه الأمة كأربعة نفر: رجل آتاه الله مالًا وعلماً فهو يعمل بعلمه، في ماله ينفقه في حقه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالًا وهو يقول: لو كان لي مثل هذا لعملت فيه مثل الذي

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٥) ومسلم (٨١٥).

(٢) البخاري (٧٢٣٢).

يعمل» قال رسول الله ﷺ: «فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته الله علماً، فهو يخبط في ماله ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً فهو يقول: لو كان لي مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل» قال رسول الله ﷺ: «هما في الوزر سواء»[١]. وروى حميد بن زنجويه بإسناده عن زيد بن أسلم قال: يؤتى يوم القيامة بفقير وغني اصطحبا في الله، فيوجد للغني فضل عمل فيما كان يصنع في ماله فيرفع على صاحبه، فيقول الفقير: يا رب لما رفعته وإنما[٢] اصطحبنا فيك وعملنا لك، فيقول تعالى: له فضل عمل بما صنع في ماله، فيقول: يا رب لقد علمت لو أعطيتني مالاً لصنعت مثل ما صنع فيقول: صدق فارفعوه إلى منزلة صاحبه، ويؤتى بمريض وصحيح اصطحبا في الله، فيرفع الصحيح بفضل عمله فيقول المريض: [يا رب] لم رفعته علي؟ فيقول: بما كان يعمل في صحته فيقول: يا رب لقد علمت لو أصححتني لعملت كما عمل، فيقول الله: صدق فارفعوه إلى درجة صاحبه، ويؤتى بحرٍّ ومملوك اصطحبا [في الله] فيقول مثل ذلك، ويؤتى بحسن الخلق وسيئ الخلق فيقول: يا رب لم رفعته علي وإنما اصطحبنا فيك وعملنا؟ فيقول: بحسن خلقه، فلا يجد له جواباً[٣].

العاقل يغبط من أنفق ماله في سبيل الخيرات، ونيل علو الدرجات، والجاهل يغبط من أنفق ماله في الشهوات وتوصل به إلى اللذات المحرمات. قال تعالى حاكياً عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] إلى قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] فلما رأى النبي ﷺ تأسف أصحابه الفقراء وحزنهم على ما فاتهم من إنفاق إخوانهم الأغنياء أموالهم في سبيل الله تقرباً إليه وابتغاء لمرضاته، طيب قلوبهم،

---

(١) صحيح لغيره. الترمذي (٢٣٢٥) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٦).
(٢) في نسخة: «إنما كنا» كما في الأصل.
(٣) ضعيف.

ودلهم على عمل يسير يدركون به من سبقهم ولا يلحقهم معه أحد بعدهم، ويكونون به خيراً ممن هم معه إلا من عمل مثل عملهم: وهو الذكر عقب الصلوات المفروضات.

وقد اختلفت الروايات في أنواعه وعدده والأخذ بكل ما ورد من ذلك حسن وله فضل عظيم. وفي حديث أبي هريرة هذا(١): أنهم يسبحون ويحمدون ويكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين. وقد فسره أبو صالح راويه عنه: بالجمع، وهو أن يقول: سبحان الله والحمد لله والله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرة، فيكون جملة ذلك تسعاً وتسعين. وقد يستشكل على هذا حديث: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عما يعدل الجهاد؟ فقال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم فلا تفطر، وتقوم فلا تفتر»(٢) وهو حديث صحيح ثابت صحيح أيضاً، فلم يجعل للجهاد عدلًا سوى الصيام الدائم والقيام الدائم. وفي هذا الحديث قد جعل الذكر عقيب الصلوات عدلًا له؟ والجمع بين ذلك كله: أن النبي ﷺ لم يجعل للجهاد في زمانه عملًا يعدله بحيث إذا انقضى الجهاد انقضى ذلك العمل واستوى العامل مع المجاهد في الأجر؛ وإنما جعل الذي يعدل الجهاد الذكر الكثير المستدام في بقية عمر المؤمن من غير قطع له حتى يأتي صاحبه أجله، فإذا استمر على هذا الذكر في أوقاته إلى أن مات عليه عدل ذكره هذا الجهاد. وقد دل على ذلك أيضاً ما خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله ﷻ»(٣). وخرجه مالك في الموطأ موقوفاً. وخرج الإمام أحمد والترمذي أيضاً من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم

---

(١) صحيح. سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٢٧٨٥) ومسلم (١٨٧٨) واللفظ للبخاري.

(٣) صحيح. أحمد (٢١١٩٥) والترمذي (٣٣٧٧) ومالك (٢١١/١) وصححه شيخنا في الكلم (١).

القيامة؟ قال: «الذاكرين الله تعالى كثيراً» قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله ﷻ أفضل منه درجة»[(١)]. وقد روي هذا المعنى عن معاذ بن جبل وطائفة من الصحابة موقوفاً. وأن الذكر لله أفضل من الصدقة بعدته دراهم ودنانير، ومن النفقة في سبيل الله. وقيل لأبي الدرداء: رجل أعتق مائة نسمة؟ قال: إن مائة نسمة من مال رجل كثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار، وأن لا يزال لسان أحدكم رطباً من ذكر الله ﷻ. وعنه قال: لأن أقول: لا إله إلا الله، والله أكبر مائة مرة أحب إلي من أن أتصدق بمائة دينار. ويروى مرفوعاً وموقوفاً من غير وجه: «من فاته الليل أن يكابده، وبخل بماله أن ينفقه، وجبن عن عدوه أن يقاتله؛ فليكثر من سبحان الله وبحمده؛ فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب أو فضة ينفقه في سبيل الله ﷻ»[(٢)]. وذكر الله من أفضل أنواع الصدقة. وخرج الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: «ما صدقة أفضل من ذكر الله ﷻ»[(٣)]. وقد قال طائفة من السلف في قول الله ﷻ: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]: إن القرض الحسن قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ قال: «ما أنفق عبد نفقة أفضل عند الله ﷻ من قول ليس من القرآن وهو من القرآن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[(٤)]. وروى عبدالرزّاق في كتابه عن معمر عن قتادة قال: قال ناس من فقراء المؤمنين: يا رسول الله ذهب أصحاب الدثور بالأجور يتصدقون وينفقون ولا نتصدق ولا ننفق، قال: «أرأيتم لو أن مال الدنيا

---

(١) ضعيف. أحمد (٢٧٣١٩) والترمذي (٣٣٧٦) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٨٩٨).

(٢) صحيح لغيره. رواه الطبراني في الكبير (٨/٩٤) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٥٤١).

(٣) ضعيف جداً. الطبراني في الأوسط (٧/٢٥٠) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٩٠٨).

(٤) ضعيف.

وضع بعضه على بعض أكان بالغاً السماء؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «أفلا أخبركم بشيء أصله في الأرض وفرعه في السماء: أن تقولوا في دبر كل صلاة: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات؛ فإن أصلهن في الأرض وفرعهن في السماء»[١]. وقد كان بعض الصحابة يظن أن لا صدقة إلا بالمال، فأخبره النبي ﷺ: أن الصدقة لا تختص بالمال، وأن الذكر وسائر أعمال المعروف صدقة كما في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم؟ فقال النبي ﷺ: «أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟! إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»[٢]. وفي المسند عنه أنه قال: يا رسول الله الأغنياء يتصدقون ولا نتصدق قال: «وأنت فيك صدقة؛ رفعك العظم عن الطريق صدقة وهدايتك الطريق صدقة وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة وبيانك عن الأرتم صدقة ومباضعتك امرأتك صدقة»[٣]. وفي المعنى أحاديث كثيرة جداً يطول ذكرها.

واعلم أن من عجز عن عمل خير وتأسف عليه وتمنى حصوله كان شريكاً لفاعله في الأجر كما تقدم في الذي قال: «لو كان لي مال لعملت فيه ما عمل فلان»[٤] أنهما سواء في الأجر والوزر. وقد قيل: إنهما سواء في أصل الأجر دون المضاعفة؛ فإنها تختص بالعامل، فمن هنا كان أرباب الهمم العالية لا يرضون بمجرد هذه المشاركة، ويطلبون أن يعملوا أعمالاً تقاوم الأعمال التي عجزوا عنها؛ ليفوزوا بثواب يقاوم ثواب تلك الأعمال، ويضاعف لهم كما يضاعف لأولئك فيستووا هم وأولئك العمال في الأجر كله.

وقد كان بعض من يقعد عن الجهاد من امرأة وضعيف في عهد

---

(١) ضعيف. عبدالرزّاق (٢/٢٣٣).

(٢) مسلم (١٠٠٦).

(٣) صحيح لغيره. أحمد (٢٠٨٥٦) وللحديث شواهد يصح بها.

(٤) صحيح. تقدم.

النبي ﷺ يسأله عن عمل يعدل الجهاد. وفات بعض النساء الحج مع رسول الله ﷺ، فلما قدم سألته عما يجزئ من تلك الحجة قال: «اعتمري في رمضان؛ فإن عمرة في رمضان تعدل حجة أو حجة معي»(١). وقالت عائشة: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: «لكن جهادكن الحج والعمرة»(٢). وكان منهم من إذا تخلف عن الغزو اجتهد في مشاركة الغزاة في أجرهم فإما أن يخرج مكانه رجلًا بماله وإما أن يعين غازياً وإما أن يخلفه في أهله بخير؛ فإن من فعل هذا كله فقد غزا. تصدق بعض الأغنياء بمال كثير فبلغ طائفة من الصالحين فاجتمعوا في مكان وحسبوا ما تصدق به من الدراهم وصلوا بدل كل درهم تصدق به ركعة. هكذا يكون استباق الخيرات والتنافس في علو الدرجات.

كذاك الفخر يا همم الرجال تعالي فانظري كيف التغالي

فسبحان من فضّل هذه الأمة وفتح لها على يدي نبيها نبي الرحمة أبوابَ الفضائل الجمة فما من عمل عظيم يقوم به قوم ويعجز عنه آخرون إلا وقد جعل الله عملًا يقاومه أو يفضل عليه فتتساوى الأمة كلها في القدرة عليه.

لما كان الجهاد أفضل الأعمال ولا قدرة لكثير من الناس عليه كان الذكر الكثير الدائم يساويه ويفضل عليه وكان العمل في عشر ذي الحجة يفضل عليه إلا من خرج بنفسه وماله ولم يرجع منهما بشيء.

لما كان الحج من أفضل الأعمال والنفوس تتوق إليه؛ لما وضع الله في القلوب من الحنين إلى ذلك البيت المعظم وكان كثير من الناس يعجز عنه، ولا سيما كل عام شرع الله لعباده أعمالًا يبلغ أجرها أجر الحج فيتعوض بذلك العاجزون عن التطوع بالحج. ففي الترمذي عن النبي ﷺ قال: «من صلى الصبح [في جماعة] ثم جلس في مصلاه يذكر الله حتى

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٣) ومسلم (١٢٥٦)

(٢) صحيح. تقدم.

تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين كان له مثل أجر حجة وعمرة تامة» قال رسول الله ﷺ: «تامة، تامة، تامة»[١].

وشهود الجمعة يعدل حجة التطوع قال سعيد بن المسيب: هو أحب إليَّ من حجة نافلة. وقد جعل النبي ﷺ التبكير إليها كالمهدي هدياً إلى بيت الله الحرام. وفي حديث ضعيف: «الجمعة حج المساكين»[٢]. وفي تاريخ ابن عساكر عن الأوزاعي قال: مرَّ يونس بن ميسرة بن حلبس بمقابر باب تُوما فقال: السلام عليكم يا أهل القبور أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع فرحمنا الله وإياكم وغفر لنا ولكم فكأنْ قد صرنا إلى ما صرتم إليه، فردَّ الله الروح إلى رجل منهم فأجابه فقال: طوبى لكم يا أهل الدنيا حين تحجون في الشهر أربع مرات قال: وإلى أين يرحمك الله؟ قال: إلى الجمعة؛ أما تعلمون أنها حجة مبرورة متقبلة. قال: ما خير ما قدمتم؟ قال: الاستغفار يا أهل الدنيا. قال: فما يمنعك أن ترد السلام؟ قال: يا أهل الدنيا السلام والحسنات قد رفعت عنا فلا في حسنة نزيد ولا في سيئة ننقص، غلقت رهوننا يا أهل الدنيا.

وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم خرج إلى المسجد لأداء صلاة مكتوبة؛ فأجره مثل أجر الحاج المحرم، ومن خرج لصلاة الضحى كان له مثل أجر المعتمر»[٣]. وفي حديث أنس أن النبي ﷺ وصّى رجلًا ببر أمه وقال له: «أنت حاج ومعتمر ومجاهد»[٤] يعني: إذا برها.

وقال بعض الصحابة: الخروج إلى العيد يوم الفطر يعدل عمرة، ويوم الأضحى يعدل حجة. قال الحسن: مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة. وقال عقبة بن عبد الغافر: صلاة العشاء في جماعة تعدل حجة، وصلاة الغداة في جماعة تعدل عمرة. وقال أبو هريرة لرجل: بكورك إلى المسجد أحب إليَّ من غزوتنا مع رسول الله ﷺ. ذكره الإمام أحمد.

---

(١) حسن. الترمذي (٥٨٦) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٣٤٠٣).

(٢) ضعيف. رواه القضاعي في مسند الشهاب (٧٨) وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (٢٦٥٩).

(٣) حسن. أبو داود (٥٥٨) وحسنه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٢٠).

(٤) ضعيف. رواه الطبراني في الأوسط (١٩٩/٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (١٤٧٥).

أداء الواجبات كلها أفضل من التنفل بالنفل بالحج والعمرة وغيرهما فإنه ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه من أداء[1] ما افترض عليهم. وكثير من الناس يهون عليه التنقل بالحج والصدقة، ولا يهون عليه أداء الواجبات من الديون ورد المظالم. وكذلك يثقل على كثير من النفوس التنزه عن كسب الحرام والشبهات، ويسهل عليه إنفاق ذلك في الحج والصدقة. قال بعض السلف: ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلي من خمسمائة حجة. كف الجوارح عن المحرمات أفضل من التطوع بالحج وغيره وهو أشق على النفوس. قال الفضيل بن عياض: ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان ولو أصبحت يهمك لسانك أصبحت في هم شديد، ليس الاعتبار بأعمال البر بالجوارح وإنما الاعتبار ببر القلوب وتقواها وتطهيرها عن الآثام. سفر الدنيا يقطع بسير الأبدان، وسفر الآخرة يقطع بسير القلوب. قال رجل لبعض العارفين: قد قطعت إليك مسافة قال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات فارِقْ نفسك بخطوة وقد وصلت إلى مقصودك. سير القلوب أبلغ من سير الأبدان. كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى.

جسمي معي غير أن الروح عندكم  فالجسم في غربة والروح في وطن

قال بعض العارفين: عجباً لمن يقطع المفاوز والقفار ليصل إلى البيت فيشاهد فيه آثار الأنبياء، كيف لا يقطع هواه ليصل إلى قلبه فيرى فيه أثر: «وسعني قلب عبدي المؤمن»[2].

أيها المؤمن: إن لله بين جنبيك بيتاً لو طهرته لأشرق ذلك البيت بنور ربه، وانشرح وانفسح، أنشد الشبلي:

إن بيتاً أنت ساكنه  غير محتاج إلى السرج
ومريضاً أنت عائده  قد أتاه الله بالفرج

---

(١) في الأصل: «بأداء».

(٢) لا أصل له. ذكره شيخنا في الضعيفة وبين أنه لا أصل له (٥١٠٣).

وجـهـك الـمـأمـول حـجـتـنـا يوم يأتي الناس[١] بالحجج

تطهير القلب: تفريغه من كل ما يكرهه الله من أصنام النفس والهوى، ومتى بقيت فيه من ذلك بقية، فالله أغنى الأغنياء عن الشرك، وهو لا يرضى بمزاحمة الأصنام. قال سهل بن عبدالله: حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله.

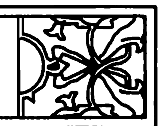
أردناكم صرفاً فلما مزجتم بعدتم بمقدار التفاتكم عنا
وقلنا لكم: لا تسكنوا القلب غيرنا فأسكنتم الأغيار ما أنتم مِنّا

إخواني إن حبستم العام عن الحج فارجعوا إلى جهاد النفوس فهو الجهاد الأكبر، أو أحصرتم عن أداء النسك فأريقوا على تخلفكم من الدموع ما تيسر، فإن إراقة الدماء لازمة للمحصر. ولا تحلقوا رؤوس أديانكم بالذنوب؛ فإن الذنوب حالقة الدين ليست حالقة الشعر، وقوموا لله باستشعار الرجاء والخوف مقام القيام بأرجاء الخيف والمشعر، ومن كان قد بعد عن حرم الله فلا يبعد نفسه بالذنوب عن رحمة الله، فإن رحمة الله قريب ممن تاب إليه واستغفر، فمن عجز عن حج البيت؛ لأن كان البيت منه بعيد فليقصد رب البيت فإنه ممن دعاه ورضاه[٢] أقرب من حبل الوريد.

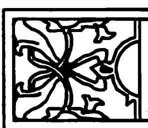
إليك قصدي رب البيت والحجر فأنت سؤلي من حجي ومن عمري
وفيك سعيي وتطوافي ومزدلفي والهدي جسمي الذي يغني عن الجزر
ومسجد الخيف خوفي من تباعدكم ومشعري ومقامي دونكم خطري
زادي رجائي لكم والشوق راحلتي والماء من عبراتي والهوى سفري

❋ ❋ ❋

(١) في الأصل: «النفوس».
(٢) في نسخ: «ورجاه».



# وظيفة شهر ذي القعدة



خرج الإمام أحمد بإسناده عن رجل من أهل باهلة قال: أتيت النبي ﷺ لحاجة مرة فقال: «من أنت؟» قلت: أما تعرفني؟ قال: «ومن أنت؟» قلت: أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول، فقال: «إنك أتيتني وجسمك ولونك وهيئتك حسنة فما بلغ بك ما أرى؟» قلت: والله ما أفطرت بعدك إلا ليلًا قال: «من أمرك أن تعذب نفسك، من أمرك أن تعذب نفسك؟ ـ ثلاث مرات ـ صم شهر الصبر» قلت: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني قال: «صم يوماً من الشهر» قلت: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني، قال: «فيومين من الشهر» قلت: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني قال: «ثلاثة أيام من الشهر» ـ قال: وألحَّ عند الرابعة فما كاد ـ فقلت: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني قال: «فمن الحرم وأفطر»(١) وخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بمعناه وفي ألفاظهم زيادة ونقص، وفي بعض الروايات: «صم الحرم وأفطر»(٢).

في هذا الحديث دليل على أن من تكلف من العبادة ما يشق عليه

---

(١) ضعيف بهذا اللفظ. أحمد (١٩٨١١) وأبو داود (٢٤٢٨) والنسائي في الكبرى (١٣٩/٢) وابن ماجه (١٧٤١) وإسناده ضعيف كما بينه شيخنا في ضعيف أبي داود (٤١٩) لكن قال شيخنا: «وللحديث شاهد جيد من حديث كهمس الهلالي مرفوعاً بنحو هذه القصة دون ذكر قال: زدني قال: «صم من الحرم...» وهو مخرج في الصحيحة (٢٦٢٣)» قلت: ومن أجل هذه الزيادة أورده شيخنا في الضعيف وإلا فسائره ثابت في حديث كهمس كما قال شيخنا في الصحيحة.

(٢) ضعيف. قلت: وقد بين شيخنا ضعفها في المصدر السابق وفي تمام المنة (ص٤١٣).

حتى تأذى بذلك جسده فإنه غير مأمور بذلك، ولذلك قال النبي ﷺ له: «من أمرك أن تعذب نفسك» وأعادها عليه ثلاث مرار، وهذا كما قاله لمن رآه يمشي في الحج وقد أجهد نفسه: «إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه فمروه فليركب»[١]. وقال لعبدالله بن عمرو بن العاص حيث كان يصوم النهار ويقوم الليل ويختم القرآن في كل ليلة ولا ينام مع أهله فأمره: أن يصوم ويفطر ويقرأ القرآن في كل سبع وقال له: «إن لنفسك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً فآت كل ذي حق حقه»[٢]. ولما بلغه عن بعض أصحابه أنه قال: أنا أصوم ولا أفطر، وقال آخر منهم: أنا أقوم ولا أنام، وقال آخر منهم: لا أتزوج النساء، فخطب ﷺ وقال: «ما بال رجال يقولون: كذا وكذا؛ لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٣]. وسبب هذا: أن الله خلق ابن آدم محتاجاً إلى ما يقوم به بدنه من مأكل ومشرب ومنكح وملبس، وأباح له من ذلك كله ما هو طيب حلال تقوى به النفس ويصح به الجسد ويتعاونان على طاعة الله ﷻ، وحرم من ذلك ما هو ضار خبيث يوجب للنفس طغيانها وعماها وقسوتها وغفلتها وأشرها وبطرها، فمن أطاع نفسه في تناول ما تشتهيه مما حَرَّمه الله عليه فقد تعدى وطغى وظلم نفسه، ومن منعها حقها من المباح حتى تضررت بذلك فقد ظلمها ومنعها حقها، فإن كان ذلك سبباً لضعفها وعجزها عن أداء شيء من فرائض الله عليه وحقوق الله ﷻ أو حقوق عباده كان بذلك عاصياً، وإن [كان] ذلك سبباً للعجز عن نوافل هي أفضل مما فعله كان بذلك مفرطاً مغبوناً خاسراً. وقد كان رجل في زمن التابعين يصوم ويواصل حتى يعجز عن القيام فكان يصلي الفرض جالساً؛ فأنكروا ذلك عليه حتى قال عمرو بن ميمون: لو أدرك هذا أصحاب محمد لرجموه. وكان ابن مسعود يقل الصيام ويقول: إنه يضعفني عن قراءة

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٥) ومسلم (١٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩).

(٣) صحيح. تقدم.

القرآن، وقراءة القرآن أحب إلي. وأحرم رجل من الكوفة، فقدم مكة وقد أصابه الجهد فرآه عمر بن الخطاب وهو سيئ الهيئة، فأخذ عمر بيده وجعل يدور به الحلق ويقول للناس: انظروا إلى ما يصنع هذا بنفسه وقد وسع الله عليه. فمن تكلف من التطوع ما يتضرر به في جسمه كما فعل هذا الباهلي، أو يمنع به حقاً واجباً عليه كما فعل عبدالله بن عمرو بن العاص وغيره ممن عزم على ترك المباحات في عهد النبي ﷺ فإنه ينهى عن ذلك. ومن احتمل بدنه ذلك ولم يمنعه من حق واجب عليه لم ينه عن ذلك إلا أن يمنعه عما هو أفضل من ذلك من النوافل؛ فإنه يرشد إلى عمل الأفضل. وأحوال الناس تختلف فيما تحمل أبدانهم من العمل. كان سفيان الثوري يصوم ثلاثة أيام من الشهر فيرى أثر ذلك عليه، وكان غيره في زمنه يصوم الدهر فلا يظهر عليه أثره، وكان كثير من المتقدمين يحملون على أنفسهم من الأعمال ما يضر بأجسادهم ويحتسبون أجر ذلك عند الله، وهؤلاء قوم أهل صدق وجد واجتهاد فَيُحَبون على ذلك، ولكن لا يقتدى بهم، وإنما يقتدى بسنة رسول الله ﷺ؛ فإن خير الهدي هديه، ومن أطاعه فقد اهتدى، ومن اقتدى به وسلك وراءه وصل إلى الله ﷻ. وقد كان ﷺ ينهى عن التعسير ويأمر بالتيسير ودينه الذي بعث به يسر، وكان يقول: «خير دينكم أيسره»[1]، ورأى رجلًا يكثر الصلاة فقال: «إنكم أمة أريد بكم اليسر»[2]. ولم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة، بل ببر القلوب وطهارتها وسلامتها وقوة تعلقها بالله خشية له ومحبة وإجلالًا وتعظيماً، ورغبة فيما عنده، وزهداً فيما يفنى. وفي المسند عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إني أعلمكم بالله، وأتقاكم له قلباً»[3]. قال ابن مسعود لأصحابه: أنتم أكثر صلاة وصياماً من أصحاب محمد، وهم كانوا خيراً منكم. قالوا: ولم؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب في الآخرة. وقال بكر المزني: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في

(١) حسن. رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٤١) وحسنه شيخنا في صحيح الأدب.
(٢) صحيح. رواه أحمد (١٩٨٣٤).
(٣) صحيح. أحمد (٢٣٧٩٨) وأصله في البخاري (٢٠).

صدره. قال بعض العلماء المتقدمين: الذي وقر في صدره هو حب الله، والنصيحة لخلقه. وسئلت فاطمة بنت عبدالملك زوجة عمر بن عبدالعزيز بعد وفاته عن عمله؟ فقالت: والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا بأكثرهم صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم.

قال بعض السلف: ما بلغ من بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بسخاوة النفوس وسلامة الصدور، والنصح للأمة. وزاد بعضهم واحتقار أنفسهم. وذكر لبعضهم شدة اجتهاد بني إسرائيل في العبادة فقال: إنما يريد الله منكم صدق النية فيما عنده، فمن كان بالله أعرف فله أخوف وفيما عنده أرغب، فهو أفضل ممن دونه في ذلك وإن كثر صومه وصلاته. وقال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يسبق سهر الجاهلين وصيامهم؟! ولهذا المعنى كان فضل العلم النافع الدال على معرفة الله وخشيته ومحبته ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه لا سيما عند غلبة الجهل والتعبد به أفضل من التطوع بأعمال الجوارح، قال ابن مسعود: أنتم في زمان العمل فيه أفضل من العلم، وسيأتي زمان العلم فيه أفضل من العمل. وقال مطرف: فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع. وخرجه الحاكم وغيره مرفوعاً[(١)].

ونص كثير من الأئمة على أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة، وكذلك الاشتغال بتطهير القلوب أفضل من الاستكثار من الصوم والصلاة مع غش القلوب ودغلها، ومثل من يستكثر من الصوم والصلاة مع دغل القلب وغشه كمثل من بذر بذراً في أرض دغلة كثيرة الشوك، فلا يزكو ما ينبت فيها من الزرع بل يمحقه دغل الأرض ويفسده، فإذا نظفت الأرض من دغلها زكى ما ينبت فيها ونما.

---

(١) صحيح مرفوعاً. قال شيخنا في تعليقه على كتاب العلم لأبي خيثمة (١٣): «ثبت هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ، رواه الطبراني عن ابن عمر وحذيفة وحسن سنده المنذري، والحاكم عن سعد بن أبي وقاص وصححه هو والذهبي».

قال يحيى بن معاذ: كم من مستغفر ممقوت وساكت مرحوم؛ هذا مستغفر[١] وقلبه فاجر، وهذا سكت وقلبه ذاكر. وقال غيره: ليس الشأن فيمن يقوم الليل إنما الشأن فيمن ينام على فراشه، ثم يصبح وقد سبق الركب. من سار على طريق الرسول ومنهاجه وإن اقتصد فإنه يسبق من سار على غير طريقه وإن اجتهد.

من لي بمثل سيرك المذلل تمشي رويداً وتجيء في الأول

والمقصود أن هذا الباهلي لما رآه النبي ﷺ وقد أنهكه الصوم وغير هيئته وأضرَّ به في جسده، أمره أن يقتصر على صيام شهر الصبر وهو شهر رمضان؛ فإنه الشهر الذي افترض الله صيامه على المسلمين واكتفى منهم بصيامه من السنة كلها، وصيامه كفارة لما بين الرمضانين إذا اجتنبت الكبائر. فطلب منه الباهلي أن يزيده من الصيام ويأمره بالتطوع، وأخبره أنه يجد قوة على الصيام فقال له: «صم يوماً من الشهر» فاستزاده وقال: إني أجد قوة فقال: «صم يومين من الشهر» فاستزاده وقال: إني أجد قوة فقال: «صم ثلاثة أيام من الشهر» قال: وألح عند الثالثة فما كاد[٢]. يعني: ما كاد يزيده على الثلاثة أيام من الشهر، وهكذا قال لعبدالله بن عمرو بن العاص أيضاً ففي صحيح مسلم عنه أن النبي ﷺ قال له: «صم يوماً ـ يعني: من الشهر ـ ولك أجر ما بقي» قال: إني أطيق أكثر من ذلك قال: «صم يومين ولك أجر ما بقي» قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال: «صم ثلاثة أيام ولك أجر ما بقي»[٣]. ففي هذا: أن صيام يوم[٤] من الشهر يحصل به أجر صيام الشهر كله، وكذلك صيام يومين منه. ووجه ذلك أن الصيام يضاعف ما لا يضاعف غيره من الأعمال وقد سبق ذكر ذلك عند الكلام على حديث: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله ﷻ:

---

(١) في نسخة: «يستغفر» كما في هامش الأصل.
(٢) صحيح لغيره. سبق تخريجه وبين أن هذا الجزء من الحديث ثابت.
(٣) مسلم (١١٥٩).
(٤) في نسخ: «ثلاثة أيام».

إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به»[١] فالصيام لا يعلم منتهى مضاعفته إلا الله ﷻ، وكلما قوي الإخلاص فيه وإخفاؤه وتنزيهه من المحرمات والمكروهات كثرت مضاعفته، فلا يستنكر أن يصوم الرجل يوماً من الشهر فيضاعف له بثواب ثلاثين يوماً فيكتب له صيام الشهر كله، وكذلك إذا صام يومين من الشهر، وأما إذا صام منه ثلاثة أيام فهو ظاهر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها. وخرج الترمذي والنسائي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام كل شهر ثلاثة أيام كان كمن صام الدهر». فأنزل الله تعالى تصديق ذلك: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] اليوم بعشرة أيام[٢]. وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر»[٣]. وفي رواية فيهما أيضاً: «إن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله»[٤]. وفي المسند عن قرة المزني عن النبي ﷺ قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر وإفطاره»[٥] يعني: صيامه في مضاعفة الله وإفطاره في رخصة الله، كما كان أبو هريرة وأبو ذر ﭫ يقولان ذلك، وكانا يصومان ثلاثة أيام من كل شهر ويقولان في سائر أيام الشهر: نحن صيام، ويتأولان أنهما صيام في مضاعفة الله وهما مفطران في رخصة الله. وقد وصى النبي ﷺ جماعة من أصحابه بصيام ثلاثة أيام من كل شهر منهم: أبو هريرة، وأبو الدرداء، وأبو ذر، وغيرهم. وفي المسند أن النبي ﷺ قال في صيام ثلاثة أيام من كل شهر: «هو صوم حسن»[٦].

---

(١) صحيح. تقدم.

(٢) صحيح. الترمذي (٧٦٢) والنسائي (٢٤٠٩) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٣٥).

(٣) البخاري (١٩٧٦) ومسلم (١١٥٩).

(٤) البخاري (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩) واللفظ للبخاري.

(٥) صحيح. أحمد (١٥١٥٧) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٨٠٦).

(٦) صحيح. أحمد (١٥٨٤٤) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٩٨٢).

وفيه أيضاً عن أبي ذر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، ويذهب مغلة الصدر». قلت: وما مغلة الصدر؟ قال: «رجس الشيطان»(١).

وفيه أيضاً عن رجل عن النبي ﷺ قال: «صيام شهر الصبر وثلاثة من كل شهر يذهبن كثيراً من وحر الصدر»(٢). وفي غير هذه الرواية: «وغر الصدر» وهما بمعنى واحد، يقال: وحر صدره، ووغر: إذا كان فيه غل وغش. وقيل: الوحر الغل، والوغر الغيظ. وقد كان النبي ﷺ يتحرى صيام ثلاثة أيام من كل شهر وكذلك كان إبراهيم عليه السلام كما خرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «صام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر»(٣). وفي السنن عن حفصة: أن النبي ﷺ كان يصوم العشر وعاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر(٤). وفي إسناده اختلاف. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. قيل لها: من أيه كان يصوم؟ قالت: كان لا يبالي من أيه صام(٥). ففي هذا الحديث أنه ﷺ لم يكن يبالي من أي الشهر صام الأيام الثلاثة.

وقد روي في صفة صيام النبي ﷺ للأيام الثلاثة من الشهر أنواع أخر:

**أحدها**: ما خرجه الترمذي من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم من الشهر السبت والأحد والاثنين، ومن الشهر الآخر الثلاثاء

---

(١) ضعيف. أحمد (٢٠٨٥٧) إسناده ضعيف.

(٢) صحيح. رواه عبدالرزّاق (٤/٣٠٠) والبيهقي في السنن (٦/٣٠٣) وأحمد (٢٠٢١٣و٢٠٢١٤) عن رجل ورواه البزار (٦٧٤و٦٧٥و٦٧٦) من حديث علي ورواه أيضاً (٦٧٧) من حديث ابن عباس وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٠٣٢).

(٣) ضعيف. رواه البيهقي في الشعب (٣/٣٨٨) ولم يروه ابن ماجه بهذا التمام وإنما روى أصله (١٧١٤) والحديث ضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٦٢٤).

(٤) ضعيف. تقدم.

(٥) سبق تخريجه.

والأربعاء والخميس[١]. وقال حديث حسن، وذكر أن بعضهم رواه موقوفاً يعني: من فعل عائشة غير مرفوع.

**الثاني**: ما خرجه أبو داود وغيره من حديث حفصة: أن النبي ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر الاثنين والخميس والاثنين من الجمعة الأخرى[٢]. فعلى هذه الرواية كان النبي ﷺ يجعلها من أول الشهر ولا يوالي بينها بل كان يتحرى بها يوم الاثنين مرتين والخميس مرة.

**الثالث**: عكس الثاني، خرجه النسائي من حديث حفصة أيضاً: أن النبي ﷺ كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام: أول اثنين من الشهر، ثم الخميس، ثم الخميس الذي يليه[٣]. وفي رواية له أيضاً: أول اثنين من الشهر وخميسين[٤]. وخرج أبو داود من حديث أم سلمة عن النبي ﷺ معنى ذلك. وفي رواية في المسند: الاثنين والجمعة والخميس[٥] وكأنها غير محفوظة فإن كانت محفوظة فهي نوع رابع.

**والنوع الخامس**: ما خرجه أبو داود والنسائي والترمذي من حديث ابن مسعود: أن النبي ﷺ كان يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام[٦]. وحسنه الترمذي، وذكر أن بعضهم لم يرفعه يعني: أنه وقفه على ابن مسعود. وظاهر هذا أنه كان يوالي بين الأيام الثلاثة من أول كل شهر.

**والنوع السادس**: أنه كان يصوم أيام البيض فخرج النسائي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان لا يدع صيام أيام البيض في حضر ولا سفر[٧].

---

(١) ضعيف. الترمذي (٧٤٦) وأعله شيخنا بالوقف والانقطاع بين خيثمة وعائشة انظر تمام المنة (ص٤١٤).

(٢) حسن. أبو داود (٢٤٥١) وحسنه شيخنا في صحيح سنن أبي داود.

(٣) حسن. النسائي (٢٤١٥) وحسنه شيخنا في تمام المنة (ص٤١٥).

(٤) صحيح. النسائي (٢٣٧٢) وصححه شيخنا في صحيح أبي داود (٢١٠٦/الأم).

(٥) ضعيف. أحمد (٢٥٩٤١).

(٦) حسن. أبو داود (٢٤٥٠) والنسائي (٢٣٦٨) والترمذي (٧٤٢) وحسنه شيخنا في صحيح أبي داود (٢١١٦/الأم).

(٧) حسن. النسائي (٢٣٤٥) وحسنه شيخنا في الصحيحة (٥٨٠).

وخرج الترمذي والنسائي عن أبي ذر: أن النبي ﷺ أمره بصيام أيام البيض: ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة[١]. وفي السنن الأربعة خلا الترمذي عن قتادة بن ملحان عن النبي ﷺ نحوه[٢]. وخرج النسائي من حديث جرير البجلي عن النبي ﷺ نحوه أيضاً[٣].

وقد روي عن الحسن: أنه كان يصوم خمسة أيام من أول الشهر ويقول: ما يدريني لعلي لا أدرك البيض. وفي كتاب مناقب الحسن لأبي حيان التوحيدي: أن رجلًا سأل الحسن لأي شيء اسْتُحِب صيام الأيام البيض؟ فلم يدر ما يقول، فقال أعرابي عنده: لأن القمر ينكسف في لياليهن فيكون الناس عند حدوث الآيات على عبادة. فقال الحسن: خذوها من غير فقيه. وفي حديث الباهلي أنه قال للنبي ﷺ بعد ذلك: إني أجد قوة وإني أحب أن تزيدني فقال له: «فمن الحرم وأفطر»[٤]، وفي رواية: «صم الحرم وأفطر»[٥] وفي رواية قال: «صم الأشهر الحرم»[٦]. فهذا دليل على أن فضل صيام الأشهر الحرم الأربعة التي ذكرها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] وقد فسرها النبي ﷺ في حديث أبي بكرة بأنها ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وشهر رجب[٧]. وقد ذكرناه في وظيفة شهر رجب، وذكرنا عن ابن عباس أن العمل الصالح والأجر في هذه الحرم أعظم، وذكرنا في وظائف المحرم قول النبي ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله الذي تدعونه المحرم»[٨]. وسيأتي في وظائف ذي الحجة ذكر فضل صيام عشر ذي الحجة ـ إن شاء الله تعالى ـ. وقد كان كثير من السلف يصوم الأشهر الحرم كلها، روي ذلك عن ابن

---

(١) حسن. النسائي (٢٤٢٢) والترمذي (٧٦١) وحسنه شيخنا في صحيح سنن النسائي.
(٢) صحيح لغيره. انظر صحيح الترغيب (١٠٣٩).
(٣) حسن. النسائي (٢٤٢٠) وحسنه شيخنا في صحيح سنن النسائي.
(٤) هذه اللفظة ضعيفة كما سبق بيانه.
(٥) ضعيف. تقدم.
(٦) ضعيف.
(٧) صحيح. تقدم.
(٨) صحيح. تقدم.

عمر والحسن البصري وأبي إسحاق السبيعي. وقال سفيان الثوري: الأشهر الحرم أحب إلي أن أصوم منها. وروى خلاد الصفار عن أبي مسلم قال: صيام يوم من أشهر الحج ـ أو قال: أشهر الحرم ـ يعدل شهراً، وصيام يوم من غير الأشهر الحرم يعدل عشراً. وروي عن النخعي نحوه لكنه قال: من المحرم، فيحتمل أنه أراد جنس الأشهر المحرمة، وروي معناه مرفوعاً من حديث أنس وإسناده ضعيف جداً. ويروى بإسناد مجهول عن أنس مرفوعاً: «من صام من شهر حرام الخميس والجمعة والسبت كتب الله له عبادة سبعمائة سنة»[1].

وقال كعب: اختار الله الزمان، فأحبه إليه الأشهر الحرم. ويروى من حديث أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح. وعن قيس بن عباد أنه قال: ليس في الأشهر الحرم شهر إلا في اليوم العاشر منه خير، قال: ففي ذي الحجة في العاشر النحر يوم الحج الأكبر، وفي المحرم العاشر عاشوراء، وفي العاشر من رجب يمحو الله ما يشاء ويثبت. قال الراوي: ونسيت ما قال في ذي القعدة. وقد تقدم في ذكر وظيفة رجب أنه روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه ذكر من عجائب الدنيا بأرض عاد عمود من نحاس عليه شجرة من نحاس فإذا كان في الأشهر الحرم قطر منها الماء فملؤوا منه حياضهم، وسقوا مواشيهم وزروعهم، فإذا ذهبت الأشهر الحرم انقطع الماء.

وذو القعدة من الشهر الحرم بغير خلاف وهو أول الأشهر الحرم المتوالية، وهل هو أول الحرم مطلقاً أم لا؟ فيه اختلاف ذكرناه في وظيفة رجب وهو أيضاً من أشهر الحج التي قال الله تعالى فيها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧] وقيل: إن تحريم ذي القعدة كان في الجاهلية لأجل السير إلى الحج وسمي ذا القعدة لقعودهم فيه عن القتال، وتحريم المحرم لرجوع الناس فيه من الحج إلى بلادهم، وتحريم ذي الحجة لوقوع حجهم فيه، وتحريم رجب كان للاعتمار فيه من البلاد القريبة. ومن خصائص ذي

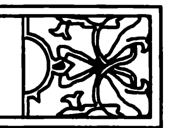
(١) موضوع. رواه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/١١٨) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٢٥٣ ـ ٢٥٤) وبين ابن الجوزي وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٦١١).

القعدة أن عُمَر النبي ﷺ كلها كانت في ذي القعدة سوى عمرته التي قرنها بحجته، مع أنه ﷺ أحرم بها أيضاً في ذي القعدة وفعلها في ذي الحجة مع حجته. وكانت عُمَره ﷺ أربعاً: عمرة الحديبية ولم يتمها، بل تحلل منها ورجع، وعمرة القضاء من قابل، وعمرة الجعرانة عام الفتح لما قسم غنائم حنين. وقيل: إنها كانت في آخر شوال، والمشهور أنها كانت في ذي القعدة وعليه الجمهور، وعمرته في حجة الوداع كما دلت عليه النصوص الصحيحة وعليه جمهور العلماء أيضاً. وقد روي عن طائفة من السلف منهم ابن عمر وعائشة وعطاء تفضيل عمرة ذي القعدة وشوال على عمرة رمضان؛ لأن النبي ﷺ اعتمر في ذي القعدة وفي أشهر الحج حيث يجب عليه الهدي إذا حج من عامه؛ لأن الهدي زيادة نسك فيجتمع نسك العمرة مع نسك الهدي. ولذي القعدة فضيلة أخرى وهي أنه قد قيل: إنه الثلاثون يوماً الذي واعد الله فيه موسى عليه السلام قال ليث عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] قال: ذو القعدة، ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قال: عشر ذي الحجة.

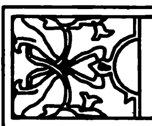
يا من لا يقلع عن ارتكاب الحرام لا في شهر حلال ولا في شهر حرام، يا من هو في الطاعات إلى وراء وفي المعاصي إلى قدام، يا من هو في كل يوم من عمره شر مما كان قبله من الأيام، متى تستفيق من هذا المنام؟ متى تتوب من هذا الإجرام؟ يا من أنذره الشيب بالموت وهو مقيم على الآثام، أما كفاك واعظ الشيب مع واعظ القرآن والإسلام؟ الموت خير لك من الحياة على هذه الحال والسلام.

يا غادياً في غفلة ورائحا ... إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً ... يستنطق الله به الجوارحا
واعجباً منك وأنت مبصر ... كيف تجنبت الطريق الواضحا
وكيف ترضى أن تكون خاسراً ... يوم يفوز من يكون رابحا

❁ ❁ ❁



# وظائف شهر ذي الحجة



**ويشتمل على مجالس:**

## المجلس الأول
## في فضل عشر ذي الحجة

خرج البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام ـ يعني: أيام العشر ـ» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلًا[١] خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[٢].

الكلام في فضل عشر ذي الحجة في فصلين: في فضل العمل فيه وعليه دل هذا الحديث، وفي فضله في نفسه.

### الفصل الأول: في فضل العمل فيه

وقد دل هذا الحديث على أن العمل في أيامه أحب إلى الله من العمل

(١) كذا الأصل وفي مصادر الحديث: «رجل».

(٢) البخاري (٩٦٩) ولفظه: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه قالوا: ولا الجهاد قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء» واللفظ الذي ساقه المصنف لأبي داود والترمذي وغيرهما.

في أيام الدنيا من غير استثناء شيء منها وإذا كان أحب إلى الله فهو أفضل عنده. وقد ورد هذا الحديث بلفظ: «ما من أيام العمل فيها أفضل من أيام العشر»[(١)] وروي بالشك في لفظه: أحب أو أفضل، وإذا كان العمل في أيام العشر أفضل وأحب إلى الله من العمل في غيره من أيام السنة كلها، صار العمل فيه وإن كان مفضولًا أفضل من العمل في غيره وإن كان فاضلًا. ولهذا قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال: «ولا الجهاد» ثم استثنى جهاداً واحداً هو أفضل الجهاد فإنه ﷺ سئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: «من عقر جواده وأهريق دمه»[(٢)] وصاحبه أفضل الناس درجة عند الله[(٣)].

سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو يقول: اللهم أعطني أفضل ما تعطي عبادك الصالحين قال: «إذن يعقر جوادك وتستشهد»[(٤)]. فهذا الجهاد بخصوصه يفضل على العمل في العشر، وأما بقية أنواع الجهاد فإن العمل في عشر ذي الحجة أفضل وأحب إلى الله ﷻ منها. وكذلك سائر الأعمال، وهذا يدل على أن العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره ويزيد عليه بمضاعفة ثوابه وأجره. وقد روي في حديث ابن عباس هذا زيادة: «والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة»[(٥)] وفي إسنادها ضعف. وقد ورد في قدر المضاعفة روايات متعددة مختلفة فخرج الترمذي وابن ماجه من رواية النهاس بن قهم عن قتادة عن ابن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من عشر ذي الحجة، يعدل صيام كل يوم منها سنة، وكل ليلة منها بقيام ليلة القدر»[(٦)] والنهاس بن قهم

---

(١) صحيح. رواه الطبراني في الكبير (١٠/١٩٩) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١١٤٩).

(٢) صحيح. أبو داود (١٤٤٩) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٥٠٤).

(٣) قلت: هذه العبارة ليست في شيء من ألفاظ الحديث التي وقفت عليها.

(٤) ضعيف. ابن حبان (٤٦٤٠) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٨٥٥).

(٥) ضعيف. رواه البيهقي في الشعب (٣/٣٥٦) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٣٥).

(٦) ضعيف. الترمذي (٧٥٨) وابن ماجه (١٧٢٨) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٥١٤٢).

ضعفوه، وذكر الترمذي عن البخاري أن الحديث يروى عن قتادة عن سعيد مرسلًا. وروى ثوير[١] بن أبي فاختة ـ وفيه ضعف ـ عن مجاهد عن ابن عمر قال: ليس يوم أعظم عند الله من يوم الجمعة ليس العشر؛ فإن العمل فيها يعدل عمل سنة. وروى أبو عمرو[٢] النيسابوري في كتاب الحكايات بإسناده عن حميد قال: سمعت ابن سيرين وقتادة يقولان: صوم كل يوم من العشر يعدل سنة. وقد روي في المضاعفة أكثر من ذلك. فروى هارون بن موسى النحوي قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك قال: كان يقال في أيام العشر: بكل يوم ألف يوم، ويوم عرفة عشرة آلاف. قال الحاكم: هذا من المسانيد التي لا يذكر سندها عن رسول الله ﷺ. وروي في المضاعفة أقل من سنة. قال حميد بن زنجويه: حدثنا يحيى بن عبدالله الحراني حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن راشد بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «صيام كل يوم من أيام العشر كصيام شهر»[٣] وهذا مرسل ضعيف الإسناد.

وروى عبدالرزّاق في كتابه[٤] عن جعفر عن هشام عن الحسن قال: صيام يوم من العشر يعدل شهرين. وقال عبدالكريم عن مجاهد: العمل في العشر يضاعف. وفي المضاعفة أحاديث أخر مرفوعة لكنها موضوعة فلذلك أعرضنا عنها وعما أشبهها من الموضوعات في فضائل العشر وهي كثيرة. وقد دل حديث ابن عباس على مضاعفة جميع الأعمال الصالحة في العشر من غير استثناء شيء منها.

وقد روي في خصوص صيام أيامه وقيام لياليه وكثرة الذكر فيه ما يذكر مما يحسن ذكره دون ما لا يحسن لعدم صحته، وقد سبق حديث أبي هريرة في ذلك، ومرسل راشد بن سعد، وما روي عن الحسن وابن سيرين

---

(١) في الأصل: «ثور».
(٢) في الأصل: «عمر».
(٣) ضعيف.
(٤) المصنف (٤/٣٧٨).

وقتادة في صومه. وفي المسند والسنن عن حفصة أن النبي ﷺ كان لا يدع صيام عاشوراء، والعشر، وثلاثة أيام من كل شهر[١]. وفي إسناده اختلاف. وروي عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان لا يدع صيام تسع ذي الحجة[٢]. وممن كان يصوم العشر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما. وقد تقدم عن الحسن وابن سيرين وقتادة ذكر فضل صيامه وهو قول أكثر العلماء أو كثير منهم. وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صائماً العشر قط. وفي رواية: في العشر قط[٣].

وقد اختلف جواب الإمام أحمد عن هذا الحديث فأجاب مرة بأنه قد روي خلافه، وذكر حديث حفصة وأشار إلى أنه اختلف في إسناد حديث عائشة فأسنده الأعمش، ورواه منصور عن إبراهيم مرسلًا، وكذلك أجاب غيره من العلماء بأنه إذا اختلفت عائشة وحفصة رضي الله عنهما في النفي والإثبات أخذ بقول المثبت؛ لأن معه علماً خفي على النافي، وأجاب أحمد مرة أخرى بأن عائشة أرادت أنه لم يصم العشر كاملًا؛ يعني: وحفصة أرادت أنه كان يصوم غالبه، فينبغي أن يصام بعضه ويفطر بعضه، وهذا الجمع يصح في رواية من روى: ما رأيته صائماً العشر، وأما من روى: ما رأيته صائماً في العشر فيبعد أو يتعذر هذا الجمع فيه. وكان ابن سيرين يكره أن يقال: صام العشر؛ لأنه يوهم دخول يوم النحر فيه وإنما يقال: صام التسع، ولكن الصيام إذا أضيف إلى العشر فالمراد صيام ما يجوز صومه منه. وقد سبق حديث أن النبي ﷺ كان يصوم العشر.

ولو نذر صيام العشر فينبغي أن ينصرف إلى التسع أيضاً فلا يلزم بفطر يوم النحر قضاء ولا كفارة، فإنه غلب استعماله عرفاً في التسع. ويحتمل أن يخرج في لزوم القضاء والكفارة خلاف فإن أحمد قال فيمن نذر صوم شوال فأفطر يوم الفطر وصام باقيه: أنه يلزمه قضاء يوم وكفارة، وقال القاضي أبو

---

(١) ضعيف. تقدم.

(٢) صحيح. النسائي (٢٤٣٧) وصححه شيخنا في صحيح أبي داود (٢١٠٦).

(٣) مسلم (١١٧٦).

يعلى: هذا إذا نوى صوم جميعه؛ فأما إن أطلق لم يلزمه شيء؛ لأن الفطر مستثنى شرعاً، وهذا قاعدة من قواعد الفقه وهي أن العموم هل يخص بالشرع أم لا؟ وفي المسألة خلاف مشهور.

وأما قيام ليالي العشر فمستحب وقد سبق الحديث في ذلك، وقد ورد في خصوص إحياء ليلتي العيدين أحاديث لا تصح، وورد إجابة الدعاء فيهما واستحبه الشافعي وغيره من العلماء، وكان سعيد بن جبير وهو الذي روى هذا الحديث عن ابن عباس إذا دخل العشر اجتهد اجتهاداً حتى ما يكاد يقدر عليه، وروي عنه أنه قال: لا تطفئوا سرجكم ليالي العشر. تعجبه العبادة.

وأما استحباب الإكثار من الذكر فيها فقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨]؛ فإن الأيام المعلومات هي أيام العشر عند جمهور العلماء، وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ. وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر؛ فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»[(١)].

فإن قيل: فإذا كان العمل في أيام العشر أفضل من العمل في غيرها؟ وإن كان ذلك العمل أفضل في نفسه مما عمل في العشر لفضيلة العشر في نفسه؟ فيصير العمل المفضول فيه فاضلًا حتى يفضل على الجهاد الذي هو أفضل الأعمال كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة. وهو قول الإمام أحمد وغيره من العلماء فينبغي أن يكون الحج أفضل من الجهاد؛ لأن الحج مخصوص بالعشر وهو من أفضل ما عمل في العشر أو أفضل ما عمل فيه؟ فكيف كان الجهاد أفضل من الحج؛ فإنه ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلًا قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قال: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» قال: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[(٢)].

---

(١) ضعيف. أحمد (٥٤٢٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٣٣).

(٢) سبق تخريجه.

قيل: التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بالحج عند جمهور العلماء، وقد نص عليه الإمام أحمد، وهو مروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وروي فيه أحاديث مرفوعة في أسانيدها مقال. وحديث أبي هريرة هذا صريح في ذلك ويمكن الجمع بينه وبين حديث ابن عباس بوجهين: أحدهما: أن حديث ابن عباس قد صرح فيه بأن جهاد من لا يرجع من نفسه وماله بشيء يفضل على العمل في العشر، فيمكن أن يقال: الحج أفضل من الجهاد إلا جهاد من لم يرجع من نفسه بشيء، ويكون هذا المراد من حديث أبي هريرة ويجتمع حينئذٍ الحديثان. والثاني: وهو الأظهر: أن العمل المفضول قد يقترن به ما يصير أفضل من الفاضل في نفسه كما تقدم، وحينئذٍ فقد يقترن بالحج ما يصير به أفضل من الجهاد، وقد يتجرد عن ذلك فيكون الجهاد حينئذٍ أفضل منه فإن كان الحج مفروضاً فهو أفضل من التطوع بالجهاد فإن فروض الأعيان أفضل من فروض الكفايات عند جمهور العلماء.

وقد روي هذا في الحج والجهاد بخصوصهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وروي مرفوعاً من وجوه متعددة في أسانيدها لين، وقد دل على ذلك ما حكاه النبي ﷺ عن ربه ﷻ أنه قال: «ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه»[1]، وإن كان الحاج ليس من أهل الجهاد فحجه أفضل من جهاده كالمرأة. وفي صحيح البخاري عن عائشة ﵂ أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال: «لكن أفضل الجهاد حج مبرور» وفي رواية له: «جهادكن الحج» وفي رواية له: «نعم الجهاد الحج»[2]. وكذلك إذا استغرق العشر كله عمل الحج وأتى به على أكمل وجوه البر من أداء الواجبات واجتناب المحرمات، وانضم إلى ذلك الإحسان إلى الناس ببذل السلام، وإطعام الطعام، وضم إليه كثرة ذكر الله ﷻ، والعج والثج، وهو رفع الصوت بالتلبية وسوق الهدي فإن هذا الحج على هذا الوجه قد يفضل على الجهاد. وإن وقع عمل الحج في جزء

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) بنحوه.

(٢) سبق تخريجه.

يسير من العشر ولم يؤت به على الوجه المبرور فالجهاد أفضل منه، وقد روي عن عمر وابن عمر وأبي موسى الأشعري ومجاهد ما يدل على تفضيل الحج على الجهاد وسائر الأعمال وينبغي حمله على الحج المبرور الذي كمل بره واستوعب فعله أيام العشر والله أعلم.

فإن قيل: قوله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام» هل يقتضي تفضيل كل عمل صالح وقع في شيء من أيام العشر على جميع ما يقع في غيرها وإن طالت مدته أم لا؟ قيل: الظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد أن العمل في هذه الأيام العشر أفضل من العمل في أيام عشر غيرها، فكل عمل صالح يقع في هذا العشر فهو أفضل من عمل في عشرة أيام سواها من أي شهر[1] كان فيكون تفضيلًا للعمل في كل يوم منه على العمل في كل يوم من أيام السنة غيره. وقد قيل: إنما يفضل العمل فيها على الجهاد إذا كان العمل فيها مستغرقاً لأيام العشر؛ فيفضل على جهاد في عدد تلك الأيام من غير العشر. وإن كان العمل مستغرقاً لبعض أيام العشر فهو أفضل من جهاد في نظير ذلك الزمان من غير العشر. واستدل على ذلك بأن النبي ﷺ جعل العمل الدائم الذي لا يفتر من صيام وصلاة معادلًا للجهاد في أي وقت كان، فإذا وقع ذلك العمل الدائم في العشر، كان أفضل من الجهاد في مثل أيامه لفضل العشر وشرفه. ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: «لا أجده» قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك[2]. ولفظه للبخاري، ولمسلم معناه وزاد ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»[3] وللبخاري: «مثل المجاهد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل

(١) في الأصل: «عشر».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) مسلم (١٨٧٨).

الصائم القائم»[1]. وللنسائي: «كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع الساجد»[2]. ويدل على أن المراد تفضيله على جهاد في مثل أيامه خاصة؛ ما في صحيح ابن حبان عن جابر عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة» فقال رجل: يا رسول الله هو أفضل أم عدتهن جهاد في سبيل الله؟ قال: «هو أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله»[3]. فلم يفضل العمل في العشر إلا على الجهاد في عدة أيام العشر لا مطلقاً. وأما ما تقدم من أن كل يوم منه يعدل سنة أو سنتين أو ألف يوم فكلها من أحاديث الفضائل وليست بقوية، ثم إن أكثر ما ورد ذلك في صيامها، والصيام له خصوصية في المضاعفة؛ فإنه لله والله يجزي به. فإن قيل: إنه لا يختص بالصوم بل يعم سائر الأعمال، فإنما يدل على تفضيل كل عمل في العشر على مثل ذلك العمل في غيره سنة فلا يدخل فيه إلا تفضيل من جاهد في العشر على من جاهد في غيره سنة، وإذا قيل: يلزم من تفضيل العمل في هذا العشر على كل عشر غيره أن يكون صيام هذا العشر أفضل من صوم عشر رمضان، وقيام لياليه أفضل من قيام لياليه، قيل: أما صيام رمضان فأفضل من صيامه بلا شك فإن صوم الفرض أفضل من النفل بلا تردد، وحينئذٍ فيكون المراد أن ما فعل في العشر من فرض فهو أفضل مما فعل في عشر غيره من فرض فقد تضاعف صلاته المكتوبة على صلوات عشر رمضان، وما فعل فيه من نفل فهو أفضل مما فعل في غيره من نفل وغيره[4].

وقد اختلف عمر وعلي رضي الله عنهما في قضاء رمضان في عشر ذي الحجة، فكان عمر يستحبه لفضل أيامه، فيكون قضاء رمضان فيه أفضل من غيره وهذا يدل على مضاعفة الفرض فيه على النفل، وكان علي ينهى عنه، وعن

---

(١) البخاري (٢٧٨٧).

(٢) صحيح. النسائي (٣١٢٧) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١٣٢٠).

(٣) صحيح لغيره. ابن حبان (٣٨٥٣) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٦٧٩) وأعله بعنعنة أبي الزبير ثم صححه لشواهده في صحيح الترغيب (١١٥٠).

(٤) كذا في الأصل وهي غير موجودة في عدد من النسخ.

أحمد في ذلك روايتان. وقد علل قول علي: بأن القضاء فيه يفوت به فضل صيامه تطوعاً، وبهذا علله الإمام أحمد وغيره، وقد قيل: إنه يحصل به فضيلة صيام التطوع أيضاً، وهذا على قول من يقول: إن من نذر صيام شهر فصام رمضان أجزأه عن نذره وفرضه متوجه، وقد علل بغير ذلك. وأما قيام لياليه وتفضيل قيامه على قيام عشر رمضان فيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

## الفصل الثاني:
## في فضل عشر ذي الحجة على غيره من أعشار الشهور

وقد سبق حديث ابن عمر المرفوع: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر»[(١)] وفي صحيح ابن حبان عن جابر عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة»[(٢)] وقد تقدم، ورويناه من وجه آخر بزيادة وهي: «ولا ليالي أفضل من لياليهن» قيل: يا رسول الله هن أفضل من عدتهن[(٣)] جهاداً في سبيل الله؟ قال: «هن أفضل من عدتهن جهاداً في سبيل الله إلا من عفر وجهه تعفيراً، وما من يوم أفضل من يوم عرفة»[(٤)] خرجه الحافظ أبو موسى المديني، وخرجه أبو نعيم الحافظ بالإسناد الذي خرجه به ابن حبان، وخرج البزار وغيره من حديث جابر أيضاً عن النبي ﷺ قال: «أفضل أيام الدنيا أيام العشر» قالوا: يا رسول الله، ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: «ولا مثلهن في سبيل الله إلا من عفر وجهه في التراب»[(٥)] وروي مرسلًا، وقيل: إنه أصح. وقد سبق ما روي عن ابن عمر قال: ليس يوم أعظم عند الله من يوم

---

(١) صحيح.

(٢) صحيح لغيره.

(٣) في الأصل: «عدهن».

(٤) ضعيف بهذا اللفظ. وضعفه شيخنا في الضعيفة (٦٧٩).

(٥) صحيح لغيره. البزار (٧٧٧) هذا القدر من الحديث صححه شيخنا لشواهده كما في صحيح الجامع (١١٣٣) وصحيح الترغيب (١١٥٠).

الجمعة ليس العشر. وهذا يدل على أن أيام العشر أفضل من يوم الجمعة الذي هو أفضل الأيام. وقال سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن كعب قال: اختار الله الزمان، فأحب الزمان إلى الله الشهر الحرام وأحب الأشهر الحرم إلى الله ذو الحجة، وأحب ذي الحجة إلى الله العشر الأول. ورواه بعضهم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة ورفعه ولا يصح ذلك. وقال مسروق في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ٢] هي أفضل أيام السنة. خرجه عبدالرزّاق وغيره. وأيضاً فأيام هذا العشر يشتمل على يوم عرفة، وقد روي أنه أفضل أيام الدنيا كما في حديث جابر الذي ذكرناه وفيه يوم النحر، وفي حديث عبدالله بن قرط عن النبي ﷺ أنه قال: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر»[١] خرجه الإمام أحمد وأبو دواد وغيرهما، وهذا كله يدل على أن عشر ذي الحجة أفضل من غيره من الأيام من غير استثناء هذا في أيامه. فأما لياليه فمن المتأخرين من زعم أن ليالي عشر رمضان أفضل من لياليه لاشتمالها على ليلة القدر وهذا بعيد جداً.

ولو صحَّ حديث أبي هريرة: «قيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر»[٢] لكان صريحاً في تفضيل لياليه على ليالي عشر رمضان؛ فإن عشر رمضان فُضل بليلة واحدة فيه، وهذا جميع لياليه متساوية لها في القيام على هذا الحديث. ولكن حديث جابر الذي خرجه أبو موسى صريح في تفضيل لياليه كتفضيل أيامه أيضاً[٣]. والأيام إذا أطلقت دخلت فيها الليالي تبعاً، وكذلك الليالي تدخل أيامها تبعاً. وقد أقسم الله بلياليه فقال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١، ٢] وهذا يدل على فضيلة لياليه أيضاً لكن لم يثبت أن لياليه ولا شيئاً منها يعدل ليلة القدر.

وقد زعم طوائف من أصحابنا أن ليلة الجمعة أفضل من ليلة القدر، ولكن لا يصح ذلك عن أحمد فعلى قول هؤلاء لا يستبعد تفضيل ليالي هذا

---

(١) صحيح. أحمد (١٨٥٩٦) وأبو داود (١٧٦٥) وصححه شيخنا في المشكاة (٢٦٤٣).

(٢) ضعيف. سبق تخريجه.

(٣) لكنه ضعيف أيضاً كما سبق.

العشر على ليلة القدر. والتحقيق ما قاله بعض أعيان المتأخرين من العلماء أن يقال: مجموع هذا العشر أفضل من مجموع عشر رمضان وإن كان في عشر رمضان ليلة لا يفضل عليها غيرها والله أعلم.

وما تقدم عن كعب يدل على أن شهر ذي الحجة أفضل الأشهر الحرم الأربعة، وكذلك قال سعيد بن جبير راوي هذا الحديث عن ابن عباس: ما من الشهور شهر أعظم حرمة من ذي الحجة. وفي مسند البزار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «سيد الشهور رمضان، وأعظمها حرمة ذو الحجة»(١). وفي إسناده ضعف.

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد أيضاً أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع في خطبة النحر: «ألا إن أحرم الأيام يومكم هذا، ألا وإن أحرم الشهور شهركم هذا، ألا وإن أحرم البلاد بلدكم هذا»(٢). وروي ذلك أيضاً عن جابر ووابصة بن معبد ونبيط بن شريط وغيرهم عن النبي ﷺ. وهذا كله يدل على أن شهر ذي الحجة أفضل الأشهر الحرم حيث كان أشدها حرمة. وقد روي عن الحسن: أن أفضلها المحرم، وسنذكره عند ذكر شهر المحرم ـ إن شاء الله ـ.

وأما من قال: إن أفضلها رجب فقوله مردود.

ولعشر ذي الحجة فضائل أخر غير ما تقدم فمن فضائله: أن الله تعالى أقسم به جملة وببعضه خصوصاً قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١، ٢] فأما الفجر فقيل: إنه أراد جنس الفجر، وهل المراد طلوع الفجر أو صلاة الفجر أو النهار كله؟ فيه اختلاف بين المفسرين. وقيل: إنه أريد به فجر معين، ثم قيل: إنه أراد به فجر أول يوم من عشر ذي الحجة. وقيل: بل أراد به فجر آخر يوم منه وهو يوم النحر. وعلى جميع هذه الأقوال فالعشر يشتمل على الفجر الذي أقسم الله به.

وأما الليالي العشر؛ فهي عشر ذي الحجة، هذا الصحيح الذي عليه

---

(١) ضعيف. سبق تخريجه.

(٢) صحيح. أحمد (١١٣٥٣) وصححه شيخنا في صحيح ابن ماجه (٣٩٣١).

جمهور المفسرين من السلف وغيرهم وهو الصحيح عن ابن عباس وروي عنه من غير وجه والرواية عنه: أنه عشر رمضان إسنادها ضعيف.

وفيه حديث مرفوع خرجه الإمام أحمد والنسائي في التفسير من رواية زيد بن الحباب حدثنا عياش بن عقبة حدثنا خير[1] بن نعيم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»[2] وهو إسناد حسن.

وكذا فسر الشفع والوتر ابن عباس في رواية عكرمة وغيره، وفسرهما أيضاً بذلك عكرمة والضحاك وغير واحد. وقد قيل في الشفع والوتر أقوال كثيرة، وأكثرها لا يخرج عن أن يكون العشر أو بعضه مشتملًا على الشفع والوتر أو أحدهما كقول من قال: «هي الصلاة منها شفع ومنها وتر»[3] وقد خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث عمران بن الحصين عن النبي ﷺ. وقول من قال: هي المخلوقات منها شفع ومنها وتر، يدخل فيها أيام العشر، وقول من قال: الشفع الخلق كله، والوتر الله تعالى. فإن أيام العشر من جملة المخلوقات.

ومن فضائله أيضاً: أنه من جملة الأربعين التي وعدها الله لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعرَاف: ١٤٢] لكن هل عشر ذي الحجة خاتمة الأربعين؛ فيكون هو العشر الذي أتم به الثلاثين؟ أم هو أول الأربعين؛ فيكون من جملة الثلاثين التي أتمت بعشر؟ فيه اختلاف بين المفسرين.

روى عبدالرزّاق عن معمر عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد قال: ما من عمل في أيام السنة أفضل منه في العشر من ذي الحجة، وهي العشر التي أتمها الله لموسى عليه السلام.

---

(١) في الأصل: «جرير».

(٢) منكر. أحمد (١٤١٠٢) والنسائي في الكبرى (٥١٤/٦) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣١٧٨) حيث أعله بعنعنة أبي الزبير فإنه مدلس.

(٣) ضعيف. أحمد (١٩٤٣٣) والترمذي (٣٣٤٢) وضعفه شيخنا في ضعيف سنن الترمذي.

ومن فضائله: أنه خاتمة الأشهر المعلومات؛ أشهر الحج التي قال الله فيها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧] وهي: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. وروي ذلك عن عمر وابنه عبدالله وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وغيرهم، وهو قول أكثر التابعين، ومذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وأبي يوسف وأبي ثور وغيرهم، لكن الشافعي وطائفة أخرجوا منه يوم النحر وأدخله فيه الأكثرون؛ لأنه يوم الحج الأكبر وفيه يقع أكثر أفعال مناسك الحج. وقالت طائفة: ذو الحجة كله من أشهر الحج، وهو قول مالك والشافعي في القديم ورواه عن ابن عمر أيضاً وروي عن طائفة من السلف، وفيه حديث مرفوع خرجه الطبراني لكنه لا يصح. والكلام في هذه المسألة يطول وليس هذا موضعه.

ومن فضائله: أنه الأيام المعلومات التي شرع الله تعالى ذكره فيها على ما رزق من بهيمة الأنعام قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨] وجمهور العلماء على أن هذه الأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة منهم ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وعكرمة وقتادة والنخعي، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد في المشهور عنه. وروي عن أبي موسى الأشعري: أن الأيام المعلومات هي تسع ذي الحجة غير يوم النحر وأنه قال: لا يرد فيهن الدعاء. خرجه جعفر الفريابي وغيره.

وقالت طائفة: هي أيام الذبح. وروي عن طائفة من السلف وهو قول مالك وأبي يوسف وجعلوا ذكر الله فيها ذكره على الذبح وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما، ونقل المروذي عن أحمد أنه استحسنه والقول الأول أظهر. وذكر الله على بهيمة الأنعام لا يختص بحال ذبحها كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤] وأيضاً فقد قال تعالى بعد هذا: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٨، ٢٩] فجعل هذا

كله بعد ذكره في الأيام المعلومات وقضاء التفث؛ وهو شعث الحج وغباره ونصبه. والطواف بالبيت إنما يكون في يوم النحر وما بعده ولا يكون قبله. وقد جعل سبحانه هذا مرتباً على ذكره في الأيام المعلومات بلفظة "ثم" فدل على أن المراد بالأيام المعلومات ما قبل يوم النحر وهو عشر ذي الحجة. وأما قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحَجّ: ٢٨] فقيل: إن المراد ذكره عند ذبحها وهو حاصل بذكره في يوم النحر؛ فإنه أفضل أيام النحر، والأصح أنه إنما أريد ذكره شكراً على نعمة تسخير بهيمة الأنعام لعباده؛ فإن لله تعالى على عباده في بهيمة الأنعام نعماً كثيرة قد عدد بعضها في مواضع من القرآن. والحاج لهم خصوصية في ذلك عن غيرهم فإنهم يسيرون عليها إلى الحرم لقضاء نسكهم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحَجّ: ٢٧] وقال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]. ويأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها.

ويختص عشر ذي الحجة في حق الحاج بأنه زمن سوقهم للهدي الذي به يكمل فضل الحج ويأكلون من لحومه في آخر العشر وهو يوم النحر، وأفضل سوق الهدي من الميقات، ويشعر ويقلد عند الإحرام، وتقارنه التلبية وهي من الذكر لله في الأيام المعلومات.

وفي الحديث: «أفضل الحج العج والثج»[1] وفي حديث آخر: «عجوا التكبير عجاً وثجوا الإبل ثجاً»[2]. فيكون كثرة ذكر الله في أيام العشر شكراً على هذه النعمة المختصة ببهيمة الأنعام التي بعضها يتعلق بدِين الحاج وبعضها بدنياهم. وأفضل الأعمال كثرة ذكر الله فيها خصوصاً الحج. وقد أمر الله تعالى بذكره كثيراً في الحج قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن

(١) صحيح. تقدم.
(٢) سبق تخريجه ويشهد له ما قبله.

كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩] وهذا الذكر يكون في عشر ذي الحجة ثم قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٠] وهذا يقع في يوم النحر وهو خاتمة العشر أيضاً، ثم أمر بذكره بعد العشر في الأيام المعدودات وهي أيام التشريق.

وفي السنن عن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله ﷻ»[١].

وفي مسند الإمام أحمد عن معاذ بن أنس أن رجلًا قال: يا رسول الله أي الجهاد أعظم أجراً؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً» قال: فأي الصائمين أعظم أجراً؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً» قال: ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل يقول رسول الله ﷺ: «أكثرهم لله ذكراً». فقال أبو بكر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير. فقال رسول الله ﷺ: «أجل»[٢]. وقد خرجه ابن المبارك وابن أبي الدنيا من وجوه مرسلة، وفي بعضها: أي الحاج[٣] خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله»[٤] وفي بعضها: أي الحاج أعظم أجراً؟ قال: «أكثرهم لله ذكراً»[٥] وذكر بقية الأعمال بمعنى ما تقدم. فهذا كله بالنسبة إلى الحاج.

فأما أهل الأمصار فإنهم يشاركون الحاج في عشر ذي الحجة في الذكر وإعداد الهدي. فأما إعداد الهدي فإن العشر تعد فيه الأضاحي كما يسوق أهل الموسم الهدي ويشاركونهم في بعض إحرامهم فإن من دخل عليه العشر وأراد أن يضحي؛ فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً كما روت ذلك

(١) ضعيف. رواه أبو داود (١٨٨٨) وضعفه شيخنا في المشكاة (٢٦٢٤).

(٢) ضعيف. تقدم.

(٣) في نسخة: «الحجاج» كما في هامش الأصل.

(٤) ضعيف.

(٥) ضعيف.

أم سلمة عن النبي ﷺ خرج حديثها مسلم[١]. وأخذ بذلك الشافعي وأحمد وعامة فقهاء الحديث.

ومنهم من شرط أن يكون قد اشترى هديه قبل العشر وأكثرهم لم يشترطوا ذلك. وخالف فيه مالك وأبو حنيفة وكثير من الفقهاء وقالوا: لا يكره شيء من ذلك. واستدلوا بحديث عائشة: كنت أفتل قلائد الهدي لرسول الله ﷺ فلا يحرم عليه شيء أحله الله له[٢].

وأجاب كثير من أهل القول الأول: بأنه يجمع بين الحديثين فيؤخذ بحديث أم سلمة فيمن يريد أن يضحي في مصره، وبحديث عائشة فيمن أرسل بهديه مع غيره وأقام في بلده.

وكان ابن عمر إذا ضحى يوم النحر حلق رأسه. ونص أحمد على ذلك. واختلف العلماء في التعريف بالأمصار عشية عرفة، وكان الإمام أحمد لا يفعله، ولا ينكر على من فعله؛ لأنه روي عن ابن عباس وغيره من الصحابة. وأما مشاركتهم لهم في الذكر في الأيام المعلومات فإنه يشرع للناس كلهم الإكثار من ذكر الله في أيام العشر خصوصاً. وقد سبق حديث ابن عمر المرفوع: «فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»[٣]. واختلف العلماء هل يشرع إظهار التكبير والجهر به في الأسواق في العشر؟ فأنكره طائفة واستحبه أحمد والشافعي، لكن الشافعي خصه بحال رؤية بهيمة الأنعام وأحمد يستحبه مطلقاً. وقد ذكر البخاري في صحيحه[٤] عن ابن عمر وأبي هريرة أنهما كانا يخرجان إلى السوق في العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. ورواه عفان: حدثنا سلام أبو المنذر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال: كان أبو هريرة وابن عمر يأتيان السوق أيام العشر فيكبران

---

(١) مسلم (١٩٧٧).

(٢) البخاري (١٦٩٦و٥٥٦٦).

(٣) ضعيف. تقدم.

(٤) معلقاً (١/٢٩٧/مختصر) وقال شيخنا: «قال الحافظ: لم أره موصولًا عنهما» وانظر تغليق التعليق (٢/٣٧٧ ـ ٣٧٨) لتقف على ما ورد عن ابن عمر وأبي هريرة من التكبير.

ويكبر الناس معهما ولا يأتيان لشيء إلا لذلك. وروى جعفر الفريابي في كتاب العيدين[١]: حدثنا إسحاق بن راهويه أخبرنا جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: رأيت سعيد بن جبير ومجاهداً وعبدالرحمٰن بن أبي ليلى ـ أو اثنين من هؤلاء الثلاثة ـ ومن رأينا من فقهاء الناس يقولون في أيام العشر: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

لما كان الله سبحانه قد وضع في نفوس المؤمنين حنيناً إلى مشاهدة بيته الحرام وليس كل أحد قادراً على مشاهدته في كل عام فرض على المستطيع الحج مرة واحدة في عمره، وجعل موسم العشر مشتركاً بين السائرين والقاعدين؛ فمن عجز عن الحج في عام قدر في العشر على عمل يعمله في بيته يكون أفضل من الجهاد الذي هو أفضل من الحج.

ليالي العشر أوقات الإجابة ... فبادر رغبة تلحق ثوابه
ألا لا وقت للعمال فيه ... ثواب الخير أقرب للإجابه
من أوقات الليالي العشر حقاً ... فشمر واطلبن فيها الإنابه

احذروا المعاصي فإنها تحرم المغفرة في مواسم الرحمة. روى المروذي في كتاب الورع بإسناده عن عبدالملك بن عمير عن رجل ـ إما من الصحابة أو من التابعين ـ: أن آتياً أتاه في منامه في العشر من ذي الحجة قال: ما من مسلم إلا يغفر له في هذه الأيام كل يوم خمس مَرّات إلا أصحاب الشاه يقولون: مات، ما موته؟ ـ يعني: أصحاب الشطرنج ـ. فإذا كان اللعب بالشطرنج مانعاً من المغفرة فما الظن بالإصرار على الكبائر المجمع عليها.

طاعة الله خير ما لزم العبد ... فكن طائعاً ولا تعصينه
ما هلاك النفوس إلا المعاصي ... فاجتنب ما نهاك لا تقربنه
إن شيئاً هلاك نفسك فيه ... ينبغي أن تصون نفسك عنه

(١) الفريابي (٦٢).

المعاصي سبب البعد والطرد كما أن الطاعات أسباب القرب والود.

أيضمن لي فتى ترك المعاصي وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي

إخوانكم في هذه الأيام قد عقدوا الإحرام، وقصدوا البيت الحرام، وملؤوا الفضاء بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد والإعظام، لقد ساروا وقعدنا، وقربوا وبعدنا، فإن كان لنا معهم نصيب سعدنا.

أتراكم في النقا والمنحنى أهل سلع تذكرونا ذكرنا
انقطعنا ووصلتم فاعلموا واشكروا المنعم يا أهل منى
قد خسرنا وربحتم فصلوا بفضول الربح من قد غبنا
سار قلبي خلف أحمالكم غير أن العذر عاق البدنا
ما قطعتم وادياً إلا وقد جئته أسعى بأقدام المنى
أنا مذ غبتم على تذكاركم أترى عندكمُ ما عندنا

القاعد لعذرٍ شريك للسائر وربما سبق السائر بقلبه السائرين بأبدانهم.

رأى بعضهم في المنام عشية عرفة في الموقف قائلًا يقول: أترى هذا الزحام على هذا الموقف فإنه لم يحج منهم أحد إلا رجل تخلف عن الموقف فحج بهمته؛ فوهب الله له أهل الموقف.

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا

الغنيمة الغنيمة بانتهاز الفرصة في هذه الأيام العظيمة، فما منها عوض ولا لها قيمة، المبادرة المبادرة بالعمل، والعجل العجل قبل هجوم الأجل، قبل أن يندم المفرط على ما فعل، قبل أن يسأل الرجعة ليعمل صالحاً فلا يجاب إلى ما سأل، قبل أن يحول الموت بين المؤمل وبلوغ الأمل، قبل أن يصير المرء مرتهناً في حفرته بما قَدَّم من عمل.

ليس للميت في قبره فطر ولا أضحى ولا عشر

نـاءٍ عـن الأهـل عـلـى قـربـه كـذاك مـن مـسـكـنـه الـقـبـر

يا من طلع فجر مشيبه بعد بلوغ الأربعين، يا من مضى عليه بعد ذلك ليالي عشر سنين حتى بلغ الخمسين، يا من هو في معترك المنايا ما بين الستين والسبعين ما تنتظر بعد هذا الخبر إلا أن يأتيك اليقين، يا من ذنوبه بعدد الشفع والوتر أما تستحي من الكرام الكاتبين؟ أم أنت ممن يكذب بالدين؟ يا من ظلمة قلبه كالليل إذا يسري أما آن لقلبك أن يستنير أو يلين؟ تعرّض لنفحات مولاك في هذا العشر؛ فإن فيه لله نفحات يصيب بها من يشاء، فمن أصابته سعد بها آخر الدهر.

جـنـحـت شـمـس حـيـاتـي وتـدلـت لـلـغـروب
وتـولـى لـيـل رأسـي وبـدا فـجـر الـمـشـيـب
رب خـلـصـنـي فـقـد لـجـجـت في بـحـر الـذنـوب
وأنـلـنـي الـعـفـو يـا أقـرب مـن كـل قـريـب

* * *

## المجلس الثاني
## في يوم عرفة مع عيد النحر

في الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﵁ أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المَائدة: ٣] فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه؛ نزلت ورسول الله ﷺ قائم بعرفة يوم جمعة(١). وخرج الترمذي عن ابن عباس نحوه، وقال فيه: نزلت في يوم عيد من يوم جمعة، ويوم عرفة(٢).

(١) البخاري (٤٥) ومسلم (٣٠١٧).

(٢) صحيح. الترمذي (٣٠٤٤) وصححه شيخنا في صحيح سنن الترمذي.

العيد: هو موسم الفرح والسرور، وأفراح المؤمنين وسرورهم في الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بإكمال طاعته وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضله ومغفرته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨] قال بعض العارفين: ما فرح أحد بغير الله إلا بغفلته عن الله؛ فالغافل يفرح بلهوه وهواه، والعاقل يفرح بمولاه، وأنشد سمنون في هذا المعنى:

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلست أراه عن فنائك يبرح
رميت ببعد منك إن كنت كاذباً ... وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها ... إذا غبت عن عيني لعيني يملح
فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل ... فلست أرى قلبي لغيرك يصلح

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان لهم يومان يلعبون فيهما فقال: «إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما: يوم الفطر والأضحى»[(١)]. فأبدل الله هذه الأمة بيومي اللعب واللهو يومي الذكر والشكر والمغفرة والعفو. ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعياد، عيد يتكرر كل أسبوع وعيدان يأتيان في كل عام مرة من غير تكرر في السنة. فأما العيد المتكرر فهو يوم الجمعة وهو عيد الأسبوع وهو مترتب على إكمال الصلوات المكتوبات، فإن الله تعالى فرض على المؤمنين في كل يوم وليلة خمس صلوات، وأيام الدنيا تدور على سبعة أيام، فكلما كمل دور أسبوع من أيام الدنيا واستكمل المسلمون صلواتهم فيه شرع لهم في يوم استكمالهم وهو اليوم الذي كمل فيه الخلق، وفيه خلق آدم وأدخل الجنة وأخرج منها، وفيه ينتهي أمد الدنيا فتزول، وتقوم الساعة، وسمي يوم الجمعة للاجتماع على سماع الذكر والموعظة وصلاة الجمعة، .وجعل ذلك لهم عيداً ولهذا نهى عن إفراده بالصيام. وفي شهود الجمعة شبه من الحج، وروي: أنها حج

(١) صحيح. رواه أبو داود (١١٣٤) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٠٢١).

المساكين[١]. وقال سعيد بن المسيب: شهود الجمعة أحب إلي من حجة نافلة. والتبكير إليها يقوم مقام الهدي على قدر السبق فأولهم كالمهدي بدنة، ثم بقرة، ثم كبشاً، ثم دجاجة، ثم بيضة. وشهود الجمعة يوجب تكفير الذنوب إلى الجمعة الأخرى إذا سلم ما بين الجمعتين من الكبائر، كما أن الحج المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجة الأخرى. وقد روي: «إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام»[٢]. وروي: «أن الله يغفر يوم الجمعة لكل مسلم»[٣]. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة»[٤] وفي المسند عنه ﷺ أنه قال في يوم الجمعة: «هو أفضل عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى»[٥]. فهذا عيد الأسبوع وهو متعلق بإكمال الصلاة المكتوبة وهي أعظم أركان الإسلام ومبانيه بعد الشهادتين. وأما العيدان اللذان لا يتكرران في كل عام وإنما يأتي كل واحد منهما في العام مرة واحدة.

**فأحدهما**: عيد الفطر من صوم رمضان وهو مترتب على إكمال صيام رمضان وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا استكمل المسلمون صيام شهرهم المفروض عليهم واستوجبوا من الله المغفرة والعتق من النار؛ فإن صيامه يوجب مغفرة ما تقدم من الذنوب، وآخره عتق من النار يعتق فيه من النار من استحقها بذنوبه، فشرع الله تعالى لهم عقيب إكمالهم لصيامهم عيداً يجتمعون فيه على شكر الله وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفي الصائمون فيه أجر صيامهم ويرجعون من عيدهم بالمغفرة.

---

(١) ضعيف. وسبق تخريجه.

(٢) موضوع. رواه البيهقي في الشعب (٣/٣٤٠) وحكم عليه شيخنا بالوضع في الضعيفة (٢٥٦٥).

(٣) موضوع. رواه الطبراني في الأوسط(٥/١٠٩) وحكم عليه شيخنا بالوضع في الضعيفة (٢٩٧).

(٤) صحيح. رواه ابن خزيمة (١٧٢٦) واللفظ له والترمذي (٣٣٣٩) والحديث صححه شيخنا في صحيح الترغيب (٦٩٥).

(٥) ضعيف. أحمد (١٥١٢٠) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٧٢٦).

**والعيد الثاني**: عيد النحر وهو أكبر العيدين وأفضلهما، وهو مترتب على إكمال الحج وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه فإذا أكمل المسلمون حجهم غفر لهم، وإنما يكمل الحج بيوم عرفة والوقوف فيه بعرفة؛ فإنه ركن الحج الأعظم كما قال النبي ﷺ: «الحج عرفة»[(١)] ويوم عرفة هو يوم العتق من النار. فيعتق الله فيه من النار من وقف بعرفة ومن لم يقف بها من أهل الأمصار من المسلمين، فلذلك صار اليوم الذي يليه عيداً لجميع المسلمين في جميع أمصارهم من شهد الموسم منهم ومن لم يشهده؛ لا شتراكهم في العتق والمغفرة يوم عرفة. وإنما لم يشترك المسلمون كلهم في الحج كل عام رحمة من الله وتخفيفاً على عباده؛ فإنه جعل الحج فريضة العمر لا فريضة كل عام، وإنما هو في كل عام فرض كفاية، بخلاف الصيام فإنه فريضة كل عام على كل مسلم. فإذا كمل يوم عرفة وأعتق الله عباده المؤمنين من النار اشترك المسلمون كلهم في العيد عقب ذلك، وشرع للجميع التقرب إليه بالنسك: وهو إراقة دماء القرابين، فأهل الموسم يرمون الجمرة فيشرعون في التحلل من إحرامهم بالحج ويقضون تفثهم ويوفون نذورهم ويقربون قرابينهم من الهدايا ثم يطوفون بالبيت العتيق، وأهل الأمصار يجتمعون على ذكر الله وتكبيره والصلاة له.

قال مخنف بن سليم ـ وهو معدود من الصحابة ـ: الخروج يوم الفطر يعدل عمرة، والخروج يوم الأضحى يعدل حجة، ثم ينسكون عقيب ذلك نسكهم ويقربون قرابينهم بإراقة دماء ضحاياهم فيكون ذلك شكراً منهم لهذه النعم، والصلاة والنحر الذي يجتمع في عيد النحر أفضل من الصلاة والصدقة الذي في عيد الفطر ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر أن يصلي لربه وينحر. وقيل له: قل: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ولهذا ورد الأمر بتلاوة هذه الآية عند ذبح الأضاحي، والأضاحي سنة إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما

---

(١) صحيح. رواه أبو داود (١٩٤٩) والنسائي (٣٠١٦) وصححه شيخنا في الإرواء (١٠٦٤).

وسلم، فإن الله شرعها لإبراهيم حين فدى ولده الذي أمره بذبحه بذبح عظيم. وفي حديث زيد بن أرقم قيل: يا رسول الله ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة إبراهيم» قيل له: فما لنا بها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قيل: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»[(١)] خرجه ابن ماجه وغيره.

فهذه أعياد المسلمين في الدنيا وكلها عند إكمال طاعة مولاهم الملك الوهاب، وحيازتهم لما وعدهم من الأجر والثواب.

مَرَّ قوم براهب في دير فقالوا له: متى عيد أهل هذا الدير؟ قال: يوم يغفر الله لأهله.

ليس العيد لمن لبس الجديد إنما العيد لمن طاعته تزيد. ليس العيد لمن تجمل باللباس والركوب إنما العيد لمن غفرت له الذنوب.

في ليلة العيد تفرق خلق العتق والمغفرة على العبيد. فمن ناله منها شيء فله عيد، وإلا فهو مطرود بعيد.

كان بعض العارفين ينوح على نفسه ليلة العيد بهذه الأبيات:

بحرمة غربتي كم ذا الصدود ... ألا تعطف علي ألا تجود
سرور العيد قد عم النواحي ... وحزني في ازدياد لا يبيد
فإن كنت اقترفت خلال سوء ... فعذري في الهوى أن لا أعود

وأنشد غيره:

للناس عشر وعيد ... وأنا فريد وحيد
يا غايتي ومناي ... قد لذَّ لي ما تريد

وأنشد الشبلي:

ليس عيد المحب قصد المصلى ... وانتظار الأمير والسلطان
إنما العيد أن تكون لدى الحِـ ... ـبِّ كريماً مقرباً في أمان

(١) موضوع. ابن ماجه (٣١٢٧) وحكم عليه شيخنا بالوضع في الضعيفة (٥٢٧).

وأنشد:

إذا ما كنت لي عيداً فما أصنع بالعيد
جرى حبك في قلبي كجري الماء في العود

وأنشد:

قالوا: غداً العيد ماذا أنت لابسه فقلت: خلعة ساق حبه جرعا
صبر وفقر هما ثوبان تحتهما قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثواب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

وأما أعياد المؤمنين في الجنة فهي أيام زيارتهم لربهم ﷻ فيزورونه؛ فيكرمهم غاية الكرامة، ويتجلى لهم فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم من ذلك وهو الزيادة التي قال الله فيها: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه.

إن يوماً جامعاً شملي بهم ذاك عيد ليس لي عيد سواه

كل يوم كان للمسلمين عيد في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه، ويوم الجمعة يدعى في الجنة: يوم المزيد، ويوم الفطر والأضحى يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة. وروي أنه يشارك النساء الرجال فيهما كما كن يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة فهذا لعموم أهل الجنة، فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم مرتين بكرةً وعشية. الخواص كانت أيام الدنيا كلها لهم أعياداً فصارت أيامهم في الآخرة كلها أعياداً. قال الحسن: كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد. كل يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره وشكره فهو له عيد.

أركان الإسلام التي بني الإسلام عليها خمسة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، والحج. فأعياد عموم المسلمين في الدنيا عند

إكمال دور الصلاة، وإكمال الصيام، والحج يجتمعون عند ذلك اجتماعاً عاماً، فأما الزكاة فليس لها وقت معين ليتخذ عيداً، بل كل من ملك نصاباً فحوله بحسب ملكه. وأما الشهادتان فإكمالها يحصل بتحقيقهما والقيام بحقوقهما، وخواص المؤمنين يجتهدون على ذلك في كل وقت؛ فلذلك كانت أوقاتهم كلها أعياداً لهم في الدنيا والآخرة كما أنشد الشبلي:

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف ... والقلب مني عن اللذات منحرف

ولي قرينان مالي منهما خلف ... طول الحنين وعين دمعها يكف

ولما كان عيد النحر أكبر العيدين وأفضلهما ويجتمع فيه شرف المكان والزمان لأهل الموسم كانت لهم[1] فيه معه أعياد قبله وبعده؛ فقبله يوم عرفة، وبعده أيام التشريق. وكل هذه الأيام أعياد لأهل الموسم، كما في حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهي أيام أكل وشرب[2]»[3] خرجه أهل السنن وصححه الترمذي. ولهذا لا يشرع لأهل الموسم صوم يوم عرفة؛ لأنه أول أعيادهم وأكبر مجامعهم، وقد أفطره النبي ﷺ بعرفة والناس ينظرون إليه[4]. وروي أنه نهي عن صوم يوم عرفة بعرفة[5].

وروي عن سفيان بن عيينة: أنه سئل عن النهي عن صيام يوم عرفة بعرفة؟ فقال: لأنهم زوّار الله وأضيافه ولا ينبغي للكريم أن يجوع أضيافه. وهذا المعنى يوجد في العيدين وأيام التشريق أيضاً؛ فإن الناس كلهم في ضيافة الله عز وجل لا سيما عيد النحر فإن الناس يأكلون من لحوم نسكهم أهل الموقف وغيرهم، وأيام التشريق الثلاثة هي أيام عيد أيضاً، ولهذا بعث

---

(١) في الأصل: «له».

(٢) في نسخة: «وذكر الله» كما في الأصل.

(٣) صحيح. أبو داود (٢٤١٩) والنسائي (٣٠٠٤) والترمذي (٧٧٣) وصححه شيخنا في صحيح سنن أبي داود.

(٤) رواه البخاري (١٩٨٩) ومسلم (١١٢٤).

(٥) ضعيف. رواه أبو داود (٢٤٤٠) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٠٤).

النبي ﷺ من ينادي بمكة: «أنها أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ، فلا يصومن أحد»[١]. وقد يجتمع في يوم واحد عيدان كما إذا اجتمع يوم الجمعة مع يوم عرفة أو يوم النحر، فيزداد ذلك اليوم حرمة وفضلًا لاجتماع عيدين فيه، وقد كان ذلك اجتمع للنبي ﷺ في حجته في يوم عرفة فكان يوم الجمعة، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣]. وإكمال الدين في ذلك اليوم حصل من وجوه:

**منها**: أن المسلمين لم يكونوا حجوا حجة الإسلام بعد فرض الحج قبل ذلك ولا أحد منهم، هذا قول أكثر العلماء أو كثير منهم فكمل بذلك دينهم لاستكمالهم عمل أركان الإسلام كلها.

**ومنها**: أن الله تعالى أعاد الحج على قواعد إبراهيم عليه السلام ونفى الشرك وأهله، فلم يختلط بالمسلمين في ذلك الموقف منهم أحد. قال الشعبي: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة حين وقف موقف إبراهيم واضمحل الشرك وهدمت منار الجاهلية ولم يطف بالبيت عريان. وكذا قال قتادة وغيره، وقد قيل: إنه لم ينزل بعدها تحليل ولا تحريم قاله أبو بكر بن عياش. وأما إتمام النعمة فإنما حصل بالمغفرة فلا تتم النعمة بدونها كما قال لنبيه ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ٢] وقال في آية الوضوء: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المَائدة: ٦] ومن هنا استنبط محمد بن كعب القرظي بأن الوضوء يكفر الذنوب كما وردت السنة بذلك صريحاً، ويشهد له أيضاً أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو ويقول: أسألك تمام النعمة، فقال له: «تمام النعمة النجاة من النار، ودخول الجنة»[٢]. فهذه الآية تشهد لما روي في يوم عرفة أنه يوم المغفرة والعتق من النار.

---

(١) صحيح. انظر الصحيحة (٣٥٧٣) والإرواء (١٢٨/٤ ـ ١٣١) وانظر صحيح مسلم (١١٤٢).

(٢) ضعيف. رواه الترمذي (٣٥٢٧) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٤١٦).

فيوم عرفة له فضائل متعددة:

**منها**: أنه يوم إكمال الدين وإتمام النعمة.

**ومنها**: أنه عيد لأهل الإسلام كما قاله عمر بن الخطاب وابن عباس، قال ابن عباس: نزلت في يوم عيدين يوم جمعة ويوم عرفة. وروي عن عمر أنه قال: وكلاهما بحمد الله لنا عيد. خرجه ابن جرير في تفسيره. ويشهد له حديث عقبة بن عامر المتقدم، لكنه عيد لأهل الموقف خاصة. ويشرع صيامه لأهل الأمصار عند جمهور العلماء، وإن خالف فيه بعض السلف.

**ومنها**: أنها قد قيل: إنه الشفع الذي أقسم الله به في كتابه وأن الوتر يوم النحر. وقد روي هذا عن النبي ﷺ من حديث جابر خرجه الإمام أحمد والنسائي في تفسيره[1]. وقيل: إنه الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه قال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البُرُوج: ٣]. وفي المسند عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً: «الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم الجمعة»[2] وخرجه الترمذي مرفوعاً، وروي ذلك عن علي من قوله. وخرج الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة»[3] وعلى هذا فإذا وقع يوم عرفة في يوم الجمعة فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهد ومشهود.

**ومنها**: أنه روي أنه أفضل الأيام خرجه ابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «أفضل الأيام يوم عرفة»[4]. وذهب إلى

---

(١) منكر. وسبق تخريجه.

(٢) ضعيف بهذا اللفظ. رواه الحاكم (٥١٩/٢) ضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٧٥٤) وأما أحمد (٧٩١٣) فرواه بلفظ: «الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة» وهو صحيح بهذا اللفظ.

(٣) حسن. الطبراني في الكبير (٢٩٨/٣) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٥٠٢)

(٤) ضعيف بهذا اللفظ. ابن حبان (٣٨٥٣) ولفظه: «وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة» وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٣٨).

ذلك طائفة من العلماء، ومنهم من قال: يوم النحر أفضل الأيام لحديث عبدالله بن قرط عن النبي ﷺ قال: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر»[(١)] خرجه الإمام أحمد وأبو دواد والنسائي وابن حبان في صحيحه ولفظه: «أفضل الأيام».

**ومنها**: أنه روي عن أنس بن مالك أنه قال: كان يقال: يوم عرفة بعشرة آلاف يوم ـ يعني: في الفضل ـ. وقد ذكرناه في فضل العشر. وروي عن عطاء قال: من صام يوم عرفة كان له كأجر ألفي يوم.

**ومنها**: أنه يوم الحج الأكبر عند جماعة من السلف منهم عمر وغيره، وخالفه آخرون وقالوا: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروي ذلك عن النبي ﷺ.

**ومنها**: أن صيامه كفارة سنتين، وسنذكر الحديث في ذلك فيما بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ.

**ومنها**: أنه يوم مغفرة الذنوب والتجاوز عنها، والعتق من النار والمباهاة بأهل الموقف، كما في صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً[(٢)] من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟»[(٣)]. وفي المسند عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً»[(٤)]. وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله يباهي بأهل عرفات يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً»[(٥)]، وخرجه ابن حبان في صحيحه[(٦)]، وخرج فيه

---

(١) صحيح. وقد سبق تخريجه.

(٢) كذا في الأصل والصواب: «عبداً» كما في مسلم.

(٣) مسلم (١٣٤٨).

(٤) صحيح. أحمد (٧٠٤٩) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١١٥٣).

(٥) صحيح. أحمد (٧٩٨٦) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (١١٥٢).

(٦) صحيح. ابن حبان (٣٨٥٢) وصححه شيخنا في المصدر السابق.

أيضاً من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض أهل السماء فيقول: انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً ضاحين جاؤوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، فلم ير أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة»[١] وخرجه ابن منده في كتاب التوحيد ولفظه: «إذا كان يوم عرفة ينزل الله إلى سماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم، فتقول الملائكة: يا رب فلان مرهق فيقول: قد غفرت لهم. فما من يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة»[٢] وقال: إسناد حسن متصل انتهى، ورويناه من وجه آخر بزيادة فيه وهي: «أشهدكم يا عبادي أني قد غفرت لمحسنهم وتجاوزت عن مسيئهم»[٣]. ورويناه من رواية إسماعيل بن رافع ـ وفيه مقال ـ عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يهبط الله إلى سماء الدنيا عشية عرفة ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: هؤلاء عبادي جاؤوني شعثاً من كل فج عميق يرجون رحمتي ومغفرتي، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه»[٤] وخرجه البزار في مسنده بمعناه من حديث مجاهد عن ابن عمر عن النبي ﷺ وقال: لا نعلم له طريقاً أحسن من هذا الطريق[٥]. وخرجه الطبراني وغيره من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ مختصراً، ورويناه من طريق الوليد بن مسلم قال:

---

(١) ضعيف بهذا اللفظ. ابن حبان (٣٨٥٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٣٨) قلت: ولسائره شواهد يصح بها إلا قوله: «وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة».

(٢) ضعيف. قال شيخنا في الضعيفة (٦٧٩): «رواه ابن منده في التوحيد (١/١٤٧)» ثم ضعفه وأعله بعنعنة أبي الزبير والمخالفة في بعض متنه ثم قال: «نعم قد صح من الحديث مباهاة الله وملائكته بأهل عرفة وقوله: «انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً» من حديث أبي هريرة وابن عمرو وعائشة. . .».

(٣) حسن لغيره. هذه الزيادة لها ما يشهد لها فانظر الصحيحة (١٦٢٤).

(٤) حسن لغيره. رواه البزار (٧٣١/مختصر) هذا القدر من الحديث يشهد له حديث ابن عمر عند البزار وقد حسنه شيخنا في صحيح الترغيب (١١١٢).

(٥) حسن لغيره. البزار (٧٣٠) وحسنه شيخنا في المصدر السابق.

أخبرني أبو بكر بن أبي مريم عن الأشياخ أن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ يدنو إلى السماء الدنيا عشية فيقبل على ملائكته فيقول: ألا وإن لكل وفدٍ جائزة وهؤلاء وفدي شعثاً غبراً أعطوهم ما سألوا واخلفوا لهم ما أنفقوا حتى إذا كان عند غروب الشمس أقبل عليهم فقال: ألا إني قد وهبت مسيئكم لمحسنكم، وأعطيت محسنكم ما سأل، أفيضوا بسم الله»[١]. وروى إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنا أبي حدثنا فرقد قال: إن أبواب السماء تفتح كل ليلة ثلاث مرات، وفي ليلة الجمعة سبع مرات، وفي ليلة عرفة تسع مرات. وروينا من طريق نفيع أبي دواد عن ابن عمر مرفوعاً وموقوفاً: «إذا كان عشية يوم عرفة لم يبق أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا غفر له» قيل له: للمعرف خاصة أم للناس عامة؟ قال: «بل للناس عامة»[٢]. وخرج مالك في الموطأ من مراسيل طلحة بن عبيد الله بن كريز أن النبي ﷺ قال: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يرى من نزول الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رُئي يوم بدر» قيل: وما رأى يوم بدر؟ فقال: «إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو يزع الملائكة»[٣]. وروى أبو عثمان الصابوني بإسناد له عن رجل كان أسيراً ببلاد الروم، فهرب من بعض الحصون قال: فكنت أسير بالليل وأكمن بالنهار فبينا أنا ذات ليلة أمشي بين جبال وأشجار إذا أنا بحس، فراعني ذلك فنظرت فإذا راكب بعير فازددت رعباً، وذلك أنه لا يكون ببلاد الروم بعير فقلت: سبحان الله في بلاد الروم راكب بعير إن هذا لعجب فلما انتهى إلي قلت: يا عبدالله من أنت؟ قال: لا تسأل، قلت: إني أرى عجباً فأخبرني؟ فقال: لا تسأل، فأبيت عليه فقال: أنا إبليس وهذا وجهي من عرفات رافقتهم عشية اليوم اطلع الله عليهم فنزلت عليهم المغفرة، ووهب بعضهم لبعض فدخلني اللهم والحزن والكآبة، وهذا وجهي إلى قسطنطينية أفرح بما أسمع من الشرك بالله وادعاء أن له ولداً فقلت:

(١) ضعيف.
(٢) ضعيف جداً.
(٣) ضعيف. سبق تخريجه.

أعوذ بالله منك، فلما قلت هذا الكلمات لم أر أحداً. ويشهد لهذه الحكاية حديث عباس بن مرداس الذي خرجه أحمد وابن ماجه في دعاء النبي ﷺ لأمته عشية عرفة ثم بالمزدلفة فأجيب فضحك ﷺ وقال: «إن إبليس حين علم أن الله قد غفر لأمتي واستجاب دعائي، أهوى يحثي التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور، فضحكت من الخبيث من جزعه»[١]. ويروى عن علي بن الموفق أنه وقف بعرفة في بعض حجاته فرأى كثرة الناس فقال: اللهم إن كنت لم تتقبل منهم أحداً، فقد وهبته حجتي، فرأى رب العزة في منامه وقال له: يا ابن الموفق أتتسخّى علي، قد غفرت لأهل الموقف ولأمثالهم، وشفعت كل واحد منهم في أهل بيته وذريته وعشيرته، وأنا أهل التقوى وأنا أهل المغفرة. ويروى نحوه عن غيره أيضاً من الشيوخ.

فمن طمع في العتق من النار ومغفرة ذنوبه في يوم عرفة فليحافظ على الأسباب التى يرجى بها العتق والمغفرة؛

**فمنها**: صيام ذلك اليوم ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والتي بعده»[٢].

**ومنها**: حفظ جوارحه عن المحرمات في ذاك اليوم، ففي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال يوم عرفة: «هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له»[٣].

**ومنها**: الإكثار من شهادة التوحيد بإخلاص وصدق؛ فإنها أصل دين الإسلام الذي أكمله الله في ذلك اليوم وأساسه[٤]. وفي المسند عن

---

(١) ضعيف. ابن ماجه (٣٠١٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٤٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ضعيف. رواه أحمد (٣٠٣٣) وغيره وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٧٤٣).

(٤) كتب الناسخ في هامش الأصل حاشيتين فقال: «وروى النسائي وابن حبان والبزار أن النبي ﷺ قال: «لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم». وقال: «قال في التبصرة في مجلس الأمر بالمعروف عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلًا من أمتي على =

عبدالله بن عمرو قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد بيده الخير، وهو على كل شيء قدير»(١). وخرجه الترمذي ولفظه: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(٢). وخرجه الطبراني من حديث علي وابن عمر مرفوعاً أيضاً. وخرج الإمام أحمد من حديث الزبير بن العوام قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] الآية ويقول: «وأنا على ذلك من الشاهدين، يا رب»(٣).

ويروى من حديث عبادة بن الصامت قال: شهدت النبي ﷺ يوم عرفة فكان أكثر قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] الآية ثم قال: «أي رب، وأنا أشهد»(٤). فتحقيق كلمة التوحيد توجب العتق من النار؛ فإنها تعدل عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار، كما ثبت في الصحيح: «أن من قالها مائة مرة كان له عدل عشر رقاب»(٥) وثبت أيضاً: «أن من قالها عشر مرات كان كمن أعتق أربعة من ولد

---

= رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر ثم يقول الله: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول: لا يارب فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال: إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة». وذكر هذا الحديث في مجلس ذكر الموت. ورواه بسنده من طريق المسند وهو فيه وفي غيره».

(١) ضعيف. أحمد (٦٩٢٢) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٢٢١).

(٢) حسن. الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٥٠٣).

(٣) ضعيف. أحمد (١٤٢٤) وإسناده ضعيف.

(٤) ضعيف.

(٥) رواه البخاري (٣٢٩٣) ومسلم (٢٦٩١).

إسماعيل»[١] وفي سنن أبي دواد وغيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم أني أصبحت أشهدك، وأشهد حملة عرشك، وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومن قالها ثلاث مرار أعتق ثلاثة أرباعه، ومن قالها أربع مرار أعتقه الله من النار»[٢]. ويروى من مراسيل الزهري: من قال في يوم عشرة آلاف مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له أعتقه الله من النار، كما أنه لو جاء بدية من قتله عشرة آلاف قبلت.

**ومنها**: أن يعتق رقبة إن أمكنه فإن من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار، كان حكيم بن حزام رضي الله عنه يقف بعرفة ومعه مائة بدنة مقلدة، ومائة رقبة فيعتق رقيقه فيضج الناس بالبكاء والدعاء ويقولون: ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فاعتقنا. وجرى للناس مرة مع الرشيد نحو هذا، وكان أبو قلابة يعتق جارية في عيد الفطر يرجو أن يعتق بذلك من النار. ومنها: كثرة الدعاء بالمغفرة والعتق فإنه يرجى إجابة الدعاء فيه. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي قال: ليس في الأرض يوم إلا لله فيه عتقاء من النار، وليس يوم أكثر فيه عتقاً للرقاب من يوم عرفة فأكثر فيه أن تقول: اللهم أعتق رقبتي من النار، وأوسع لي من الرزق الحلال، واصرف عني فسقة الجن والإنس فإنه عامة دعائي اليوم.

وليحذر من الذنوب التي تمنع من المغفرة والعتق؛

**فمنها**: الاختيال، روينا من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «ما يُرى يوم أكثر عتيقاً، ولا عتيقة من يوم عرفة ولا يغفر الله فيه لمختال»[٣] وخرجه

---

(١) مسلم (٢٦٩٣) ورواه البخاري (٦٤٠٤) بلفظ: «رقبة» قال شيخنا تبعاً للحافظ: المحفوظ: «أربعة».

(٢) ضعيف بهذا اللفظ. أبو داود (٥٠٦٩) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٠٤١) وصح الدعاء مع الثواب دون ذكر الصباح والمساء كما في الصحيحة (٢٦٧)

(٣) ضعيف. رواه الإسماعيلي في معجمه (١١).

البزار والطبراني وغيرهما. والمختال: هو المتعاظم في نفسه المتكبر. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] وقال النبي ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى من جرَّ ثوبه خيلاء»(١).

**ومنها**: الإصرار على الكبائر، روى جعفر السراج بإسناده عن يونس بن عبدالأعلى أنه حج سنة، فرأى أميرُ الحاج في منامه: أن الله قد غفر لأهل الموسم سوى رجل فسق بغلام فأمر بالنداء بذلك في الموسم. وروى ابن أبي الدنيا وغيره أن رجلًا رأى في منامه أن الله قد غفر لأهل الموسم كلهم إلا رجلًا من أهل بلخ فسأل عنه حتى وقع عليه، فسأله عن حاله؟ فذكر أنه كان مدمناً لشرب الخمر، فجاء ليلة وهو سكران، فعاتبته أمه وهي تسجر تنوراً، فاحتملها فألقاها فيه حتى احترقت.

يا من يطمع في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الإثم والأوزار. تالله نصحت نفسك ولا وقف في طريقك غيرك، توبق نفسك بالمعاصي فإذا حرمت المغفرة قلت: أنّى هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٥].

فنفسك لم ولا تلم المطايا ومت كمداً فليس لها اعتذار

إن كنت تطمع في العتق فاشتر نفسك من الله؛ فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. من كرمت عليه نفسه هان عليه كل ما يبذل في افتكاكها من النار. اشترى بعض السلف نفسه من الله ثلاث مرار أو أربعاً يتصدق كل مرة بوزن نفسه فضة. واشترى عامر بن عبدالله بن الزبير نفسه من الله بديته ست مرات يتصدق بها. واشترى حبيب العجمي نفسه من الله بأربعين ألف درهم تصدق بها. وكان أبو هريرة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة بقدر ديته يَفْتَكّ بذلك نفسه.

بدم المحب يباع وصلهم فمن الذي يبتاع في الثمن

(١) رواه البخاري (٥٧٨٣) ومسلم (٢٠٨٥).

من عرف ما يطلب هان عليه كل ما يبذل، ويحك قد رضينا منك في فكاك نفسك بالندم، وقنعنا منك في ثمنها بالتوبة والحزن، وفي هذا الموسم قد رخص السعر، من ملك سمعه وبصره ولسانه غفر له. مُدَّ إليه يد الاعتذار، وقم على بابه بالذل والانكسار، وارفع قصة ندمك مرقومة على صحيفة خدك بمداد الدموع الغزار، وقل: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعرَاف: ٢٣] قال يحيى بن معاذ: العبد يوحش ما بينه وبين سيده بالمخالفات ولا يفارق بابه بحال، لعلمه بأن عز العبيد في ظل مواليهم وأنشأ يقول:

قرة عيني لا بد لي منك وإن　　أوحش بيني وبينك الزلل
قرة عيني أنا الغريق فخذ　　كف غريق عليك يتكل

كانت أحوال الصادقين في الموقف بعرفة تتنوع: فمنهم: من كان يغلب عليه الخوف والحياء. وقف مطرف بن عبدالله بن الشخير وبكر المزني بعرفة فقال أحدهم: اللهم لا ترد أهل الموقف من أجلي، وقال الآخر: ما أشرفه من موقف وأرجاه لأهله لولا أني فيهم. وقف الفضيل بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة قد حال البكاء بينه وبين الدعاء، فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال: وا سوأتاه منك وإن عفوت عني. وقال الفضيل أيضاً لشعيب بن حرب وهو بالموسم: إن كنت تظن أنه شهد الموسم أحد شراً مني ومنك فبئس ما ظننت. دعا بعض العارفين بعرفة فقال: اللهم إن كنت لم تقبل حجي وتعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول مني. وقف بعض الخائفين بعرفة إلى أن قرب غروب الشمس فنادى الأمان الأمان فقد دنا الانصراف؛ فليت شعري ما صنعت في حاجة المساكين.

وإني من خوفكم والرجا　　أرى الموت والعيش فيكم عيانا
فمنوا على تائب خائف　　أتاكم ينادي الأمان الأمانا

إذا طلب الأسير من الملك الكريم أمنه.

الأمان الأمان وزري ثقيل ... وذنوبي إذا عددن[1] تطول
أوبقتني وأوثقتني ذنوبي ... فترى لي إلى الخلاص سبيل

وقف بعض العارفين بعرفة فمنعه الحياء من الدعاء فقيل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثَمَّ وحشة. فقيل له: هذا يوم العفو عن الذنوب، فبسط يديه ووقع ميتاً.

حدا بها الحادي إلى نعمان ... فاستذكرت عهداً لها بالبان
فسالت الروح من الأجفان ... تشوقاً إلى الزمان الفاني

[غيره:]

قد لجَّ من الغرام حتى قالوا: ... قد جنّ به وهكذا البلبال
الموت إذا رضيته سلسال ... في مثل هواك ترخص الآجال

وقف بعض الخائفين بعرفات وقال: إلهي الناس يتقربون إليك بالبدن، وأنا أتقرب إليك بنفسي ثم خَرَّ ميتاً.

للناس حج ولي حج إلى سكني ... تهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي

ما يرضى المحبون لمحبوبهم بإراقة دماء الهدايا وإنما يهدون له الأرواح.

أرى موسم الأعياد أنس الأجانب ... وما العيد عندي غير قرب الحبائب
إذا قربوا بدناً فقرباني الهوى ... فإن قبلوا قلبي وإلا فقالبي
وما بدم الأنعام أقضي حقوقهم ... ولكن بما بين الحشا والترائب

كان أبو عبيدة الخواص قد غلب عليه الشوق والقلق حتى يضرب على صدره في الطريق ويقول: وا شوقاه إلى من يراني ولا أراه، وكان بعد ما كبر يأخذ بلحيته ويقول: يا رب قد كبرت فاعتقني، ورُئي بعرفة وقد ولع به الوله وهو يقول:

سبحان من لو سجدنا بالعيون له ... على حمى الشوك والمحمى من الإبر

---

(١) في الأصل: «عددت».

لم نبلغ العشر من معشار نعمته ... ولا العشير ولا عشراً من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه ... سبحنه من مليك نافذ القدر
سبحان من هو أُنسي إذا خلوت به ... في جوف ليلي وفي الظلماء والسحر
أنت الحبيب وأنت الحب يا أملي ... من لي سواك ومن أرجوه يا ذخري

ومن العارفين من كان بالموقف يتعلق بأذيال الرجاء. قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان فالتفت إلي فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالًا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم. وروي عن الفضيل أنه نظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانقاً ـ يعني: سدس درهم ـ أكان يردهم قالوا: لا، قال: والله للمغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق.

وإني لأدعو الله أسأل عفوه ... وأعلم أن الله يعفو ويغفر
لئن أعظم الناس الذنوب فإنها ... وإن عظمت في رحمة الله تصغر

وعما قليل يقف إخوانكم بعرفة في ذلك الموقف فهنيئاً لمن رزقه، يجأرون إلى الله بقلوب محترقة ودموع مستبقة، فكم فيهم من خائف أزعجه الخوف وأقلقه، ومحب ألهبه الشوق وأحرقه، وراج أحسن الظن بوعد الله وصدقه، وتائب نصح لله في التوبة وصدقه، وهارب لجأ إلى باب الله وطرقه، فكم هنالك من مستوجب للنار أنقذه الله وأعتقه، ومن أسير للأوزار فكه وأطلقه، وحينئذٍ يطلع عليهم أرحم الرحماء ويباهي بجمعهم أهل السماء ويدنو ويقول: ماذا أراد هؤلاء؟ لقد قطعنا عند وصولهم الحرمان، ومنعنا وأعطاهم نهاية سؤلهم الرحمن، هو الذي أعطى ومنع ووصل وقطع.

ما أصنع هكذا جرى المقدور ... الجبر لغيري وأنا المكسور
أسير ذنب مقيد ماسور ... هل يمكن أن يبدل المسطور

من فاته في هذا العام القيام بعرفة فليقم لله بحقه الذي عرفه، من عجز عن المبيت بمزدلفة فليبت عزمه على طاعة الله وقد قربه الله وأزلفه،

من لم يمكنه القيام بأرجاء الخيف فليقم لله بحق الرجاء والخوف، من لم يقدر على نحر هديه بمنى فليذبح هواه هنا وقد بلغ المنى، من لم يصل إلى البيت؛ لأنه منه بعيد فليقصد رب البيت فإنه أقرب إلى من دعاه ورجاه من حبل الوريد، نفحت في هذه الأيام نفحة من نفحات الأنس من رياض القدس على كل قلب أجاب إلى ما دعي، يا همم العارفين بغير الله لا تقنعي، يا عزائم الناسكين لجميع أنساك السالكين اجمعي لحب مولاك أفردي، وبين خوفه ورجائه اقرني، وبذكره تمتعي، يا أسرار المحبين بكعبة الحب طوفي واركعي، وبين صفاء الصفا ومروة المروى اسعي وأسرعي، وفي عرفات العرفان قفي وتضرعي، ثم إلى مزدلفة الزلفى فادفعي، ثم إلى منى بنيل المنى فارجعي، فإذا قربوا القرابين فقربي الأرواح ولا تمنعي، لقد وضح اليوم الطريق ولكن قل السالك على التحقيق وكثر المدعي.

لئن لم أحج البيت إذ شط ربعه ... حججت إلى من لا يغيب عن الذكر
فأحرمت من وقتي بخلع شمائلي ... أطوف وأسعى في اللطائف والبر
صفاي صفائي عن صفاتي ومروتي ... مروءة قلبي عن سوى حبه فقر
ففي عرفات الأنس بالله موقفي ... ومزدلفي الزلفى لديه إلى الحشر
وبتّ المنى مني مبيتي في منى ... ورمي جماري جمر شوقي في صدري
وإشعار هديي ذبح نفسي بقهرها ... وحلقي بمحق الكائنات عن السر
ومن رام نفراً بعد نسك فإنني ... مقيم على نسكي بلا نفر

❋ ❋ ❋

## المجلس الثالث
## في أيام التشريق

خرج مسلم في صحيحه من حديث نبيشة الهذلي أن النبي ﷺ قال: «أيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ»[1] وخرجه أهل السنن والمسانيد

(١) مسلم (١١٤١).

من طرق متعددة عن النبي ﷺ وفي بعضها: أن النبي ﷺ بعث في أيام منًى منادياً ينادي: «لا تصوموا هذه الأيام؛ فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ»(١) وفي رواية للنسائي: «أيام أكل وشرب وصلاة»(٢) وفي رواية للدارقطني بإسناد فيه ضعف: «أيام أكل وشرب وبعال»(٣) وفي رواية للإمام أحمد: «من كان صائماً فليفطر؛ فإنها أيام أكل وشرب» وفي رواية: «إنها ليست أيام صيام»(٤).

أيام منًى هي الأيام المعدودات التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣] وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهي أيام التشريق، هذا قول ابن عمر وأكثر العلماء، وروي عن ابن عباس وعطاء أنها أربعة أيام: يوم النحر وثلاثة أيام بعده، وسماها عطاء أيام التشريق، والأول أظهر. وقد قال النبي ﷺ: «أيام منًى ثلاثة: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]»(٥) خرجه أهل السنن الأربعة من حديث عبدالرحمٰن بن يعمر عن النبي ﷺ. وهذا صريح في أنها أيام التشريق وأفضلها أولها يوم القر؛ لأن أهل منًى يستقرون فيه؛ لا يجوز فيه النفر. وفي حديث عبدالله بن قرط عن النبي ﷺ: «أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر»(٦). وقد روي عن سعيد بن المسيب: أن يوم الحج الأكبر هو يوم القر، وهو غريب، ثم يوم النفر الأول وهو أوسطها، ثم يوم النفر الثاني وهو آخرها. قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣] قال كثير من السلف: يريد أن المتعجل والمتأخر يغفر له ويذهب عنه الإثم الذي كان عليه قبل حجه ـ

---

(١) صحيح. خرج شيخنا طرقه وبين ألفاظه في الإرواء (٤/١٢٨ ـ ١٣١).
(٢) ضعيف. النسائي في الكبرى (٢/١٧١) وإسناده ضعيف.
(٣) ضعيف. الدارقطني (٢/٢١٢) وضعفه شيخنا في تمام المنة (ص٤٠٢).
(٤) حسن. أحمد (٧١٠).
(٥) صحيح. أبو داود (١٩٤٩) والنسائي (٣٠٤٤) والترمذي (٨٨٩) وابن ماجه (٣٠١٥) وصححه شيخنا في المشكاة (٢٧١٤).
(٦) صحيح. تقدم.

إذا حج فلم يرفث ولم يفسق - ويرجعُ من ذنوبه كيوم ولدته أمه. ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣] فتكون التقوى شرطاً لذهاب الإثم على هذا التقدير، وتصير الآية دالة على ما صرح به قول النبي ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(١) وقد أمر الله تعالى بذكره في هذه الأيام المعدودات كما قال النبي ﷺ: «إنها أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ»(٢). وذكر الله تعالى المأمور به في أيام التشريق أنواع متعددة:

**منها**: ذكر الله تعالى عقب الصلوات المكتوبات بالتكبير في أدبارها وهو مشروع إلى آخر أيام التشريق عند جمهور العلماء. وقد روي عن عمر وعلي وابن عباس وفيه حديث مرفوع في إسناده ضعف.

**ومنها**: ذكره بالتسمية والتكبير عند ذبح النسك فإن وقت ذبح الهدايا والأضاحي يمتد إلى آخر أيام التشريق عند جماعة من العلماء، وهو قول الشافعي، ورواية عن أحمد، وفيه حديث مرفوع: «كل أيام منًى ذبح»(٣) وفي إسناده مقال. وأكثر الصحابة على أن الذبح يختص بيومين من أيام التشريق مع يوم النحر وهو المشهور عن أحمد، وهو قول مالك وأبي حنيفة والأكثرين.

**ومنها**: ذكر الله على الأكل والشرب؛ فإن المشروع في الأكل والشرب أن يسمي الله في أوله ويحمده في آخره، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن الله ﷻ يرضى عن العبد أن يأكل الأكلة؛ فيحمده عليها، ويشرب الشربة؛ فيحمده عليها»(٤). وقد روي: أن من سمى على أول طعامه وحمد الله على آخره فقد أدَّى ثمنه ولم يسأل بعد عن شكره.

**ومنها**: ذكره بالتكبير عند رمي الجمار في أيام التشريق، وهذا يختص به أهل الموسم.

---

(١) صحيح. تقدم.

(٢) صحيح. تقدم.

(٣) صحيح. أحمد (١٦٣٠٩) ولفظه: «وكل أيام التشريق ذبح» وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٤٧٦).

(٤) صحيح. تقدم.

**ومنها**: ذكر الله ﷻ المطلق؛ فإنه يستحب الإكثار منه في أيام التشريق، وقد كان عمر يكبر بمنًى في قبته فيسمعه الناس فيكبرون فترتج منًى تكبيراً، وقد قال ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠، ٢٠١]. وقد استحب كثير من السلف كثرة الدعاء بهذا في أيام التشريق. قال عكرمة: كان يستحب أن يقال في أيام التشريق: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وعن عطاء قال: ينبغي لكل من نفر أن يقول حين ينفر متوجهاً إلى أهله: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. خرجهما عبد بن حميد في تفسيره. وهذا الدعاء من أجمع الأدعية للخير، وكان النبي ﷺ يكثر منه، وروي: أنه كان أكثر دعائه(١). وكان ﷺ إذا دعا بدعاء جعله معه؛ فإنه يجمع خيري الدنيا والآخرة. قال الحسن: الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة. وقال سفيان: الحسنة في الدنيا: العلم والرزق الطيب، وفي الآخرة: الجنة. والدعاء من أفضل أنواع ذكر الله ﷻ. وقد روى زياد الجصاص عن أبي كنانة(٢) القرشي أنه سمع أبا موسى الأشعري يقول في خطبته يوم النحر: بعد يوم النحر ثلاثة أيام التي ذكر الله الأيام المعدودات لا يرد فيهن الدعاء، فارفعوا رغبتكم إلى الله ﷻ. وفي الأمر بالذكر عند انقضاء النسك معنًى وهو أن سائر العبادات تنقضي ويفرغ منها وذكر الله باقٍ لا ينقضي ولا يفرغ منه، بل هو مستمر للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وقد أمر الله تعالى بذكره عند انقضاء الصلاة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] وقال في صلاة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجُمُعَة: ١٠] وقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧، ٨].

---

(١) صحيح. رواه البخاري (٦٣٨٩) ومسلم (٢٦٩٠).

(٢) في الأصل: «لبابة».

وروي عن ابن مسعود: فإذا فرغت من الفرائض فانصب. وعنه في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٨] قال: في المسألة وأنت جالس. وقال الحسن: أمره إذا فرغ من غزوة أن يجتهد في الدعاء والعبادة. والأعمال كلها يفرغ منها، والذكر لا فراغ له ولا انقضاء، والأعمال تنقطع بانقطاع الدنيا ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذكر لا ينقطع. المؤمن يعيش على الذكر ويموت عليه وعليه يبعث.

أحسبتمُ أن الليالي غيرت عهد الهوى لا كان من يتغير
يفنى الزمان وليس يفنى ذكركم وعلى محبتكم أموت وأحشر

قال ذو النون: ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا الآخرة إلا بعفوه، ولا الجنة إلا برؤيته.

بذكر الله ترتاح القلوب ودنيانا بذكراه تطيب
إذا ذكر المحبوب عند حبيبه تَرَنَّح نشوان وحن طروب

فأيام التشريق يجتمع فيها للمؤمنين نعيم أبدانهم بالأكل والشرب، ونعيم قلوبهم بالذكر والشكر، وبذلك تتم النعمة، فكلما أحدثوا شكراً على النعمة كان شكرهم نعمة أخرى فيحتاج إلى شكر آخر، ولا ينتهي الشكر أبداً.

إذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر

وفي قول النبي ﷺ: «إنها أيام أكل وشرب وذكر الله ﷻ»[١] إشارة إلى أن الأكل في أيام الأعياد والشرب إنما يستعان به على ذكر الله وطاعته وذلك من تمام شكر النعمة أن يستعان بها على الطاعات. وقد أمر الله في كتابه بالأكل من الطيبات والشكر له، فمن استعان بنعم الله على معاصيه فقد كفر نعمة الله وبدلها كفراً وهو جدير أن يسلبها كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

---

(١) صحيح. تقدم.

وداوم عليها بشكر الإله[١] فشكر الإله يزيل النقم

وخصوصاً نعمة الأكل من لحوم بهيمة الأنعام كما في أيام التشريق؛ فإن هذه البهائم مطيعة لله لا تعصيه وهي مسبحة له قانتة كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وإنها تسجد له كما أخبر الله بذلك في سورة النحل وسورة الحج، وربما كانت أكثر ذكراً لله من بعض بني آدم، وفي المسند مرفوعاً: «رب بهيمة خير من راكبها، وأكثر لله منه ذكراً»[٢]. وقد أخبر الله في كتابه أن كثيراً من الجن والإنس كالأنعام بل هم أضل سبيلًا، فأباح الله تعالى هذه البهائم المطيعة الذاكرة له لعباده المؤمنين حتى تتقوى بها أبدانهم وتكمل لذاتهم في أكلهم اللحوم، فإنها من أجلِّ الأغذية وألذها مع أن الأبدان تقوم بغير اللحم من النباتات وغيرها، لكن لا تكمل القوة والعقل واللذة إلا باللحم، فأباح للمؤمنين قتل هذه البهائم والأكل من لحومها ليكمل بذلك قوة عباده وعقولهم، فيكون ذلك عوناً لهم على علوم نافعة وأعمال صالحة يمتاز بها بنو آدم على البهائم وعلى ذكر الله ﷻ وهو أكثر من ذكر البهائم، فلا يليق بالمؤمن مع هذا إلا مقابلة هذه النعم بالشكر عليها، والاستعانة بها على طاعة الله تعالى وذكره حيث فضل ابن آدم على كثير من المخلوقات، وسخر له هذه الحيوانات، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦] فأما من قتل هذه البهائم المطيعة الذاكرة لله تعالى ثم استعان بأكل لحومها على معاصي الله تعالى ونسي ذكر الله فقد قلب الأمر وكفر النعمة، فلا كان من كانت البهائم خيراً منه وأطوع.

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
وتتعب فيما سوف تكره غِبّه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وإنما نهى عن صيام أيام التشريق؛ لأنها أعياد للمسلمين مع يوم النحر

---

(١) في الأصل: «الله».

(٢) ضعيف. أحمد (١٥٢٠٢) بلفظ: «فرب مركوبة» وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (٧٨٣).

فلا تصام بمنًى ولا غيرها عند جمهور العلماء؛ خلافاً لعطاء في قوله: إن النهي مختص بأهل منًى. وإنما نهي عن التطوع بصيامها سواء وافق عادة أو لم يوافق. فأما صيامها عن قضاء فرض أو نذر أو صامها[1] بمنىً المتمتع إذا لم يجد الهدي ففيه اختلاف مشهور بين العلماء، ولا فرق بين يومٍ منها ويومٍ عند الأكثرين، إلا عند مالك فإنه قال في اليوم الثالث منها: يجوز صيامُه عن نذر خاصة. وفي النهي عن صيام هذه الأيام والأمر بالأكل فيها والشرب سرٌ حسن؛ وهو أن الله تعالى لما علم ما يلاقي الوافدون إلى بيته من مشاق السفر وتعب الإحرام وجهاد النفوس على قضاء المناسك، شرع لهم الإستراحة عقب ذلك بالإقامة بمنًى يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وأمرهم بالأكل فيها من لحوم نسكهم فهم في ضيافة الله ﷻ فيها لطفاً من الله بهم ورأفة ورحمة، وشاركهم أيضاً أهل الأمصار في ذلك؛ لأن أهل الأمصار شاركوهم في التعب لله، والاجتهاد في عشر ذي الحجة بالصوم والذكر والاجتهاد في العبادات، وشاركوهم في حصول المغفرة وفي التقرب إلى الله تعالى بإراقة دماء الأضاحي فشاركوهم في أعيادهم واشترك الجميع في الراحة في أيام الأعياد بالأكل والشرب، كما اشتركوا جميعاً في أيام العشر في الاجتهاد في الطاعة والنصب، وصار المسلمون كلهم في ضيافة الله تعالى في هذه الأيام يأكلون من رزقه ويشكرونه على فضله، ونهوا عن صيامها؛ لأن الكريم لا يليق به أن يجيع أضيافه، فكأنه قيل للمؤمنين في هذه الأيام: قد فرغ عملكم الذي عملتموه فما بقي لكم إلا الراحة فهذه الراحة بذلك التعب، كما أريح الصائمون لله شهر رمضان بأمرهم بإفطار يوم عيد الفطر. ويؤخذ من هذا إشارة إلى حال المؤمن في الدنيا فإن الدنيا كلها أيام سفر كأيام الحج، وهي زمان إحرام المؤمنين عما حرم الله عليهم من الشهوات، فمن صبر في مدة سفره على إحرامه وكف عن الهوى فإذا انتهى سفر عمره ووصل إلى منى المنى فقد قضى تفثه، ووفى نذره فصارت أيامه كلها كأيام منًى؛ أيام أكل وشرب وذكر الله وصار في ضيافة الله في جواره

---

(١) وفي بعض النسخ: «أو صيامها بمنًى للمتمتع».

أبد الأبد؛ ولهذا يقال لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الطور: ١٩] ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤] وقد قيل: إنها نزلت في الصوام في الدنيا.

وقد صمت عن لذات دهري كلها ... ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

قال بعض السلف: صم الدنيا وليكن فطرك الموت.

فصم يومك الأدنى لعلك في غدٍ ... تفوز بعيد الفطر والناس صُوّم

من صام اليوم عن شهواته أفطر عليها غداً بعد وفاته، ومن تعجل ما حرم عليه من لذاته عوقب بحرمان نصيبه من الجنة وفواته، شاهد ذلك من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة.

أنت في دار شتات ... فتأهب لشتاتك

واجعل الدنيا كيوم ... صمته عن شهواتك

وليكن فطرك عند الله ... ـه في يوم وفاتك

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥] الجنة ضيافة الله أعدها لعباده المؤمنين نزلًا، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وبعث رسول الله ﷺ يدعو إليها بالإيمان والإسلام والإحسان؛ فمن أجابه دخل الجنة وأكل من تلك الضيافة، ومن لم يجب حرم.

خرج الترمذي عن جابر قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجليَّ قال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلًا فقال: اسمع سمعت أذنك واعقل عقل قلبك: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بناءً وجعل فيها مأدبة[1] ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من

---

(١) في نسخة: «مائدة» كما في هامش الأصل.

تركه فالله هو الملك والدار هي الإسلام والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول؛ من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل مما فيها»[(١)] وخرجه البخاري بمعناه، ولفظه: «مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، والدار الجنة والداعي محمد ﷺ»[(٢)].

في بعض الآثار الإسرائيلية يقول الله: ابن آدم ما أنصفتني أذكرك وتنساني، أدعوك إليَّ فتفر مني إلى غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا، يا ابن آدم! ما يكون اعتذارك غداً إذا جئتني، طوبى لمن أجاب مولاه: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

يا نفس ويحك قد أتاك هداكِ    أجيبي فداعي الحق قد ناداكي
كم قد دعيت إلى الرشاد فتعرضي    وأجبت داعي الغي حين دعاكي

كل ما في الدنيا يذكر بالآخرة فمواسمها وأعيادها وأفراحها تذكر بمواسم الآخرة وأعيادها وأفراحها. صنع عبدالواحد بن زيد طعاماً لإخوانه فقام عتبة الغلام على رؤوس الجماعة يخدمهم وهو صائم فجعل عبدالواحد ينظر إليه ويسارقه النظر ودموع عتبة تجري، فسأله بعد ذلك عن بكائه؟ فقال: ذكرت موائد الجنة والولدان قائمون على رؤوسهم، فصعق عبدالواحد. أبدان العارفين في الدنيا وقلوبهم في الآخرة.

جسمي معي غير أن الروح عندكم    فالجسم في غربة والروح في وطن

أعياد الناس تنقضي، فأما أعياد العارفين فدائمة. قال الحسن: كل يوم لا تعصي الله فيه فهو لك عيد.

جاء بعضهم إلى بعض العارفين فسلم عليه وقال له: أريد أن أكلمك

---

(١) صحيح. الترمذي (٢٨٦٠) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣٥٩٥).
(٢) البخاري (٧٢٨١).

قال: اليوم لنا عيد فتركه، ثم جاء يوماً آخر فقال له مثل ذلك، ثم جاء يوماً آخر فقال له مثل ذلك فقال له: ما أكثر أعيادك! قال: يا بطال أما علمت أن كل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد.

أوقات العارفين كلها فرح وسرور بمناجاة مولاهم وذكره، فهي أعياد. وكان الشبلي ينشد:

إذا ما كنت لي عيداً ... فما أصنع بالعيد
جرى حبك في قلبي ... كجري الماء في العود

وأنشد أيضاً:

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف ... والقلب مني عن اللذات منحرف
ولي قرينان مالي منهما خلف ... طول الحنين وعين دمعها يكف

* * *

## المجلس الرابع
## في ذكر ختام العام

خرج الإمام أحمد من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «لا تتمنوا الموت؛ فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة»[1].

تمني الموت يقع على وجوه:

**منها**: تمنيه لضر دنيوي ينزل بالعبد فينهى حينئذٍ عن تمني الموت، وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان لا بد فاعلاً؛ فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[2]. ووجه كراهته في هذا الحال أن

(١) ضعيف. أحمد (١٤١٥٤) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٨٨٥).
(٢) البخاري (٦٣٥١) ومسلم (٢٦٨٠).

المتمني للموت لضر نزل به إنما يتمناه تعجيلًا للاستراحة من ضره وهو لا يدري إلى ما يصير بعد الموت فلعله يصير إلى ضر أعظم من ضره فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «إنما يستريح من غفر له»(١). فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيراً له عند الله ﷻ، وكذلك كل ما لا يعلم العبد فيه الخيرة له كالغنى والفقر وغيرهما، كما يشرع له استخارة الله فيما يريد أن يعمله مما لا يعلم وجه الخيرة فيه، وإنما يسأل الله على وجه الجزم والقطع فيما يعلم أنه خير محض كالمغفرة والرحمة، والعفو والعافية، والهدى والتقوى ونحو ذلك.

**ومنها**: تمنيه خوف الفتنة في الدين فيجوز حينئذٍ. وقد تمناه ودعا به خشية الفتنة في الدين خلق من الصحابة وأئمة الإسلام، وفي حديث المنام: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»(٢).

**ومنها**: تمني الموت عند حضور أسباب الشهادة اغتناماً لحصولها فيجوز ذلك أيضاً، وسؤال الصحابة الشهادة وتعرضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور، وكذلك سؤال معاذ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام.

**ومنها**: تمني الموت لمن وثق بعمله شوقاً إلى لقاء الله ﷻ فهذا يجوز أيضاً، وقد فعله كثير من السلف. قال أبو الدرداء: أحب الموت اشتياقاً إلى ربي. وقال أبو عنبة(٣) الخولاني: كان من قبلكم لقاء الله أحب إليهم من الشهد. وقال بعض العارفين: طالت عليَّ الأيام والليالي بالشوق إلى لقاء الله. وقال بعضهم: طال شوقي إليك فعجل قدومي عليك. وقال بعضهم: لا تطيب نفسي بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله فإنني أشتاق حينئذٍ إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه في اليوم الحار الشديد حره إلى الماء البارد الشديد برده. وفي هذا يقول بعضهم:

---

(١) حسن. أحمد (٢٣٨٧٨) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٧١٠).
(٢) صحيح. رواه الترمذي (٣٢٣٣) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣١٦٩).
(٣) في الأصل: «عتبة».

أشتاق إليك يا قريباً نائي ... شوق الظامي إلى زلال الماء

وقد دل على جواز ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤] وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة: ٦] فدل ذلك على أن أولياء الله لا يكرهون الموت بل يتمنونه، ثم أخبر أنهم: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة: ٧] فدل على أنه إنما يكره الموت من له ذنوب يخاف القدوم عليها، كما قال بعض السلف: ما يكره الموت إلا مريب. وفي حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ: «أسألك لذة النظر إلى وجهك وشوقاً إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة»[1] فالشوق إلى لقاء الله إنما يكون بمحبة الموت وذلك لا يقع غالباً إلا عند خوف ضراء مضرة في الدنيا أو فتنة مضلة في الدين، فأما إذا خلا عن ذلك كان شوقاً إلى لقاء الله. وهو المسؤول في هذا الحديث، وفي المسند عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يتمنين الموت إلا من وثق بعمله»[2]. فالمطيع لله مستأنس بربه، فهو يحب لقاءه، والله يحب لقاءه، والعاصي مستوحش بينه وبين مولاه وحشة الذنوب فهو يكره لقاء ربه ولا بد له منه. قال ذو النون: كل مطيع مستأنس، وكل عاص مستوحش. وفي ذلك يقول بعضهم:

أمستوحش أنت مما جنيت ... فأحسن إذا شئت واستأنس

قال أبو بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما في وصيته له عند الموت: إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه، وإن ضيعتها لم يكن غائب أكره إليك من الموت ولن تعجزه. قال أبو حازم: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه، ثم لا يضرك متى مت.

---

(١) صحيح. رواه النسائي (١٣٠٥) وقال شيخنا في الكلم الطيب (ص١٠٩ ـ ١١٠): «وإسناده صحيح».

(٢) ضعيف. أحمد (٢٧٢٩٩) وإسناده ضعيف.

العاصي يفر من الموت لكراهته لقاء الله، وأين يفر من هو في قبضة من يطلبه؟

أيـن الـمـفـر والإلـه الـطـالـب　　والمجرم المغلوب ليس الغالب

سئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم الآبق على سيده الغضبان. رُئي بعض الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيراً لم ير مثل الكريم إذا حل به المطيع. الدنيا كلها شهر صيام المتقين، وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم. كما قيل:

وقد صمت عن لذات دهري كلها　　ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

**ومنها**: تمني الموت على غير الوجوه المتقدمة؛ فقد اختلف العلماء في كراهته واستحبابه، وقد رخص فيه جماعة من السلف، وكرهه آخرون وحكى بعض أصحابنا عن أحمد في ذلك روايتين ولا يصح؛ فإن أحمد إنما نص على كراهة تمني الموت لضرر الدنيا، وعلى جواز تمنيه خشية الفتنة في الدين، وربما أدخل بعضهم في هذا الاختلاف القسم الذي قبله وفي ذلك نظر. واستدل من كرهه بعموم النهي عنه كما في حديث جابر الذي ذكرناه، وفي معناه أحاديث أخر يأتي بعضها ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد علل النهي عن تمني الموت في حديث جابر بعلتين: إحداهما: أن هول المطلع شديد، وهول المطلع: هو ما يكشف للميت عند حضور الموت من الأهوال التي لا عهد له بشيء منها في الدنيا من رؤية الملائكة ورؤية أعماله من خير أو شر، وما يبشر به عند ذلك من الجنة والنار، هذا مع ما يلقاه من شدة الموت وكربه وغصصه. وفي الحديث الصحيح: «إذا حملت الجنازة وكانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق»[1] قال الحسن: لو علم ابن آدم أن له في الموت راحة

---

(١) رواه البخاري (١٣١٤).

وفرحاً لشق عليه أن يأتيه الموت لما يعلم من فظاعته وشدته وهوله، فكيف وهو لا يعلم ما له في الموت نعيم دائم أو عذب مقيم؟! بكى النخعي عند احتضاره فقال: أنتظر ملك الموت لا أدري يبشرني بالجنة أو النار. فالمتمني للموت كأنه يستعجل حلول البلاء، وإنما أمرنا بسؤال العافية، وسمع ابن عمر رجلًا يتمنى الموت فقال: لا تتمنى الموت فإنك ميت، ولكن سل الله العافية. قال إبراهيم بن أدهم: إن للموت كأساً لا يقوى عليها إلا خائف وَجِل مطيع لله كان يتوقعها. وقال أبو العتاهية:

ألا للموت كأس أي كأس ... وأنت لكأسه لا بد حاسي
إلى كم والممات إلى قريب ... تذكر بالممات وأنت ناسي

جزع الحسن بن علي رضي الله عنهما عند موته وقال: إني أريد أن أشرف على ما لم أشرف عليه قط. وبكى الحسن البصري عند موته وقال: نفيسة ضعيفة، وأمر مهول عظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان حبيب العجمي عند موته يبكي ويقول: أريد أن أسافر سفراً ما سافرته قط وأسلك طريقاً ما سلكته قط، وأزور سيدي وما زرته قط، وأشرف على أهوال ما شاهدتها قط. فهذا كله من هول المطلع الذي قطع قلوب الخائفين حتى قال عمر عند موته: لو أن لي ما في الأرض لافتديت به من هول المطلع. ومن هول المطلع ما يكشف للميت عند نزوله قبره من فتنة القبر؛ فإن الموتى يفتنون بالمسألة في قبورهم مثل ـ أو قريباً ـ من فتنة المسيح الدجال، وما يكشف لهم في قبورهم عن منازلهم من الجنة والنار، وما يلقون من ضمة القبر وضيقه وهوله وعذابه إن لم يُعافِ الله من ذلك. ولأبي العتاهية يبكي نفسه:

لأبكين على نفسي وحق ليه ... يا عين لا تبخلي عني بعبرتيه
يا هول مطلعي يا ضيق مضطجعي ... يا نأي منتجعي يا بعد شقتيه

رُئي بعض الصالحين في المنام بعد موته فسئل عن حاله؟ فأنشد:

وليس يعلم ما في القبر داخله ... إلا الإله وساكن الأجداث

كان سفيان ينشد:

إن امرأً يصفو له عيشه لغافل عما تجن القبور
نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نصير

والعلة الثانية: أن المؤمن لا يزيد عمره إلا خيراً فمن سعادته أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة إليه والتوبة من ذنوبه السالفة والاجتهاد في العمل الصالح، فإذا تمنى الموت فقد تمنى انقطاع عمله الصالح فلا ينبغي له ذلك. وروى إبراهيم الحربي من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن ابن المطلب عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ﷻ»[(١)] وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»[(٢)]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»[(٣)]. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إن مات أحدكم انقطع عنه عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»[(٤)]. وفيه عن أم الفضل أن النبي ﷺ سمع العباس وهو يشتكي يتمنى الموت فقال: «لا تتمنَّ الموت فإنك إن كنت محسناً تزداد إحساناً إلى حسناتك، وإن كنت مسيئاً فإن تؤخر تستعتب من إساءتك خير لك»[(٥)] وفيه أيضاً عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ

---

(١) ضعيف. رواه القضاعي في مسند الشهاب (٣١٢) والخطيب في تاريخه (١٦/٦) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٢٤٠٧و٣٠٠٨).
(٢) البخاري (٥٦٧٣).
(٣) مسلم (٢٦٨٢).
(٤) صحيح إلا قوله: «إلا أن يكون قد وثق بعمله» فهي منكرة وأما سائره فثابت وقد سبق تخريج الحديث.
(٥) صحيح. أحمد (٢٦٣٣٣) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٣٦٨).

فذكّرنا ورققنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال: يا ليتني مت، فقال النبي ﷺ: «يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك»[1] وفي المعنى أحاديث أخر كثيرة، وكلها تدل على النهي عن تمني الموت بكل حال، وأن طول عمر المؤمن خير له فإنه يزداد فيه خيراً. وهذا قد قيل: إنه يدخل فيه تمنيه للشوق إلى لقاء الله وفيه نظر؛ فإن النبي ﷺ قد تمناه في تلك الحال. واختلف السالكون أيما أفضل؟ من تمنى الموت شوقاً إلى لقاء الله أو من تمنى الحياة رغبة في طاعة الله، أو من فوض الأمر إلى الله ورضي باختياره له ولم يختر لنفسه شيئاً. واستدل طائفة من الصحابة على تفضيل الموت على الحياة بقول الله ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٨] ولكن الأحاديث الصحيحة تدل على أن عمر المؤمن كلما طال ازداد بذلك ما له عند الله من الخير فلا ينبغي له أن يتمنى انقطاع ذلك، اللهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه فإنه إذا خشي الفتنة على دينه فقد خشي أن يفوته ما عند الله من خير، ويتبدل ذلك بالشر عياذاً بالله من ذلك، والموت خير من الحياة على هذه الحال. قال ميمون بن مهران: لا خير في الحياة إلا لتائب أو رجل يعمل في الدرجات، يعني: أن التائب يمحو بالتوبة ما سلف من السيئات، والعامل يجتهد في علو الدرجات ومن عداهما فهو خاسر كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣] فأقسم الله تعالى أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الأوصاف الأربعة: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على الحق، فهذه السورة ميزان للأعمال يزن المؤمن بها نفسه فيتبين له بها ربحه من خسرانه؛ ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم. رأى بعض المتقدمين النبي ﷺ في منامه فقال له: أوصني؟ فقال له: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون، ومن لم يتفقد الزيادة في عمله فهو في نقصان،

---

(١) ضعيف. أحمد (٢١٧٩٠) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٦١٤).

ومن كان في نقصان فالموت خير له. قال بعضهم: كان الصديقون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس، يشير إلى أنهم كانوا لا يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه خسراناً.

أليس من الخسران أن لياليا ... تمر بلا نفع وتحسب من عمري

فالمؤمن القائم بشروط الإيمان لا يزداد بطول عمره إلا خيراً، ومن كان كذلك فالحياة خير له من الموت، وفي دعاء النبي ﷺ: «اللهم اجعل الحياة زيادة لي في كل خير، والموت راحة لي من كل شر»[1] خرجه مسلم. وفي الترمذي عنه ﷺ أنه سئل: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» قيل: فأي الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله»[2] وفي المسند وغيره: أن نفراً ثلاثة قدموا على النبي ﷺ فأسلموا، فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثاً، فخرج فيه أحدهم فاستشهد، ثم بعث بعثاً آخر فخرج آخر منهم فاستشهد، ثم مات الثالث على فراشه قال طلحة: فرأيتهم في الجنة، ورأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استشهد آخراً يليه ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «وما أنكرت من ذلك؟! ليس أفضل عند الله ﷻ من مؤمن يعمر في الإسلام لتسبيحه وتكبيره وتهليله» وفي رواية قال: «أليس قد مكث هذا بعده سنة؟» قالوا: بلى، قال: «وأدرك رمضان فصامه؟» قالوا: بلى، قال: «وصلى كذا وكذا سجدة في السنة؟» قالوا: بلى، قال: «فلما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض»[3]. قيل لبعض السلف: طاب الموت. قال: لا تفعل؛ لساعة تعيش فيها تستغفر الله ﷻ خير لك من موت الدهر. وقيل لشيخ كبير منهم: تحب الموت؟ قال: لا. قيل: ولم؟ قال: ذهب الشباب وشره وجاء الكبر وخيره، فإذا قمت قلت: بسم الله، وإذا قعدت

---

(١) مسلم (٢٧٢٠).

(٢) صحيح لغيره. الترمذي (٢٣٣٠) وصححه شيخنا لشواهده في صحيح الترغيب (٣٣٦٣).

(٣) صحيح. سبق تخريجه.

قلت: الحمد لله فأنا أحب أن يبقى لي هذا. وقيل لشيخ آخر منهم: ما بقي مما تحب له الحياة؟ قال: البكاء على الذنوب. ولهذا كان السلف الصالح يتأسفون عند موتهم على انقطاع أعمالهم عنهم بالموت. وبكى معاذ عند موته وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. وبكى عبدالرحمٰن بن الأسود عند موته وقال: وا أسفاه! على الصوم والصلاة، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات. وبكى يزيد الرقاشي عند موته وقال: أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار ثم بكى وقال: من يصلي لك يا يزيد بعدك، ومن يصوم ومن يتقرب لك بالأعمال الصالحة، ومن يتوب لك من الذنوب السالفة. وجزع بعضهم عند موته وقال: إنما أبكي على أن يصوم الصائمون لله ولست فيهم ويصلي المصلون ولست فيهم ويذكر الذاكرون ولست فيهم فذلك الذي أبكاني.

**تحمل أصحابي ولم يجدوا وجدي ... وللناس أشجان ولي شجن وحدي**
**أحبكم ما دمت حياً فإن أمت ... فوا أسفي ممن يحبكم بعدي**

في الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما من ميت مات إلا ندم؛ إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون استعتب»[١].

إذا كان المحسن يندم على ترك الزيادة فكيف يكون حال المسيء؟ رأى بعض المتقدمين في المنام قائلًا يقول له: قل:

**يا خَدُّ إنك إن توسد ليناً ... وسدت بعد الموت صم الجندل**
**فاعمل لنفسك في حياتك صالحاً ... فلتندمن غداً إذا لم تفعل**

ورأى آخر في المنام قائلًا يقول له:

**إن كنت لا ترتاب أنك ميت ... ولست لبعد الموت ما أنت تعمل**

(١) ضعيف جداً. الترمذي (٢٤٠٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (١٩٦٠).

فعمرك ما يغني وأنت مفرط ... واسمك في الموتى معد محصل

ورُئي بعض الموتى في المنام فقال: ما عندنا أكثر من الندامة، ولا عندكم أكثر من الغفلة. وجد على قبر مكتوب:

ندمت على ما كان مني ندامة ... ومن يتبع ما تشتهي النفس يندم
ألم تعلموا أن الحساب أمامكم ... وأن وراءكم طالباً ليس يسأم
فخافوا لكيما تأمنوا بعد موتكم ... ستلقون رباً عادلاً ليس يظلم
فليس لمغرور بدنياه راحة ... سيندم إن زلت به النعل فاعلموا

الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسبيحة أو بركعة. ومهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك فلا يقدرون على ذلك قد حيل بينهم وبين العمل وغلقت منهم الرهون.

رُئي بعضهم في المنام فقال: قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان، أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدنا أحب إليه من الدنيا وما فيها. قال بعض السلف: كل يوم يعيش فيه المؤمن غنيمة. وقال بعضهم: بقية عمر المؤمن لا قيمة له، يعني: أنه يمكنه أن يمحو فيه ما سلف منه من الذنوب بالتوبة، وأن يجتهد فيه في بلوغ الدرجات العالية بالعمل الصالح، فأما من فرط في بقية عمره فإنه خاسر، فإن ازداد فيه من الذنوب فذلك هو الخسران المبين.

الأعمال بالخواتيم، من أصلح فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما بقي وبما مضى.

يا بائع عمره مطيعاً أمله ... في معصية الله كفعل الجهله
إن ساومك الجهل باقيه فقل ... باقي عمر المؤمن لا قيمة له

ما مضى من العمر وإن طالت أوقاته فقد ذهبت لذاته وبقيت تبعاته، وكأنه لم يكن إذا جاء الموت وميقاته. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧] تلا بعض السلف هذه الآية وبكى وقال: إذا جاء

الموت لم يغن عن المرء ما كان فيه من اللذة والنعيم. وفي هذا المعنى ما أنشده أبو العتاهية للرشيد حين بنى قصره واستدعى إليه ندماءه:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى من بلغه ستين من عمره»[١] وفي الترمذي: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك»[٢] وفي رواية: «حصاد أمتي»[٣]. من بلغ الخمسين؛ فقد تنصف المائة فماذا ينتظر؟!.

لهفي على خمسين عاماً قد مضت ... كانت أمامي ثم خلفتها
لو كان عمر مائة هدني ... تذكري أني تَنَصَّفْتُها

في بعض الكتب السالفة: إن لله منادياً ينادي كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده، أبناء الستين هلموا إلى الحساب، أبناء السبعين ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الثمانين لا عذر لكم، ليت الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا له، وتجالسوا بينهم فتذاكروا ما عملوا، ألا أتتكم الساعة فخذوا حذركم، وقال وهب: إن لله منادياً ينادي في السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين زرع دنا حصاده، أبناء الخمسين ماذا قدمتم وما أخرتم؟ أبناء الستين لا عذر لكم. وفي حديث: «إن الله يقول للحفظة: ارفقوا بالعبد ما دام في حداثةٍ، فإذا بلغ الأربعين حققا وتحفظا»[٤] فكان بعض رواته يبكي عند روايته ويقول: حين كبرت السن ورق العظم وقع

(١) البخاري (٦٤١٩).
(٢) صحيح لغيره. الترمذي (٢٣٣١) وصححه شيخنا في الصحيحة (٧٥٧).
(٣) ضعيف. وقد سبق تخريجه.
(٤) لم أقف عليه.

التحفظ. قال مسروق: إذا أتتك الأربعون فخذ حذرك. وقال النخعي: كان يقال لصاحب الأربعين احتفظ بنفسك. وكان كثير من السلف إذا بلغ الأربعين تفرغ للعبادة، وقال عمر بن عبدالعزيز: تمت حجة الله على ابن الأربعين فمات لها. ورأى في منامه قائلًا يقول له:

إذا ما أتتك الأربعون فعندها فاخش الإله وكن للموت حذارا

يا أبناء العشرين كم مات من أقرانكم وتخلفتم، يا أبناء الثلاثين أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم، يا أبناء الأربعين ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم، يا أبناء الخمسين قد تنصفتم المائة وما أنصفتم، يا أبناء الستين أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم، أتلهون وتلعبون لقد أسرفتم.

وإذا تكامل للفتى من عمره خمسون وهو إلى التقى لا يجنح
عكفت عليه المخزيات فما له متأخر عنها ولا متزحزح
وإذا رأى الشيطان غرة وجهه حيًا وقال فديت من لا يفلح

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تصل.

وإن امرأ قد سار ستين حجة إلى منهل من ورده لقريب

يا من يفرح بكثرة مرور السنين عليه إنما تفرح بنقص عمرك. قال أبو الدرداء والحسن: إنما أنت أيام كلما مضى منك يوم مضى بعضك.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى يدني من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل

قال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟ كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله وحياته إلى موته؟.

نجد سروراً بالهلال إذا بدا وما هو إلا السيف للحتف ينتضى

إذا قيل: تم الشهر فهو كناية وترجمة عن شطر عمر قد انقضى

قال الحسن: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

نسير إلى الآجال في كل لحظة وأعمارنا تطوى وهن مراحل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى فعمرك أيام وهن قلائل

قال بعض الحكماء: من كانت الليالي والأيام مطاياه سارت به، وإن لم يسر.

وما هذه الأيام إلا مراحل يحث بها حاد إلى الموت قاصد
وأعجب شيء لو تأملت أنها منازل تطوى والمسافر قاعد

قال بعض الحكماء: قد اعتورك الليل والنهار، يدفعك الليل إلى النهار، ويدفعك النهار إلى الليل حتى يأتيك الموت:

أيا ويح نفسي من نهار يقودها إلى عسكر الموتى وليل يذودها

يا من كلما طال عمره زاد ذنبه، يا من كلما ابيض شعره بمرور الأيام اسود بالآثام قلبه.

شيخ كبير له ذنوب تعجز عن حملها المطايا
قد بيضت شعره الليالي وسودت قلبه الخطايا

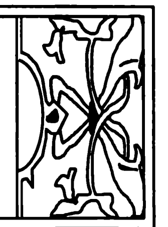
يا من تمر عليه سنة بعد سنة وهو مستثقل في نوم الغفلة والسِنة، يا من يأتي عليه عام بعد عام وقد غرق في بحر الخطايا فعام، يا من يشاهد الآيات والعبر كلما توالت عليه الأعوام والشهور، ويسمع الآيات والسور ولا ينتفع بما يسمع، ولا بما يرى من عظائم الأمور، ما الحيلة فيمن سبق عليه الشقاء في الكتاب المسطور؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠].

خليليَّ كم من ميت قد حضرته ولكنني لم أنتفع بحضوري
وكم من ليالي قد أرتني عجائباً لهن وأيام خلت وشهور

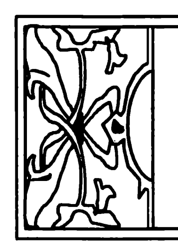
وكم من سنين قد طوتني كثيرة وكم من أمور قد جرت وأمور

ومن لم يزده السن ما عاش عبرة فذاك الذي لا يستنير بنور

❋ ❋ ❋



# فصل
# ويلتحق بوظائف شهور السنة الهلالية
# وظائف فصول السنة الشمسية



**وفيه ثلاثة مجالس:**

## المجلس الأول
## في ذكر فصل الربيع

خرجا في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض» قيل: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا». فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى ظننت أنه سينزل عليه ثم جعل يمسح عن جبينه قال: «أين السائل؟» قال: أنا، قال: «لا يأتي الخير إلا بالخير؛ إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس، فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال خضرة حلوة، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[١].

(١) البخاري (١٤٦٥) ومسلم (١٠٥٢).

كان النبي ﷺ يتخوف على أمته من فتح الدنيا عليهم فيخاف عليهم الافتتان بها. ففي الصحيحين عن عمرو بن عوف أن النبي ﷺ قال للأنصار لما جاءه مال من البحرين: «أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم ما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(١). وكان آخر خطبة خطبها على المنبر حذر من زهرة الدنيا. ففي الصحيحين عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: «إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم» قال عقبة: فكان آخر ما رأيت من رسول الله ﷺ على المنبر(٢). وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو(٣) أن النبي ﷺ قال: «إذا افتتحت عليكم خزائن فارس والروم، أي قوم أنتم؟» فقال عبدالرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؛ تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون»(٤). وفي المسند عن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» قال عمر: وأنا أشفق من ذلك(٥). وفيه أيضاً عن أبي ذر: أن أعرابياً قال: يا رسول الله أكلتنا الضبع يعني: السَّنَة والجدب، فقال النبي ﷺ: «غير ذلك أخوف مني عليكم حين تصب عليكم الدنيا صباً، فليت أمتي لا يلبسون الذهب»(٦) وفي رواية: «الديباج». وفيه أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما أخشى عليكم الفقر ولكني أخشى عليكم التكاثر»(٧). ويروى من حديث عوف بن مالك وأبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «آلفقر

---

(١) البخاري (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١).

(٢) البخاري (٤٠٤٢) ومسلم (٢٢٩٦) واللفظ له.

(٣) في الأصل: «عمر».

(٤) مسلم (٢٩٦٢).

(٥) ضعيف. أحمد (٩٤) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٨٧١).

(٦) ضعيف. أحمد (٢٠٨٤٦) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤١٥٤).

(٧) صحيح. أحمد (٨٠١٣) وصححه شيخنا في الصحيحة (٢٢١٦).

تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغ قلب أحدكم إن أزاغه إلا هي»(١) وفي رواية عوف: «فإن الله فاتح عليكم فارس والروم»(٢). وفي المعنى أحاديث أخر، وفي الترمذي أنه ﷺ قال: «لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال»(٣). فقوله ﷺ في حديث أبي سعيد: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض»(٤) ثم فسره بزهرة الدنيا ومراده: ما يفتح على أمته منها من ملك فارس والروم وغيرهم من الكفار الذين ورثت هذه الأمة ديارهم وأموالهم وأراضيهم التي تخرج منها زروعهم وثمارهم وأنهارهم ومعادنهم، وغير ذلك مما يخرج من بركات الأرض، وهذا من أعظم المعجزات؛ وهو إخباره ﷺ بظهور أمته على كنوز فارس والروم وأموالهم وديارهم، ووقع ما أخبر به ولكنه لما سمى ذلك ببركات الأرض وأخبر أنه أخوف ما يخاف عليهم أشكل ذلك على بعض من سمعه حيث سماه بركة ثم خاف منه أشد الخوف؛ فإن البركة إنما هي خير ورحمة، وقد سمى الله تعالى المال خيراً في مواضع كثيرة من القرآن فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨]، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] وقال عن سليمان: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ [ص: ٣٢] فلما سأله السائل: هل يأتي الخير بالشر؟ صمت النبي ﷺ حتى ظنوا أنه أوحي إليه، والظاهر أن الأمر كان كذلك، ويدل عليه أنه ورد في رواية لمسلم في هذا الحديث: فأفاق يمسح عنه الرحضاء ـ وهو العرق ـ(٥). وكان النبي ﷺ إذا أوحي إليه يتحدر منه مثل الجمان من العرق من شدة الوحي وثقله عليه(٦). وفي هذا دليل على أنه

(١) صحيح لغيره. حديث أبي الدرداء رواه ابن ماجه (٥) وحديث عوف رواه أحمد (٢٣٤٦٢) وحسن شيخنا حديث أبي الدرداء وجود إسناد حديث عوف كما في الصحيحة (٦٨٨).
(٢) صحيح لغيره. انظر المصدر السابق.
(٣) صحيح. الترمذي (٢٣٣٦) وصححه شيخنا في الصحيحة (٥٩٢).
(٤) صحيح. تقدم.
(٥) مسلم (١٠٥٢).
(٦) البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).

كان ﷺ إذا سئل عن شيء لم يكن أوحي إليه فيه شيء انتظر الوحي فيه، ولم يتكلم فيه بشيء حتى يوحى إليه فيه، فلما نزل عليه جواب ما سئل عنه قال: أين السائل؟ قال: ها أنا فقال النبي ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير»[١] وفي رواية لمسلم: فقال: «أوخير هو؟» وفي ذلك دليل على: أن المال ليس بخير على الإطلاق بل منه خير ومنه شر، ثم ضرب مثل المال ومثل من يأخذه بحقه ويصرفه في حقه، ومن يأخذه من غير حقه ويصرفه في غير حقه. فالمال في حق الأول خير وفي حق الثاني شر، فتبين بهذا أن المال ليس بخير مطلق بل هو خير مقيد. فإن استعان به المؤمن على ما ينفعه في آخرته كان خيراً له وإلا كان شراً له، فأما المال فقال: «إنه خضرة حلوة»[٢] وقد وصف المال والدنيا بهذا الوصف في أحاديث كثيرة: ففي الصحيحين عن حكيم بن حزام أنه سأل النبي ﷺ فأعطاه، ثم سأله فأعطاه. فقال له النبي ﷺ: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع»[٣] وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[٤].

واستخلافهم فيها هو ما أورثهم الله منها مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارس والروم وحذرهم من فتنة الدنيا وفتنة النساء خصوصاً، فإن النساء أول ما ذكره الله من شهوات الدنيا ومتاعها في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عِمـرَان: ١٤]. وفي المسند والترمذي عن خولة بنت قيس عن النبي ﷺ قال: «إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه بورك له فيه، ورب متخوض فيما شاءت نفسه

(١) صحيح. تقدم.
(٢) صحيح. تقدم.
(٣) البخاري (١٤٧٢) ومسلم (١٠٣٥).
(٤) مسلم (٢٧٤٢).

من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار»[١]. وفي المسند أيضاً عن خولة بنت ثامر الأنصارية عن النبي ﷺ قال: «إن هذه الدنيا خضرة حلوة، وإن رجالًا يتخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة»[٢]. وخرج البخاري من قوله: «إن رجالًا» إلى آخره[٣]. وفي المسند أيضاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن هذه الدنيا خضرة حلوة؛ فمن آتيناه منها شيئاً بطيب نفس أو طيب طعمة ولا إسراف بورك له فيه، ومن آتيناه منها شيئاً بغير طيب نفس منا وغير طعمة وإسراف منه لم يبارك له فيه»[٤]. وفي المعنى أحاديث أخر.

وقوله ﷺ: «إن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا أكلة الخضر» مَثَلٌ آخر ضربه ﷺ لزهرة الدنيا وبهجة منظرها وطيب نعيمها وحلاوته في النفوس، فمثله كمثل نبات الربيع وهو المرعى الخضر الذي ينبت في زمان الربيع فإنه يعجب الدواب التي ترعى فيه وتستطيبه وتكثر الأكل منه أكثر من قدر حاجتها لاستحلائها له. فإما أن يقتلها فتهلك وتموت حبطاً. والحبط: انتفاخ البطن من كثرة الأكل أو يقارب قتلها، ويلم به فتمرض منه مرضاً مخوفاً مقارباً للموت. فهذا مثل من يأخذ من الدنيا بشره وجوع نفس من حيث لاحت له لا بقليل يقنع ولا بكثير يشبع، ولا يحلل ولا يحرم بل الحلال ما حل بيده وقدر عليه، والحرام عنده ما منع منه وعجز عنه، فهذا هو المتخوض في مال الله ورسوله فيما شاءت نفسه وليس له إلا النار يوم القيامة كما في حديث خولة المتقدم. والمراد بمال الله ومال رسوله: الأموال التي يجب على ولاة الأمور حفظها وصرفها في طاعة الله ورسوله من أموال الفيء والغنائم، ويتبع ذلك الخراج والجزية وكذلك أموال الصدقات التي تصرف للفقراء والمساكين كمال الزكاة والوقف ونحو ذلك. وفي هذا تنبيه على أن من تخوض من الدنيا في الأموال المحرم أكلها كمال الربا ومال الأيتام الذي من أكله أكل ناراً، والمغصوب والسرقة والغش في

(١) صحيح. أحمد (٢٦٥٨٣) والترمذي (٢٣٧٤) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٥٩٢).
(٢) صحيح. أحمد (٢٦٧٧٣).
(٣) البخاري (٣١١٨).
(٤) صحيح لغيره. أحمد (٢٣٧٧٣) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٨٣٩).

البيوع، والخداع والمكر وجحد الأمانات، والدعاوى الباطلة ونحوها من الحيل المحرمة، أولى أن يتخوض صاحبها في نار جهنم غداً، فكل هذه الأموال وما أشبهها يتوسع بها أهلها في الدنيا ويتلذذون بها ويتوصلون بها إلى لذات الدنيا وشهواتها، ثم ينقلب ذلك بعد موتهم، فيصير جمراً من جمر جهنم في بطونهم فما تفي لذتها بتبعتها كما قيل:

تفنى اللذاذة ممن نال لذاتها      من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء من مغبتها      لا خير في لذة من بعدها النار

فلهذا شبه النبي ﷺ من يأخذها بغير حقها ويضعها في غير حقها بالبهائم الراعية من خضراء الربيع حتى تنتفخ بطونها من أكله، فإما أن يقتلها وإما أن يقارب قتلها، فكذلك من أخذ الدنيا من غير حقها ووضعها في غير حقها؛ إما أن يقتله ذلك فيموت به قلبه ودينه، وهو من مات على ذلك من غير توبة منه وإصلاح حال فيستحق النار بعمله. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمَّد: ١٢] وهذا هو الميت حقيقة فإن الميت من مات قلبه كما قيل:

ليس من مات فاستراح بميت      إنما الميت ميت الأحياء

وإما أن يقارب موته ثم يعافى وهو من أفاق من هذه السكرة وتاب وأصلح عمله قبل موته. وقد قال علي رضي الله عنه في كلامه المشهور في أقسام جملة العلم: أو منهوم باللذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الأموال والادخار وليس من رعاة الدين، أقرب شبهاً بهم الأنعام السارحة، وفي الأبيات السائرة المشهورة التي كان ينشدها عمر بن عبدالعزيز كثيراً:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة      وليلك نوم والردى لك لازم
وتتعب فيما سوف تكره غِبّه      كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وأما استثناؤه ﷺ من ذلك: «آكلة الخضر» فمراده بذلك مثل المقتصد الذي يأخذ من الدنيا بحقها مقدار حاجته فإذا فقد واحتاج عاد إلى الأخذ منها قدر الحاجة بحقه، وآكلة الخضر: دويبة تأكل من الخضر بقدر حاجتها

إذا احتاجت إلى الأكل، ثم تصرفه عنها فتستقبل عين الشمس فتصرف بذلك ما في بطنها وتخرج منه ما يؤذيها من الفضلات. وقد قيل: إن الخضر ليس من نبات الربيع عند العرب إنما هو من كلاء الصيف بعد يبس العشب وهيجه واصفراره، والماشية من الإبل لا تستكثر منه بل تأخذ منه قليلًا قليلًا ولا تحبط بطونها منه، فهذا مثل المؤمن المقتصد من الدنيا يأخذ من حلالها ـ وهو قليل بالنسبة إلى حرامها ـ قدر بلغته وحاجته، ويجتزئ من متاعها بأدونه وأخشنه، ولا يعود إلى الأخذ منها إلا إذا نفد ما عنده وخرجت فضلاته فلا يوجب له هذا الأخذ ضرراً ولا مرضاً ولا هلاكاً بل يكون ذلك بلاغاً له، ويتبلغ به مدة حياته ويعينه على التزود لآخرته وفي هذا إشارة إلى مدح من أخذ من حلال الدنيا بقدر بلغته وقنع بذلك، كما قال النبي ﷺ: «قد أفلح من هداه الله إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً فقنع به»[(١)] وقال ﷺ: «خير الرزق ما يكفي»[(٢)] وقال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[(٣)].

خذ من الرزق ما كفى ... ومن العيش ما صفا
كل هذا سينقضي ... كسراج إذا انطفا

ثم قال ﷺ: «إن هذا المال خضرة حلوة» فأعاده مرة ثانية تحذيراً من الاغترار به، فخضرته بهجة منظرة، وحلاوته طيب طعمه؛ فلذلك تشتهيه النفوس وتسارع إلى طلبه ولكن لو فكرت في عواقبه لهربت منه. الدنيا في الحال حلوة خضره، وفي المآل مرة كدرة، نعمت المرضعة وبئست الفاطمة.

إنما الدنيا نهار ... ضوءه ضوء معار
بينما عيشك غض ... ناعم فيه اخضرار
إذ رماه زمناه ... فإذا فيه اصفرار

---

(١) صحيح. الترمذي (٢٣٤٩) وأصله في مسلم (١٠٥٤) والحديث صححه شيخنا في الصحيحة (١٥٠٦).

(٢) حسن لغيره. أحمد (١٤٨٠) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٨٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥).

وكــذلــك الــلــيــل يــأتــي ثــم يــمــحــوه الــنــهــار

مثل حرام الدنيا كشجرة الدفلى تعجب من رآها، وتقتل من أكلها.

ترى الدنيا وزهرتها فتصبوا وما يخلو من الشهوات قلب
فضول العيش أكثره هموم وأكثر ما يضرك ما تحب
إذا اتفق القليل وفيه سلم فلا ترد الكثير وفيه حرب

الذي بَشّر أمته بفتح الدنيا حذرهم من الاغترار بزهرتها، وخوّفهم من خضرتها وحلاوتها، وأخبرهم بخرابها وفنائها، وأن بين أيديهم داراً لا تنقطع خضرتها وحلاوتها، فمن وقف مع زهرة هذه العاجلة انقطع وهلك، ومن لم يقف معها وسار إلى تلك وصل ونجا. وفي المسند عن ابن عباس: أن النبي ﷺ: «أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر: اضرب له مثلًا فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أتتبعوني؟ قالوا: نعم. قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبةً وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه»[(١)]. وقد خرجه ابن أبي الدنيا وغيره عن الحسن مرسلًا بسياق أبسط من هذا وفيه: أنهم لما رتعوا وسمنوا وأعجبهم المنزل صاح بهم فقال: «ارتحلوا فإن هذه الروضة ذاهبة، وإن هذا الماء غائر ذاهب، وإن أمامكم روضة أعشب من هذه، وماء أروى من هذا الماء، فكره ذلك عامة الناس وقالوا: ما نريد بهذه بدلًا وهم أكثر الناس، وقال آخرون: والله إن آخر

(١) ضعيف. أحمد (٢٣٩٨) وضعفه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/٢٥٧).

قوله كأوله ارتحلوا، فأبوا، فارتحل قوم فنجوا، ولم يشعر الذين أقاموا حتى طرقهم العدو ليلًا فأصبحوا بين قتيل وأسير»[(١)].

الدنيا: خضراء الدمن، ومعنى ذلك أن خضرتها نابتة على مزبلة منتنة.

يا دني الهمة قنعت بروضة على مزبلة، والملك يدعوك إلى فردوسه الأعلى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨] أرضيتم بخرابات البلى من الفردوس يا لها صفقة غبن! ما أخسرها! أتقنع بخسائس الحشائش والرياض معشبة بين يديك.

فإن حننت للحمى وروضه فبالغضى ماء وروضات أخر

وقوله ﷺ: «من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع» تقسيم لمن يأخذ المال على قسمين:

فأحدهما: يشبه حال آكلة الخضر وهو من أخذه بحقه ووضعه في حقه، وذكر ﷺ أنه نعم المعونة هو، فإنه نعم العون لمن هذه صفته على الآخرة كما في حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[(٢)] وهو الذي يأخذه بحقه ويضعه في حقه، فهذا يوصله ماله إلى الله تعالى، فمن أخذ من المال بحقه ما يقويه على طاعة الله ويستعين به عليها كان أخذه طاعة ونفقته طاعة. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى فيّ امرأتك»[(٣)]. وفي حديث آخر: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت أهلك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[(٤)] فما أخذ من الدنيا بنية

---

(١) ضعيف.

(٢) صحيح. تقدم.

(٣) رواه البخاري (١٢٩٦) ومسلم (١٦٢٨).

(٤) صحيح. أحمد (١٦٧٢٧) وصححه شيخنا في الصحيحة (٤٥٢).

التقوي به على طلب الآخرة فهو داخل في قسم إرادة الآخرة والسعي لها، لا في إرادة الدنيا والسعي لها. قال الحسن: ليس من حب الدنيا طلبك ما يصلحك فيها، ومن زهدك فيها ترك الحاجة يسدها عنك تركها. ومن أحب الدنيا وسرّته ذهب خوف الآخرة من قلبه. وقال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس متاع الغرور ولكنه بلاغ إلى ما هو خير منه. وقال بعض العارفين: كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس من الدنيا. وقال أبو سليمان: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه لأوليائه، فسبحان من جعل شيئاً واحداً سبباً للاتصال به والانقطاع عنه.

والقسم الثاني: يشبه حاله حال البهائم التي ترعى مما ينبت الربيع فيقتلها حبطاً أو يلم؛ وهو من يأخذ المال بغير حقه؛ فيأخذه من الوجوه المحرمة، فلا يقنع منه بقليل ولا بكثير، ولا يشبع نفسه منه، ولهذا قال: «وكان كالذي يأكل ولا يشبع» وكان النبي ﷺ يتعوذ من نفس لا تشبع[1]. وحديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»[2] فمن كان فقره بين عينيه لم يزل خائفاً من الفقر لا يستغني قلبه بشيء ولا يشبع من الدنيا؛ فإن الغنى غنى القلب والفقر فقر النفس. وفي حديث خرجه الطبراني مرفوعاً: «الغنى في القلب، والفقر في القلب[3] ومن كان الغنى في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له منها وإنما يضر نفسه»[4]. وعن عيسى عليه السلام قال: مثل طالب الدنيا كشارب البحر كلما ازداد شرباً منه زاد عطشاً حتى يقتله. قال يحيى بن معاذ: من كان غناه في قلبه لم يزل غنياً، ومن كان غناه في كسبه لم يزل فقيراً.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) صحيح. رواه ابن ماجه (٤١٠٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (٩٥٠).

(٣) هذا الجزء من الحديث ثابت فقد رواه ابن حبان (٦٨٥) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٨٢٧).

(٤) ضعيف. الطبراني في الكبير (١٥٤/٢) وإسناده ضعيف.

ومن قصد المخلوقين لحوائجه لم يزل محروماً. ويشهد لذلك كله الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[١].

لو فكر الطامع في عاقبة الدنيا، لقنع، ولو تذكر الجائع إلى فضول مآلها لشبع.

هب أنك قد ملكت الأرض طراً ... ودان لك العباد فكان ماذا
أليس مصير روحك[٢] جوف قبر ... ويحثي الترب هذا ثم هذا

وقد ضرب الله في كتابه مثل الدنيا وخضرتها ونضرتها وبهجتها وسرعة تقلبها وزوالها وجعل مثلها كمثل نبات الأرض النابت من مطر السماء في تقلب أحواله ومآله، قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزُّمَر: ٢١].

فالدنيا وجميع ما فيها من الخضرة والبهجة والنضرة تتقلّب أحواله

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٨).
(٢) في هامش الأصل: «في نسخة: جسمك».

وتتبدل ثم تصير حطاماً يابساً، وقد عدد سبحانه زينة الدنيا ومتاعها المبهج في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤] إلى آخر الآية. وهذا كله يصير تراباً ما خلا الذهب والفضة ولا ينتفع بأعيانهما بل هما قيم الأشياء فلا ينتفع صاحبهما بإمساكهما وإنما ينتفع بإنفاقهما ولهذا قال الحسن: بئس الرفيق الدرهم والدينار لا ينفعانك حتى يفارقانك. وأجسام بني آدم، بل وسائر الحيوانات كنبات الأرض تنقلب من حال إلى حال ثم تجف وتصير تراباً قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وما المرء إلا كالنبات وزهره يعود رفاتاً بعد ما هو ساطع

فينتقل ابن آدم من الشباب إلى الهرم، ومن الصحة إلى السقم، ومن الوجود إلى العدم، كما قيل:

وما حالاتنا إلا ثلاث شباب ثم شيب ثم موت
وآخر ما يسمى المرء شيخاً ويتلوه من الأسماء ميت

مدة الشباب قصيرة كمدة زهر الربيع وبهجته ونضارته، فإذا يبس وابيض فقد آن ارتحاله، كما أن الزرع إذا ابيض فقد آن حصاده، وأجل زهور الربيع الورد، ومتى كثر فيه البياض فقد قرب زمان انتقاله.

قال وهيب بن الورد: إن لله ملكاً ينادي في السماء كل يوم: أبناء الخمسين زرع دنا حصاده. وفي حديث مرفوع: «إن لكل شيء حصاداً وحصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين»[1].

قد بلغ الزرع منتهاه لا بد للزرع من حصاد

وقد يدرك الزرع آفة قبل بلوغ حصاده؛ فيهلك كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] الآية قال ميمون بن مهران لجلسائه: يا معشر الشيوخ ما ينتظر بالزرع إذا ابيض؟ قالوا: الحصاد،

(١) ضعيف. وسبق تخريجه.

فنظر إلى الشباب فقال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد. وقال بعضهم: أكثر من يموت الشباب، وآية ذلك أن الشيوخ في الناس قليل.

أيا ابن آدم لا تغررك عافية ... عليك صافية فالعمر معدود
ما أنت إلا كزرع عند خضرته ... بكل شيء من الآفات مقصود
فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند كمال الأمر محصود

كل ما في الدنيا فهو مذكر بالآخرة، ودليل عليه، فنبات الأرض واخضرارها في الربيع بعد قحولتها ويبسها في الشتاء، وإيناع الأشجار وزهوها بعد كونها خشباً يابساً يدل على بعث الموتى من الأرض وقد ذكر الله تعالى ذلك، وذلك في كتابه في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥ ـ ٧] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧].

قال أبو رزين للنبي ﷺ: كيف يحي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «هل مررت بواد أهلك محلًا، ثم مررت به يهتز خضراً؟» قال: نعم، قال: «كذلك يخرج الموتى وذلك آيته في خلقه»[١] خرجه الإمام أحمد.

وقِصَر مدة الزرع والثمار وعود الأرض بعد ذلك إلى يبسها والشجر إلى حالها الأول كعود ابن آدم بعد كونه حياً إلى التراب الذي خلق منه.

---

(١) ضعيف. أحمد (١٥٧٥٩) ضعفه شيخنا في تعليقه على المشكاة (٥٥٣١) وحسنه في صحيح الجامع ثم مال إلى تضعيفه رحمه الله.

وفصول السنة تذكر بالآخرة؛ فشدة حر الصيف يذكر بحرِّ جهنم وهو من سمومها، وشدة برد الشتاء يذكر بزمهرير جهنم وهو من زمهريرها، والخريف يكمل فيه اجتناء الثمرات التي تبقى وتدخر في البيوت فهو منبه على اجتناء ثمرات الأعمال في الآخرة. وأما الربيع فهو أطيب فصول السنة وهو يذكر بنعيم الجنة وطيب عيشها فينبغي أن يحث المؤمن على الاستعداد لطلب الجنة بالأعمال الصالحة. كان بعض السلف يخرج في أيام الرياحين والفواكه إلى السوق فيقف وينظر ويعتبر ويسأل الله الجنة. ومر سعيد بن جبير بشباب من أبناء الملوك جلوس في مجالسهم في زينتهم فسلموا عليه فلما بعد عنهم بكى واشتد بكاؤه وقال: ذكرني هؤلاء بشباب أهل الجنة. وتزوج صلة بن أشيم بمعاذة العدوية وكانا من كبار الصالحين، فأدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله على زوجته في بيت مطيب منجد، فقاما يصليان إلى الصباح، فسأله ابن أخيه عن حاله فقال: أدخلتني بالأمس بيتاً أذكرتني به النار ـ يعني: الحمام ـ وأدخلتني الليلة بيتاً أذكرتني به الجنة، فلم يزل فكري في الجنة والنار إلى الصباح. دعا عبدالواحد بن زيد إخوانه إلى طعام صنعه لهم فقام على رؤوسهم عتبة الغلام يخدمهم وهو صائم وهم يأكلون، فجعلت عيناه تهملان فسأله عبدالواحد بعد عن سبب بكائه؟ فقال: ذكرت موائد أهل الجنة إذا أكلوا وقام الولدان على رؤوسهم. إنما خلقت[1] الدنيا مرآة لننظر بها إلى الآخرة، لا لننظر إليها ونوقف معها.

| | |
|---|---|
| كفى حزناً أن لا أعاين بقعة | من الأرض إلا ازددت شوقاً إليكم |
| وإني متى ما طاب لي خفض عيشة | تذكرت أياماً مضت لي لديكم |

تدقيق النظر والفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه وكمال قدرته ورحمته، فتزداد القلوب هيماناً في محبته وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ

---

(١) في نسخة: «جعلت» كما في هامش الأصل.

دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ [الأنعام: ٩٩].

زمان الربيع كله واعظ يذكر بعظمة موجده وكمال قدرته ويشوق إلى طيب مجاورته في دار كرامته كما قال ابن سمعون في وصف الربيع: أرضه حرير، وأنفاسه عبير، وأوقاته كلها وعظ وتذكير. وقال غيره: الأرض فيه زمردة، والأشجار حُلَلٌ، والهواء مسك، والنسيم عنبر، والماء راح، والطير قيان، والكل دال على كمال الصانع، شاهدٌ له بالوحدانية.

أنشد بعضهم في وصف زمان الربيع:

يا قومنا فاح الربيع ... ولاح للأحباب نجد
الزهر مسك والريا ... ض أريضة والماء جعد
والظل منثور وفي ... جيد الشقائق منه عقد
هذا النسيم معنبر ... وضباب هذا النوء ند
والغصن يرقص والغدير ... ر مصفق والورق تشدو
والجو بعض منه يا ... قوت وبعض لا زورد
والكل يشهد أن صا ... نعه قدير وهو فرد

وأنشد آخر:

الطل في سلك الغصون كلؤلؤ ... رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة ... والريح يكتب والغمام ينقط

رُئي بعض الشعراء المتقدمين في المنام بعد موته فسئل عن حاله؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس وهي:

تفكر في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناظرات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

سبحان من سبحت المخلوقات بحمده فملأ الأكوان تحميده،

وأفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته فوضح توحيده، يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، ويمجده رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيطرب السامع تمجيده، كلما درّس الهزار درس شكره فالبلبل بالحمد معيده، وكلما أقام خطيب الحمام النوح على الدوح هيج المستهام نوحه وتغريده: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العَنكبوت: ١٩]. عجباً للمتقلب بين مشاهدة حكمه وتناول نعمه، ثم لا يشكر نعمه ولا يبصر حكمه. وأعجب من ذلك من تراكم عليه الجهل بظلمته؛ فعصى المنعم بنعمته. هذا عود شجر الكرم يكون يابساً طول الشتاء ثم إذا جاء الربيع دب فيه الماء واخضر، ثم يخرج الحصرم فينتفع الناس به حامضاً، ويتناولون منه طبخاً واعتصاراً ثم ينقلب حلواً فينتفع الناس به حلواً رطباً ويابساً، ويستخرجون منه ما ينتفعون بحلاوته طول العام وما يأتدمون بحمضه وهو نعم الإدام، فهذه التنقلات توجب للعاقل الدهش والتعجب من صنع صانعه وقدرة خالقه، فينبغي له أن يفرغ عقله للتفكر في هذه النعم والشكر عليها، وأما الجاهل فيأخذ العنب فيجعله خمراً فيغطي به العقل الذي ينبغي أن يستعمل في التفكر والشكر حتى ينسى خالقه المنعم عليه بهذه النعم كلها، فلا يستطيع بعد سكره أن يقوم له بذكره ولا بشكره بل ينسى في سكره من خلقه ورزقه فلا يعرفه بالكلية وهذا نهاية كفران النعم الوقوع في هذه البلية.

فواعجباً كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ومن وجوه الاعتبار النظر إلى الأرض التي أحياها الله بعد موتها في فصل الربيع بما ساق إليها من قطر السماء أنه يرجى من كرمه أن يحي القلوب الميتة بالذنوب، وطول الغفلة بسماع الذكر النازل من السماء وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] إلى قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧] ففيه إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها

بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر. لمحة من لمحات عطفه ونفحة من نفحات لطفه، وقد صلح من القلوب كل ما فسد فهو الكريم اللطيف.

عسى فرج يأتي به الله إنه　　له كل يوم في خليقته أمر
إذا اشتد عسر فارْجُ يسراً فإنه　　قضى الله إن العسر يتبعه اليسر

عسى من أحيا الأرض الميتة بالقطر أن يحي القلوب الميتة بالذكر، عسى نفحة من نفحات رحمته تهب فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً فهو المنان الرحيم.

إذا ما تجدد فصل الربيع　　تجدد للقلب فضل الرجاء
عسى الحال يصلح بعد الذنوب　　كما الأرض تهتز بعد الشتاء
ومن ذا الذي ليس يرجوك رب　　وربع عطائك رحب الفناء

❃ ❃ ❃

## المجلس الثاني
## في فصل الصيف

خرجا في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من سموم جهنم، وأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم»[1].

لا شك أن الله تعالى خلق لعباده دارين يجزيهم فيها بأعمالهم مع البقاء في الدارين من غير موت، وخلق داراً معجلة للأعمال وجعل فيها موتاً وحياةً، وابتلى عباده فيها بما أمرهم به ونهاهم عنه، وكلفهم فيها الإيمان بالغيب ومنه: الإيمان بالجزاء والدارين المخلوقتين له وأنزل بذلك

(١) البخاري (٥٣٧ و٣٢٦٠) ومسلم (٦١٧).

الكتب وأرسل به الرسل وأقام الأدلة الواضحة على الغيب الذي أمر بالإيمان به، وأقام علامات وأمارات تدل على وجود داري الجزاء؛ فإن إحدى الدارين المخلوقتين للجزاء دار نعيم محض لا يشوبه ألم، والأخرى دار عذاب محض لا يشوبه راحة، وهذه الدار الفانية ممزوجة بالنعيم والألم فما فيها من النعيم يذكر بنعيم الجنة، وما فيها من الألم يذكر بألم النار، وجعل الله تعالى في هذه الدار أشياء كثيرة تذكر بدار الغيب المؤجلة الباقية فمنها ما يذكر بالجنة من زمان ومكان. أما الأماكن فخلق الله بعض البلدان كالشام وغيرها فيها من المطاعم والمشارب والملابس وغير ذلك من نعيم الدنيا ما يذكر بنعيم الجنة. وأما الأزمان: فكزمن الربيع فإنه يذكر طيبه بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات الأسحار فإن بردها يذكر ببرد الجنة. وفي الحديث الذي خرجه الطبراني: «إن الجنة تفتح كل ليلة في السحر فينظر الله إليها فيقول لها: ازدادي طيباً لأهلك فتزداد طيباً، فذلك برد السحر الذي يجده الناس»[1]. وروى سعيد الجريري عن سعيد بن أبي الحسن: أن داود عليه السلام قال: يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: ما أدري غير أن العرش يهتز إذا كان وقت السحر، ألا ترى أنه يفوح ريح كل الشجر.

**ومنها**: ما يذكر بالنار فإن الله تعالى جعل في الدنيا أشياء كثيرة تذكر بالنار من الآلام والعقوبات من أماكن وأزمان وأجسام وغير ذلك. أما الأماكن فكثير من البلدان مفرطة الحر أو البرد فبردها يذكر بزمهرير جهنم، وحرها يذكر بحر جهنم وسمومها، وبعض البقاع يذكر بالنار كالحمام، وقال أبو هريرة: نعم البيت الحمام يدخله المؤمن فيزيل به الدرن، ويستعيذ بالله فيه من النار. كان السلف يذكرون النار بدخول الحمام فيحدث ذلك لهم عبادة. دخل ابن وهب الحمام فسمع تالياً يتلو: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] فغشي عليه. وتزوج صلة بن أشيم فدخل الحمام ثم دخل على زوجته تلك الليلة فقام يصلي حتى أصبح وقال: دخلت بالأمس بيتاً أذكرني النار، ودخلت الليلة بيتاً ذكرت به الجنة فلم يزل فكري فيهما حتى

(١) ضعيف جداً. الطبراني في الصغير (٦٣/١) وإسناده واهٍ.

أصبحت. وكان بعض السلف إذا أصابه كرب الحمام يقول: يا بَرُّ يا رحيم مُنَّ علينا وقنا عذاب السموم. صب بعض الصالحين على رأسه ماء من الحمام فوجده حاراً فبكى وقال: ذكرت قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحَجّ: ١٩]. كل ما في الدنيا دليل على صانعه، ويذكر به، ويدل على صفاته، فما فيها من نعيم وراحة يدل على كرم خالقه وفضله وإحسانه وجوده ولطفه، وما فيها من نقمة وشدة وعذاب تدل على شدة بأسه وبطشه وقهره وانتقامه. واختلاف أحوال الدنيا من حر وبرد، وليل ونهار وغير ذلك يدل على انقضائها وزوالها. قال الحسن: كان الصحابة ﷺ يقولون: الحمد لله الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاك في الله: لو كان لهذا الخلق رب لحادثه، وإن الله قد حادث بما ترون من الآيات أنه قد جاء بضوء طبق ما بين الخافقين وجعل فيها معاشاً وسراجاً وهاجاً، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين، وجعل فيها سكناً ونجوماً وقمراً منيراً، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه المطر والرعد والبرق والصواعق ما شاء، وإذا شاء صرف ذلك الخلق، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف الناس، وإذا شاء أذهب ذلك وجاء بحر يأخذ بأنفاس الناس ليعلم الناس أن لهذا الخلق رباً هو يحادثه بما ترون من الآيات، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة. وقال خليفة العبدي: لو أن الله لم يعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنين تفكروا في مجيء هذا الليل إذا جاء فطبق كل شيء وملأ كل شيء ومحا سلطان النهار، وتفكروا في مجيء النهار إذا جاء فملأ كل شيء وطبق كل شيء ومحا سلطان الليل، وتفكروا في السحاب المسخر بين السماء والأرض. وتفكروا في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وتفكروا في مجيء الشتاء والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق لهم ربهم حتى أيقنت قلوبهم، وحتى كأنما عبدوا الله عن رؤيته.

يذكرنيك الحر والبرد الذي ... أخاف وأرجو والذي أتوقع

ما رأى العارفون شيئاً من الدنيا إلا تذكروا به ما وعد الله به من جنسه في الآخرة.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا

وأما الأزمان فشدة الحر والبرد يذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير، وقد دل هذا الحديث الصحيح على أن ذلك من تنفس النار في ذلك الوقت. قال الحسن: كل برد أهلك شيئاً فهو من نفس جهنم، وكل حر أهلك شيئاً فهو من نفس جهنم. وفي الحديث الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم»[١] وفي حديثٍ مرفوعٍ خرجه عثمان الدارمي وغيره: «إذا كان يوم شديد الحر فقال العبد: لا إلّه إلا الله ما أشد حر هذا اليوم، اللهم أجرني من حر جهنم قال الله لجهنم: إن عبداً من عبادي قد استجار بي منك، وقد أجرته، وإذا كان يوم شديد البرد فقال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم، اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله لجهنم: إن عبداً من عبادي قد استجار بي من زمهريرك وإني أشهدك أني قد أجرته» قالوا: وما زمهرير جهنم؟ قال: «بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة برده»[٢].

أبواب النار مغلقة وتفتح أحياناً، فتفتح أبوابها كلها عند الظهيرة ولذلك يشتد الحر حينئذٍ فيكون في ذلك تذكرة بنار جهنم. وأما الأجسام المشاهدة في الدنيا المذكرة بالنار فكثيرة منها الشمس عند اشتداد حرها. وقد روي أنها خلقت من النار وتعود إليها. وخرج الطبراني بإسناده أن رجلًا في عهد النبي ﷺ نزع ثيابه ثم تمرغ في الرمضاء وهو يقول لنفسه: ذوقي؛ نار جهنم أشد حراً، جيفة بالليل، بطال بالنهار، فرآه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله غلبتني نفسي فقال النبي ﷺ: «لقد فتحت لك أبواب السماء، وباهى الله بك الملائكة»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٤) ومسلم (٦١٥).

(٢) ضعيف. الدارمي في الرد على بشر وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٧) من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ورواه السهمي في تاريخ جرجان (٤٨٦/١) من حديث أبي موسى وفي إسناده كذاب.

(٣) ضعيف. الطبراني في الكبير (٢٢/٢) وإسناده ضعيف.

وأما البروز للشمس تعبداً بذلك مطلقاً فغير مشروع، فإن النبي ﷺ قال لأبي إسرائيل لما رآه قائماً في الشمس: فأمره أن يجلس ويستظل. وكان نذر أن يقوم في الشمس مع الصوم فأمره أن يتم الصوم فقط[1]، وإنما يشرع البروز للشمس للمحرم، كما قال ابن عمر لمحرم رآه قد استظل: أضح لمن أحرمت له. أي ابرز إلى الضحاء وهو حر الشمس. وكان بعضهم لا يستظل في إحرامه فقيل له: لو أخذت بالرخصة، فأنشد:

ضحيت له كي أستظل بظله ... إذا الظل أضحى في القيامة قالصا
فوا أسفا إن كان سعيك خائباً ... ووا أسفا إن كان حظك ناقصا

ومما يؤمر بالصبر فيه على حر الشمس النفير للجهاد في الصيف كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] وكذلك المشي إلى المساجد للجمع والجماعات وشهود الجنائز ونحوها من الطاعات والجلوس في الشمس لانتظار ذلك حيث لا يوجد ظل. خرج رجل من السلف إلى الجمعة فوجد الناس قد سبقوه إلى الظل فقعد في الشمس فناداه رجل من الظل أن يدخل إليه فأبى أن يتخطى الناس لذلك ثم تلا: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. وكان بعضهم إذا رجع من الجمعة في حر الظهيرة يذكر انصراف الناس من موقف الحساب إلى الجنة أو النار فإن الساعة تقوم يوم الجمعة ولا ينتصف ذلك النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار قاله ابن مسعود، وتلا قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]. وينبغي لمن كان في حر الشمس أن يتذكر حرها في الموقف فإن الشمس تدنو من رؤوس العباد يوم القيامة ويزاد في حرها، ولذا[2] ينبغي لمن لا يصبر على حر الشمس في الدنيا أن يجتنب من الأعمال ما يستوجب صاحبه به دخول النار؛ فإنه لا قوة لأحد عليها ولا صبر. قال قتادة: وقد ذكر شراب أهل جهنم وهو ماء يسيل من

(١) رواه البخاري (٦٧٠٤).

(٢) في بعض النسخ كما في الأصل.

صديدهم بين الجلد واللحم فقال: هل لكم بهذا يدان أم لكم عليه صبر؟ طاعة الله أهون عليكم يا قوم؛ فأطيعوا الله ورسوله.

نسيت لظى عند ارتكابك للهوى وأنت توقى حر شمس الهواجر
كأنك لم تدفن حميماً ولم تكن له في سياق الموت يوماً بحاضر

رأى عمر بن عبدالعزيز قوماً في جنازة وقد هربوا من الشمس إلى الظل وتوقوا الغبار فأنشد شعراً:

من كان حين تصيب الشمس جبهته أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في ظل مقفرة غبراء مظلمة يطيل تحت الثرى في غمها اللبثا
تجهزي بجهاز تبلغين به يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

ومما يضاعف ثوابه في شدة الحر: الصيام؛ لما فيه من ظمأ الهواجر، ولهذا كان معاذ بن جبل يتأسف عند موته على ما يفوته من ظمأ الهواجر، وكذلك غيره من السلف. وروي عن أبي بكر الصديق ﵁ أنه كان يصوم في الصيف، ويفطر في الشتاء. ووصى عمر ﵁ عند موته ابنه عبدالله ﵁ فقال له: عليك بخصال الإيمان وسمى أولها: الصوم في شدة الحر في الصيف. قال القاسم بن محمد: كانت عائشة ﵂ تصوم في الحر الشديد، قيل له: ما حملها على ذلك؟ قال: كانت تبادر الموت. وكان مجمع التيمي يصوم في الصيف حتى يسقط. وكانت بعض الصالحات تتوخى أشد الأيام حراً فتصومه فيقال لها في ذلك فتقول: إن السعر إذا رخص اشتراه كل أحد. تشير إلى أنها لا تؤثر إلا العمل الذي لا يقدر عليه إلا القليل من الناس لشدته عليهم، وهذا من علو الهمة. كان أبو موسى الأشعري ﵁ في سفينة فسمع هاتفاً يهتف: يا أهل المركب قفوا ـ يقولها ثلاثاً ـ فقال أبو موسى: يا هذا كيف نقف؟! ألا ترى ما نحن فيه، كيف نستطيع وقوفاً؟! فقال الهاتف: ألا أخبركم بقضاء قضاه الله على نفسه؟ قال: بلى أخبرنا، قال: فإن الله قضى على نفسه أنه من عطش نفسه لله في يوم حار كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة، فكان أبو موسى يتوخى ذلك اليوم الحار الشديد الحر الذي يكاد الإنسان ينسلخ منه

فيصومه[١]. قال كعب: إن الله ﷻ قال لموسى عليه السلام: إني آليت على نفسي أنه من عطش نفسه لي أن أرويه يوم القيامة. وقال غيره: مكتوب في التوراة طوبى لمن جوع نفسه ليوم الشبع الأكبر، طوبى لمن عطش نفسه ليوم الري الأكبر. وقال الحسن: تقول الحوراء لولي الله وهو متكئ معها على نهر الخمر في الجنة تعاطيه الكأس في أنعم عيشه، أتدري في أي يوم زوجنيك الله؟ إنه نظر إليك في يوم صائف بعيد ما بين الطرفين وأنت في ظمأ هاجرة من جهد العطش فباهى بك الملائكة وقال: انظروا إلى عبدي ترك زوجته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي رغبة فيما عندي، اشهدوا أني قد غفرت له، فغفر لك يومئذ وزوجنيك. لما سار عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام كان معاوية يسأله أن يرفع إليه حوائجه فيأبى فلما أكثر عليه قال: حاجتي أن ترد عليَّ من حر البصرة؛ لعل الصوم أن يشتد علي شيئاً فإنه يخف علي في بلادكم.

نزل الحجاج في بعض أسفاره بماء بين مكة والمدينة فدعا بغدائه، ورأى أعرابياً فدعاه إلى الغداء معه فقال: دعاني من هو خير منك فأجبته، قال: ومن هو؟ قال: الله ﷻ دعاني إلى الصيام[٢] فصمت قال: في هذا الحر الشديد؟! قال: نعم، صمت ليوم أشد منه حراً. قال: فأفطر وصم غداً، قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد أفطرت قال: ليس ذلك إليَّ قال: فكيف تسألني عاجلًا بآجل لا تقدر عليه.

خرج ابن عمر في سفر معه أصحابه فوضعوا سفرة لهم، فمر بهم راع فدعوه إلى أن يأكل معهم، فقال: إني صائم. فقال ابن عمر: في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت بين هذه الشعاب في آثار هذه الغنم وأنت صائم؟! فقال: أبادر أيامي هذه الخالية، فعجب منه ابن عمر وقال له: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟

---

(١) ضعيف. رواه ابن المبارك في الزهد (١٣٠٩) والروياني في مسنده (١/٣٧٤) ضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٥٧٧و٥٧٨) وكان شيخنا قد حسنه قديماً ثم ظهر له ضعفه.

(٢) في نسخة: «الصوم» كما في هامش الأصل.

قال: إنها ليست لي إنها لمولاي قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلت: أكلها الذئب، فمضى الراعي وهو رافع أصبعه إلى السماء وهو يقول: فأين الله! فلم يزل ابن عمر يردد كلمته هذه، فلما قدم المدينة بعث إلى سيد الراعي فاشترى منه الراعي والغنم، فأعتق الراعي ووهب له الغنم[(١)].

ونزل روح بن زنباع منزلًا بين مكة والمدينة في حر شديد فانقض عليه راعٍ من جبل فقال له: يا راع هلم إلى الغداء قال: إني صائم. قال: أتصوم فيِ هذا الحر؟! قال: أفأدع أيامي تذهب باطلًا، فقال روح: لقد ضننت بأيامك يا راعي إذ جاد بها روح بن زنباع. كان ابن عمر يصوم تطوعاً ويغشى عليه فلا يفطر. وكان الإمام أحمد يصوم حتى يكاد يغمى عليه فيمسح على وجهه الماء، وسئل عمن يصوم ويشتد عليه الحر قال: لا بأس أن يبل ثوباً يتبرد به ويصب عليه الماء. كان النبي ﷺ بالعرج يصب على رأسه الماء وهو صائم[(٢)]. وكان أبو الدرداء يقول: صوموا يوماً شديداً حره لحر يوم النشور، وصلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور. وفي الصحيحين عن أبي الدرداء قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد الحر، وإن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما في القوم أحد صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة. وفي رواية: أن ذلك كان في شهر رمضان[(٣)]. لما صبر الصائمون لله في الحر على شدة العطش والظمأ أفرد لهم باباً من أبواب الجنة وهو باب الريان، من دخل شرب، ومن شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً، فإذا دخلوا أغلق ذلك الباب على من بعدهم فلا يدخل منه غيرهم.

وقد تحدث أحياناً حوادث غير معتادة تذكر بالنار كالصواعق والريح الحارة المحرقة للزرع قال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرّعد: ١٣]. وقد روي أن الصواعق قطعة من نار تطير من فيّ الملك الذي

---

(١) صحيح. وصحح تلك القصة شيخنا في مختصر العلو للذهبي (٩٥).

(٢) صحيح. سبق تخريجه.

(٣) صحيح. تقدم.

يزجر السحاب عند اشتداد غضبه. وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٦] والإعصار: الريح الشديدة العاصف التي فيها نار، والصر: الريح الشديد البرد. وقد عذب الله قوم شعيب بالظلة. وروي أنه أصابهم حر أخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت إلى الصحراء فأظلتهم سحابة فوجدوا لها برداً فاجتمعوا تحتها كلهم فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم كلهم. فكل هذه العقوبات بسبب المعاصي وهي من مقدمات عقوبات جهنم وأنموذجها، ومما يدل على الجنة والنار أيضاً ما يعجله الله في الدنيا لأهل طاعته وأهل معصيته؛ فإن الله يعجل لأوليائه وأهل طاعته من نفحات نعيم الجنة وروحها ما يجدونه ويشهدونه بقلوبهم مما لا تحيط به عبارة ولا تحصره إشارة، حتى قال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه فإنهم في عيش طيب. وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم. وقال بعضهم: الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النّحل: ٩٧] قال الحسن: يعني: نرزقه طاعة يجد لذتها في قلبه. أهل التقوى في نعيم حيث كانوا في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

ما الناس إلا همُ بانوا أو اقتربوا العيش عيشهم والملك ملكهم

وأما أهل المعاصي والإعراض عن الله؛ فإن الله يعجل لهم في الدنيا من أنموذج عقوبات جهنم ما يعرف أيضاً بالتجربة والذوق فلا تسأل عما هم فيه من ضيق الصدر والحرج والنكد، وعما يعجل لهم من عقوبات المعاصي في الدنيا، ولو بعد حين من زمن العصيان، وهذا من نفحات الجحيم المعجلة لهم، ثم ينتقلون بعد هذه الدار إلى أشد من ذلك وأضيق؛ ولذلك يضيق على أحدهم قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويفتح له باب إلى النار فيأتيه من سمومها[1] ما يأتيه[2] قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ

---

(١) صحيح. ورد هذا في عدد من الأحاديث منها ما رواه أبو داود (٤٧٥٣) وصححه شيخنا في صحيح أبي داود.

(٢) في نسخة.

لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] وورد في الحديث المرفوع تفسيرها بعذاب القبر ثم بعد ذلك يصيرون إلى جهنم وضيقها قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٣، ١٤].

ومما يدل أيضاً في الدنيا على وجود النار ويذكر بها الحمى التي تصيب بني آدم وهي نار باطنة، فمنها نفحة من نفحات سموم جهنم، ومنها نفحة من نفحات زمهريرها، وقد روي في حديث خرجه الإمام أحمد وابن ماجه: «أنها حظ المؤمن من النار»(١). والمراد أن الحمى تكفر ذنوب المؤمن وتنقيه منها كما ينقي الكير خبث الحديد. وإذا طهر المؤمن من ذنوبه في الدنيا لم يجد حر النار إذا مر عليها يوم القيامة؛ لأن وجدان الناس لحرها عند المرور عليها بحسب ذنوبهم، فمن طهر من الذنوب ونقي منها في الدنيا جاز على الصراط كالبرق الخاطف والريح ولم يجد شيئاً من حر النار ولم يحس بها، فتقول النار للمؤمن: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي(٢). وفي حديث جابر المرفوع في مسند الإمام أحمد: «إنهم يدخلونها فتكون عليهم برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم»(٣).

ومن أعظم ما يذكر بنار جهنم النار التي في الدنيا قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣] يعني: أن نار الدنيا جعلها الله تذكرة تذكر بنار جهنم. مر ابن مسعود بالحدادين وقد أخرجوا حديداً من النار فوقف ينظر إليه ويبكي. وروي عنه أنه مر على الذين ينفخون الكير فسقط. وكان أويس يقف على الحدادين فينظر إليهم كيف ينفخون الكير، ويسمع صوت النار فيصرخ ثم يسقط. وكذلك الربيع بن خثيم. وكان كثير من السلف

---

(١) صحيح لغيره. أحمد (٩٣٨٤) وابن ماجه (٣٤٧٠) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٨٢١).

(٢) ضعيف. رواه الطبراني في الكبير (٢٢/٢٥٨) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٣٤١٣).

(٣) ضعيف. أحمد (١٤١١١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٤٧٦١).

يخرجون إلى الحدادين ينظرون إلى ما يصنعون بالحديد فيبكون ويتعوذون بالله من النار. ورأى عطاء السليمي[١] امرأة قد سجرت تنوراً فغشي عليه. وقال الحسن: كان عمر ربما توقد له نارٌ ثم يدني يده منها ثم يقول: يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر. كان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح؛ فيضع أصبعه فيه ويقول: حسّ، ثم يعاتب نفسه على ذنوبه. وأجج بعض العباد ناراً بين يديه وعاتب نفسه فلم يزل يعاتبها حتى مات. نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وغسلت بالبحر مرتين حتى أشرقت وخف حرها، ولولا ذلك ما انتفع بها أهل الدنيا، وهي تدعوا الله أن لا يعيدها إليها. قال بعض السلف: لو أخرج أهل النار منها إلى نار الدنيا لقالوا فيها ألفي عام. يعني: أنهم كانوا ينامون فيها ويرونها برداً. وكان عمر ﷺ يقول: أكثروا ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد. وكان ابن عمر وغيره من السلف إذا شربوا ماء بارداً بكوا وذكروا أمنية أهل النار وأنهم يشتهون الماء البارد وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، ويقولون لأهل الجنة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠] فيقولون لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

المصيبة العظمى حين تطبق النار على أهلها وييأسون[٢] من الفرج وهو الفزع الأكبر الذي يأمنه أهل الجنة: ﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

لو أبصرت عيناك أهل الشقا ... سيقوا إلى النار وقد أحرقوا
شرابهم المهل في قعرها ... إذ خالفوا الله وما صدقوا
تقول أخراهم لأولاهم ... في لجج المهل وقد أغرقوا
قد كنتمُ خوفتمُ حرها ... لكن من النيران لم تفرقوا

(١) في الأصل: «السلمي».
(٢) في الأصل: «ييأسوا».

وجيء بالنيران مذمومة شرارها من حولها محدق
وقيل للنيران: أن أحرقي وقيل للخزان: أن أطبقوا

❁ ❁ ❁

## المجلس الثالث
## في ذكر فصل الشتاء

خرج الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «الشتاء ربيع المؤمن»[(١)] وخرجه البيهقي وغيره وزاد فيه: «طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه»[(٢)].

إنما كان الشتاء ربيع المؤمن؛ لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات ويسرح في ميادين العبادات، وينزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه كما ترتع البهائم في مرعى الربيع فتسمن وتصلح أجسادها، فكذلك يصلح دين المؤمن في الشتاء بما يسر الله تعالى فيه من الطاعات؛ فإن المؤمن يقدر في الشتاء على صيام نهاره من غير مشقة ولا كلفة تحصل له من جوع ولا عطش، فإن نهاره قصير بارد فلا يحس فيه بمشقة الصيام. وفي المسند والترمذي عن النبي ﷺ قال: «الصيام في الشتاء الغنيمة الباردة»[(٣)]. وكان أبو هريرة يقول: ألا أدلكم على الغنيمة الباردة؟ قالوا: بلى، فيقول: الصيام في الشتاء. ومعنى كونها غنيمة باردة: أنها غنيمة حصلت بغير قتال ولا تعب ولا مشقة فصاحبها يحوز هذه الغنيمة عفواً صفواً بغير كلفة.

وأما قيام ليل الشتاء فلطوله يمكن أن تأخذ النفس حظها من النوم ثم تقوم بعد ذلك إلى الصلاة فيقرأ المصلي ورده كله من القرآن وقد أخذت نفسه حظها من النوم فيجتمع له فيه نومه المحتاج إليه مع إدراك ورده من

---

(١) ضعيف. أحمد (١١٣١٩) وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (٣٤٢٩).
(٢) ضعيف. البيهقي في السنن الكبرى (٢٩٧/٤) وفي شعب الإيمان (٤١٦/٣) وضعفه شيخنا في ضعيف الجامع (٣٤٣٠).
(٣) حسن لغيره. أحمد (١٨٤٨٠) والترمذي (٧٩٧) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٩٢٢).

القرآن؛ فيكمل له مصلحة دينه وراحة بدنه. ومن كلام يحيى بن معاذ: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والإسلام نقي فلا تدنسه بآثامك. بخلاف ليل الصيف فإنه لقصره وحره يغلب النوم فيه فلا تكاد تأخذ النفس حظها بدون نومه كله فيحتاج القيام فيه إلى مجاهدة، وقد لا يتمكن لقصره من الفراغ من ورده من القرآن. وروي عن ابن مسعود قال: مرحباً بالشتاء تنزل فيه البركة ويطول فيه الليل للقيام، ويقصر فيه النهار للصيام. وروي عنه مرفوعاً ولا يصح رفعه. وعن الحسن قال: نعم زمان المؤمن الشتاء، ليله طويل يقومه، ونهاره قصير يصومه. وعن عبيد بن عمير أنه كان إذا جاء الشتاء قال: يا أهل القرآن طال ليلكم لقراءتكم، وقصر النهار لصيامكم فصوموا وقوموا. لما طال ليل الشتاء كان قيامه يعدل صيام نهار الصيف؛ ولهذا بكى معاذ ﷺ عند موته وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. وقال معضد: لولا ثلاث: ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ولذاذة التهجد بكتاب الله ما بليت أن أكون يعسوباً.

القيام في ليل الشتاء يشق على النفوس من وجهين:

**أحدهما**: من جهة تألم النفس بالقيام من الفراش في شدة البرد قال داود بن رشيد: قام بعض إخواني إلى ورده بالليل في ليلة شديدة البرد وكان عليه خلقان، فضربه البرد، فبكى، فهتف به هاتف: أقمناك وأنمناهم ثم تبكي علينا. خرجه أبو نعيم.

**والثاني**: بما يحصل بإسباغ الوضوء في شدة البرد من التألم، وذلك من أفضل الأعمال. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[1]. وفي حديث

---

(١) سبق تخريجه.

معاذ بن جبل عن النبي ﷺ: أنه رأى ربه ﷻ - يعني: في المنام - فقال له: «يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: في الدرجات والكفارات. قال: والكفارات إسباغ الوضوء في الكريهات[(١)] ونقل الأقدام إلى الجمعات». وفي رواية: «الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. والدرجات: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام»[(٢)]. وذكر الحديث. خرجه الإمام أحمد والترمذي، وفي بعض الروايات: «إسباغ الوضوء في السبرات»[(٣)] والسبرة: شدة البرد. فإسباغ الوضوء في شدة البرد من أعلى خصال الإيمان. روى ابن سعد بإسناده: أن عمر ؓ وصى ابنه عبدالله عند موته فقال له: يا بني عليك بخصال الإيمان. قال: وما هي؟ قال: الصوم في شدة الحر أيام الصيف، وقتل الأعداء بالسيف، والصبر على المصيبة، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، وتعجيل الصلاة في يوم الغيم، وترك ردغة الخبال. فقال: وما ردغة الخبال؟ قال: شرب الخمر. وروى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: ست من كن فيه فقد استكمل الإيمان: قتال أعداء الله بالسيف، والصيام في الصيف، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، والتبكير بالصلاة في اليوم الغيم، وترك الجدال والمراء وأنت تعلم أنك صادق، والصبر على المصيبة. وقد روي هذا مرفوعاً خرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له بإسناد فيه ضعف عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «ست من كن فيه بلغ حقيقة الإيمان: ضرب أعداء الله بالسيف، وابتدار الصلاة في اليوم الدجن، وإسباغ الوضوء عند المكاره، والصيام في الحر، وصبر عند المصائب، وترك المراء وأنت صادق»[(٤)]. وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: قال موسى ؑ: يا رب من

---

(١) في نسخة: «المكروهات» كما في هامش الأصل.

(٢) صحيح لغيره. أحمد (٢١٦٠٤) والترمذي (٣٢٣٥) وصححه شيخنا في الصحيحة (٣١٦٩) وفي صحيح الترغيب (١٩٤و٣٠٢و٤٠٨و٤٥١).

(٣) صحيح لغيره. انظر ما سبق.

(٤) ضعيف. ابن نصر (٤٣٦/١) وضعفه شيخنا في الضعيفة (١٧١/٨).

هم أهلك الذين هم أهلك تظلهم في ظل عرشك؟ قال: هم البرية أيديهم، الطاهرة قلوبهم، الذين يتحابون بجلالي، الذين إذا ذكرت ذكروا بي، وإذا ذكروا ذكرت بذكرهم، الذين يسبغون الوضوء في المكاره، وينيبون إلى ذكري كما تنيب النسور إلى أوكارها، ويكلفون بحبي كما يكلف الصبي بحب الناس، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت كما يغضب النمر إذا حُرِب.

وروي عن داود بن رشيد قال: قام رجل ليلة باردة ليتوضأ للصلاة؛ فأصاب الماء بارداً فبكى فنودي: أما ترضى أنا أنمناهم وأقمناك حتى تبكي علينا. خرجه ابن السمعاني.

معالجة الوضوء في جوف الليل للتهجد موجب لرضا الرب، ومباهات الملائكة، وفي شدة البرد يتأكد ذلك ففي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «رجلان من أمتي يقوم أحدهما من الليل فيعالج نفسه إلى الطهور، وعليه عُقد فيتوضأ فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الرب ﷻ للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ما سألني عبدي هذا فهو له»(١). وفي حديث عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «إن الله يضحك إلى ثلاثة نفر: رجل قام من جوف الليل فأحسن الطهور، ثم صلى»(٢).

قال أبو سليمان: كنت في ليلة باردة في المحراب فأقلقني البرد فخبأت إحدى يدي من البرد، وبقيت الأخرى ممدودة، فغلبتني عيني، فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها، فآليت على نفسي أن لا أدعو إلا ويداي خارجتان حراً كان أو برداً. قال مالك: كان صفوان بن سليم يصلي - يعني: بالليل - في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت؛ يتيقظ بالحر والبرد حتى يصبح، ثم يقول: هذا الجهد من صفوان وأنت أعلم به، وإنه لترم

---

(١) حسن. تقدم.

(٢) ضعيف. تقدم.

رجلاه حتى يعود مثل السقط من قيام الليل ويظهر فيهما عروق خضر. وكان صفوان وغيره من العباد يصلون في الشتاء بالليل في ثوب واحد ليمنعهم البرد من النوم. ومنهم من كان إذا نعس ألقى نفسه في الماء، ويقول: هذا أهون من صديد جهنم.

كان عطاء الخراساني ينادي أصحابه بالليل: يا فلان، يا فلان، يا فلان، قوموا توضَّأوا وصلوا فقيام هذا الليل وصيام هذا النهار أهون من شرب الصديد ومقطعات الحديد غداً في النار، الوحا الوحا، النجاء النجاء.

وكان قوم من العباد يبيتون في مسجد، ويتهجدون بالليل، فاستيقظ واحد منهم ليلة فوجد إخوانه نياماً فسمع هاتفاً يهتف من جانب المسجد:

أيا عجباً للناس قرت[١] عيونهم  مطاعم غمض بعدها الموت منتصب
وطول قيام الليل أيسر مؤنة  وأهون من نار تفور وتلتهب

وفي الحديث الصحيح أن ابن عمر رأى في منامه كأن آتياً أتاه فانطلق به إلى النار حتى رآها، ورأى فيها رجالًا يعرفهم معلقين بالسلاسل، فأتاه ملك فقال له: لن تراع لست من أهلها. فقص ذلك على أخته حفصة، فقصته حفصة على رسول الله ﷺ فقال: «نِعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل» فكان ابن عمر لا ينام من الليل إلا قليلًا[٢]. قال الحسن: أفضل العبادة الصلاة في جوف الليل، وقال: هو أقرب ما يتقرب به إلى الله تعالى، وما وجدت في العبادة أشد منها. ورُئي سلمة بن كهيل في النوم فقال: وجدت أفضل الأعمال قيام الليل، ما عندهم أشرف منه. ورأى بعض السلف خياماً ضربت فسأل لمن هي فقيل: للمتهجدين بالقرآن، فكان بعد ذلك لا ينام.

فما لي بعيد الدار لا أقرب الحمى  وقد نصبت للساهرين خيام
علامة طردي طول ليلي نائم  وغيري يرى أن المنام حرام

(١) في نسخة: «لذت» كما في الأصل.
(٢) صحيح. سبق تخريجه.

ومن الصالحين من كان يلطف به في الحر والبرد كما دعا النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: أن يذهب عنه الحر والبرد، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء ولا يجد حراً ولا برداً(١). وكان بعض التابعين يشتد عليه الطهور في الشتاء فدعا الله عز وجل؛ فكان يؤتى بالماء في الشتاء وله بخار من حره. رأى أبو سليمان في طريق الحج في شدة البرد شيخاً عليه أخلاق وهو يرشح عرقاً، فعجب منه، وسأله عن حاله، فقال: إنما الحر والبرد خلقان لله فإن أمرهما أن يغشياني أصاباني، وإن أمرهما أن يتركاني تركاني وقال: أنا في هذه [البرية] منذ ثلاثين سنة يلبسني في البرد فيحاً من محبته، ويلبسني في الصيف برداً من محبته. وقيل لآخر وعليه خرقتان في يوم برد شديد: لو استترت في موضع يكنك من البرد، فأنشد:

ويحسن ظني أنني في فنائه وهل أحد في كنه يجد البردا

وأما من يجد البرد وهم عامة الخلق؛ فإنه يشرع لهم دفع أذاه بما يدفعه من لباس وغيره. وقد امتن الله على عباده بأن خلق لهم من أصواف بهيمة الأنعام وأوبارها وأشعارها ما فيه دفء لهم قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل: ٥] وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل: ٨٠]. وروى ابن المبارك عن صفوان بن عمرو عن سليم(٢) بن عامر قال: كان عمر بن الخطاب إذا حضر الشتاء تعاهدهم وكتب إليهم بالوصية: إن الشتاء قد حضر وهو عدو فتأهبوا له أهبته من الصوف والخفاف والجوارب، واتخذوا الصوف شعاراً ودثاراً؛ فإن البرد عدو سريع دخوله، بعيد خروجه، وإنما كان يكتب بذلك عمر إلى أهل الشام لما فتحت في زمنه، فكان يخشى على من بها من الصحابة وغيرهم ممن لم يكن(٣) له

---

(١) حسن. رواه ابن ماجه (١١٧) قال شيخنا في صحيح سنن ابن ماجه: «حسن بطريقين آخرين في أوسط الطبراني».

(٢) في الأصل: «سليمان».

(٣) في نسخة: «ليس» كما في الأصل.

عهد بالبرد أن يتأذى ببرد الشام؛ وذلك من تمام نصيحته وحسن نظره وشفقته وحياطته لرعيته ﷺ. وروي عن كعب قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام أن تأهب لعدو قد أظلك قال: يا رب من عدوي وليس بحضرتي عدو؟ قال: بلى؛ الشتاء. وليس المشروع أن يتقي البرد حتى لا يصيبه منه شيء بالكلية؛ فإن ذلك يضر أيضاً. وقد كان بعض الأمراء يصون نفسه من البرد والحر حتى لا يحس بهما بدنه فتلف باطنه وتعجل موته. فإن الله بحكمته جعل الحر والبرد في الدنيا لمصالح عباده، فالحر لتحلل الأخلاط، والبرد لجمودها، فمتى لم يصب الأبدان شيء من الحر والبرد تعجل فسادها، ولكن المأمور به اتقاء ما يؤذي البدن من ذلك؛ فإن الحر المؤذي والبرد المؤذي معدودان من جملة أعداء بني آدم. قيل لأبي حازم الزاهد: إنك لتشدد يعني: في العبادة؟ فقال: وكيف لا أشدد وقد ترصد لي أربعة عشر عدواً، قيل له: لك خاصة؟ قال بل لجميع من يعقل، قيل له: وما هذه الأعداء؟ قال: أما أربعة: فمؤمن يحسدني، ومنافق يبغضني، وكافر يقاتلني، وشيطان يغويني ويضلني، وأما العشر: فالجوع والعطش، والحر والبرد، والعري، والمرض والفاقة، والهرم، والموت، والنار، ولا أطيقهن إلا بسلاح تام، ولا أجد لهن سلاحاً أفضل من التقوى. فعد الحر والبرد من جملة أعدائه. وقال الأصمعي: كانت العرب تسمي الشتاء: الفاضح، فقيل لامرأة منهم: أيما أشد عليكم القيظ أم القر؟ قالت: سبحان الله! من جعل البؤس كالأذى فجعلت الشتاء بؤساً، والقيظ أذى. قال بعض السلف: إن الله وصف الجنة بصفة الصيف لا بصفة الشتاء فقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٢] وقد قال الله تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣] فنفى عنهم شدة الحر والبرد. قال قتادة: علم الله أن شدة الحر تؤذي وشدة البرد تؤذي فوقاهم أذاهما جميعاً. قال أبو عمرو بن العلاء: إني لأبغض الشتاء لنقص الفروض وذهاب الحقوق وزيادة الكلفة على الفقراء. وقد روي في حديث مرفوع:

«إن الملائكة تفرح بذهاب الشتاء؛ لما يدخل فيه على فقراء المؤمنين من الشدة»[١] ولكن لا يصح إسناده. وروي أيضاً مرفوعاً: «خير صيفكم أشده حراً، وخير شتائكم أشده برداً، وإن الملائكة لتبكي في الشتاء رحمة لبني آدم»[٢] وإسناده أيضاً باطل. وقال بعض السلف: البرد عدو الدين، يشير إلى أنه يفتر عن كثير من الأعمال ويثبط عنها فتكسل النفوس بذلك. وقال بعضهم: خلقت القلوب من طين فهي تلين في الشتاء كما يلين الطين فيه. قال الحسن: الشتاء ذَكَرٌ فيه اللقاح، والصيف أنثى فيه النتاج. يشير إلى أن الصيف تنتج فيه المواشي والشجر. والصيف عند العرب هو الربيع، وأما الذي تسميه الناس: الصيف تسميه العرب: القيظ. ففي الشتاء تفور الحرارة إلى باطن الشجر فتنعقد مواد الثمر فتظهر في الربيع مباديها فتزهر الشجر ثم تورق، فإذا ظهرت الثمار قوي حر الشمس لإنضاجها. الإيثار في الشتاء للفقراء بما يدفع عنهم البرد له فضل عظيم، خرج صفوان بن سليم في ليلة باردة بالمدينة من المسجد، فرأى رجلًا عارياً فنزع ثوبه وكساه إياه فرأى بعض أهل الشام في منامه أن صفوان بن سليم دخل الجنة بقميص كساه فقدم المدينة فقال: دلوني على صفوان، فأتاه فقص عليه ما رأى. ورأى مسعر أعرابياً يتشرق في الشمس وهو يقول:

جاء الشتاء وليس عندي درهم ... ولقد يخص بمثل ذاك المسلم
قد قطع الناس الجباب وغيرها ... وكأنني بفناء مكة محرم

فنزع مسعر جبته فألبسه إياها. رفع إلى بعض الوزراء الصالحين أن امرأة معها أربعة أطفال أيتام وهم عراة جياع، فأمر رجلًا أن يمضي إليهم وحمل معه ما يصلحهم من كسوة وطعام ثم نزع ثيابه وحلف: لا لبستها ولا دفئت حتى تعود وتخبرني أنك كسوتهم وأشبعتهم، فمضى وعاد وأخبره: أنهم اكتسوا وشبعوا، وهو يرعد من البرد فلبس حينئذٍ ثيابه. وخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «من أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله

(١) منكر. رواه الطبراني في الكبير (١١/١٠٠) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٦٤٣).

(٢) موضوع. رواه المقريزي كما في فيض القدير (٢/٣٩٤).

يوم القيامة من ثمار الجنة، ومن سقاه على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، ومن كساه على عري كساه الله من خضر الجنة»[١].
وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن ابن مسعود قال: يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأجوع ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، فمن كسا لله ﷻ كساه الله، ومن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن عفا لله عفا الله عنه[٢].

ومن فضائل الشتاء: أنه يذكر بزمهرير جهنم ويوجب الاستعاذة منها، وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم شديد البرد فإذا قال العبد: لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم: اللهم أجرني من زمهرير جهنم؛ قال الله تعالى لجهنم: إن عبداً من عبادي استجار بي من زمهريرك وإني أشهدك أني قد أجرته» قالوا: وما زمهرير جهنم؟ قال: «بيت يلقى فيه الكافر، فيتميز من شدة البرد»[٣].

قام زبيد اليامي ذات ليلة للتهجد فعمد إلى مطهرة له كان يتوضأ منها فغمس يده في المطهرة فوجد الماء بارداً شديداً كاد أن يجمد من شدة البرد، فذكر الزمهرير ويده في المطهرة فلم يخرجها حتى أصبح، فجاءته جاريته وهو على تلك الحال فقالت: ما شأنك يا سيدي لم تصلِّ[٤] الليلة كما كنت تصلي وأنت قاعد هنا على هذه الحالة؟ فقال: ويحك إني أدخلت يدي في هذه المطهرة فاشتد علي برد الماء، فذكرت به الزمهرير فوالله ما شعرت بشدة برده حتى وقفت عليّ، فانظري لا تحدثي بهذا أحداً ما دمت حياً، فما علم بذلك أحد حتى مات. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن لجهنم نفسين: نفساً في الشتاء، ونفساً في الصيف، فأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها، وأشد ما

---

(١) ضعيف. الترمذي (٢٤٤٩) وضعفه شيخنا في المشكاة (١٩١٣).
(٢) ضعيف. رواه ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٥٥٦).
(٣) ضعيف. تقدم.
(٤) في الأصل: «تصلي».

تجدون من الحر من سمومها»[١]. وروي عن ابن عباس قال: يستغيث أهل النار من الحر فيغاثون بريح باردة يصدع العظام بَرْدُها، فيسألون الحر. وعن مجاهد قال: يهربون إلى الزمهرير فإذا وقعوا فيه حطم عظامهم حتى يسمع لها نقيض. وعن كعب قال: إن في جهنم برداً هو الزمهرير يسقط اللحم حتى يستغيثوا بحر جهنم. وعن عبدالملك بن عمير قال: بلغني أن أهل النار سألوا خازنها أن يخرجهم إلى جنباتها، فأخرجوا فقتلهم البرد والزمهرير حتى رجعوا إليها، فدخلوها مما وجدوا من البرد. وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ [ص: ٥٧] قال ابن عباس: الغساق: الزمهرير البارد الذي يحرق من برده. وقال مجاهد: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده. وقيل: إن الغساق: البارد المنتن؛ أجارنا الله تعالى منها.

يا من تتلى عليه أوصاف جهنم، ويشاهد تنفسها كل عام حتى يحس به ويتألم، وهو مصر على ما يقتضي دخولها مع أنه يعلم، ستعلم إذا جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام من يندم، ألك صبر على سعيرها وزمهريرها؟ قل وتكلم! ما كان صلاحك يرجى والله أعلم.

كم يكون الشتاء ثم المصيف ... وربيع يمضي ويأتي الخريف
وارتحال من الحرور إلى البر ... د وسيف الردى عليك منيف
يا قليل المقام في هذه الدنيا ... إلى كم يغرك التسويف
يا طالب الزائل حتى متى ... قلبك بالزائل مشغوف
عجباً لامرئٍ يذل لذي الدنيا ... ويكفيه كل يوم رغيف

❋ ❋ ❋

(١) صحيح. تقدم.

## مجلس
## في ذكر التوبة والحث عليها قبل الموت وختم العمر بها
## فإن التوبة وظيفة العمر وهي خاتمة مجالس الكتاب

خرج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[(١)] قال الترمذي: حديث حسن. دل هذا الحديث على قبول توبة الله لعبده ما دامت روحه في جسده لم تبلغ الحلقوم والتراقي، وقد دل القرآن على مثل ذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [النساء: ١٧]، وعمل السوء إذا أفرد يدخل فيه جميع السيئات صغيرها وكبيرها، والمراد بالجهالة الإقدام على عمل السوء وإن علم صاحبه أنه سوء؛ فإن كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من أطاعه فهو عالم، وبيانه من وجهين:

**أحدهما**: أن من كان عالماً بالله وعظمته وكبريائه وجلاله فإنه يهابه ويخشاه فلا يقع منه مع استحضار ذلك عصيان كما قال بعضهم: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوه. وقال آخر: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلًا.

**والثاني**: أن من آثر المعصية على الطاعة فإنما حمله على ذلك

(١) حسن لغيره. أحمد (٦١٢٥) والترمذي (٣٥٣٧) وابن حبان (٦٢٨) وحسنه شيخنا في التعليقات الحسان.

جهله وظنه أنها تنفعه عاجلًا باستعجال لذتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلص من سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره، وهذا جهل محض، فإنه يتعجل الإثم والخزي، ويفوته عز التقوى وثوابها ولذة الطاعة، وقد يتمكن من التوبة بعد ذلك، وقد يعاجله الموت بغتة فهو كجائع أكل طعاماً مسموماً لدفع جوعه الحاضر ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب الدرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهل، وقد قال الله تعالى في حق الذين يؤثرون السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢] والمراد أنهم آثروا السحر على التقوى والإيمان؛ لما رجوا فيه من منافع الدنيا المعجلة مع علمهم أنهم يفوتهم بذلك ثواب الآخرة، وهذا جهل منهم، فإنهم لو علموا لآثروا الإيمان والتقوى على ما عداهما فكانوا يحرزون أجر الآخرة ويأمنون عقابها، ويتعجلون عز التقوى في الدنيا، وربما وصلوا إلى ما يأملونه في الدنيا وإلى خير منه؛ فإن أكثر ما يطلب بالسحر قضاء حوائج محرمة أو مكروهة عند الله، والمؤمن المتقي يعوضه الله في الدنيا خيراً مما يطلبه الساحر، ويؤثره مع تعجيله عِزّ التقوى وشرفها، وثواب الآخرة وعلو درجاتها، فتبين بهذا أن إيثار المعصية على الطاعة إنما يحمل عليه الجهل، ولذلك كان كل من عصى الله جاهلًا، وكل من أطاعه عالماً. وكفى بخشية الله علماً وبالاغترار به جهلًا.

وأما التوبة من قريب: فالجمهور على أن المراد بها التوبة قبل الموت، والعمر كله قريب، والدنيا كلها قريب، فمن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد كما قيل:

**يقولون: لا تبعد وهم يدفنونني ... وأين مكان البعد إلا مكانيا**

[كما قيل:]

**فهم جيرة الأحياء أما مزارهم ... فدانٍ وأما الملتقى فبعيد**

فالحي قريب، والميت بعيد من الدنيا على قربه منها، فإن جسمه في

الأرض يبلى، وروحه عند الله تنعم أو تعذب، ولقاؤه لا يرجى في الدنيا، كما قيل:

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلًى في كل يوم وليلة وتنسى كما تبلى وأنت حبيب

وهذان البيتان سمعهما داود الطائي - رَحِمَهُ اللَّهُ - من امرأة في مقبرة تندب بهما ميتاً لها، فوقعا من قلبه موقعاً، فاستيقظ بهما[1] ورجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة وانقطع إلى العبادة إلى أن مات. فمن تاب قبل أن يغرغر فقد تاب من قريب فتقبل توبته. وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] قال: قبل المرض والموت. وهذا إشارة إلى أفضل أوقات التوبة وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذٍ من العمل الصالح؛ ولذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن. وأيضاً فالتوبة في الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة ورجاء البقاء. والتوبة في المرض عند حضور أمارات الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه ولذة دنياه، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذٍ وترك ما كان عليه، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي، تارك لها خوفاً من الله عَزَّوَجَلَّ، ورجاء لثوابه وإيثاراً لطاعته على معصيته؟! دخل قوم على بشر الحافي وهو مريض فقالوا له: على ماذا عزمت؟ قال: عزمت على أني إذا عوفيت تبت، فقال له رجل منهم: فهلا تبت الساعة فقال: يا أخي أما علمت أن الملوك لا تقبل الأمان ممن في رجليه القيد وفي رقبته الغل؛ إنما يقبل الأمان ممن هو راكب الفرس والسيف مجرد بيده، فبكى القوم جميعاً، ومعنى هذا أن التائب في صحته بمنزلة من هو راكب على متن جواده وبيده سيف مشهور فهو يقدر على الكر والفر والقتال وعلى الهرب من الملك وعصيانه، فإذا جاء على هذه

---

(١) في نسخة: «بذلك» كما في الأصل.

الحال إلى بين يدي الملك ذليلًا له طالباً لأمانه فقد صار بذلك من خواص الملك وأحبابه؛ لأنه جاءه طائعاً مختاراً له راغباً في الأمان من الملك. وأما الأسير المقيد المغلول إذا طلب الأمان من الملك فإنما طلبه خوفاً على نفسه من الهلاك، وقد لا يكون محباً للملك ولا مؤثراً لرضاه، فهذا مثل من لا يتوب إلا في مرضه عند موته، والأول بمنزلة من يتوب في صحته وقوته وشبيبته، لكن ملك الملوك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وكل خلقه أسير في قبضته لا يعجزه منهم أحد؛ لا يعجزه هارب ولا يفوته ذاهب، كما قيل: لا أقدر ممن طلبته في يده، ولا أعجز ممن هو في يد طالبه، ومع هذا فكل من طلب الأمان من عذابه من عباده أمنه على أي حال كان إذا علم منه الصدق في طلبه. أنشد بعض العارفين:

الأمان الأمان وزري ثقيل ... وذنوبي إذا عددت تطول

أوبقتني وأوثقتني ذنوبي ... فترى لي إلى الخلاص سبيل

وقوله ﷻ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾ [النّساء: ١٨] فسوى بين من تاب عند الموت ومن مات من غير توبة، والمراد بالتوبة عند الموت؛ التوبة عند انكشاف الغطاء، ومعاينة المحتضر أمور الآخرة ومشاهدة الملائكة؛ فإن الإيمان والتوبة وسائر الأعمال إنما تنفع بالغيب فإذا كشف الغطاء وصار الغيب شهادة لم ينفع الإيمان ولا التوبة في تلك الحال. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي قال: لا يزال العبد في مهلة من التوبة ما لم يأته ملك الموت بقبض روحه، فإذا نزل ملك الموت فلا توبة حينئذٍ. وبإسناده عن الثوري قال: قال ابن عمر: التوبة مبسوطة ما لم ينزل سلطان الموت. وعن الحسن قال: التوبة معروضة لابن آدم ما لم يأخذه الموت بكظمه. وعن بكر المزني قال: لا تزال التوبة للعبد مبسوطة ما لم تأته الرسل فإذا عاينهم انقطعت المعرفة. وعن أبي مجلز قال: لا يزال العبد في توبة ما لم يعاين الملائكة. وروى في كتاب الموت بإسناده عن أبي موسى الأشعري قال: إذا عاين الميت الملك ذهبت المعرفة. وعن مجاهد نحوه، وعن حصين قال:

بلغني أن ملك الموت إذا غمز وريد الإنسان حينئذٍ يشخص بصره ويذهل عن الناس. وخرج ابن ماجه حديث أبي موسى مرفوعاً: سألت النبي ﷺ: متى تنقطع معرفة العبد من الناس؟ قال: «إذا عاين»[1]. وفي إسناده مقال، والموقوف أشبه. وقد قيل: إن ذلك سبب المنع من التوبة حينئذٍ؛ لأنه إذا انقطعت معرفته وذهل عقله لم يتصور منه ندم ولا عزم، فإن الندم والعزم إنما يصح مع حضور العقل، وهذا ملازم لمعاينة الملائكة كما دلت عليه هذه الأخبار. وقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «ما لم يغرغر» يعني: ما لم تبلغ روحه عند خروجها منه إلى حلقه، فشبه ترددها في حلق المحتضر بما يتغرغر به الإنسان من الماء وغيره ويردده في حلقه، وإلى ذلك الإشارة في القرآن بقوله ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥] وبقوله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾﴾ [القِيَامَة: ٢٦]. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن قال: أشد ما يكون الموت على العبد إذا بلغت الروح التراقي قال: فعند ذلك يضطرب ويعلو نفسه، ثم بكى الحسن ـ رحمه الله ـ.

| | |
|---|---|
| عش ما بدا لك سالماً | في ظل شاهقة القصور |
| يسعى عليك بما اشتهيـ | ـت لدى الرواح وفي البكور |
| فإذا النفوس تقعقعت | في ضيق حشرجة الصدور |
| فهناك تعلم موقناً | ما كنت إلا في غرور |

واعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة فإنه لا يقطع أمله في الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها ويرجيه الشيطان التوبة في آخر عمره، فإذا تيقن الموت وأيس من الحياة أفاق من سكرته بشهوات الدنيا، فيندم حينئذٍ على تفريطه ندامة يكاد يقتل نفسه. وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحاً فلا يجاب إلى شيء من ذلك فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذر الله تعالى عباده من

---

(١) ضعيف جداً. ابن ماجه (١٤٥٣) قال شيخنا في ضعيف ابن ماجه: «ضعيف جداً».

ذلك في كتابه ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٥٤ ـ ٥٦].

وقد سُمِعَ بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم على وجهه ويقول: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله. وسمع من آخر: سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي. وقال آخر عند موته: لا تغرنكم الحياة الدنيا كما غرتني. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ [سَبَإ: ٥٤] وفسره طائفة من السلف منهم عمر بن عبدالعزيز: بأنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها. وقال الحسن: اتق الله يا ابن آدم! لا تجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت وحسرة الفوت. وقال ابن السماك: احذر السكرة والحسرة؛ أن يفجأك الموت وأنت على الغرة، فلا يصف واصف قدر ما تلقى، ولا قدر ما ترى. قال الفضيل: يقول الله ﷻ: ابن آدم! إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرني لا أصرعك بين معاصيَّ. وفي بعض الإسرائيليات: ابن آدم! احذر لا يأخذك الله على ذنب فتلقاه لا حجة لك. مات كثير من المصِرِّين على المعاصي على أقبح أحوالهم وهم مباشرون للمعاصي فكان ذلك خزياً لهم في الدنيا مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرة، وكثيراً ما يقع هذا للمصرين على الخمر المدمنين لشربها كما قال القائل:

أتأمن أيها السكران جهلاً ... بأن تفجأك في السكر المنيه
فتضحى عبرة للناس طراً ... وتلقى الله من شر البريه

سكر بعض المتقدمين ليلة فعاتبته زوجته على ترك الصلاة؛ فحلف بطلاقها ثلاثاً لا يصلي ثلاثة أيام، فاشتد عليه فراق زوجته فاستمر على ترك الصلاة مدة الأيام الثلاث؛ فمات فيها على حاله وهو مصر على الخمر تاركاً الصلاة. كان بعض المصرين على الخمر يكنى أبا عمرو نام ليلة وهو سكران فرأى في منامه قائلًا يقول له:

جَدَّ بك الأمر أبا عمرو وأنت معكوف على الخمر
تشرب صهباء صراحية سال بك السيل ولا تدري

فاستيقظ منزعجاً وأخبر من عنده بما رأى ثم غلبه سكره فنام فلما كان وقت الصبح مات فجأة.

قال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم يفق إلا في عسكر الموتى نادماً مع الخاسرين.

وفي حديث خرجه الترمذي مرفوعاً: «ما من أحد يموت إلا ندم» قالوا: وما ندامته؟ قال: «إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون استعتب»[١]. إذا ندم المحسن عند الموت فكيف حال المسيء. غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح. أهل الدنيا يفرطون في حياتهم فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعاً، ومنهم من يقطعها بالمعاصي. قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير، يعني: أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها ويجتهدوا في الطاعة ولا سبيل لهم إلى ذلك، وقد أنشد بعضهم:

لو قيل للقوم: ما مناكم طلبوا حياة يوم ليتوبوا فاعلم
ويحك يا نفس ألا تيقظ ينفع قبل أن تزل قدمي
مضى الزمان في توان وهوى فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

(١) ضعيف جداً. تقدم.

الناس في التوبة على أقسام:

فمنهم: من لا يوفق لتوبة نصوح بل ييسر له عمل السيئات من أول عمره إلى آخره حتى يموت مصراً عليها وهذه حالة الأشقياء. وأقبح من ذلك: من ييسر له في أول عمره عمل الطاعات، ثم ختم له بعمل سوء حتى مات. كما في الحديث الصحيح: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار؛ فيدخلها»[(١)]. وفي الحديث الذي خرجه أهل السنن: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين[(٢)] عاماً، ثم يحضره الموت، فيجور في وصيته؛ فيدخل النار»[(٣)]. ما أصعب الانتقال من البصر إلى العمى، وأصعب منه الضلالة بعد الهدى، والمعصية بعد التقى. كم من وجوه خاشعة وقع على قصص أعمالها ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: ٣، ٤] كم من شارف مركبه ساحل النجاة فلما همَّ أن يرتقي لعب به موج الهوى فغرق. الخلق كلهم تحت هذا الخطر. قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. قال بعضهم: ما العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجا، وأنشد:

| | |
|---|---|
| يا قلب إلام تطالبني | بلقا الأحباب وقد رحلوا |
| أرسلتك في طلبي لهم | لتعود فضعت وما حصلوا |
| سلم واصبر واخضع لهم | كم قبلك مثلك قد قتلوا |
| ما أحسن ما علقت به | آمالك منهم لو فعلوا |

وقسم يفني عمره في الغفلة والبطالة ثم يوفق لعمل صالح فيموت عليه، وهذه حال من عمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) عند أبي داود والترمذي: «ستين» وعند ابن ماجه: «سبعين».

(٣) ضعيف. أبو داود (٢٨٦٧) والترمذي (٢١١٧) وابن ماجه (٢٧٠٤) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٢٠٣٨).

الأعمال بالخواتيم وفي الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيراً عَسَله» قالوا: وما عسله؟ قال: «وفقه لعمل صالح، ثم يقبضه عليه»(١).

وهؤلاء: منهم: من يوقظ قبل موته بمدة يتمكن فيها من التزود بعمل صالح يختم به عمره. ومنهم: من يوقظ عند حضور الموت فيوفق لتوبة نصوح يموت عليها.

قالت عائشة ﵂: إذا أراد الله بعبد خيراً قيض له ملكاً قبل موته بعام فيسدده وييسره حتى يموت وهو خير مما كان، فيقول الناس: مات فلان خير ما كان. وخرجه البزار عنها مرفوعاً ولفظه: «إذا أراد الله بعبد خيراً بعث إليه ملكاً من عامه الذي يموت فيه، فيسدده وييسره فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت فقعد عند رأسه فقال: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فذلك حين يحب لقاء الله ويحب الله لقاءه. وإذا أراد الله بعبد شراً بعث إليه شيطاناً من عامه الذي يموت فيه، فأغواه فإذا كان عند موته أتاه ملك الموت فقعد عند رأسه فقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب فتتفرق في جسده فذلك حين يبغض لقاء الله ويبغض الله لقاءه»(٢). وفي الدعاء المأثور: «اللهم اجعل خير عملي خاتمته، وخير عمري آخره»(٣). وفي المسند عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «من تاب قبل موته عاماً تيب عليه، ومن تاب قبل موته شهراً تيب عليه حتى قال يوماً، حتى قال: ساعة حتى قال: فواقاً» قال: قال له إنسان: أرأيت إن كان مشركاً فأسلم؟ قال: إنما أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ(٤). وفيه عن عبدالرحمٰن البيلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﷻ يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم» قال الآخر: أنت سمعت

---

(١) أحمد (١٧٣٣٠) وابن حبان (٣٤١) وصححه شيخنا في الصحيحة (١١١٤).

(٢) صحيح. رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/٩٠٥) ورجاله ثقات.

(٣) ضعيف. رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٩) وغيره وإسناده ضعيف.

(٤) أحمد (٦٨٨١) إسناده ضعيف وحسنه الشيخ شعيب بحديث عبدالرحمٰن البيلماني.

هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم» فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال نعم، قال: وأنا سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة» قال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعت من رسول الله ﷺ يقول: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه»(١). وفيه أيضاً عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب ﷻ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»(٢).

ذكر ابن أبي الدنيا بإسناد له أن رجلًا من ملوك البصرة كان قد تنسك ثم مال إلى الدنيا والسلطان؛ فبنى داراً وشيدها وأمر بها ففرشت له ونجدت واتخذ مأدبة وصنع طعاماً، ودعا الناس فجعلوا يدخلون فيأكلون ويشربون وينظرون إلى بنائه ويعجبون منه ويدعون له ويتفرقون، فمكث بذلك أياماً حتى فرغ من أمر الناس، ثم جلس في نفر من خاصة إخوانه وأصحابه(٣) فقال: قد ترون سروري بداري هذه وقد حدثت نفسي أن أتخذ لكل واحد من ولدي مثلها، فأقيموا عندي أياماً أستمتع بحديثكم وأشاوركم فيما أريد من هذا البنا لولدي، فأقاموا عنده أياماً يلهون ويلعبون ويشاورهم كيف يبني لولده؟ وكيف يريد أن يصنع؟ فبينما هم ذات ليلة في لهوهم إذ سمعوا قائلًا يقول ـ من أقاصي الدار ـ:

يا أيها الباني الناسي منيته ... لا تأمنن فإن الموت مكتوب
على الخلائق إن سروا وإن فرحوا ... فالموت حتف لذي الآمال منصوب
لا تبنين دياراً لست تسكنها ... وراجع النسك كيما يغفر الحوب

قال: ففزع لذلك وفزع أصحابه فزعاً شديداً وراعهم ما سمعوا من

(١) أحمد (١٥٠٧٣) وإسناده ضعيف.
(٢) أحمد (١٠٨٥١) وحسنه شيخنا في الصحيحة (١٠٤).
(٣) في بعض النسخ دون بعض كما في الأصل.

ذلك، فقال لأصحابه: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم، قال: فهل تجدون ما أجد؟ قالوا: وما تجد؟ قال: أجد والله مسكة على فؤادي ما أراها إلا علة الموت، قالوا: كلا بل البقاء والعافية، قال: فبكى وقال: أنتم أخلائي وإخواني فما لي عندكم؟ قالوا: مرنا بما أحببت، فأمر بالشراب فأهريق وبالملاهي فأخرجت ثم قال: اللهم إني أشهدك ومن حضر من عبادك أني تائب إليك من جميع ذنوبي نادم على ما فرطت أيام مهلتي، وإياك أسأل إن أقلتني أن تتم علي نعمتك بالإنابة إلى طاعتك وإن أنت قبضتني إليك أن تغفر لي ذنوبي تفضلًا منك علي، واشتد به الأمر فلم يزل يقول: الموت والله، الموت والله، حتى خرجت روحه، فكان الفقهاء يرون أنه مات على توبة. وروى عبدالواحد في كتاب قتلى القرآن بإسناده: أن رجلًا من أشراف أهل البصرة كان منحدراً إليها في سفينة ومعه جارية له فشرب يوماً وغنته جاريته بعود لها وكان معهم في السفينة رجل صالح، فقال له: يا فتى تحسن مثل هذا؟ قال: أحسن ما هو أحسن من هذا ـ وكان الفقير حسن الصوت ـ فاستفتح ثم قرأ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. فرمى الرجل ما بيده من الشراب في الماء وقال: أشهد أن هذا أحسن مما سمعت فهل غير هذا؟ قال: نعم فتلا عليه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] الآية. فوقعت من قلبه موقعاً ورمى بالشراب في الماء وكسر العود ثم قال: يا فتى هل ههنا فرج؟ قال: نعم، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٥٣] الآية، فصاح صيحة عظيمة فنظروا إليه فإذا هو قد مات. وروى ابن أبي الدنيا بإسناده: أن صالحاً المري ـ رحمه الله ـ كان يوماً جالساً في مجلسه يقص على الناس فقرأ عنده قارئ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨] فذكر صالح: النار وحال العصاة فيها، وصفة سياقهم إليها وبالغ في ذلك وبكى الناس، فقام فتًى كان حاضراً في مجلسه وكان مسرفاً على نفسه

فقال: أكل هذا في القيامة؟ قال صالح: نعم وما هو أكثر منه، لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المريض المدنف، فصاح الفتى: إنا لله وإنا إليه راجعون، وا غفلتاه عن نفسي أيام الحياة، وا أسفاه على تفريطي في طاعتك يا سيداه، ووا أسفاه على تضييع عمري في دار الدنيا، ثم استقبل القبلة وعاهد الله على توبة نصوح ودعا الله أن يتقبل منه، وبكى حتى غشي عليه، فحمل من المجلس صريعاً، فمكث صالح وأصحابه يعودونه أياماً ثم مات، فحضره خلق كثير، فكان صالح يذكره كثيراً في مجلسه [ويقول]: بأبي قتيل القرآن، وبأبي قتيل المواعظ والأحزان. فرآه رجل في منامه فقال: ما صنعت؟ قال: عمتني بركة مجلس صالح، فدخلت في سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء.

من آلمته سياط المواعظ فصاح فلا جناح، ومن زاد ألمه فمات فدمه مباح.

**قضى الله في القتلى قصاص دمائهم ... ولكن دماء العاشقين جبار**

وبقي ها هنا قسم آخر وهو أشرف الأقسام وأرفعها: وهو من يفني عمره في الطاعة ثم يُنَبَّه على قرب الأجل ليجد في التزود ويتهيأ للرحيل بعمل يصلح للقاء، ويكون خاتمة العمل. قال ابن عباس: لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١] نعيت لرسول الله ﷺ نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة[١]. قالت أم سلمة: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فذكرت ذلك له فقال: «إني أمرت بذلك» وتلا هذه السورة[٢].

وكان من عادته ﷺ أن يعتكف في كل عام في رمضان عشراً، ويعرض القرآن على جبريل مرة، فاعتكف في ذلك العام عشرين يوماً[٣]،

(١) صحيح. تقدم.
(٢) ضعيف. تقدم.
(٣) صحيح. تقدم.

وعرض القرآن مرتين، وكان يقول: «ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي»[(١)]، ثم حج حجة الوداع، وقال للناس: «خذوا عني مناسككم؛ فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»[(٢)]. وطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع[(٣)]، ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله إليها وقال: «أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب» ثم أمر بالتمسك بكتاب الله[(٤)]. ثم توفي بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ[(٥)].

إذا كان سيد المحسنين يؤمر أن يختم عمره بالزيادة في الإحسان، فكيف حال المسيء المفرط في عمره بالأماني والنسيان؟!

خذ في جد فقد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر
أقبل فعسى يقبل منك العذر ... كم تبني كم تنقض كم ذا الغدر

مرض بعض العابدين فوصف له دواء يشربه، فأتي في منامه فقيل له: أتشرب الدواء والحور العين لك تُهَيَّأ؟ فانتبه فزعاً فصلى في ثلاثة أيام حتى انحنى صلبه ثم مات في اليوم الثالث. وكان رجل قد اعتزل وتعبد فرأى في منامه قائلًا يقول له: يا فلان ربك يدعوك فتجهز واخرج إلى الحج ولست عائداً، فخرج إلى الحج فمات في الطريق. ورأى بعض الصالحين في منامه من ينشده:

تأهب للذي لا بد منه ... من الموت الموكل بالعباد
[أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد]

وخرج ابن ماجه من حديث جابر أن النبي ﷺ خطب فقال في

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) صحيح. تقدم.

(٣) صحيح. تقدم.

(٤) صحيح. تقدم.

(٥) وقد وفقني الله لجمع قصة وفاته ﷺ في رسالة أسميتها: «صحيح قصة وفاة النبي ﷺ» وقد طبعت ولله الحمد في المكتبة الإسلامية عمان.

خطبته: «أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا»[١]. فأمر بالمبادرة بالتوبة قبل الموت. وكل ساعة تمر على ابن آدم فإنه يمكن أن تكون ساعة موته بل كل نفس.

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس ولو تمنعت بالحجاب والحرس

قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة. وقال بعض الحكماء: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل.

إلى الله تب قبل انقضائك للعمر أخي ولا تأمن مفاجأة الأمر
ولا تتهمني في دعائي فإنما دعوتك إشفاقاً عليك من الوزر
فقد حذرتك الحادثات نزولها ونادتك إلا أنّ سمعك ذو وقر
تنوح وتبكي للأحبة إن مضوا ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر

قال بعض السلف: أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين. يشير إلى أن المؤمن لا ينبغي أن يصبح ويمسي إلا على توبة فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت صباحاً أو مساء، فمن أصبح أو أمسى على غير توبة فهو على خطر؛ لأنه يخشى أن يلقى الله غير تائب فيحشر في زمرة الظالمين، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

تب من خطاياك وابك خشية ما أثبت منها عليك في الكتب
أية حال تكون حال فتًى صار إلى ربه ولم يتب

تأخير التوبة في حال الشباب قبيح، وفي حال المشيب أقبح وأقبح. اللهم ألهمنا رشدنا.

نعى لك ظل الشباب المشيب ونادتك باسم سواك الخطوب
فكن مستعداً لداعي الفنا فكل الذي هو آت قريب

---

(١) ضعيف. ابن ماجه (١٠٨١) وضعفه شيخنا في ضعيف الترغيب (٤٤٤).

ألسنا نرى شهوات النفوس تفنى وتبقى علينا الذنوب
يخاف على نفسه من يتوب فكيف بحالة من لا يتوب

فإما إذا نزل المرض بالعبد فتأخيره للتوبة حينئذٍ أقبح من كل قبيح؛ فإن المرض نذير الموت. وينبغي لمن عاد مريضاً أن يذكره التوبة والاستغفار فلا أحسن من ختام العمل بالتوبة والاستغفار، فإن كان العمل سيئاً كان كفارة له، وإن كان حسناً كان كالطابع عليه. وفي حديث سيد الاستغفار المخرج في الصحيح: أن من قاله إذا أصبح وإذا أمسى ثم مات من يومه أو ليلته كان من أهل الجنة(١). وليكثر في مرضه من ذكر الله خصوصاً كلمة التوحيد؛ فإنه من كانت آخر كلامه دخل الجنة(٢). وفي حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه: «من قال في مرضه: لا إله إلا الله والله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإن مات في مرضه لم تطعمه النار»(٣) خرجه النسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه. وفي رواية للنسائي: «من قالهن في يوم أو في ليلة أو في شهر، ثم مات في ذلك اليوم أو في تلك الليلة أو في ذلك الشهر غفر له ذنبه»(٤) ويروى من حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: «من ختم له بقوله: لا إله إلا الله دخل الجنة، ومن ختم له بصيام يوم أراد به وجه الله أدخله الله الجنة، ومن ختم له بإطعام مسكين أراد به وجه الله أدخله الله الجنة»(٥). كان السلف يرون: أن من مات عقب عمل صالح كصيام رمضان أو عقيب حج أو عمرة يرجى له أن يدخل

---

(١) صحيح. تقدم.
(٢) ورد ذلك في حديث صحيح رواه أبو داود (٣١١٦) وصححه شيخنا في المشكاة (١٦٢١).
(٣) صحيح لغيره. النسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠) والترمذي (٣٤٣٠) وابن ماجه (٣٧٩٤) وصححه شيخنا في الصحيحة (١٣٩٠).
(٤) صحيح لغيره. النسائي في عمل اليوم والليلة (٢٩) وصححه شيخنا في صحيح الترغيب (٣٤٨١).
(٥) صحيح. رواه أحمد (٢٢٨١٣) وغيره وصححه شيخنا في الصحيحة (١٦٤٥).

الجنة، وكانوا مع اجتهادهم في الصحة في الأعمال الصالحة يجددون التوبة والاستغفار عند الموت، ويختمون أعمالهم بالاستغفار وكلمة التوحيد. لما احتضر العلاء بن زياد بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: كنت والله أحب أن أستقبل الموت بتوبة قالوا: فافعل رحمك الله، فدعا بطهور فتطهر، ثم دعا بثوب جديد فلبسه، ثم استقبل القبلة فأومأ برأسه مرتين أو نحو ذلك، ثم اضطجع فمات. ولما احتضر عامر بن عبدالله بكى وقال: لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون: اللهم إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله، ثم لم يزل يرددها حتى مات ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ. وقال عمرو بن العاص عند موته: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فركبنا ولا يسعنا إلا عفوك لا إله إلا الله، ثم رددها حتى مات. وقال عمر بن عبدالعزيز عند موته: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر، فقالوا: إنك تنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين قال: إني أرى حَضَرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ، وسمعوا تالياً يتلو: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القَصَص: ٨٣].

يا غافل القلب عن ذكر المنيات — عما قليل ستثوي بين أموات
فاذكر محلك من قبل الحلول به — وتب إلى الله من لهو ولذات
إن الحمام له وقت إلى أجل — فاذكر مصائب أيام وساعات
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها — قد حان للموت يا ذا اللب أن يأتي

التوبة التوبة، قبل أن يصل إليكم من الموت النوبة، فيحصل المفرط على الندم والخيبة. والإنابة الإنابة، قبل غلق باب الإجابة. الإفاقة الإفاقة، فقد قرب وقت الفاقة. ما أحسن قلق التواب! ما أحلى قدوم الغياب! ما أجمل وقوفهم بالباب!.

أسأت ولم أحسن وجئتك تائباً — وأنّى لعبد من مواليه مهرب
يؤمل غفراناً فإن خاب ظنه — فما أحد منه على الأرض أخيب

من نزل به الشيب فهو بمنزلة الحامل التي تمت شهور حملها فما

تنتظر إلا الولادة، كذلك صاحب الشيب لا ينتظر إلا الموت، فقبيح منه الإصرار على الذنب حينئذٍ.

أي شـيء تـريـد مـنـي الـذنـوب ... شغفت بي فليس عني تغيب
مـا يضـر الذنوب لو أعـتـقتـنـي ... رحمة بي فقد علاني المشيب

ولكن توبة الشاب أحسن وأفضل، وفي حديث مرفوع خرجه ابن أبي الدنيا: «إن الله يحب الشاب التائب»[1]. قال عمير بن هانئ: تقول التوبة للشاب: أهلًا ومرحباً، وتقول للشيخ: نقبلك على ما كان منك. الشاب ترك المعصية مع قوة الداعي إليها، والشيخ قد ضعفت شهوته وقل داعيه فلا يستويان. وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: أيها الشاب التارك شهوته المبتذل شبابه لأجلي أنت عندي كبعض ملائكتي. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحُجرَات: ٣] هم الذين يشتهون المعاصي ولا يعملون بها. كم بين حال الذي قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يُوسُف: ٢٣] وبين شيخ عنين يدعى لمثل ذلك.

كان عمر رضي الله عنه يعس المدينة ليلًا فسمع امرأة غاب عنها زوجها تنشد:

تطاول هذا الليل تسري كواكبه ... وأرقـنـي أن لا خـلـيـل ألاعـبـه
فـوالـلـه لـولا الله لا رب غـيـره ... لحرك من هذا السرير جوانبه
[ولكن تقوى الله عن ذا تصدني ... وحفظاً لبعلي أن تنال مراكبه]
ولكنني أخشى رقيباً موكلاً ... بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

فقال لها عمر: يرحمك الله، يرحمك الله، ثم بعث إلى زوجها فأمره أن يقدم عليها، وأمر أن لا يغيب أحد عن امرأته أكثر من ستة أشهر.

الشيخ قد تركته الذنوب فلا حمد له على تركها كما قيل:

تـاركـك الـذنـب فـتـاركـتـه ... بـالـفـعـل والـشـهـوة فـي الـقـلـب

---

(١) ضعيف. ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة (١٨٤) وضعفه شيخنا في الضعيفة (٩٧).

فالحمد للذنب على تركه لا لك في تركك للذنب

أما تستحي منا لما أعرضت لذات الدنيا عنك فلم يبق لك فيها رغبة، وصرت من سقط المتاع لا حاجة لأحد فيك، جئت إلى بابنا فقلت: أنا تائب ومع هذا فكل من أوى إلينا آويناه، وكل من استجار بنا أجرناه، ومن تاب إلينا أحببناه: أبشر فربما يكون الشيب شافعاً لصاحبه في العفو. مات مفرط فرُئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: قال لي: لولا أنك شيخ لعذبتك. وقف شيخ بعرفة والناس يضجون بالدعاء وهو ساكت، ثم قبض على لحيته وقال: يا رب شيخ يرجو رحمتك.

لما أتونا والشيب شافعهم وقد توالى عليهم الخجل
قلنا لسود الصحائف: انقلبي بيضاً فإن الشيوخ قد قبلوا

كان بعض الصالحين يقول: إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم أعتقوهم وقد شبت في رقك فأعتقني.

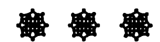
إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً قد شبت في الرق فاعتقني من النار

أيها العاصي ما تقطع من صلاحك الطمع ما نصبنا شرك المواعظ إلا لتقع، إذا خرجت من المجلس وأنت على التوبة عازماً مقبلًا قالت لك ملائكة الرحمة: مرحباً وأهلًا، فإن قال لك رفاق المعصية: هلم إلينا، فقل لهم: كلّا، ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خلّا. يا من سود كتابه بالسيئات قد آن لك بالتوبة أن تمحو. يا سكران القلب بالشهوات أما آن لفؤادك أن يصحو.

يا نداماي صحا القلب صحا فاطردوا عني الصبا والمرحا
زجر الوعظ فؤادي فارعوى وأفاق القلب مني وصحا
هزم العزم جنوداً للهوى فاسدي لا تعجبوا إن صلحا
بادروا التوبة من قبل الردى فمناديه ينادينا الوحا

آخرها أحسن الله خاتمتها، وكان الفراغ منها على يد أفقر الله وأحوجهم إلى رحمته النادم على ما كان من كسبه إلياس بن خضر بن محمد الداعي لمالكه وكاتبه بطول البقاء، وعلو الدرجات والارتقاء، وهو الشيخ الإمام العالم العامل وحيد دهره وفريد عصره ونسيج وحده الشيخ علاء الدين علي بن سليمان المرداوي أمتع الله بطول بقائه وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته غفر الله له ولوالديه ولكاتب هذه الأسطر ولجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين.

وذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر الله المحرم من شهور سنة خمسين وثمان مائة بالمدرسة الموسومة بالشيخ أبي عمر جعلها الله تعالى دائمة ما دامت السموات والأرض، ولا أخلاها مما فيها إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل(١).



(١) قلت: وكتب الناسخ في هامش الأصل: «الحمد لله على جميع نعمه. بلغ مقابلة حسنة صحيحة على نسختين وذلك برباط العباس عم نبينا محمد ﷺ ورضي عنه وذلك بمكة المشرفة على يد كاتبها إلا الصفحة الأخيرة فإن كاتبها المسمى فيها قال ذلك وكتب علي بن سليمان المرداوي الحنبلي عفى الله عنه بمنه وكرمه وذلك في أيام آخرها نهار السبت خامس عشر جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمان مائة».

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| * المقدمة | ٥ |
| * التعريف بالكتاب وموضوعه وهدفه: | ٧ |
| * ترجمة المؤلف | ٩ |
| * وصف المخطوطة | ١٣ |
| * عملي في الكتاب: | ١٥ |
| * مقدمة المؤلف | ١٧ |
| * مجلس في فضل التذكير بالله تعالى ومجالس الوعظ | ٢٥ |
| * وظائف شهر الله المحرم | ٥١ |
| المجلس الأول في فضل شهر الله المحرم وعشره الأول | ٥١ |
| الفصل الأول: في أفضل التطوع بالصيام | ٥١ |
| الفصل الثاني في فضل قيام الليل | ٥٩ |
| المجلس الثاني في فضل يوم عاشوراء | ٧١ |
| المجلس الثالث في قدوم الحاج | ٨٩ |
| * وظيفة شهر صفر | ١٠١ |
| * وظائف شهر ربيع الأول | ١١٧ |
| المجلس الأول في ذكر مولد النبي ﷺ | ١١٧ |
| المجلس الثاني في ذكر المولد أيضاً | ١٣٤ |
| المجلس الثالث في ذكر وفاة رسول الله ﷺ | ١٤٢ |
| * وظيفة شهر رجب | ١٦٥ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

* **وظائف شهر شعبان** ........................ ١٧٩
المجلس الأول في صيامه ........................ ١٧٩
المجلس الثاني في ذكر نصف شعبان ........................ ١٩٧
المجلس الثالث في صيام آخر شعبان ........................ ٢٠٥
* **وظائف شهر رمضان المعظم** ........................ ٢١٧
المجلس الأول في فضل الصيام ........................ ٢١٧
المجلس الثاني في فضل الجود في رمضان وتلاوة القرآن ........................ ٢٣٤
المجلس الثالث في ذكر العشر الأوسط من شهر رمضان وذكر نصف الشهر الأخير ........................ ٢٥٠
المجلس الرابع في ذكر العشر الأواخر من رمضان ........................ ٢٦٢
المجلس الخامس في ذكر السبع الأواخر من رمضان ........................ ٢٧٤
المجلس السادس في وداع شهر رمضان ........................ ٢٩١
* **وظائف شهر شوال** ........................ ٣٠٧
المجلس الأول في صيام شوال كله ........................ ٣٠٧
المجلس الثاني في ذكر الحج وفضله والحث عليه ........................ ٣١٦
المجلس الثالث فيما يقوم مقام الحج والعمرة عند العجز عنهما ........................ ٣٣٥
* **وظيفة شهر ذي القعدة** ........................ ٣٥٣
* **وظائف شهر ذي الحجة** ........................ ٣٦٥
المجلس الأول في فضل عشر ذي الحجة ........................ ٣٦٥
الفصل الأول: في فضل العمل فيه ........................ ٣٦٥
الفصل الثاني: في فضل عشر ذي الحجة على غيره من أعشار الشهور .. ٣٧٣
المجلس الثاني في يوم عرفة مع عيد النحر ........................ ٣٨٣
المجلس الثالث في أيام التشريق ........................ ٤٠٢
المجلس الرابع في ذكر ختام العام ........................ ٤١١
* **فصل ويلتحق بوظائف شهور السنة الهلالية وظائف فصول السنة الشمسية** ٤٢٥
المجلس الأول في ذكر فصل الربيع ........................ ٤٢٥
المجلس الثاني في فصل الصيف ........................ ٤٤١

الموضوع الصفحة

المجلس الثالث في ذكر فصل الشتاء .................... ٤٥٢
*** مجلس في ذكر التوبة والحث عليها قبل الموت وختم العمر بها فإن التوبة وظيفة العمر وهي خاتمة مجالس الكتاب** .................... ٤٦٣
*** فهرس الموضوعات** .................... ٤٨٣

❋ ❋ ❋